

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم الدراسات العليا

فرع الكتاب والسنة



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٣٧٠٥

الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد

مها عبدالله الأبرش



إشراف فضيلة الدكتور

محمد الخضر الناجي ضيف الله

٧٠٥

الجزء الأول

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله عز وجل في كتابه الكريم ♦♦♦♦

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ (سورة الإسراء - آية ٢٣-٢٤)

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير﴾ (سورة لقمان - آية ١٤)

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ (سورة القصص آية ٧)

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فرغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ (سورة القصص - آية ١٠)

﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم هم لا يعلمون﴾ (سورة القصص - آية ١٣)

﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾ (سورة طه - آية ٤٠) ♦

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي ؟ قال : «أمك»

قال : ثم من ؟ قال : «أمك» ♦

قال : ثم من ؟ قال : «أمك» ♦

قال : ثم من ؟ قال : «ثم أبوك» ♦

إنها الأمومة أقدس وأسمى وأعظم علاقة في الوجود بين إنسان وإنسان ولا أدل على هذه العظمة والعطاء والخلود من الدنيا عبر الآخرة من أن يكون تفجر ماء زمزم استجابة لهذه العاطفة رحمة بأمننا هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام فكانت زمزم ماء أم القرى مكة المكرمة وبداية الاجتماع الإنساني وتوطئة لظهور رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة حتى قيام الساعة رحمة بالبشرية ليهديها صلى الله عليه وسلم إلى سبل الخير والصلاح والإنسانية ♦

الإهداء

إليك يا أمي .. إليك يا بحر العطاء والحنان .. إليك يا مرفأ الأمان .. إليك ياجنة الدنيا ونعيم الآخرة ..

إليك يا أمي الحبيبة .. يا من ربيتني ورعيتني وكنت لي الأب والأم ..

أهديك رشفة من نهر عطائك .. وذرة من جبل كفاحك .. وبذرة من بستان غرسك ..

أنا خجلى يا أمي .. فهل لي أن أقول هذا وأنا منك ولك

إليك زوجي .. قرة عيني .. سندي بعد الله عزوجل .. وجودي وعمري .. دنيائي وآخرتي ..

إليكم أحبتي .. فلذات كبدي... قرة عيني .. فرحة قلبي .. حياتي ..

﴿ مؤمنة ، حسان ، عبد الله ، عبدالرحيم ﴾.

منكم جميعاً : أمي ، زوجي ، أولادي ، أستجدي السماح والعفو عن تقصيري بحقكم .. مع رجائي منكم بالجوود علي بالدعوات الصالحات ..

محتويات البحث

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	
المقدمة	
الباب الاول	
<u>أهمية البحث في مكانة الأمومة في الإسلام</u>	
<u>الفصل الأول : الأهمية الدينية</u>	
١- مكانة الأمومة في الكتاب والسنة وآثار السلف	٢
٢- أثر الأم في غرس العقيدة الصحيحة في نفوس الأولاد	٦
٣- أثر الأم في تنمية روح التدين والتزام الشعائر	٩
<u>الفصل الثاني : الأهمية الاجتماعية</u>	
١- أثر الأم في التكوين الاجتماعي عند الأطفال	١٥
٢- المحافظة على نمو الأسرة وتماسكها	٢٠
٣- تصدع الأسرة في الغرب والأزمات النفسية والعاطفية عند الأطفال	٢٤
<u>الفصل الثالث : الأهمية التاريخية</u>	
١- الأمومة عبر التاريخ	٢٧
٢- الأمومة وأثرها في أحداث التاريخ	٣٢
<u>الفصل الرابع : الأهمية النفسية والأخلاقية</u>	
١- دور الأم في الصحة النفسية في مراحل العمر المختلفة	٤٠
٢- دور الأم في التربية الأخلاقية	٤٦
- معنى الأمومة ومقوماتها	٥٧

الباب الثاني**الشروط اللازمة لنجاح الأمومة**

٧٤ **الفصل الخامس :** اختيار الزوجة الصالحة .

٨٣ **الفصل السادس :** إعداد الزوجين لحمل مسؤوليات الأبوة والأمومة

٩٥ **الفصل السابع :** المحافظة على تماسك الأسرة ونموها

١١٠ **الفصل الثامن :** الزواج المبكر والمحافظة على الصحة العاطفية للوالدين

الباب الثالث**الأمومة والفطرة**

١٢٧ **الفصل التاسع :** الذكر والأنثى

١٥٤ **الفصل العاشر :** الفوارق الجسدية بين الذكر والأنثى وارتباطها بالأمومة .

١٥٨ **الفصل الحادي عشر :** التكوين النفسي والعقلي عند المرأة وعلاقته بالأمومة .

الفصل الثاني عشر : وظائف فسيولوجية خاصة بالمرأة .

١٦٦ - الحيض

١٧١ - الحمل

١٧٥ - الولادة

١٨٥ - النفاس

١٨٨ - الرضاعة

١٩٩ **الفصل الثالث عشر :** نتيجة دعوى التماثل بين الذكر والأنثى

الباب الرابع**حرمة الأمومة في الإسلام وتكريمها**

٢١٠ **الفصل الرابع عشر :** تكريم المرأة ورفع شأن الأمهات

٢٣٤ - الأمومة والإرث

٢٤٥ **الفصل الخامس عشر :** تحريم الأمهات وقديسية رباط الأمومة

٢٥٧ **الفصل السادس عشر :** كفالة الأم ورعايتها خلال الحمل والتنشئة

٢٦٢ **الفصل السابع عشر :** الاهتمام بتنمية فقه الأمومة وأحكامها في

٢٦٢ - الحيض

٢٧٠	- الحمل وأطواره
٢٧٥	* أطوار الجنين : النطفة لأمشاج - العلقة - المضغة
٢٨١	* متى تنفخ الروح !؟
	* هل يتوافق وجود جذع الدماغ مع أحاديث خلق
٣٠٤	أطوار الجنين
٣١١	* ما هو الحساب في حديث رسول الله ﷺ في الأربعين .
٣١٩	* نفخ الروح في الجنين
٣٢١	* روح الإنسان - روح الحيوان : الحياة
٣٢٢	* روح الحياة وروح المعرفة
٣٢٣	* مدة الحمل
٣٢٩	* متى يبرأ رحم ذات الحمل
٣٣٢	- النفاس
٣٣٥	- الرضاع
	الفصل الثامن عشر : رعاية الجنين خلال الحمل وحمايته من أضرار التدخين
٣٥٨	والمخدرات والمهلكات المختلفة
٣٧٦	الفصل التاسع عشر : الأم بين المسؤولية والحقوق
	الباب الخامس
	<u>العوامل المؤثرة في وظيفة الأمومة</u>
٣٩٣	الفصل العشرون : صورة المرأة في القيم والثقافة السائدة :
٤٠٠	١- صورة المرأة في القيم الإسلامية (قوية + فاضلة)
٤١٦	٢- صورة المرأة في القيم القبلية (ضعيفة + فاضلة)
٤١٩	٣- صورة المرأة في القيم الغربية المعاصرة (قوية + غير فاضلة).....
٤٢٨	٤- صورة المرأة في المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة :.....
	- إما- (قوية + غير فاضلة) تقليداً للغرب .
	- أو- (فاضلة + ضعيفة) تقليداً لقيم العصبية القبلية .

	الفصل الحادي والعشرون : مدى التجانس بين الوالدين .
٤٥٣	١- مدى التجانس العقائدي.....
٤٥٦	٢- مدى التجانس النفسي والعقلي
٤٧٣	٣- مدى التجانس الثقافي والاجتماعي
	الفصل الثاني والعشرون : أثر البيئة العامة والوراثة .
٤٨٥	١- أثر البيئة العامة
٥٠٥	٢- أثر الوراثة
٥١٤	٣- البيئة أم الوراثة
	الفصل السادس
	<u>التربية والأمومة</u>
٥١٩	الفصل الثالث والعشرون : الأمومة وأهداف التربية في الكتاب والسنة .
٥٢٩	١- المؤسسات التربوية وإعداد المرأة كأم
٥٣٣	٢- المؤسسات التوجيهية وإعداد المرأة كموجهة أبناء
٥٣٤	٣- الأم بين عاطفة الأمومة وتكاليف الإيمان
٥٤٧	٤- تأثير نظم التعليم ومؤسساته بالأهداف الإسلامية
٥٥٧	الفصل الرابع والعشرون : الأمومة وغايات التربية في المجتمعات الحديثة
٥٦٥	١- إعداد المدارس والجامعات المرأة لتكون منتجة - عاملة
٥٦٩	٢- توجيه وسائل الإعلام المرأة لتكون مستهلكة
٥٧٨	٣- تأثير نظم التعليم ومؤسساته بثقافة الإنتاج والاستهلاك
	الباب السابع
	<u>أثر العمل وثقافة الإنتاج والاستهلاك على الأمومة</u>
٥٩٥	الفصل الخامس والعشرون : تراجع مكانة الأمومة في الحضارة الحديثة .
٦١٧	الفصل السادس والعشرون : الرضاع الصناعي بدل الطبيعي

٦٣٦	الفصل السابع والعشرون : مضاعفات خروج المرأة للعمل إلى جانب الرجل..
٦٥٢	١- الاختلاط وتأخير الزواج
٦٥٣	٢- التصدع الأسري وأثره على الأطفال
٦٦١	٣- الإجهاض
٦٧٢	٤- تحديد النسل
٦٩٦	٥- انحراف الأطفال
٦٩٩	٦- انتهاك حرمة الطفولة
	الفصل الثامن والعشرون : بدائل الأمومة في المجتمعات المعاصرة .
٧٠٣	١- المحاضن وأثرها على النمو النفسي والاجتماعي للطفل
٧٠٦	٢- المربيات وأثرهن السلبي
٧١٢	٣- التبني ومشكلاته
٧١٣	٤- أمهات الأولاد غير المتزوجات
٧١٨	٥- البرامج التلفزيونية والإذاعية وفيديو الأطفال
٧٢٢	٦- التنصير والتهويد
	الباب الثامن
	<u>ملاحظات وتوصيات</u>
٧٢٥	الفصل التاسع والعشرون : ملاحظات
٧٣٠	الفصل الثلاثون : توصيات
	الفهارس
٧٣٥	١- فهرس الآيات القرآنية الكريمة
٧٥٠	٢- فهرس الأحاديث
٧٦٤	٣- فهر الأشعار
٧٦٥	٤- فهرس الأعلام المترجم لهم
٧٧١	٥- فهرس أعلام النساء المترجم لهن
٧٧٤	رموز البحث
٧٧٥	المصادر والمراجع

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، الحمد لله عدد خلقه، الحمد لله رضا نفسه ، الحمد لله زنة عرشه ، الحمد لله مداد كلماته ، يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك يارب لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد ٠٠ اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً ٠٠

الحمد لله - تعالى - المنان الحنان الذي جعل الأمموة من أكبر النعم على بني الإنسان ، الحمد لله - سبحانه - الذي جعل حق الأمموة أعظم حقوق العباد على مر الأزمان ٠٠ وبعد

فإن «الأمومة» هي المحضن الأول في سلسلة المحاضن التربوية والاجتماعية التي يتم من خلالها تنشئة الإنسان خلال أطوار حياته المختلفة وإعداده للدور الذي أراده الله سبحانه وتعالى له حين أنزله منزلة مكرمة بين المخلوقات وجعله خليفة في الأرض . ولن يتأهل لتسليم هذه المنزلة والقيام بدور الخلافة المشار إليه إلا إذا أحسنت محاضن تنشئته ومؤسسات تربيته أساليب هذه التنشئة والتربية ، وزودتها بالمربين المؤهلين للقيام بالدور التربوي المنشود .

«والأم» هي المري الأول الذي أعدته العناية الإلهية وزودته بالقدرات والاستعدادات ، التي تؤهلها للقيام بالدور الأول ، في فترة الطور الأول من حياة الإنسان ، وهي فترة اكتشاف علم النفس الإنساني ومازال يكتشف أهميتها وآثارها الخطيرة في حياة الإنسان ومستقبله حتى نهاية فترة ابتلائه خلال عمره المقدر له . فالإنسان كما يقرر علم النفس ، تتكون كثير من اتجاهاته ، وتتشكل إراداته إيجاباً أو سلباً في السنوات الأولى من عمره . وبمقدار ما يتلقى خلال هذه السنوات المبكرة من معاني الرحمة والعطاء والإنسانية والمودة ويخترنها في ضميره وخبراته بمقدار مايكون عطاؤه من هذه الفضائل عندما يبلغ طور النضج ويقوم بأدوار التكليف . وأي نقص في هذه الفضائل ، يعاني منه الإنسان طفلاً فإنه سوف يتكرر هذا النقص في سلوكه وأخلاقه وشبكة علاقاته الاجتماعية كبيراً أينما كان موقعه في المجتمع والعالم . وتزودنا الدراسات الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية بالأمثلة التي تعز على الحصر لسير قادة ورجال نفوذ أثروا في مجتمعاتهم وفي مجتمعات العالم الأخرى تأثيراً متاثراً بالخبرات التي عرفوها خلال طفولتهم وتنشئتهم الأولى ؛ فالذين

(ك)

عرفوا الحنان والرحمة والعطاء الإنساني من أمهات راحمات عطوفات وآباء رحماء عطوفين هم الذين أعطوا هذه الفضائل وأسهموا في نشرها ونصرتها والجهاد في سبيلها . والذين حرموا الرحمة والحنان الأسري ، وذاقوا آلام التشريد في طفولتهم هم الذين شردوا الملايين وفتكوا بالعزل من المدنيين والضعفاء والمساكين ، وهدموا العمران، ودمروا مظاهر الحضارة .

لذلك كله كانت عناية الإسلام الكبرى ، واهتمامه الفائق بالأمومة والتوصية بإعداد الأم ورعايتها وتمكينها من أداء واجبها في العطاء والرحمة والمودة لجميع أعضاء الأسرة التي ترعاها وتشرف على شؤونها وإدارة أمورها .

ولكن عمل - الأم - لا يحدث في فراغ ، ولاتكفي في تنظيمه المواعظ والضغوط التقليدية ، وإنما لابد من تهيئة البيئات الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والصحية ، التي تهيئ الأم للقيام بدورها كاملاً ؛ والسبب أن سلوك الإنسان هو محصلة التفاعل بينه وبين البيئة المحيطة به ، فإذا كانت هذه البيئة مغذية نظيفة نمت استعدادات الفطرة الإيجابية في الأم وتمكنت من القيام بوظيفتها ، أما إذا كانت البيئة المحيطة بها بيئة ملوثة بسموم الثقافة الضالة والمظالم الاجتماعية، وانتقاص إنسانية الإنسان ، وفوضى الاصطدام بالنواميس الإلهية في الاقتصاد والعلم والتشريع والعلاقات، فلاشك أن ذلك كله سوف ينعكس على الأم ويعيقها عن القيام بدورها المنشود .

ولعل أخطر البيئات المؤثرة في سلوك الأم - ووظيفة الأمومة هي البيئات التربوية والدعوية التي تزود الأم بالمفاهيم والقيم التي ترشد لها لأداء دورها في الأسرة التي هي بعض دعائمها . ومثلها البيئات الاجتماعية التي تساعد على حياة الأم حياة إنسانية فاضلة تشبع حاجاتها في السلامة والأمن والاحترام والانتماء وتوفر لها العمل لتحقيق ذاتها من خلال إتقان إعداد أطفالها وأبنائها .

ولكن التهاون في هاتين البيئتين : البيئة التربوية والبيئة الاجتماعية سوف يكون له أثر سرطاني مهلك على مستقبل الناشئة والمجتمع سواء . فالبيئة التربوية التي تحجر على المرأة وتبقيها حبيسة الجهل ، أو تلك التي تنحرف بها فتحولها إلى خادمة عاملة في مؤسسات الإنتاج والاستهلاك ، إنما تجرد المرأة من مؤهلاتها وتحيلها إلى مخلوق عاجز عن أداء دوره التربوي المشار إليه في صفحات هذه البحث .

كما أن البيئة الاجتماعية التي تتد المرأة اجتماعيا وتمنع عنها مصادر النمو والتطور وتبقيها حبيسة الخدمة البيئية وخدمة الطغاة من الرجال وإمتاعهم إنما تقتل في المرأة قدراتها التي أعدتها الفطرة الإلهية لمساعدتها في أداء دورها .

لذلك اهتم هذا البحث بجلاء مقومات «الأمومة» كما وجهت إليه آيات الله -سبحانه وتعالى- في الكتاب ، وقدمت شواهدا الإيجابية «آيات الله -سبحانه- في الأنفس» . ورجائي أن أكون قد أسهمت في بلورة الأهداف التي أريدت من هذا البحث ، ودعائي إلى الله أن يغفر لي ما نقص .

سبب اختيار البحث :

هذا وقد انطلق البحث من واقع الأمومة ، لما واجهته من تخطي في تربيتي لأولادي ، فقد كنت أشعر أنني موزعة في ذلك بين المورثات التي اكتسبتها من خبرات الأمهات ، وبين يوم لست راضية عنه ، وبالجمله كنت أجدي بلا دليل حاد ، في مسيرتي مع أطفالي ، ونظرت حولي فإذا بأخواتي في الدين يتخبطن مثلي ، وبعدت قليلاً فهالني ما أرى من مصائب وكوارث تلم بالأمومة الإسلامية والإنسانية تكاد أن تقوضها من المهدي وذلك بسبب :

- ١- نظرة الاستخفاف بالأمومة ، والمفهوم الخاطي السائد نحوها .
- ٢- نظرة المسلمين عامة إلى النساء والاستهانة بهن وبدورهن في الحياة .
- ٣- انصراف الأم المعاصرة عن مهمتها في الحياة وخروجها من البيت وتركها لواجبها الرئيس .
- ٤- الغزو الصهيوني الموجه لصرف المرأة المسلمة عن دورها الفطري .
- ٥- ضالة ثقافة الأم دينياً وتربوياً مما يفقدها الأهلية اللازمة للأمومة .
- ٦- انصراف الأمهات عن ممارسة وظيفتهن الأولى وهي الإنجاب والتربية مع انتشار ظاهرة منع الحمل وتحديد النسل .
- ٧- إهمال الغذاء الروحي للطفل مما أدى الى انتشار السلوك اللاأخلاقي بين الناشئة .
- ٨- ظاهرة وضع الآباء في الملاجئ ودور العجزة والحكم عليهم بالموت اجتماعياً .
- ٩- انتشار التدخين وغيره وتعاطيه عند النساء .
- ١٠- ظاهرة بيع الأطفال في العالم الإسلامي والعالم كله .

(م)

- ١١- انتشار دور الحضانة وغزو المربيات للبيوت .
- ١٢- استبدال الزواج عند النساء بالدراسة الجامعية والعمل .
- وإلى غير ذلك من الأسباب التي يتحدث عنها واقعنا يومياً .

منهج الدراسة وحدودها :

المنهج الذي اعتمدته هذه الدراسة هو الاتصال المباشر بالمصدرين الأساسيين للإسلام وهما القرآن الكريم والسنة الشريفة لاستخلاص الأصول في نظرية الأمومة ، وإظهار مدى اهتمام الإسلام بهذا الدور ، ومكائنه فيه ، ثم دراسة واقع الأمومة الإسلامية في أصولها عند الصحابييات ونساء خير القرون ، ثم مقارنة ذلك مع واقع الأمومة المعاصر ، ومدى التوافق بينهما .

وقد استهدفت هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة التالية :-

- ١- هل اعتنى الإسلام بالأمومة ، فأعطاه من الحقوق والرعاية والحرمة ، مايعجز عنه كل المدافعين عن تحرير المرأة ؟
- ٢- هل كرم الإسلام الأمومة ؟
- ٣- هل وضع الإسلام لها قوانينها وأحكامها ؟
- ٤- هل نحن بحاجة الى استيراد نظرية في الأمومة من الغرب ؟
- ٥- هل واقع أمومتنا يرضى عنه الإسلام ؟

وشرعت في البحث فتتبعت بدقة وتمعن وتفكر آيات الكتاب العزيز آية آية ، ودونت الآيات الكريمة التي يدور البحث حولها، وبعد الجمع صنفتها معتمدة في تفسيرها على الكتاب الكريم والسنة المطهرة مستأنسة بالموقوف من الآثار بما لايتعارض مع أصول الدين . ثم رجع البحث في تفسير الآيات الكريمات إلى أقوال علماء التفسير - رحمهم الله - فيما لا يوجد فيه نص قطعي أو ظني عام أم خاص وكان العمدة في ذلك تفسير الإمام ابن جرير -رحمه الله تعالى - وغيره من علماء التفسير .

ولقد تتبعت أحاديث الصحيحين عند الإمامين : البخاري، ومسلم -رحمهما الله تعالى- حديثاً حديثاً، مدونة ما أراه مفيداً للبحث من قريب أو بعيد . مع دراستها من شرح الحافظ ابن حجر والإمام النووي أو غيرهما . فكانت هذه الأحاديث الصحيحة العمدة والغالبة على البحث إلا نذراً يسيراً مما وجدته من تتبعي لموطأ

الإمام مالك وصحيح الحافظ ابن خزيمة ، ومن تتبعي لبعض الكتب في السنن الأربعة والتي لها صلة بموضوع البحث ، ككتب الطهارة ، والنكاح ، والطلاق ، والنفقات ، والفرائض ، والرقاق وما يتفرع عنها .

وتتبع مسند الإمام أحمد وخرجت منه ما كان مناسباً للبحث معتمدة تصحيح الأستاذ أحمد شاكر .

ووقفت عند بعض كتب المستدركات والجوامع والزوائد والمسانيد والسنن باحثة ومنقبة عما قد يفيد البحث وما كان مقبولا منها .

والذي لاحظته أن ما في الصحيحين هو الأساس والأصل لأحاديث الرسول ﷺ ، لذا لم أحتج كثيراً إلى أحاديث ما في غيرها من الكتب - بعد مراجعتها - إلا في بعض الجزئيات وهي قليلة جداً بالنسبة لما خرجته من الصحيحين .

وقد تجنبت رواية الحديث الضعيف في البحث ، ولم أرو إلا ما كان مقبولا منها ، أو يستند إلى أصل يقيني .

وقد اعتمدت أيضاً كتب الأحكام بتتبعها عند العلامة ابن قدامة في المغني وشيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى والإمام ابن القيم في زاد المعاد .

وقرأت سيرة الرسول ﷺ واستخلصت منها ما يتعلق به البحث ، ووقفت عند تراجم الصحابة - رضي الله عنهم - في الإصابة للحافظ ابن حجر ، وتتبع فيه بدقة وتمعن حياة الصحابييات - رضي الله عنهن - وسجلت من ذلك ما يفيد البحث .

ووقفت عند كتاب أسد الغابة ، والطبقات لابن سعد وتتبع فيه تراجم النساء ، ونظرت في صفة الصفوة للحافظ ابن الجوزي ، وحياة الصحابة للكاندهلوي والأعلام للزركلي ، وأعلام النساء لرضا كحالة .

ومررت يسيراً بتاريخ الإمام الطبري ، وتاريخ الحافظ ابن كثير .

ثم وقفت عند كتب الفقه أنظر في أقوال العلماء واختلافاتهم في المسألة، فكنت أعود إلى النص من الآية والحديث ، وأستنبط ما أراه صالحاً للحكم خروجاً من اختلافات الفقهاء - رحمهم الله - ، إلا ما لم أجد فيه نصاً فكنت أستأنس بأقوال العلماء وكان هذا نذراً يسيراً جداً ، كما أنني اعتمدت في بعض الأحيان كتب التخريج على كتب الفقه للحكم على الأحاديث ، وذكرت ما وجدته مفيداً للبحث بعد النظر في الحديث وسنده ، ودراسته .

كما حاولت الحصول على قرارات المجامع الفقهية ، وأفدت من تلك المداولات والنتائج ، وسجلت منها ما وجدته مثمراً للبحث .

ولا أنكر أنني أفدت من الكتب المعاصرة كمفاتيح لمراجع البحث وموضوعاته، وكذلك فقد أفدت من بعض هذه الكتب الحديثة في مادة البحث . . كمؤلفات الشهيد-سيد قطب، والمجاهد الشيخ الدكتور-مصطفى السباعي-والأستاذ المودودي-والأستاذ-البهي الخولي- - رحمهم الله - ، وقد أخذت كثيراً من تفسير في ظلال القرآن وكان أساساً في البحث ، لما وجدته عند الأستاذ-سيد قطب-من إنصاف للمرأة وتقدير لدورها في الحياة ، واحترام للأسرة وتعظيم لها، والحق أحق أن يقال : إن الأستاذ سيد قطب هو بحق فيلسوف الأسرة والمنظر لها الذي لا يضاهاى ، لما أوتي من الفهم للآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في هذا المجال ما لم يتنبه إليه أحد قبله، وأوتي من الحكمة في قضايا المرأة والأسرة وخصوصاً «الأمومة» الكثير الكثير . فلاغربة أن يقتطف البحث في كل فصل على الغالب مما في ظلال القرآن أو غيره من كتبه أجزل الله -سبحانه وتعالى- له المثوية في جنات النعيم .

وقد أغنت البحث كثيراً وأصلته كتابات الأستاذ الشيخ-محمد قطب-حفظه الله- في قضايا المرأة والتربية ، فقد لمس الشيخ محمد قطب الداء في الأسرة المعاصرة ووصف له الدواء ، فكان لابد أن يضمن البحث بعضاً من دراساته وما نوه به فضيلته من حل للأزمة .

حيث إنه ما خلا فصل إلا وفيه حِكْمٌ ودُرَرٌ مما جاد به قلم الأستاذ-محمد قطب- في قضايا الأسرة، والتي له فيها الباع الطولى في البحث والوصف والاستنتاج وطرح البدائل لحل أزمة الأسرة المعاصرة.فجزى الله -سبحانه فضيلته- خير الجزاء وأمد الله في عمره بالصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح وحفظه من كل سوء ونفع به الأمة .

وكذلك لفتت نظري واستوقفتني مؤلفات الأستاذ الدكتور-ماجد عرسان الكيلاني في التربية والفكر الإسلامي المعاصر كبديل للفكر السائد : الآبائي والغربي الذي يكتسح العالم والعالم الإسلامي خاصة ، حيث بين فضيلته في كتاباته أن مشكلة المجتمعات الإسلامية لاتحل بالجزئيات والترقيعات بل لابد من إخراج الأمة المسلمة والشخصية المسلمة كنموذجين حددهما القرآن الكريم والسنة النبوية والعهد الإسلامي الزاهر ؛ من خلال التربية الإسلامية التي تهدف إلى إعداد الإنسان الصالح المصلح ، والأمة المسلمة التي وصفها القرآن الكريم «كنتم خير أمة أخرجت للناس» بسماتها

(ع)

التي حددها القرآن الكريم ، وتجسدت في تطبيقات رسول الله ﷺ في مجتمع المدينة .
لذا فقد اعتمدت في باب «التربية والأمومة» وغيره على ماكتبه فضيلة
الدكتور الكيلاني هادفة بذلك الوصول إلى أسس وأصول تربوية في إعداد المرأة والأم
المسلمة في المؤسسات التربوية المعاصرة . فجزى الله سبحانه الدكتور ماجد عرسان
الكيلاني خير الجزاء ونفع به الأمة الإسلامية ومد الله - سبحانه - في عمره مكملاً
بالصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح وحفظه الله - تعالى - من كل مكروه .

أما في مجال التخصص العلمي فقد اعتمدت في ذلك على كتب الأستاذ
الدكتور محمد علي البار ، مستشار الطب الإسلامي في جامعة الملك عبد العزيز ،
فقد أثنى فضيلته المكتبة العربية والإسلامية بمؤلفاته الغنية والكثيرة والمتنوعة وخاصة
كتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» ، حيث جمع فضيلته فيه بين العلم التجريبي
والنصوص الشرعية ، ولم أجد في المكتبة العربية مايمكن الاعتماد عليه في هذا
الموضوع غير كتب الدكتور محمد علي البار إلا نذراً يسيراً مما في غيرها ، فجزاه الله
- سبحانه - خيراً ومتعته بطول العمر والصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح .

بالإضافة إلى ذلك فقد أفدت من كتاب «الإجهاض بين الفقه والطب والقانون»
للدكتور محمد سيف السباعي وكتاب «القرار المكين» للدكتور مأمون شقفة وكتاب
«الرضاعة من لبن الأم» للدكتور حسان شمسي باشا وغيره من كتبه ، وكذلك «كتاب
الطب محراب الإيمان» للدكتور خالص جليبي ، وغير ذلك . . فجزاهم الله خيراً .

وقد حاولت الاستفادة من العلم التجريبي في خدمة الكتاب والسنة فيما وجدته في
المكتبة العربية ، وأرجو من الله عز وجل أن أكون قد وفقت في ذلك . . عملاً بقول
رسول الله ﷺ في الدعوة إلى التفكير «من اجتهد فأخطأ فله أجر» .

وكذلك استعنت كثيراً بالحوار والأسئلة والمناقشات ، وأخص بالذكر هنا
الدكتور محمد سيف الدين السباعي - ابن أختي - فقد أثقلت عليه بأسئلتي فيما
يتعلق بالجوانب الطبية في البحث ، فجزاه الله خيراً ، وعشت محفوفاً محفوفاً
بحراسة الله عز وجل عمراً مديداً ممتعاً بالصحة والعافية والعلم النافع والعمل
الصالح .

وكذلك الدكتورة-غيداء كرد مستو-زوجة الدكتور-محمد سيف الدين السباعي-
فقد كنت أجد عندها الإجابات الكثيرة في قضايا الطب من أمور النساء ، فكان
الحوار معها سهلاً ميسراً فجزاها الله خيراً وحفظها الله - سبحانه - عمراً مديداً ومتعها
بالصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح هي وزوجها وذريتها .

(ف)

فجزى الله سبحانه جميع علماء الأمة خير الجزاء من مفكرين ومريين وأطباء أمواتاً وأحياء، ونفع بهم الإنسانية جمعاء، ومد الله عز وجل في عمر الأحياء منهم بالعمل الصالح والرزق الخير الباقي، مُكَلِّينَ بتاج الصحة والعافية في الدنيا والآخرة وإنه سبحانه نعم المجيب .

وأخيراً فإن هذا الورقات لا تتسع لشكر كل من أخذت منهم في هذا البحث فلهم مني جزيل الشكر وخالص العرفان بالجميل وصادق الدعاء .

وأخيراً فقد ساهم واقع الأمومة الخاص والعام في إخراج هذا البحث فقد كان هذا الواقع بشكلية يؤرقني في يقظتي ومنامي . . فكان معاناة بحق . . جمعت الألم والمرارة والأسى مما أجده ومما أراه حولي مما هو حال في الأمومة في العالم كله ، وختاماً فلا أبالغ إذا قلت . . لقد كتبت هذا البحث بمداد دمي ودموعي ، ويراع أعصابي ، أسأل الله-عز وجل-العفو والقبول .

هذا ويحتوي البحث على مقدمة وثمانية أبواب ، تتضمن ثلاثين فصلاً .

حيث كان الباب الأول تمهيداً وتوطئة للبحث من خلال إبراز الأهمية الدينية والاجتماعية والتاريخية والنفسية والأخلاقية للأمومة تأثيراً وتأثيراً، وذلك بمطالعة النصوص الشرعية وأقوال السلف الصالح وسيرتهم مع التركيز على أثر الأم النموذج الأول للمرأة المسلمة في عهد الإسلام الخير المشرق .

أما الباب الثاني فكان بعنوان «الشروط اللازمة لنجاح الأمومة» وذلك بالتركيز على أهمية الزواج في الإسلام ثم اختيار الزوجين لاسيما الزوجة ثم إعدادهما لتحمل مسؤوليات الأبوة والأمومة، واهتم البحث بإلقاء الضوء على أوامر الإسلام في وجوب المحافظة على الأسرة وتماسكها ، ثم حاول البحث أن يبين ضرورة العودة إلى الزواج المبكر كما كان عليه حال السلف الصالح مع ذكر المساوي الناتجة عن تأخير الزواج .

ويمضي البحث في الباب الثالث مع «الأمومة والفطرة» حيث بدأ البحث بتفسير قول الله تعالى ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ ثم ذكر الفروق الجسدية والعقلية والنفسية بين الجنسين، ليتوصل من ذلك إلى دحض دعوى التماثل بين الذكر والأنثى، مؤكداً ذلك بأقوال علمائنا، في أن وظيفة المرأة الفطرية والطبيعية والتي تحقق لها التوازن المطلوب هي الأمومة ؛ الأمومة بمفهومها الواسع بما تحمله من عطف ومحبة ورعاية وتضحية لكل من يحيط بها .

أما الباب الرابع فقد كان عمدة البحث وهو بعنوان «حرمة الأمومة وتكريمها في الإسلام» وقد ذكرت الباحثة فيه تكريم الإسلام للمرأة وتعظيمه للأم وتكريمه لها مع ذكر تحريم الأمهات بأنواعهن ثم تحدثت البحث عن كفالة الأم ورعايتها في الإسلام ثم عن الأحكام الناتجة عن التغيرات الفسيولوجية للأمومة، ثم انتقل البحث إلى دور الأم في رعاية الجنين وحمايته أثناء الحمل، وختم هذا الباب فصل بعنوان «الأم بين المسؤولية والحقوق» .

ثم الباب الخامس وهو بعنوان «العوامل المؤثرة في وظيفة الأمومة» وأهمها صورة المرأة في القيم السائدة؛ بذكر أصنافها الثلاثة المرأة المسلمة الفاضلة القوية في عهد خير القرون، ثم المرأة الضعيفة الفاضلة كما في قيم العصبية القبلية، والمرأة القوية غير الفاضلة كما في القيم الغربية المعاصرة، مع ربط تلك الأصناف بواقعنا المعاصر ثم تحليل أسبابه ونتائجه، ثم تطرق البحث إلى مدى التجانس بين الزوجين وأثر ذلك في وظيفة الأمومة، وختم الباب بإلقاء الضوء على أثر البيئة والوراثة مع التنبيه إلى ضرورة إيجاد البيئة الصالحة لتخريج الأجيال الصالحة المصلحة وقادة العالم . ثم انتقل البحث إلى الباب السادس وتحدثت عن «التربية والأمومة» وضرورة قيام المؤسسات التربوية والتوجيهية بإعداد الأم المؤمنة الواعية لدورها في الحياة وفق أسس شرعية وتربوية أصيلة وصحيحة، مع الحديث عن المؤسسات المعاصرة وأثرها في طمس الأمومة .

أما الباب الأخير فكان عن أثر الحضارة العلمانية على الأمومة ، بكشف القناع عن تراجع مكانة الأمومة في الحضارة الحديثة ، وانتشار الرضاع الصناعي بدل الطبيعي، ثم نتائج ومضاعفات عمل المرأة واختلاطها بالرجال، ثم ذكر ما وصل إليه حال الأمومة بإيجاد البدائل عنها كنتيجة حتمية لما أفرزته تلك الحضارة المادية مع ذكر مساوئ هذه البدائل وأضرارها .

ثم ختم البحث في الباب الأخير بملاحظات وتوصيات ، أما الملاحظات فأهمها ازدياد أهمية الأمومة في العالم المعاصر ، وإدراج عمل الأم في ضمن قائمة الأعمال التي يستحق عليها صاحبها أجراً ، وهو ما طالبت به لجنة العمل في أمريكا الآن، والذي سُبقت به في عهد الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم- منذ أربعة عشر قرناً .

ثم أوصى البحث بتنظيم برامج تربوية خاصة بالأئمة ، تعتمد في الهدف والوسيلة على الأصول الإسلامية في الكتاب الكريم والسنة الشريفة وسيرة السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم ؛ مع ضرورة التطابق والتناسق مع هذه الأصول في توجيهات التربية والإعلام المتعلقة بالأئمة .

هذا وقد تناول البحث المسائل العلمية في إطار من النصوص الشرعية من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ذلك أن القرآن الكريم دعا إلى العلم التجريبي في أول آية نزلت على محمد بن عبدالله ﷺ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (سورة العلق - آية ١-٥)

فالتفكر في خلق الله عز وجل هو مفتاح الإيمان إلى القلوب وصمام اليقين فيها والاطمئنان إلى الركن الشديد من الله عز وجل ، وهو سبيل تحقيق الكرامة للإنسان في هذا الكون ، بما كرمه الله سبحانه فميزه عن جميع المخلوقات بنعمة التفكير والمعرفة ثم العلم . هذا وإن كل حقيقة علمية مسلمة هي سر من أسرار الكون وهي آية من آيات الله سبحانه التي ستستمر تأويلاتها حتى يوم البعث . وما أجدر المسلمين اليوم أن يعملوا جاهدين - ونحن في عصر العلم المادي - على تسخير هذه العلوم إلى الإيمان بالله عز وجل وإقامة الحاكمية لله سبحانه في الأرض . قال الله - عز وجل - ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (سورة فصلت - آية ٥٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : أي سيرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق^(١) .
قال الحافظ ابن كثير في معنى هذه الآية الكريمة . .

«أي ستظهر لهم دلائلنا وحججنا ، على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله - عز وجل - على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ، (في الأفاق) من الفتوحات ، وظهور الإسلام على الأقاليم ، وسائر الأديان ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه، وفيه، وعليه ، من المواد والأخلاق ، والهيئات العجيبة،

كما هو مبسوط في علم التشرية الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى»^(١) .

وقال الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ (سورة النمل - آية ٩٣)
وفي الصحيحين أن الرسول ﷺ قال :

«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات مامثله أو من أو آمن عليه
البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً ، أو حاه الله إلي ، فأرجو أني أكثرهم تابعاً
يوم القيامة»^(٢)

فالقرآن الكريم المعجزة الخالدة المستمرة إلى يوم القيامة في أسلوبه وبلاغته
وإخباره بالمغيبات ، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه
سيكون^(٣) ، وقد ندد القرآن الكريم بالذين يعرضون عن التفكير في آيات الله - سبحانه
وتعالى- هذه ، ولم يجعلوها سبيلاً وهداية إلى معرفة الله - عز وجل- والخضوع له
سبحانه بالوحدانية .. قال الله - عز وجل- ..

﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل
قد جاءت رسلنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد
فنعمل غير الذي كنّا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا
يفترون﴾ (سورة الأعراف- آية ٥٣) ومهمة الأمة الإسلامية اليوم التنقيب عن هذه
الآيات المبثوثة؛ ولذا كان «لأبد من إعادة تأصيل أساليب إخراج الفرد المسلم ، بحيث
تتفاعل في نفسه آيات الوحي في الكتاب و(السنة) ، مع آيات الله في الآفاق والأنفس
في مختبرات العلم ، ويتضافر القسمان لاستخراج معجزات العصر ، وبذلك يولد
اليقين وتتجسد صلاحية القرآن لكل زمان ومكان»^(٤) .

ذلك أن أزمة الأمة المسلمة اليوم هي: «وقوع الانشقاق بين «أهداف الحياة»
التي توفرها العلوم الدينية، وبين «الوسائل» التي توفرها العلوم الطبيعية ، وينقسم
المشتغلون بالعلوم إلى قسمين: أناس يشتغلون بأهداف بلا وسائل ، وأناس يشتغلون

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج٤ ، ص ١٠٥ .

(٢) البخاري ، م٤ ، ج٨ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ «بعثت
بجوامع الكلم» ص ١٧٦ ، ج (٧٢٧٤) ؛ مسلم ، ج١ ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة
نبيينا محمد ﷺ ، ص ١٣٤ ، ج (١٥٢) .

(٣) انظر : السيوطي ، الإتقان ، ج٢ ، ص ١١٦-١١٧ .

(٤) د . ماجد عرسان الكيلاني ، إخراج الأمة السليمة وعوامل صحتها ومرضها ، كتاب الأمة ،
قطر ، ص ٤٢ .

بوسائل لا أهداف لها»^(١) .

ولذا كان حتماً لازماً على الأمة المسلمة أن تتسلم زمام الأمر في هذه الميادين من العلوم التجريبية لتسخيرها للإيمان بالله سبحانه وتعالى وتحقيق الكرامة والخير والفائدة لجميع بني الإنسان .

ولقد نهج البحث على الطريقة الشمولية في عرض مشكلات الأمموة ، ذلك أن العالم كله غدا قرية صغيرة ، والناس اليوم قد عادوا إلى عهد البداوة والتنقل مع الاضطراب في الثقافات والمفاهيم الاجتماعية ، لذا كان لابد من العرض العام العالمي للمشكلة، خاصة وأن المجتمعات الإسلامية تدرج وتدلف لتصبح صورة عن المجتمعات اليهودية والنصرانية ، وكثير من أزمات الغرب تشاهد في مجتمعاتنا-بشكل جلي - فكان حتماً لازماً أن تذكر تلك المشاكل لشمولية الإسلام وعالميته وصلاحيته لكل زمان ومكان ، ورسول الله ﷺ قد بعث للناس كافة وحذر ﷺ من الاتباع الذي يمارسه المسلم اليوم في أنماط سلوكه؛ ولهذا فقد تناول البحث أزمة الأمموة في العالم وحلها من خلال الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح رضي الله عنهم وما يراه علماء الأمة الإسلامية من بديل عن الوضع المؤلم والمخزي والضائع للأمموة الإنسان .

وحسب علمي -والله تعالى هو العليم- أني لم أجد في المكتبة الإسلامية كتاباً شاملاً لموضوع الأمموة ، وإنما هناك عناوين لهذه الكتب ، والمضمون فيها يدور حول وضع المرأة عامة ، أو تربية الطفل .

أما أن أجد كتاباً يدور كله حول الأمموة يعتمد في نظريته على أصلي الكتاب الكريم والسنة الشريفة ، فلم أعثر على ذلك .

فالبحت جديد بشكل عام ، ولم يكتب فيه على هذه الصورة المتكاملة المتعقبة لعناصره من مظانها الأصلية .

وحيث إن الموضوع جديد في معالجته لقضية دور المرأة ومسؤوليتها في الحياة لاسيما الأم - فقد اعتمدت أقوال علماء الأمة الإسلامية وغيرهم في هذا الميدان ، ولاعجب أن أنقل من أقوالهم في كثير من الأحيان نصاً إشاراً للبحث وإغناء ،

واقناعاً للقارئ ، حين يسمع مثل ذلك عن علماء ومفكري الأمة ، وقد لاحظت أن الشيخ الدكتور-مصطفى السباعي -رحمه الله- في كتابه «المرأة بين الفقه والقانون» قد اعتمد هذه الطريقة في عرض الأفكار ، ولعل ذلك أكثر تطميناً لمن يبحث عن حل للمشكلة .

وأولاً وأخيراً .. فإني أتقدم بجزيل الشكر ووافر الاحترام والتقدير والإكبار لفضيلة الشيخ الدكتور الشريف السيد-محمد الحسن الغماري-.. حيث قبل فضيلته بتواضع منه الإشراف على هذا البحث حتى انتهى إلى قلبه الأخير ، فجزاه الله خيراً وأمد الله في عمره بالصحة والعافية بالرزق الواسع والعلم النافع والعمل الصالح، ومتع الله سبحانه ونفع به الأمة وحفظه الله تعالى من كل سوء ومكروه ، إنه والله نعم الوالد الكريم، ونعم الأستاذ الفاضل ، ونعم العالم الجليل ونعم المربي الرحيم، وإنه نموذج حي لقول الرسول ﷺ: « أتاكم أهلُ اليمنِ هم أرقُّ أفئدةً ، وألينُ قلوباً ، الإيمانُ يَمَكانُ والحكمةُ يمانية»^(١) وفي رواية «الفقهُ يمان»^(٢) وقال فيهم رسول الله ﷺ «هم منِّي وأنا منهم»^(٣) .

كما أشكر فضيلة الشيخ الدكتور-محمد الخضر الناجي-الذي قبل لكرمه الإشراف على هذا البحث في مراحله الأخيرة ، وقد أعطى فضيلته الموضوع إثراءً وغنى بما منح البحث من حرية التفكير والتنقل بين المراجع، لتعتمد الباحثة ماتراه مناسباً مما تطمئن إليه النفس ؛ وبالرغم مما عند فضيلته من العلم الغزير الجم ، فقد كنت أقع أحياناً في حيرة من أمري بعد الإجابة على أسئلة البحث من فضيلة الشيخ الأستاذ المشرف، حين يكل إلى الباحثة نتيجة المسألة ، لكن أسلوب الشيخ الدكتور الناجي جعلني أنقب في الكتب تنقيباً متحررة من كل هوى أو مذهب أو تقليد أو تعصب لرأي ، وعرفت عند ذلك لماذا طار صيت علماء شنقيط في أرجاء العالم حتى غدا الشيخ الشنقيطي مجرداً من العلمية علماً على عِلْم الزمان .

(١)، (٢) البخاري ١٤٣/٥/٣ ، (٤٣٨٨) ، (٤٣٩٠) .

(٣) البخاري، المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(ث)

كما أشكر فضيلة المشرف الدكتور- محمد الحسن الغماري- والمشرّف الدكتور
- محمد الخضر ضيف الله- شكراً متميزاً على ما وجدته الباحثة من تقدير للظروف
التي مر بها البحث فكان فضيلتهما المعين بعد الله -تعالى- لإخراج هذا البحث .
فجزى الله فضيلتهما خير الجزاء .

كما أخص بالشكر والتقدير فضيلة سعادة الدكتور ()
وفضيلة سعادة الدكتور () حيث تكرم فضيلتهما بقبول
مناقشة هذا البحث فجزى الله -عز وجل- كلاً من فضيلتهما خير الجزاء وأمد الله
سبحانه في عمرهما بالصحة والعافية بالعلم النافع والعمل الصالح ، إنه سبحانه سميع
مجيب .

كما أضع في إطار متميز شكري لجامعة أم القرى الحبيبة ودامت صرحاً
شامخاً نيراً للعلم والهداية .
وأقدم بشكري الجزيل لكل من مد لي يد العون والمساعدة والمشورة في
استكمال هذا البحث .

وأما الحمد والمنة أولاً وأخيراً فله رب العالمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مها عبدالله الأبرشي

مكة المكرمة - رمضان - ١٤١٥ هـ -

الباب الأول

أهمية البحث في مكانة الأمومة في الإسلام

إن أهمية الأمومة في حياة الإنسان لاتنتهي عند نقطة ما .. بل هي تكاد أن تكون سيرة الفرد من المنشأ حتى المصير .. ولذا كان للبحث في الأمومة أهميته الكبرى ...

- الأهمية الدينية

- ١- مكانة الأمومة في الكتاب والسنة وآثار السلف .
- ٢- أثر الأم في غرس العقيدة الصحيحة في نفوس الأولاد .
- ٣- أثر الأم في تنمية روح التدين والتزام الشعائر .

- الأهمية الاجتماعية

- ١- أثر الأم في التكوين الاجتماعي عند الأطفال .
- ٢- المحافظة على نمو الأسرة وتماسكها .
- ٣- تصدع الأسرة في الغرب والأزمات النفسية والعاطفية عند الأطفال .

- الأهمية التاريخية

- ١- الأمومة عبر التاريخ .
- ٢- الأمومة وأثرها في أحداث التاريخ .

- الأهمية النفسية والأخلاقية

- ١- دور الأم في الصحة النفسية في مراحل العمر المختلفة .
- ٢- دور الأم في التربية الأخلاقية .

الفصل الأول الأهمية الدينية

الدين هو منهج الحياة والصراف المستقيم الذي يحدد مسارها وصوابيتها ،
فأين هي الأمومة فيه وما أثرها ؟

١- مكانة الأمومة في الكتاب والسنة وآثار السلف :

لقد ورد ذكر الأم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة تدل على ماللأمومة من
كبير التقدير والعناية .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (سورة الأحقاف- آية ١٥).

(أي قاست بسببه في خال حمله مشقه وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب
إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، ووضعته كرها أي بمشقة أيضاً
من الطلق وشدته^(١) ، وتكرر ذلك في القرآن الكريم في عدة آيات كريمة .

وتذكر الأم في قصة موسى عليه السلام يقول الله تعالى في كتابه الكريم :
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا
تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص- آية ٧).
إن القصة كلها تدور حول جهود أم موسى ولم يرد ذكر لوالده مع أنه من
ضروريات القصة أن يكون الوالد موجوداً إذ لا أولاد بدون أب .

ويلاحظ كذلك أن هارون عليه السلام ينادي أخاه موسى عليه السلام «ابن
أم» (سورة الاعراف - آية ١٥٠) استجابة لعواطفه وشفقته واستلال غضبه عليه السلام .
وهذه خولة* رضي الله عنها يسمع الله سبحانه نداءها فيتنزل الوحي على
رسول الله ﷺ :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ

(١) ابن كثير ، إسماعيل القرشي الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، (بيروت : دار المعرفة ،
١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ج ٤ ، ص ١٥٧ .

(*) خولة بنت مالك بن ثعلبة بن غنيم بن عوف ، قالت : فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل
الله عزوجل صدر سورة المجادلة ، عن عمر بن الخطاب أنه خرج ومعه الناس فمر بعجوز
فاستوقفته فجعل يحدثها وتحديثه فقال له رجل يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه
العجوز ؟ فقال ويلك أتدري من هي ؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات
هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة التي أنزل الله فيها «قد سمع الله قول التي تجادل في
زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما» الآية والله لو أنها وقفت إلى الليل ما
فارقتها إلا إلى الصلاة ثم أرجع إليها - الإصابة ٣٨٩/٤ : الاستيعاب ٣٩٠/٤ .

يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (سورة المجادلة - آية ١).

ومما ذكر في الروايات عن عائشة رضي الله * عنها أنها قالت تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ، ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ... قالت : فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات^(١).

ولقد أسقط الإسلام بعض الفرائض عن المرأة مثل الصلاة والصوم في الحيض والنفاس ، ولم يكلفها بصلاة الجماعة في المسجد ، في حال طهرها ، مراعاة لأمومتها ودورها في الحياة .

وهل تفجر ماء زمزم إلا فيض من نبع الأمومة ، ذلك النبع الذي يسقي الحجيج حتى قيام الساعة ، فما أعظمه من حدث أن يكون دعاء الأمومة من أمنا هاجر ولهفتها على إسماعيل عليه السلام رياء للظمأى وطعاماً للجياع ، وشفاء للأسقام ، وإن كان يدل ذلك على شيء فإنما يدل على تفجر العطاء الأمومي الذي لا ينضب معينه مهما بعد العمر حناناً وحباً ورياً ودفئاً ، فهذا الحجيج يروى بماء زمزم ويسعى سعي أمنا هاجر «وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة الملتهبة حول البيت ، وهي تهول بين الصفا والمروة ، وقد نهكها العطش، وهدها الجهد ، وأضناها الإشفاق على الطفل ، ثم ترجع في الجولة السابعة ، وقد حطمها اليأس ، لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء ، وإذا هي زمزم ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجذب»^(٢).

وقد أثنى الرسول ﷺ على نساء قريش وجعل صالحهن صالح النساء عامة،

(*) أم عبدالله عائشة بنت أبي بكر الصديق عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشية التميمية المكية ، النبوية ، أم المؤمنين زوجة النبي ﷺ ، أفقه نساء الأمة على الإطلاق، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر ، بن عبد شمس ، هاجر بها أبواها وهي ابنة تسع ، تزوجها النبي ﷺ قبل ببضعة عشر شهراً وقيل بعامين ودخل بها في شوال سنة اثنتين ولم يحب امرأة لحيه لها، ومن ذلك قول الرسول ﷺ «يا أم سلمة ، لاتؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها» ولم يزوج بكراً غيرها . وأفقه الناس مطلقاً قال عطاء بن رباح كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة - دفنت بالبقيع ومدة عمرها ثلاث وستون سنة وأشهر - رضي الله عنها وأرضاها - .

(ط ابن سعد ٥٨/٨ - ، الاستيعاب ١٨٨١/٤ : تهذيب ٤٣٣/١٢ : الإصابة ٣٥٩/٤ : البداية والنهاية ٩١/٨ ؛ سير ١٣٥/٢).

(١) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م) م ١٤ ، ج ٢٨ ، ص ٥-٦ .

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، الطبعة الحادية والعشرون ، (بيروت : دار الشروق، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م) ج ٤ ، ص ٢٤١٩ .

لرعايتهن للزوج والولد بقوله ﷺ: «خيرُ نساءٍ ركبَنَ الإبل ، صَالِحُو نِساءِ قريشٍ ، أخناهُ على ولدٍ في صِغَرِهِ ، وأَرعَاهُ على زوجٍ في ذاتِ يَدِهِ»^(١).

وفي حديث آخر يبين ﷺ أن أسمى نماذج البشر رحمة وحباً وعطاء هي الأم، حيث قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي أخذت صبياً فألصقته ببطنها فأرضعته فقال ﷺ لأصحابه :

«أَتُرَوْنَ هذه طارحةً ولدها في النار» قلنا لا وهي تَقْدِرُ على أن لا تَطْرَحَهُ ، فقال ﷺ «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعبادِهِ من هذه بولدها»^(٢)

ولو كان ثمة مثل يضرب في هذا أقوى دلالة من حب الأم لولدها ، لكان منه ﷺ ، وهو الذي أوتي وخص بجوامع الكلم من بين الأنبياء كافة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ويسلغ تقدير الأمومة في سنته ﷺ الرحيم بأمته ، فيقول ﷺ : «إني لأَدْخُلُ في الصلاة فأريدُ إِيْطالَتَها ، فأسمعُ بكاءَ الصبيِّ فأتَجَوَّزُ ، مما أعلمُ من شِدَّةِ وجَدِ أمِّهِ من بُكائِهِ»^(٣) .

إنه تقدير الأمومة والإحساس بها فيخفف ﷺ عن جميع المصلين الصلاة .

بل إن رحمته ﷺ بالأمومة تتجاوز الإنسان والشعور به إلى عالم البهائم ، حين اشتكت إليه الحُمَرة^(٤) عندما أخذ منها فراخها فقال ﷺ : «مَنْ فَجَعَ هذه بولدها ؟ رُدُّوا وَلَدَها إليها»^(٥).

(١) صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ، عن نسخة فتح الباري ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الفكر ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م) م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب إلى من ينكح وأي النساء خير ، ص ١٤٧ ، ح (٥٠٨٢) ؛ صحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، وقف على طبعه محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ج ٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل نساء قريش ، ص ١٩٨٥-١٩٦٠ ، ح (٢٥٢٧) .

(٢) البخاري ، الصحيح م ٤ ، ج ٧ ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، ص ٩٩ ، ح (٥٩٩٩) .

(٣) البخاري ، الصحيح م ١ ، ج ١ ، كتاب الأذان ، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ، ص ١٩٥ ، ح (٧١٠) ؛

ومسلم ، الصحيح ، ج ١ ، كتاب الصلاة ، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ، ص ٣٤٣ ، ح (٤٧٠) .

(٤) الحُمَرة بضم الحاء وتشديد الميم المفتوحة وقد تخفف : طائرٌ صغيرٌ كالعصفور (ابن الأثير ، مجد الدين بن محمد الجزري ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، (بيروت : دار الفكر) ج ١ ، ص ٤٣٩ ، «حمر») .

(٥) أبو داود ، سليمان بن الأشعث ، السنن ، الطبعة الأولى ، (حمص : دار الحديث ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) ح (٥٢٦٨) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ج ٢ ، ص ٩٨٨ ، (٤٣٨٨) ، وفي مسند أحمد بنحوه ، تحقيق أحمد شاكر (مصر : دار المعارف ١٣٧٥هـ ، ١٩٥٦م ، ج ٥ ، ص ٣٢٠ رقم ٣٨٣٥-٣٨٣٦هـ) .

وقد احتذى السلف الصالح حذو سنة رسول الله ﷺ في تقدير الأمومة فيرى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - الحجاج بن أيمن بن أم أيمن - رضي الله عنه فيقول - : (لو رأى هذا رسول الله ﷺ لأحبه ، فذكر حبه وما ولدته أم أيمن)^(١) ، لقد ذكرته رؤيته بمواقف رسول الله ﷺ من أمه : حاضنته أم أيمن - رضي الله عنها - فطأطأ - رضي الله عنه - رأسه مفكراً ينقر الأرض بيديه^(٢) : إنه تعظيم رسول الله ﷺ للأمومة .

ومن ذلك أيضاً ما كان من الخليفة عمر بن الخطاب * رضي الله عنه حين فرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ، فمر به عمر بن أبي سلمة * ، فقال : زيدوه ألفاً فقال عمر بن عبد الله بن جحش ، ما كان لأبيه أبي سلمة * مالم يكن لأبائنا ، وما كان له مالم يكن لنا ؟ فقال الخليفة - رضي الله عنه - : إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة * ألفاً ، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفاً^(٣) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٢ ، ج ٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ذكر زيد بن حارثة ، ص ٢٥٧ ، ح (٣٧٣٧) .

(٢) انظر : البخاري ، المرجع السابق ، ح (٣٧٤٤) .

(*) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي ، أبو حفص ، أمير المؤمنين ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية ، وقيل أمها بنت هشام ، أخت أبي جهل ، وكان إليه السفارة في الجاهلية ، وكان عند المبعث شديداً على المسلمين ، ثم أسلم - رضي الله عنه - فكان إسلامه فتحاً على المسلمين وفرجاً لهم من الضيق ، لما أسلم سماه الرسول ﷺ الفاروق . شهد بدرًا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ وتوفي الرسول وهو عنه راض ، ولي الخلافة بعد أبي بكر سنة ١٢ هـ سار بالناس أحسن سيرة وفتح الله عليه الفتوح بالشام والعراق ومصر والأردن وكان لا يخاف في الله لومة لائم ودون الدواوين وأرخ التاريخ من الهجرة وأول من تسمى بأمير المؤمنين فضائله ومناقبة كثيرة جداً استشهد سنة ثلاث وعشرين قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة (الإصابة ٥١٨/٢ ؛ الاستيعاب ٤٥٨/٢) .

(*) عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أبو حفص القرشي المخزومي المدني ، ولد قبل الهجرة بسنتين أو أكثر ، وكان أكبر إخوته ، وكان هو الذي زوج أمه بالنبي ﷺ وهو صبي ، وقد علمه النبي ﷺ إحصاء ربيبه أدب الأكل وكان النبي ﷺ عمه من الرضاع وتوفي سنة ثلاث وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان (الإصابة ٥١٩/٢ ؛ تهذيب ٤٥٥/٧ ؛ سير ٤٠٦/٣) .

(*) أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة ، وابن عمته برة بنت عبد المطلب ، وأحد السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين ، ولما انقضت عدة زوجته أم سلمة تزوج بها النبي ﷺ . وله أولاد صحابة . وشهد بدرًا وأحدًا وتوفي بعدها . (الإصابة ٣٣٥/٢ ؛ تهذيب ٢٨٧/٥ ؛ أسد الغابة ٢٩٤/٣ ؛ سير ١٥٠/١) .

(*) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية أم المؤمنين بنت عم خالد بن الوليد وبنت عم أبي جهل بن هشام ، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية من بني فزارة وكانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة فمات عنها فتزوجها النبي ﷺ سنة اثنتين من الهجرة بعد غزوة بدر ، وكانت ممن أسلم قديماً هي وزوجها . هاجرت إلى الحبشة فولدت له سلمة وهاجرت إلى المدينة فولدت عمر ودره وزينب وقيل إنها أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة وأول ظعينة دخلت المدينة وكانت رضي الله عنها موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب توفيت في خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ بعد أن بلغها مقتل الحسين رضي الله عنه . (الإصابة ٤٥٩/٤ ؛ الاستيعاب ٤٢١/٤ ؛ سير ٢٠١/٢ ؛ ط ابن سعد ٨٦/٨ ؛ تهذيب ٤٥٥/١٢ ؛ أسد الغابة ٣٤٠/٧) .

(٣) أبو يوسف ، الخراج تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البناء ، (القاهرة : مؤسسة الإصلاح للنشر) ، ص ١١٠ .

ومن ذلك ماروي عن قاضي المدينة أبو بكر* بن محمد بن عمرو بن حزم فقد اقتصر رحمه الله ممن حقر (الحسن بن أسامة بن زيد بن أم أيمن* - رضي الله عنها - حاضنة النبي ﷺ لأنه قال له يا ابن بركة ؟ يريد أم أيمن ؟ فسأله القاضي أبو بكر ما أردت إلى قولك يا ابن بركة؟ قال : سميتها باسمها ، قال أبو بكر : إنما أردت بهذا التصغير بها ، وحالها من الإسلام وحالها ورسول الله ﷺ يقول لها «يا أمه»، و«يا أم أيمن»، لأَقَالَنِي^(١) الله إن أقلتك فضربه سبعين سوطاً^(٢).

٣- أثر الأم في غرس العقيدة الصحيحة في نفوس الأولاد :-

إن للوالدين الدور الفاصل في الالتزام بالدين الإسلامي الحنيف وأخص في ذلك الأم . ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مولودٍ إلا يُولَدُ على الفِطْرَةِ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُتَنَجَّى البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تحسُّونَ فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة أقرؤوا إن شئتم : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (سورة الروم - آية ٣٠)^(٣).

فقد بين رسول الله ﷺ في الحديث الشريف أن كل مولود يولد على الإسلام أي على الفطرة والأب والأم هما اللذان يغيران في هذه الفطرة التي كان العهد عليها منذ آدم عليه السلام وذريته في صلبه قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَفْلِينَ﴾ (سورة الأعراف - الآية ١٧٢). ولذا وقفت أم مريم تناجي ربها داعية بحفظ ذريتها على هذه الفطرة السوية من الشيطان الرجيم .

(*) أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري الخزرجي البخاري المدني القاضي يقال اسمه أبو بكر وكنيته أبو محمد وقيل اسمه وكنيته، روى عن خالته عمرة بنت عبيد الرحمن، وروي أنه ما اضجع على فراشه بالليل منذ أربعين سنة وتوفي سنة ١١٠ هـ (تهذيب ٣٨/١٢).

(*) أم أيمن مولاة الرسول ﷺ وحاضنته ، اسمها بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان وكانت لأم الرسول ﷺ وكان الرسول ﷺ يقول : «أم أيمن أُمِّي بعد أُمِّي» أعتقها الرسول ﷺ بعدما تزوج بخديجة ، تزوجها زيد بن حارثة بعد عبيد بن زيد من بني الحارث بن الخزرج فولدت له أسامة وولدت لعبيد أيمن ، توفيت في خلافة عثمان بن عفان وهاجرت الهجرتين (الإصابة ٤٣٢/٤ : سير ٢٢٣/٢ : ابن سعد ٢٢٣/٨ : أسد الغابة ٣٧/٧ : تهذيب ٤٥٩/١٢ : الاستيعاب ٢٥٠/٤) .

(١) أَقَالَ الله فلاناً عثرته بمعنى صَفَحَ عنه ، (ابن منظور، اللسان ، ج ١١ ، ص ٣٧٥).

(٢) انظر طبقات ابن سعد ، ج ٨ ، ص ٢٢٦ .

(٣) البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ٢ ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ؟ ص ١١٩ ، ح (١٣٥٨) ؛ مسلم ، الصحيح ، ح ٤ ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، ص ٢٠٤٧ ، ح (٢٦٥٨) .

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (سورة آل عمران - الآية ٣٥-٣٦).

لقد نذرت حملها لخدمة بيت الله ، وذلك لينشأ ويشب في بيت الله ، لكنها كانت أنثى ، فما ملكت لها إلا أن تعيذها بالله سبحانه من الشيطان الرجيم هي وذريتها ، فكان لها عيسى عليه السلام مباركاً أينما كان ، واستجاب الله سبحانه دعاء أم مريم ، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ» ثم قال أبو هريرة : أَقْرَأُ إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٦) (١).

وهكذا تساهم الأم في تثبيت الإيمان في قلوب أبنائها يقول الأستاذ البهي الخولي «إن جو الصلة بالله هو الحضانة الأولى لقانون الزوجية والأمومة وليس من شأن الضمير الذي أسقط الاعتبار الإلهي أن تتيقظ فيه خاصة الأمومة فتستنزل لجنينها ورضيعها من أفق الروح ما تزدهر به فضائل الحق في السلوك الخاص والعام».

وقد جاءت امرأة عمران في كتاب الله مثلاً للأمومة الفاضلة التي تستنزل لجنينها من أفق الصلة بالله ، ما يثير في فطرته أقدس ما يثير في فطرته مواهب الحق التي تملأ الدنيا برأ وبركة وكرامة فإنها حين أحست تقلب جنينها اتجهت إلى الله قائلة ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

نذرت له أي خرجت عنه لله ، فهو له تعالى خالصاً من تعلق أنانيته به .

فماذا استنزلت تلك الأمومة المثالية للجنين ، إن الجنين كان هو مريم ابنة عمران عليها السلام ، هي مريم التي تقبلها ربها بقبول حسن وأنبثها نباتاً حسناً ،

(١) مسلم ، ج ٤ ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام ، ص ١٨٣٨ ، ح (٢٣٦٦)؛ وأخرجه البخاري في صحيحه ، بمثله إلا «(يمسه) بدل «نخسه» م ٢ ، ج ٤ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : واذكر في الكتاب مريم ، ص ١٦٦ ، ح (٣٤٣١).

وجعلها وابنها عيسى عليه السلام آية للعالمين^(١).

ومما يدل على دور الأم في تثبيت العقيدة السليمة في نفوس أولادها ما فعلته أم أنس* رضي الله عنهما يقول أنس* رضي الله عنه : «أتى عليّ رسول الله ﷺ وأنا أَلْعَبُ مع الغلمانِ قال : فسَلَّم علينا فَبَعَثني إلى حاجةٍ فأَبْطَأْتُ على أُمِّي ، فلما جئتُ قالت : ما حِسَّكَ ؟ قلتُ : بَعَثني رسول الله ﷺ لحاجةٍ قالت : ما حاجتُه ؟ قلتُ : إنها سرٌّ قالت : لا تُحدِثَنَّ بسر رسول الله ﷺ أحداً ، قال أنس : والله لو حَدَّثْتُ به أحداً لحدَّثْتُكَ يا ثابت»^(٢) .

وقد حفظ أنس سر رسول الله ﷺ ، تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ ثم ما أكدته أمه أم سليم رضي الله عنها في نفسه ، بسؤالها ومتابعتها لتربية ولدها وتفقد غيابه عنها .

(١) البهي الخولي ، الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة ، الطبعة الخامسة ، (الكويت : دار القلم) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ١٤٦ .

(*) أم أنس أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب الأنصارية هي أم أنس خادم رسول الله ﷺ ، اختلف في اسمها فقيل سهلة ورميلة ورميثة ومليكة والعضيماء والرميصاء تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية ، فولدت أنساً في الجاهلية وأسلمت مع السابقين إلى الإسلام ، فغضب مالك وخرج إلى الشام فمات بها فتزوجت بعده أبا طلحة وكان صداقها من أبي طلحة الإسلام وولدت لأبي طلحة عبد الله وغيره . وكانت من عقلاء النساء - رضي الله عنها - .

(الإصابة ٤٦١/٤ ؛ الاستيعاب ٤٤٥/٤ ؛ ط ابن سعد ٤٢٤/٨ ؛ أسد الغابة ٣٤٥/٧ ؛ تهذيب ٤٧١/١٢ ؛ سير ٣٠٤/٢) .

(*) أنس بن مالك بن النضر بن مضم بن زيد بن النجار الأنصاري الخزرجي ، خادم رسول الله ﷺ وأحد الكثيرين من رواية الحديث خدم الرسول ﷺ عشر سنين ، وأمه أم سليم ، كناه الرسول ﷺ أبا حمزة ، ودعا له الرسول ﷺ بكثرة ماله وولده وأن يدخل الجنة ، وكان آخر الصحابة موتاً بالبصرة ، وآخر من مات ممن صلوا القبلتين ، وشهد معظم الغزوات مع الرسول ﷺ وقيل لم يذكر من أهل بدر لأنه كان لم يبلغ سن القتال ، وفوائده كثيرة اختلف في وقت وفاته وقيل سنة ٩٣هـ .

(الإصابة ٧١/١ ؛ الاستيعاب ٧١/١ ؛ سير ٣٩٥/٣ ؛ ط ابن سعد ١٧/٧ ؛ أسد الغابة ٥١/١ ؛ ت التهذيب ٣٧٦/١) .

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب الفضائل ، فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه ، ص ١٩٢٩ ، ح (٢٤٨٢) ؛ وأخرجه البخاري في صحيحه بنحوه ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب الاستئذان ، باب حفظ السر ، ص ١٨٣ ، ح (٦٢٨٩) .

ولا يخفى على مسلم مواقف أسماء بنت أبي بكر* وابنها عبدالله* - رضي الله عنهما - وتبنيته على الحق والإيمان^(١).

٢- أثر الأم في تنمية روح التدين والتزام الشعائر :

إن الأم هي القدوة والمثل الذي يحاكيه الطفل لإرادياً ذلك أن الطفل طبع للتطبع يقول الأستاذ محمد قطب : «وكل انفعال يمر في نفس الطفل وكل تجربة يخوضها ، تجربة سرور ورضاء أو تجربة خوف أو انزعاج أو ألم أو قلق ، تحفر مكانها أو تخط خطها في تلك الصفحة حتى يتكون فيها في النهاية خط بارز واضح، نتيجة تراكم التجربة وتراكم الانفعال»^(٢) .

«ومن هنا خطورة السنوات الأولى في حياة الطفل .. وإن كانت لاتغلق الباب نهائياً أمام فرص التعديل في أي مرحلة من مراحل العمر القادمة وخاصة في مواسم الانقلابات الطبيعية في المراهقة والشباب المبكر»^(٣) .

ولذا كان حتماً لازماً وجود القدوة الصالحة والمربية الفاضلة لتنشئة الأجيال وحدد القرآن الكريم ذلك في سورة آل عمران في تربية مريم عليها السلام .
قال تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنْسَى

(*) أسماء بنت أبي بكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان أم عبد الله القرشية التيمية المكية ثم المدنية وتعرف بذات النطاقين وأمها قتيلة بنت عبد العزى العامرية شهدت اليرموك وزوجها الزبير وقيل إنها عاشت مائة سنة هاجرت إلى المدينة وهي حامل بابنها عبد الله ابن الزبير ، فضائلها كثيرة . (ط ابن سعد ٢٤٩/٨٥ - ٢٥٥ ؛ الاستيعاب ٢٣٢/٤ ؛ الإصابة ٢٢٩/٤ ؛ سير ٢٨٧/٢).

(*) عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد الأسدي أمه أسماء بنت أبي بكر ولد بالمدينة وهو أول مولود ولد بالمدينة للمهاجرين وكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ وهو أحد العبادلة وأحد شجعان الصحابة وشهد اليرموك وفتح إفريقية وشهد الجمل مع أبيه بويج بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ قتله الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٣هـ ومدة خلافته ٩ سنين .

(الإصابة ٣٠٩/٢ ؛ الاستيعاب ٣٠٠/٢).

(١) انظر : ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي ، الطبعة الأولى (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٣٢٨هـ) م٤ ، ص ٢٢٩ وما بعدها .

(٢) محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية ، الطبعة السابعة ، (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) المرجع السابق .

لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .
هَنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ
الدُّعَاءِ . سورة آل عمران - آية ٣٧-٣٨ . وفي قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ
أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ (سورة مريم آية ٢٨) .

وقد أثنى القرآن الكريم على المسيح عليه السلام فنسبه إلى أمه ، الصديقة
لإيمانها ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (سورة المائدة - آية ٧٥) ، وكذلك حين انتبذت من أهلها
مكاناً قصياً بعيداً تتعبد الله سبحانه وتعالى .

قال الله عز وجل ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا
مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا
بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (سورة مريم - آية ١٦) .

وهكذا تتابعت النماذج الطيبة الصالحة في ظهور المسيح عليه الصلاة والسلام،
ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ
علينا وما هو إلا أنا وأمي وأم حرام* خالتي فقال قوموا فلأصلي بكم (في غير
وقت صلاة فصلى بنا ، فقال رجل . . (لأحد رواة الحديث) أين جعل أنساً منه قال
جعله على يمينه ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير الدنيا والآخرة فقالت أمي يارسول
الله خَوِّدْكُمْ أَدْعُ اللهَ لَهُ قَالَ : فدعا لي بكل خير وكان في آخر مادعا لي به أن قال
ﷺ : «اللهم أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ»^(١) .

لقد تنبّهت أم سليم رضي الله عنها لدعاء رسول الله ﷺ لولدها ، فكانت
لأنس رضي الله عنه بركة دعاء رسول الله فكان أكثر الصحابة - رضي الله عنهم -
مالاً وولداً .

(*) هي أم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام جندب بن النجار الأنصارية النجارية
المدنية وهي أخت أم سليم - رضي الله عنهما - ، لم يوقف على اسمها الصحيح زوجة عبادة
ابن الصامت بشرها رسول الله ﷺ بالشهادة خرجت هي وزوجها في غزوة قبرص في خلافة
عثمان ، فلما رجعت قدمت لها بغلة لتركبها فصرعتها فدقت عنقها فماتت رضي الله
عنها سنة سبع وعشرين ، كما كانت بشارة رسول الله ﷺ لها بالشهادة .
(الإصابة ٤/٤٤١ ؛ الاستيعاب ٤/٤٤٣ ؛ ك ابن سعد ٨/٤٣٤-٤٣٦ ؛ أسد الغابة
٧/٣١٧ ؛ تهذيب ١٢/٤٦٢) .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ١ كتاب الصلاة ، باب جواز الجماعة في النافلة والصلاة على
حصير ، ص ٤٥٧ ، ح (٦٦٠) ؛ البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب الدعوات ، باب
الدعاء بكثرة المال والولد مع البركة ، ص ٢٠٨ ، ح (٦٣٧٨ - ٦٣٧٩) .

وهذه أسماء* رضي الله عنها هاجرت حاملاً بعبد الله رضي الله عنه* قالت رضي الله عنها في ذلك (خَرَجْتُ وَأَنَا مُتَمِّمٌ فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَنَزَلْتُ بِقُبَاءَ فَوَلَدْتُهُ بِقُبَاءَ ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رَيْقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ ثُمَّ دَعَا لَهُ وَبَرَكَ عَلَيْهِ وَكَانَ أَوَّلُ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ»^(١) .

وفي رواية للإمام مسلم : قالت عائشة - رضي الله عنها - : فمكثنا ساعة نلتمسها (التمر) قبل أن نجدها - فمضغها « (رسول الله ﷺ) ثم بصقها في فيه ، فإن أول شيء دخل بطنه لريق رسول الله ﷺ ، ثم قالت أسماء : ثم مسحته وصلى عليه وسماه عبد الله* ، ثم جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايع رسول الله ﷺ ، وأمره بذلك الزبير ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلاً إليه ثم بايعه» .

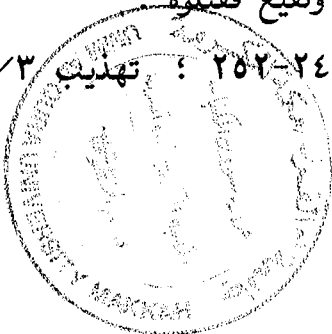
وتفخر أسماء بابنها رضي الله عنهما ، وحق لها أن تفخر ، فبفطنتها واهتمامها كانت بركة تحنيك رسول الله ﷺ له ، ومن ثم صار عبد الله بن الزبير* - رضي الله عنهما - بحق مولود الهجرة النبوية ، وأي فخر كهذا الفخر وأي شرف، فهنيئاً لك يا أسماء - رضي الله عنك - .

(١) البخاري ، الصحيح ، ٢م ، ج ٤ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ص ٣١٢ ، ح (٣٩٠٩) ؛

مسلم ، الصحيح ، ج ٣ ، كتاب الآداب ، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ، ص ١٦٩٠ ، ح (٢١٤٦) .

(*) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ، القرشي الأسدي أبو عبد الله حواري الرسول ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أهل الشورى وأول من سل سيفه في سبيل الله ، أسلم وعمره ست عشرة سنة وقيل اثني عشرة وقيل ثمان شهد بدرًا وما بعدها وهاجر الهجرتين استشهد في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين هجرية وله ست أو سبع وستون سنة ، وقتله عمرو بن جرموز وأعانه فضالة بن حابس ونفيح فقتلوه .

(الإصابة ١/٥٤٥ ؛ سير ١/٤١ ، اسد الغابة ٢/٢٤٩-٢٥٢ ؛ تهذيب ٣/٣١٨ ، ط ابن سعد ٣/١٠٠) .



أما الخنساء * رضي الله عنها ، فقد خاضت الحروب مع أولادها الأربعة رضي الله عنهم^(١) .

وتلك الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس * روى عنها ولدها عبد الله بن جعفر * ، وحفيدها القاسم بن محمد بن أبي بكر * وعبد الله بن عباس * وهو ابن أختها ، وكذلك عبد الله بن شداد * بن أختها الأخرى ، وحفيدتها أم عون بنت محمد *

(*) الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد بن رباح بن ثعلبة بن عصىة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم السلمية الشاعرة المشهورة ، وقد أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم يكن من قبل ولا من بعد قط أشعر منها بين النساء . الإصابة ٢٨٧/٤ ؛ الاستيعاب ٢٩٥/٤ .

(١) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ٢٨٧-٢٨٨ .

(*) أسماء بنت عميس بن معد الخثعمية أم عبد الله من المهاجرات إلى الحبشة مع زوجها جعفر ، فلما استشهد تزوجها أبو بكر ، ثم تزوجت علياً ، وكان عمر يسألها عن تفسير المنام ، وعاشت بعد علي ، وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن كنانة (الإصابة ٢٣١/٤ ؛ سير ٢٨٢/٢ ؛ الاستيعاب ٢٣٤/٤ ؛ ط ابن سعد ٢٨٠/٨ ؛ تهذيب ٣٩٨/١٢-).

(*) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي ، أبو محمد وأبو جعفر وهي أشهر ، أمه أسماء بنت عميس ولدت به وهي بالحبشة وهو أول من ولد بها من المسلمين وكان يقال له قطب السخاء لكرمه وجوده توفي عام ٨٠ هـ وقيل غير ذلك (الاستيعاب : ٢٧٥/٢ ؛ الإصابة : ٢٨٩/٢ ؛ السير : اسد الغابة : التهذيب : ١٧٠/٥) .

(*) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة وكان أفضل أهل زمانه ، ولد في خلافة علي وكنيته أبو محمد قال ابن سعد : كان ثقة عالماً رفيعاً فقيهاً ورعاً إماماً كثير الحديث وكان أحد الفقهاء بالمدينة توفي سنة ١٠٦ هـ . سير ٥٣/٥ ؛ ط ابن سعد ١٨٧/٥ ؛ تهذيب ٣٣٣/٨) .

(*) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس ابن عم الرسول ﷺ ، وأمّه أم الفضل ، لبابة ولد وبنو هاشم في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين ، حبر الأمة وكان يقال له البحر لسعة علمه وهو ترجمان القرآن وفقهه الأمة توفي الرسول وله من العمر خمس عشرة سنة ، وقد دعا له الرسول ﷺ بقوله (اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل) صحابي جليل له من المناقب والفضائل الكثير والكثير . توفي بالطائف سنة ٦٨ هـ - رضي الله عنه وأرضاه - .

(الإصابة : ٣٣٠/٢ ؛ الاستيعاب : ٣٥٠/٢ ؛ السير ٣٣١/٣ ؛ ط ابن سعد : ٣٦٥/٢ ؛ أسد الغابة : ٢٩٠/٣ ؛ التهذيب : ٢٧٦/٥) .

(*) عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي المدني أمه سلمى بنت عميس ولد في زمن النبي ﷺ وعد من الطبقة الأولى ، من تابعي أهل المدينة ، هكذا ذكر ابن سعد ، وعده خليفة من تابعي أهل الكوفة . وهو من كبار التابعين توفي سنة ٨١ هـ وقيل ٨٢ هـ

(ط ابن سعد ٦١/٥ ؛ الإصابة ٦٠/٣ ؛ سير ٤٨٨/٣ ؛ أسد الغابة ٢٥١/٥ . تهذيب ٤٧٤/١٢) .

(*) أم عون بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب الهاشمية يقال أم جعفر زوجة محمد بن الحنفية وأم ابنه عون . (تهذيب ٤٧٤/١٢) .

ابن جعفر بن أبي طالب^(١) رضي الله عنهم جميعاً.

وهذه زينب* بنت أم سلمى تتربى في بيت النبوة وتروى الأحاديث عن أمها رضي الله عنهما^(٢).

ومرة أخرى تشدني الصحابية الجليلة أم سليم رضي الله عنها حين تصطحب أنساً رضي الله عنه ، حيث قال رضي الله عنه (جاءت بي أمي أم أنس إلى رسول الله ﷺ وقد أَرَزَّتْني بنصف خمارها ، وَرَدَّتْني بنصفه ، فقالت يارسول الله هذا أنيس ابني أتيتك به يخدمك فادع الله له فقال : «اللهم أكثره ماله وولده» ، قال أنس فوالله إن مالي لكثير ، وإن ولدي وولد ولدي لِيَتَعَادُونَ على نحو المائة اليوم^(٣) .

والملاحظ من تلك النصوص الكريمة أن الأم المسلمة كانت شديدة الحرص على أن يتشرب ولدها الدين فينشأ على الإيمان والإسلام ، فكانت دأبة العمل على تحقيق ذلك بأية وسيلة لأنها علمت أن سر الكون هو العبادة ، وليست حياة الهمل والكسل فعاشت ذلك واقعاً وقُدوة .

يقول الأستاذ البهي الخولي في ذلك : « وليست نعمة الوجود التي عظم بها شرف السببية فيما يصيب الإنسان في حياته من شهوات الطعام والشراب واللباس ، ومتعة الجسد ، إنما النعمة في أن يكون حافلاً في كل آياته ودلالة كائناته بمعالم معرفة الله تعالى ، معالم الجمال والجلال ، وآيات العلم والحكمة ، إن الإنسان ميز بسر من الملكات الباطنة تستشعر هذا الجمال وتجنّي من تلك الدلائل مالهامن ألوان الصبر والفكر وزاد الروح .

إن إيجاده في هذا الكون معناه إيجاده في جنة من المعرفة والصدق ومعين الحياة ، فينبثق له من الأذواق ، ما يحقق له نعيم الآخرة وهو ما يزال في الدنيا ،

(١) انظر : ابن حجر ، الإصابة ج ٤ ، ٢٣١.

(*) زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال المخزومية ولدت بأرض الحبشة وتزوج الرسول أمها أم سلمة وهي ترضعها ، ربيبة الرسول ﷺ ، وكان اسمها برة فسمها الرسول ﷺ زينب ، يروى أنها دخلت على النبي وهو يغتسل فنضج في وجهها ، فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجزت توفيت سنة ٧٣ هـ .

(الإصابة ٣١٧/٤ ؛ الاستيعاب ٣١٩/٤ ؛ سير ٢٠٠/٣ ؛ ط ابن سعد ٤٦١/٨ ؛ تهذيب ٤٢١/١٢ ؛ أسد الغابة ١٣١/٧).

(٢) انظر : ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ٣١٧.

(٣) مسلم ، ج ٤ ، كتاب الفضائل ، فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه ، ص ١٩٢٩ ، ح (٢٤٨١).

ويكتشف معدن الكرامة في نفسه ، إذ يرى أنه المقصود بذلك كله»^(١).

فهمة الأم المسلمة أن تغذي هذا الجانب في نفس طفلها فتبصره بآيات الله سبحانه فيتجه إلى الله سبحانه بالعبادة والتوحيد .

وقد كانت الصحابييات رضوان الله عليهن حريصات على تدريب أولادهن على الالتزام بشعائر الإسلام ، فعن الربيع بنت معوذ* بن عفراء رضي الله عنهم قالت : (أرسل رسول الله ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة من كان أصبح صائماً فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، فكنا بعد ذلك نَصُومُه ونصُومُ صبياننا الصغار منهم إن شاء الله ، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العِهنِ فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناها إياه عند الإفطار)^(٢) .

وفى رواية أخرى قالت الربيع رضي الله عنها (ونضع لهم اللعبة من العِهنِ* فنذهب به معنا فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يُتِمُوا صومهم)^(٣) .

وهكذا كانت المرأة المسلمة تحاول جاهدة أن تعلم ولدها ما استطاعت من أحكام الدين فتدرجه على العبادات كما كان في حجة الوداع من سؤال الصحابية رضي الله عنها عن حج ابنها حين رفعته ليراه رسول الله ﷺ وسارت النساء من التابعين على هذا المنوال .

فكانت أم سفيان الثوري رحمهما الله - تتخول ابنها بالموعظة والتوجيه ومن ذلك قولها له : (يا بني إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك، وحلمك ، ووقارك ، فإن لم يزدك ذلك فاعلم أنه لا يضررك ولا ينفعك)^(٤) .

وبذلك .. ومن خلال هذه النماذج الرفيعة من السلف الصالح - رضي الله عنهم - وبما عاشوه من واقع حي للكتاب والسنة ، آباء وأمهات ، وأبناء ، كان هذا التاريخ المشرف في تلك الحقبة الناصعة المشرقة من تاريخنا .

(١) البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ، ص ١٥٣.

(*) الربيع بنت معوذ بن عفراء الأنصارية من بني النجار ، لها صحبة ورواية ، وقد زارها النبي ﷺ صبيحة عرسها صلة لرحمها . عملت دهرأ ، وروت أحاديث . توفيت في خلافة عبد الملك سنة بضع وسبعين رضي الله عنها .
(الاستيعاب : ٣٠٨/٤ ؛ الإصابة ٣٠٠/٤ ؛ تهذيب ٤١٨/١٢ ؛ سير ١٩٨/٣ ؛ أسد الغابة ١٠٧/٧)

(*) (العِهنُ ، الصُوفُ المُلَوَّنُ (ابن الأثير ، ج ٣ ، (عهن) ، ص ٣٢٦) .

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الصوم ، باب من أكل في عاشوراء فليكن بقية يومه ، ص ٧٩٨ ، ح (١١٣٦) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٩٩ ، صحيح مسلم .

(٤) ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ، صفة الصفوة ، فهرسة عبد السلام هارون ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م) تصوير : مكة ، المكتبة التجارية) م ٢ ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

الفصل الثاني

الأهمية الاجتماعية

إن الأم تسهم في بناء المجتمع بتزويده بلبنيات صالحة قوية مستقيمة وذلك من خلال :

١- أثر الأم في التكوين الاجتماعي عند الأطفال :

لقد نص القرآن الكريم على أن للبيئة الاجتماعية أثرها الكبير في شخصية الإنسان كما ورد في قصة مريم عليها السلام ، قال تعالى : ﴿ يَا خَتَّ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ (سورة مريم - آية ٢٨).

فقد كانت -عليها السلام- من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله * أي أنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة^(١) ، ولهذا فإن قوم مريم شكوا أن تأتي بعار وهي ابنة الشرف والدين والخلق والزهد .

وقد أشارت السنة النبوية الشريفة إلى واجب الأم في التوجيه الاجتماعي ودورها في ذلك كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فقد كان صحابة رسول الله ﷺ يتبارون في التنافس على فعل الخيرات ، وتقديم الطاعات ، وفعل القربات ، ولذا فقد استحقوا أن يكونوا خير القرون ، ويكفيهم هذا شرفاً رضوان الله سبحانه وتعالى عليهم جميعاً .

وقد روى صحابة رسول الله ﷺ أولادهم على الخصال الفاضلة والسجايا الحميدة الكريمة فكانوا مشاعل النور ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني مجُهودٌ ، فأرسلني إلى بعض نساياه فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماءٌ ثم أرسلني إلى أخرى فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، فقال ﷺ (من يضيف هذا الليلة رَحِمَهُ اللهُ ؟) ، فقام رجلٌ من الأنصار فقال : أنا يارسول الله ، فانطلق به إلى رَحْلِهِ فقال لامرأته هل عندك شيء ؟ قالت : لا إلا قوتٌ صبياني . قال فعلليهم بشيءٍ ، فإذا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأُطْفِئِ السَّرَاجَ وَأَرِهْ أَنَّا نَأْكُلُ فَإِذَا هَوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ حَتَّى تَطْفِئِيهِ قَالَ فَقَعْدُوا فَأَكَلَ الضَّيْفُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : رَسُولُ

(*) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير البصري ثم الدمشقي الفقيه الشافعي وكان قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ وكان على مبلغ عظيم من العلم وقد شهد له العلماء بسعة علمه وغزارة مادته خصوصاً في التفسير والحديث والتاريخ وتوفي في شعبان سنة ٧٧٤هـ (طبقات المفسرين للداودي، ١/ ١٢٠) .

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

رسول الله ﷺ «قد عَجِبَ الله من صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا الليلة»^(١) .

قال الإمام النووي معلقاً على صنيع الصحابي وزوجه رضي الله عنهما : (هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل ، وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضرهم ، فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث يضرهم ترك الأكل لكان إطعامهم واجباً ويجب تقديمه على الضيافة وقد أثنى الله ورسوله على هذا الرجل وامرأته فدل على أنهما لم يتركا واجباً بل أحسنا وأجملا رضي الله عنهما ، وأما هو وامرأته فأثرا على أنفسهما برضاهما ، مع حاجتهما وخصاصتهما فمدحهما الله تعالى»^(٢) .

وهكذا تسمو عواطف الإيثار بالإنسان فيرفرف في عالم روحي نظيف يورثه ويعلمه أبناءه ، ذلك السمو الذي ينبثق عن عاطفة الأخوة والرحمة وإنكار الذات التي ترتفع على القوانين، والتي لا تستطيع القوانين أن تؤدي دورها إلا إذا عاشت في سياق هذه المعاني السامية النبيلة .

وقد قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آل عمران - آية ١٥٩) .

والمجتمع الذي يقيم الخلافة لله سبحانه وتعالى في هذه الأرض لا يقوم إلا على جهود العلماء العاملين الذين يشكلون القدوة ، والنبراس الذي يؤتم به ، وتربية هؤلاء لابد أن يتوفر لها أمهات صالحات يربين العلماء القدوة والقادة ، كما كان من الصحابييات رضوان الله عليهن ومن تبعتهن من السلف الصالح رضي الله عنهم، وهذه نماذج من علماء الإسلام ، ممن سطورا تاريخاً مشرقاً مشرفاً وكان الدور فيها للأمام ، يقول الإمام مالك رحمه الله* عالم المدينة ، : قلت لأبي: أذهب وأكتب

(١) مسلم ، الصحيح ج ٣ ، كتاب الأشربة ، باب إكرام الضيف ، ص ١٦٢٤ ، ح (٢٠٥٤) والبخاري في صحيحه بنحوه ، م ٢ ، ج ٤ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» الحشر - آية ٩ ، ص ٢٧٣ ، ح (٣٧٩٨) .

(٢) النووي ، شرح صحيح مسلم ، (دار الفكر ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) م ٧ ، ج ١٤ ، ص ١٢ .
(*) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان ، الحميري ، ثم الأصبحي ، المدني شيخ الإسلام ، حجة الأمة إمام دار الهجرة ، وأمه هي عالية بنت شريك الأزدي ، ولد في سنة ثلاث وتسعين ، ونشأ في صون ورفاهية ، وتجمل وطلب العلم، وهو ابن بضع عشرة سنة وتأهل للفتيا ، وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وحدث عنه جماعة ، وهو شاب طري ، وقال عنه الشافعي إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ولم يكن بالمدينة عالم من التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة واللفظ توفي رحمه الله سنة ١٧٩ هـ . (تهذيب ٥/١٠) التمهيد ٦١/١ .

العلم ؟ فقالت : تعال فالبس ثياب العلم - فألبستني ثياباً مشمّرة ، ووضعت الطويلة على رأسي ، وعمّمتني فوقها - ثم قالت : اذهب فاكتب الآن»^(١) .

لقد حددت أم مالك رحمهما الله طريقة حياة ابنها في طلب العلم ، بتعزيز ماكان عنده، ومن توجيه لذلك ، فعاش رحمه الله إماماً وعالمًا فريداً في تعظيمه لحديث رسول الله ﷺ ، ما بلغ أحد من التابعين رضي الله عنهم قدره في ذلك .

وكذلك الإمام الشافعي رحمه الله* تتولى تربيته والعناية بتعليمه أمه -رحمها الله- ، حيث ربي يتيماً في حجرها ، وهي فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه، فتعهدته رحمها الله بمدرسة العلماء والأخذ عنهم^(٢) حتى كان إماماً يقتدى به، وقائداً يشار إليه بالبنان في الشرق والغرب .

و منهم الإمام سفيان الثوري* ، إمام أهل البصرة ، وأمه من المصطفيات العابدات وهي التي قالت لابنها : «يابني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي»^(٣) .

وعلم أهل الشام وشيخ الإسلام أبو عمرو الأوزاعي الذي تعجب من حاله حتى قال أحد العلماء فيه لابنه : (سبحانك تفعل ما تشاء ، كان الأوزاعي يتيماً

(١) الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب ، ابن فرحون المالكي المتوفي سنة ٧٧٩هـ ، تحقيق وتعليق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة ، دار التراث (ج ١ ، ص ١١٠ .
(*) الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب الهاشمي، عالم العصر، ناصر الحديث فقيه الملة أبو عبد الله القرشي ثم المطلبي الشافعي المكي نسب رسول الله . وابن عمه ولد بغزة ومات أبوه شاباً فنشأ يتيماً في حجر أمه بمكة وأقبل على الرمي حتى فاق فيه الأقران، ثم أقبل على العربية والشعر فبرع في ذلك، ثم حُبب إليه الفقه فساد أهل زمانه، وارتحل وهو ابن نيف وعشرين سنة وقد أفتى وتأهل للإمامة وارتحل إلى المدينة فحمل عن مالك بن أنس «الموطأ» عرضه من حفظه توفي رحمه الله سنة أربع ومئتين وله من العمر نيف وخمسون سنة . (سير ١٠/٥).

(٢) انظر: الرازي ، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، تحقيق عبد الغني عبد الخالق ، ، آداب الشافعي ومناقبه ، (بيروت ، دار الكتب العلمية) ص ٢٧؛ البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسن، مناقب الشافعي، تحقيق السيد أحمد صقر ، الطبعة الأولى ، (القاهرة : دار التراث ، ١٣١٩هـ ، ١٩٧١م) ص ٩٢.

(*) سفيان بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة، إمام الحفاظ وسيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد، ولد سنة سبع وتسعين، وطلب العلم وهو حدث باعتهاء والده المحدث الصادق سعيد بن مسروق الثوري، وكان لايفتر لسانه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وتوفي سنة ١٢٦هـ. (سير ٧/١٢٩).

(*) أبو عمرو الأوزاعي عبد الرحمن عمرو بن محمد شيخ الإسلام وعالم أهل الشام كان مولده في حياة الصحابة سنة ثمان وثمانين، وكان كثير العلم والحديث والفقه، وكان له مذهب مستقل مشهور عمل به فقهاء الشام مدة وفقهاء الأندلس ثم فني، وأرادوا أن يولوه القضاء فامتنع وأبى فتركوه، توفي رحمه الله سنة إحدى وخمسين ومائة. (سير ٧/١٠٧).

(٣) انظر ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٣ ، ص ٩٧.

فقيراً في حجر أمه تنقله من بلد إلى بلد وقد جرى حكمك فيه أن بلغته حيث رأيته
يا بني عجزت المملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه»^(١) .

ومنهم ربيعة الرأي* مفتي المدينة في زمنه ، وحافظ سنة رسول الله ﷺ ،
والمشهور في حياته - رحمه الله - أن أباه خرج غازياً وربيعه حمل في بطن أمه ،
وخلف مალًا ، عند زوجته أم ربيعة ، فقدم المدينة بعد سنين ليجد ابنه قد فاق أهل
زمانه علماً وفقهاً^(٢) .

وقد بلغ الأمر بتأثير الأمومة أن علل العلماء فصاحة الحسن البصري رحمه
الله* وحكمته من بركة الحليب الذي شربه من أم سلمة رضي الله عنها ، فقد كانت
أمه مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ ، وربما غابت في حاجة فيبكي الحسن فتعطيه
أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلقه به إلى أن تجيء أمه فدر عليه ثديها فشربه^(٣) .
وهذه الكريمة أم المؤمنين رضي الله عنها تتنبه بذكائها وفطنتها إلى أثر الأم
الاجتماعي في أولادها من خلال حادثة ابن أبي عتيق والقاسم* رضي الله عنهما
ابني أخويها، فعن ابن أبي عتيق* قال : «تحدثت أنا والقاسم عند عائشة رضي الله
عنها حديثاً وكان القاسم رجلاً لحّانة وكان لأم ولد، فقالت له عائشة : مالك لا تحدثُ
كما يتحدث ابن أخي هذا، أما إني قد علمت من أين أُتيت؛ هذا أدبته أمه، وأنت
أدبتك أمك»^(٤) .

(١) انظر الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، السير، إشراف شعيب الأرناؤوط
وعلى أبو زيد، الطبعة السابعة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ج ٧، ص ١١٠.
(*) ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ الإمام مفتي المدينة ، وعالم الوقت ، أبو عثمان المشهور
بربيعة الرأي كان من أئمة الاجتهاد ، وعنه أخذ مالك بن أنس وكان رحمه الله فقيهاً
عالمًا حافظاً للفقهِ والحديث قال عنه مالك بن أنس : ذهب حلاوة الفقهِ منذ مات ربيعة
وكان يأبى صحبة أحد إلا أحداً لا يتزود معه توفي رحمه الله سنة ست وثلاثين ومائة
بالمدينة . (سير ٨٩/٦) .

(٢) المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٨٩.

(*) الحسن البصري هو الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري
وكانت أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكانت أم سلمة تبعث أم
الحسن في الحاجة فيبكي وهو طفل فتسكت أم سلمة رضي الله عنها وتخرجه إلى أصحاب
رسول الله وهو صغير فكانوا يدعون له ، تولى القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز وكان
من أشجع أهل زمانه وأفصحهم وقيل مارؤي أحد أشبه رأياً بعمر بن الخطابؓ الحسن توفي
رحمه الله في أول رجب سنة عشر ومئة . (سير ٥٣٦/٤) .

(٣) ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،
تحقيق إحسان عباس (بيروت ، دار صادر) ج ١ ، ص ٧٠ ، ط ابن سعد ، ج ٧ ، ص ١٥٦ .

(*) إبن أبي عتيق : عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه،
أبو بكر ، المعروف بابن أبي عتيق (تقريب ٣٢١/٣٥٨٨) من المتقدمين .

(*) القاسم : بن محمد بن أبي بكر الصديق التيمي ، أحد الفقهاء بالمدينة توفي سنة ست
ومائة (تقريب ٤٥١/٤٥٨٩) .

(٤) مسلم ، الصحيح ، ج ١ كتاب الصلاة ، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام المراد أكله ،
ص ٣٩٣ ، ح (٥٦٠) .

ومن ذلك أيضاً رواية أولاد الخنساء الشعر كأمرهم رضي الله عنهم جميعاً^(١) .

ولم أقف في الغالب على حياة عالم من علماء الأمة الإسلامية إلا ولمحت في سيرته أثراً لصالح أمه و علمها و فضلها ، ولمست ذلك أيضاً في تراجم مشاهير الأعلام في بقاع الأرض ، فهذا فشر هيرت^(٢) المؤرخ الشهير يقول : (كانت والدتي قديسة من القديسات ، والحق أنه لم تعش قط سيدة أشد منها إيثاراً وإنكاراً للنفس ، فقد كانت حياتها كلها سلسلة من البذل والتضحية المتواصلة في سبيل خدمة الآخرين ، وقد ولدت أحد عشر طفلاً ، غمرتهم جميعاً بفيض من عطفها ، ووابل من حبها ورعايتها وكانت أول معلمي وأفضلهم ، ولا أزال أذكر فصولها في غرفة اللعب المخصصة لنا ، فأذكر الهمة والنشاط ، وعذوبة الصوت التي تبدو في دروسها ، فكان كل درس من دروسها مغامرة حلوة مثيرة ، لأعمالاً موجبة الضجر والسأم ، فأرضعتني حباً للتعلم ، وأكسبتني بهجة من الدرس والتحصيل لن تنسى^(٣) .

وأخيراً .. يقول أحد الشعراء في الأثر الاجتماعي للأم على الطفل :

وليس ربيبٌ عالية المزايا * كمثل ربيب سافلة الصفات

وليس النبتُ يَنْبُتُ في جنانٍ * كمثل النبتِ يَنْبُتُ في الفلاة^(٤)

وإن وجود الأم إلى جانب الطفل ، وتوفير الجو الصحي لنموه الاجتماعي من خلال التوازن الأسري جملة ، يهيئ الطفل للنشأة الاجتماعية السوية ، وحين ينعدم ذلك التوازن أو يختل اختلالاً مشيناً ، يعرض هذه النشأة الاجتماعية للانحراف فقد تبين في إحصائيات للذين يمثلون للمحكمة أن ٦٠% ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣-٢٠ سنة ، وإن قرابة ٢٥% يكونون في الثانية عشرة أو دون ذلك ، وفي هذا دلالة على أن السلوك الجانح يظهر في الأعمار الباكرة وهذا يوضح السبب في زيادة جنوح الأحداث

(١) انظر : ان حجر . الصابة ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ .

(٢) هو علم من أعلام المؤرخين في العصر الحديث ، ومصلح من كبار المصلحين في شؤون التربية والتعليم ، وضع وهو وزير المعارف لبلاده القانون الشهير الذي عرف باسمه ورفع مقام المعلم إلى درجة لم تكن تخال من قبل ولد سنة ١٨٦٥م ومات سنة ١٩٤١م . مقدمة كتابه أوربا في العصر الحديث ، ص / ز

(٣) من مقدمة كتاب فشر هيرت أول ، أوربا في العصر الحديث ١٧٨٩-١٩٥٠م ، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ، الطبعة الرابعة (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤م) ص/ح .

(٤) معروف الرصافي ، ديوان الرصافي (بيروت : دار مكتبة الحياة) ص ٣٤٩ .

زيادة مقلقة^(١)، ولعل ذلك راجع إلى كثرة انهيار الأسر ، السوري والفعلية بارتفاع نسبة المشاكل الأسرية أو ارتفاع نسبة الطلاق نسبة مخيفة ، أو عدم تشكل الأسرة على الإطلاق، وتشير الدراسات الاجتماعية إلى أن كثيراً من الأمهات (غير المتزوجات) من أسر منهارة ، تفتقر إلى أحد الوالدين أو إلى أسر تسود فيها الأم ، وعادة مايكون الأب سلبياً ، لا يملك القدرة على مواجهة تسلطها ، وإن أغلب هؤلاء الفتيات ضحايا مشكلات اجتماعية أسرية^(٢)، فالأم التي لاتعرف حدود دورها ووظيفتها في الأسرة ولا تخضع لقوامة الزوج بالحق، هي أم عاصية لله ولرسوله ﷺ مفرطة بمسؤوليتها التي تجر الويل لنفسها ولمن حولها ديناً ودنياً.

٢- المحافظة على نمو الأسرة وتماسكها :

إن للأم دوراً كبيراً في المحافظة على نمو الأسرة وتماسكها وذلك من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والصحية، وعدم تعريضها للزلازل والكوارث ، لتهيئ للأمة الأفراد الصالحين .

وجود الأم في الأسرة يشكل صمام الأمان بالنسبة للطفل، ومن خلال شعوره بهذا الأمان يستطيع التعامل والتعايش مع المحيط الاجتماعي الخارجي ، فهي «أول من يكون في الطفل منطلق العلاقات الإنسانية ، وهي وإن بدت للطفل - وكأنها لامناص منها بشكل مطلق - إلا أنها في الحقيقة «وسيط» يجب أن يتجاوزها الطفل ليصل إلى العالم الخارجي والأم حين تقدمه إلى هذا العالم تضاعف ثقته بنفسه وبالعالم»^(٣) .

وهكذا تخط الأم بتعاملها وأنماط سلوكها مع طفلها مستقبل حياته ، فهو التلميذ في الدراسة وهو المواطن في المجتمع وهو الزوج مستقبلاً وهو الأب ، أو الأم . والإسلام حريص على الأسرة المسلمة ، من أن تمتد إليها يد عابث من داخلها أو خارجها ، لذا فقد وضع الحدود والقوانين التي يجب على كل من الأب والأم مراعاتها والوقوف عندها ، وحض الأم على التضحية والإيثار فقد قال تعالى :

(١) انظر : فاخر عاقل ، علم النفس التربوي ، الطبقة الحادية عشرة (لبنان : دار العلم للملايين، ١٩٨٥م ، ص ٥٩.

(٢) انظر : مصطفى رزق مطر ، تنظيم وإدارة مؤسسات الرعاية والتنمية الاجتماعية من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٧م) ص ٢٠٩.

(٣) عدنان السبيعي ، سيكولوجية الأمومة ومسؤولية الحمل ، الطبعة الأولى ، دمشق الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ج ١، ص ٣١٦.

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يَصْلِحَا بينهما صلحاً والصلح خيرٌ ، وأحضرت الأنفس الشحَّ ، وإن تَحَسَّنوا وتَتَّقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (سورة النساء - آية ١٢٨).

ومما جاء في تفسير هذه الآية ما روته عائشة رضي الله عنها قالت : (الرجل يكون عنده المرأة ليس بمُسْتَكْثَرٍ منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأني في حلٍّ فنزلت هذه الآية في ذلك) ^(١).

﴿وإن تَحَسَّنوا وتَتَّقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (سورة النساء - آية ١٢٨) ، والخطاب هنا للأزواج .

أي « إن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتقسموا لهن أسوة بأمثالهن ، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكُم على ذلك أوفر الجزاء » ^(٢) .

وهذه هاجر رضي الله عنها ، تنشيء أول مجتمع إسلامي مستجيبة مطيعة لزوجها ، مستسلمة لله سبحانه ، مادام الأمر منه وإليه عز وجل ، وكأن جبال مكة ووديانها تردد صدى صوتها حين فارقها زوجها : «آله أمرك بهذا ، قال إبراهيم عليه السلام نعم ، قالت إذن لا يضيعنا» .

لقد فرغت الشواغل من نفس زوجها وذهب عليه السلام راضياً مطمئناً فقد خلفته على أسرته زوجة مؤمنة بارة تقية ، عاقلة قوية فاضلة ، قانتة لله سبحانه وبأمر الله وقدرته ، وبما رزقت هاجر من عقل وحكمة استطاعت أن تدبر أمرها ، وكان خادمها في وحدتها الإيمان والصبر والثبات والدعاء ، فكان لها ماكان .

روى الإمام البخاري* عن ابن عباس رضي الله عنه قال : «لما كان بين

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٥ كتاب تفسير القرآن ، باب (وأحضرت الأنفس الشح) ، ص ٢١٩ ، ح (٤٦٠١) .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ، ص ٥٦١ ، ٥٦٢ .

(*) أبو عبد الله البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه ، أسلم المغيرة على يد اليمان الجعفي والي بخارى وطلب إسماعيل بن إبراهيم العلم وروى عن البخاري أنه قال : سمع أبي من مالك بن أنس ورأى حماد بن زيد وصافح ابن المبارك بكثرته يديه وجالس البخاري أحمد بن حنبل في بغداد ، وكان يقول صفت «الصحيح في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى ، وأجمع أغلب العلماء على أن كتابه الصحيح أصح كتاب بعد القرآن الكريم وكان حسن الحفظ والمعرفة ورحل في طلب الحديث ومهر فيه وكان أحمد بن حنبل يقول : لم يجئنا من خراسان مثل محمد بن إسماعيل وكان يدعى بأمير المؤمنين في الحديث وتوفي رحمه الله سنة ٢٥٦ هـ . (تهذيب ٤٧/٩ ؛ سير ٣٩١/١٢) .

إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة* فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدري لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحه ثم رجع إبراهيم إلى أهله ، فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه : يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال : إلى الله ، قالت رضيت بالله قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدري لبنها على صبيها حتى لما فني الماء قالت لو ذهبت فنظرت لعل أحس أحدا قال : فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحدا؟ فلم تحس أحدا ، فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة ففعلت ذلك أشواطاً ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل-تعني الصبي ، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ* للموت فلم تفرها نفسها فقالت : لو ذهبت فنظرت لعل أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا ، حتى أتممت سبعا ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل ، فإذا هي بصوت ، فقالت : أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل عليه السلام قال : فقال بعقبه هكذا وعمر عقبه على الأرض قال : فانبثق الماء فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفز* فقال أبو القاسم رحمه الله : «لو تركته كان الماء ظاهراً» ، قال : فجعلت تشرب من الماء ويدري لبنها على صبيها ، قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادي فإذا هم بطير ، كأنهم أنكروا ذاك ، وقالوا : ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء ، فاتاهم فأخبرهم فاتوا إليها فقالوا : يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ، أو نسكن معك ؟ فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة . قال : ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام فقال لأهله : إني مطلق تركتي قال : فجاء فسلم فقال : أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته : ذهب يصيد ، قال : قولي له إذا جاء : غير عتبة بابك ، فلما جاء أخبرته ، قال : أنت ذاك ، فاذهبي إلى أهلك ، قال : ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله : إني مطلق تركتي ، قال فجاء فقال : أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته : ذهب يصيد ، فقالت : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟ فقال وما طعامكم وما شربكم ؟ ، قالت : طعامنا اللحم وشربنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشربهم^(١) .

(*) شنة : القرية الخلقة وهي أشد تبريداً للماء من الجديدة . (ابن الأثير، ج ٢

(شنة، ٥٠٦) .
(*) ينشغ : يمتص بفيه ، من نشغ الصبي دواءً فانتشغه ، والنشغ : الشهيق (ابن الأثير، ج ٥ (نشغ) ص ٥٨) .

(*) تحفز : تجمع الماء وتضمه . (انظر : ابن الأثير ، ج ١ ، (حفز) ، ص ٤٠٧)
(١) البخاري ، الصحيح ، م ٢ ، ج ٤ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب يزفون النسلان في المشي ،

إن ما تشير وتدلل عليه قصة زمزم وأمنا هاجر عبر كثيرة منها :-

- ١- إن الأم لها اليد الطولى في بقاء الأسرة واستمرارها ، حيث إن هاجر استسلمت لأمر ربها فحفظت أسرتها وتحملت وكابدت الغربة والوحدة والمشقة فكان الله سبحانه وتعالى معها .
 - ٢- إن الزوجة التي تنكر فضل زوجها قد تكون سبباً في هدم بنيان الأسرة وهذا ماكانت عليه زوجة إسماعيل-عليه السلام-الأولى .
 - ٣- إن للأمم المؤمنة دوراً كبيراً في بناء الأسرة وفي بناء المجتمع قد يفوق دور الرجل أحياناً ، فهذه هاجر تعاقدت ومنت وأسست فكان في مكة المكرمة ما كان وتعلق الداعية المجاهدة زينب الغزالي حفظها الله على ما فعلته أمنا هاجر فتقول: «وعاشت هاجر بجوار البيت الحرام ، وعقدت أول معاهدة لتنظيم حياة المجتمع عقائدياً واقتصادياً، وقام مجتمع إسلامي شعاره التكافل والعدل في أرض العرب، فكان نواة لدولة تحكم مشارق الأرض ومغاربها»^(١) .
- لقد استطاعت أمنا هاجر رغم الشدائد ، وقسوة الحياة أن تحفظ أسرتها ، بل أن تكون أول أسرة في مكة المكرمة ، أم القرى ، في واد غير ذي زرع ، فكانت تلك أسرة أم إسماعيل عليه السلام نواة الأسر الإسلامية ، والتي بعث منها رسول البشرية ، وهادي الأنعام ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وقدوة المرين ، والأسوة الحسنة الأولى والأخيرة إلى يوم الدين محمد - ﷺ - بن عبدالله بن إسماعيل - عليه السلام - ابن أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .
- لقد استطاع إسماعيل - عليه السلام - حين شب وكبر ، أن يساهم في البناء في ذلك المجتمع الأول ، رغم شظف العيش ، وصعوبة الحياة ، فقد استطاعت تلك الأم العظيمة أن تعدّه إعداداً سوياً وتقدمه لهذا المجتمع من البيت : بيت الله الحرام ، أول بيت وضع للناس ، لتهوي إليه أفئدة من الناس ، وليكون إسماعيل - عليه السلام هو ذلك الوسيط بين الناس إلى بيت الله الحرام ، مع تلك الأم الجديرة بذلك التعظيم وذلك الشرف ، وذلك التقدير ، لما قدمت

(١) الداعية زينب الغزالي، مسيرة جهاد وحديث ذكريات ، إعداد ابن الهاشمي ، (القاهرة :

وأعطت وبذلت وصبرت ، وثبتت في مواقف الشدة ، ولم تتزعزع ، فكان إسماعيل عليه السلام ، وريث تلك الأم ، وصناعتها . فقد ربه ورعته في محيط هادئ مستقر ، في حضن الأمان والحنان والحب الثابت ، فغرس الطمأنينة في نفسه ليعمها ثقة واستقراراً في علاقاته-عليه السلام- مع الآخرين ، وهذا الاستقرار الاجتماعي والتفاعل مع المحيط، يكاد يكون نتيجة حتمية للعلاقة الثابتة والحميمة ، والأمنة ، والمستقرة بين الأم وطفلها^(١)

٢- تصدع الأسرة في الغرب والأزمات النفسية والعاطفية عند الأطفال .

لقد ذكر القرآن الكريم حاجة الطفل إلى القرب من أمه والتصاقه بها في قصة موسى عليه السلام حين امتن الله - سبحانه وتعالى - عليه فردّه إلى أمه ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى . إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى . أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي . إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (سورة طه آية ٣٧-٤٠).

ففي عودة موسى عليه السلام إلى أمه راحة واطمئنان وأمان لموسى عليه السلام، فكان الخطاب بالحن والتفضل من الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام والخطاب في الآيات كله موجه إلى موسى عليه السلام لتذكيره بفضل الله تعالى عليه وإكرامه له ، وكأن موسى عليه السلام هو أحوج ما يكون إلى هذه الرجعة إلى أمه من الأم نفسها، وهو ما توصل إليه العلم الحديث الآن . وواقع الحضارة وما أفرزته من روابط وعلاقات مادية ، بالبعد عن الله سبحانه ، أوجد جيلاً يحن ويبعث عن محضن الطمأنينة والأمان عند الأم .

فانهيار الأسر في الغرب خلق جيلاً ضائعاً مشتتاً ضحلاً نتيجة فقدان الأمومة الحانية، حيث غابت سعادة المرأة في بيتها في عالم الغرب، وتنكرت المرأة لأومومتها،

(١) انظر : د . فايز قنطار ، «الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم ، عالم المعرفة ، العدد (١٦٦) ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م) ص ٥٣-٥٤ .

مما جر الدمار للأسرة إلى دمار آخر بانتشار الأطفال في كل البلاد الغربية ، جيل ضائع لا يعرف قيماً ولا نظاماً ولا ارتباطاً .

كشفت دوائر إحصائية بريطانية لعام ١٩٩٢م أن نسبة ٤١% من الشباب في بريطانيا بدأوا التدخين في سن السادسة عشرة، وأن نسبة الفتيات المدخنات تزداد سنة بعد سنة . وأنهن بدأن التدخين في سن الحادية عشرة وإن ٥٠% من الفتيات يدخن السجائر في سن الرابعة عشرة^(١) . وأول أسباب ذلك انهيار الأسرة ، وفقدان الأم خاصة .

فالأسرة هي «مهد الشخصية التي تمد الفرد بخبرات الحياة ، وهي الجماعة الأولى التي ينتمي إليها الفرد دون اختيار»^(٢) .

والأسرة «هي المسؤولة عن تكوين نمط الشخصية للفرد ، .. وهي الإطار العام الذي يغطي جميع الأدوار الاجتماعية المختلفة التي يلعبها الفرد على مسرح الحياة»^(٣) ويقول : «علماء النفس والاجتماع ، والنفس الاجتماعي بأن العائلة هي المؤسسة الاجتماعية الأولى المسؤولة عن تطوير شخصية الطفل من النواحي الجسمانية والاجتماعية والنفسية والعقلية والوجدانية والروحية والأخلاقية»^(٤) .

إن العلاقات التي تسود بين الأبوين في الأسرة لها كبير الأثر على سلوك الفرد كالتوتر بينهما وما ينتج عنه من اختلافات ومشاجرات وما يكون من تحطيم الأسر وما يتلوه من أزمات نفسية وصراع ينعكس مردوده على الأولاد جملة .

إن نتائج الدراسات الأمريكية تشير إلى أن نسبة الجنوح الناتج عن البيوت المتصدعة بين ٣٠% إلى ٦٠%^(٥) .

إن وجود الطفل في أسرة يسودها الحب والرحمة ، والتعاطف والقيم الأخلاقية الكريمة ، يشعره بالأمن والطمأنينة والاستقرار ، مما يهيء له البيئة الصالحة ليكون

(١) مجلة النور ، العدد ٩٤-٩٥ ، السنة التاسعة ، ذو الحجة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، ص ٦٤ .

(٢، ٣) د. محمد سلامة- محمد غباري ، الانحراف الاجتماعي ورعاية المنحرفين ، (مصر ، الاسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٨٩م) ، ص ١٢١ .

(٤) د. عدنان الدوري ، جناح الأحداث ، المشكلة والسبب ، الطبعة الأولى (الكويت : ذات السلاسل ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ص ٢٤٠ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ ، وانظر أسباب جناح الأحداث ، المؤلف مجهول ، ترجمة وتعليق محمد سلامة- محمد غباري ، (مصر ، الاسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، ص ١٥٥ .

إنساناً في ذاته ، وإنساناً في مجتمعه ، ولا يشترط وجود الأبوين معاً إلى جانب الطفل وإن كان هو الأصل لأن البيت غير المتصدع هو الذي (يتواجد فيه أحد الأبوين - على الأقل - بصورة واقعية دائمة وفي إطار علاقات حميمة مع الأطفال)^(١) .

إن رابطة الحب للأشخاص الذين تربطهم بالطفل أصول أسرية كالوالدين أو غيرهما ، أو من يلزمهم الطفل في حياته ، ويشعر منهم بقرب عاطفي ، ويحرص على إرضائهم - إن هذه الرابطة هي من أهم معوقات الجريمة ، وكلما كانت هذه الروابط قوية كلما أخذها الفرد بالاعتبار إذا فكر بسلوك منحرف .

إن الأسرة التي لاتهتم بمشاعر أطفالها ويسعدتهم ويؤسهم تهيئ الفرصة للانحراف^(٢) .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن؟ أيهما أكثر أهمية لملازمة الطفل ، الأب أم الأم ؟ ! .

والجواب : إن كليهما على مستوى واحد من الأهمية وعلى نفس الدرجة^(٣)

من التأثير لكن الأبحاث الحديثة خصت الأم في السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل بالأهمية ، فغياب الأم في هذه الفترة يسهم إلى حد كبير في اضطراب شخصية الطفل ، أو عرقلة نموه بشكل صحيح ، وقد يؤدي به إلى السلوك الجانح^(٤) .

وعلى كل حال ، فسواء وجد الأبوان في الأسرة ، أو وجد أحدهما ، بموت أو غيره ، فالمهم في الأمر أن يكون ارتباط الطفل بهذا الشخص المربي - الأب أو الأم أو غيرهما (عند فقدهما) ارتباطاً قوياً آمناً مستقراً ثابتاً ، وحميماً ، لأن الارتباط بهذا الشخص له نفس التأثير بالارتباط بالوالدين كليهما^(٥) ، إذا تحققت العلاقات الحميمة والعواطف الوشيعة بين الطفل ومن يلزمه .

(١) د. عدنان الدوري ، جناح الأحداث ص ٢٤٤ ، وأسباب جنوح الأحداث ص ١٥٠-١٥١ .

(٢) انظر : محمد سلامة محمد غباري ، الانحراف الاجتماعي ص ١٢٧ .

(٣) انظر أسباب جنوح الأحداث (المؤلف مجهول) ، ترجمة وتعليق د. محمد سلامة محمد غباري ، ص ١٤٩ .

(٤) انظر د. محمد سلامة محمد غباري ، الانحراف الاجتماعي ص ١٢٩ ، د. عدنان الدوري ، جناح الأحداث ، ص ٢٤٦ .

(٥) انظر : د. عدنان الدوري ، جناح الأحداث ص ٢٤٤ وأسباب جنوح الأحداث ، ص ١٥٠ ، ص ١٥١ .

الفصل الثالث

الأهمية التاريخية

الأمومة عبر التاريخ

إن الأمومة امتازت عن سائر العلاقات الإنسانية على مر التاريخ بالثبات وعدم التغير - إلا ما كان في الجاهلية المعاصرة .

وفي الأمم القديمة كان للأمومة مكانتها واحترامها ، فعند اليونانيين كان النسب إلى الأم تقديراً للأمومة أكثر من الأبوة ، وكانت المرأة عندهم تعامل كالأمومة إلى أن تلد فتكتسب بالولادة نظرات الاحترام والتبجيل^(١).

وكانت الأم عند المصريين القدماء ذات منزلة عظيمة ومما قالوا في الأم : ينبغي ألا تنسى أمك ، إنها حملتك ثقیلاً ، وحين ولدتك بعد تمام شهورها حملتك على عنقها ، وأرضعتك من ثديها ثلاث سنين^(٢).

وفي بلاد ما بين النهرين كانت الأم رمز الحب والخير والخصب والحنان^(٣) .

واعتبر اليهود الأمومة أقوى من صلة الأبوة والأم الولود تضمن لنفسها الطمأنينة والكرامة، وذلك إعلاء لشأن الأمومة^(٤).

وفي التعاليم النصرانية نالت الأم منزلة رفيعة^(٥). تعظيماً للأمومة مريم العذراء عليها السلام وولادة المسيح عليه السلام .

أما في جزيرة العرب وجاهليتها فقد كانت المرأة الأم رمز الحنان والتقدير والحب والتبجيل والاحترام ، وكثيراً ما كان ينسب العربي إلى أمه فخراً واعتزازاً بهذه الأم ، كالشاعر عمرو بن هند* ، وغيره .

(١) انظر : غوستاف لويون ، مقدمة الحضارات الأولى ص ٣٩ .

(٢) انظر : ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، (جامعة الدول العربية : الإدارة الثقافية) م ١ ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) انظر المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

(٥) انظر الكتاب المقدس ، العهد القديم والعهد الجديد ، (القاهرة ، دار الكتاب المقدس) العهد القديم الإصحاح العشرون ، ص ١٩٠ ، العهد الجديد ، الإصحاح السابع ص ٦٨ .

(*) عمرو بن هند ، عمرو بن المنذر الثالث بن امرئ القيس بن النعمان اللخمي ملك الحيرة في الجاهلية عرف بنسبته إلى أمه هند (عمة امرئ القيس الشاعر) وكان شديد البأس ، كثير الفتك ، هابته العرب وأطاعته القبائل ، مات بعد مولد النبي ﷺ ، وقتله الشاعر عمرو بن كلثوم .

(العرب قبل الإسلام ٢٠٨ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٦٥ ؛ الكامل لابن الأثير ١/١٥٤ ، ١٩٧)

وهذا الشاعر صخر* أخو الخنساء يذكر أمه حين لازم الفراش عاماً، بعد طعنة في جنبه أصابته يوم كلاب فقال مشيداً بحنان أمه وعطفها :-

أرى أمَّ صخر لاتمل عيادتي * وملّت سليمى مضجعي ومكاني
وأي امرئ ساوى بأم حليّة * فلا عاش إلا في شقاً وهوان^(١).

وإذا تتبعنا تاريخ الأمومة في القرآن والسنة ، وجدنا الأم رمز الحب والخير والعطاء والتقدير والاحترام والطاعة ففي القرآن الكريم ، حيث ذكرت فيه الأم الصالحة ذكر معها آية من آيات الله سبحانه كما في قصة أصحاب الأخدود حين ألقوا في النار، فقد روى الإمام مسلم* في نهاية القصة أنه (جاءت امرأة ومعهما صبي لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمّه اصبري فإنك على الحق^(٢)).

فتعظيماً لعاطفة هذه الأم المشفقة على رضيعها ، أنطق الله عزوجل هذا الرضيع، مما ثبت تلك الأم الموضع على إيمانها .

ومن القصص التي تشير إلى أصالة عاطفة الأمومة عند المرأة ، وأنها شيء فطري ، فلا يمكن لحوادث الزمن أن تغيرها مادامت النفوس مستقيمة وسليمة في فطرتها مارواه أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال : «بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنتِ وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود عليه السلام فأخبرته ، فقال : اتّوني بالسّكين أشقّه بينكما ، فقالت الصغرى: لا ، يرحمك الله هو ابنُها ، فقضى به للصغرى»^(٣).

(*) صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحي السلمي من بني سليم بن منصور أخو الخنساء الصحابية الشاعرة وكان من فرسان بني سليم وغزاتهم ، جرح في غزوة له على بني أسد بن خزيمة ، ومرض قريباً من الحول ، ثم مات ولأخته الخنساء شعر كثير في رثائه .

(نهاية الأرب للنويري ٣٦٦/١٥؛ جمهرة الأنساب ٢٤٩).

(١) ديوان الخنساء (بيروت : المكتبة الثقافية)، ص ١٧.

(*) أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري الإمام الكبير الحافظ المجدد الحجة الصادق صاحب الصحيح ولد سنة أربع ومئتين وكان من علماء الناس ومن أوعية العلم وألف الصحيح في خمس عشرة سنة وتوفي سنة إحدى وستين ومئتين في شهر رجب بنيسابور عن بضع وخمسين سنة .
(سير ٥٥٧/١٢).

(٢) مسلم ، الصحيح ج ٤ ، كتاب الزهد ، باب قصة أصحاب الأخدود ، ص ٢٣٠، ح (٣٠٠٥).

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج ٣ ، كتاب الأقضية باب بيان اختلاف المجتهدين ص ١٣٤٤ ح (١٧٢٠) ص ١٣٤٤ البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٨ ، كتاب الفرائض ، باب ادعت المرأة ابناً ، ص ١٥ ، (٦٧٦٩) .

قال الإمام النووي رحمه الله* : (استدل سليمان بشفقة الصغرى على أنها أمه ، وأما الكبرى فماكرهت ذلك بل أرادته لتشاركها صاحبها في المصيبة بفقد ولدها)^(١).

وهكذا فإن الأمومة أصيلة أصالة الفطرة الإنسانية السوية في النفس البشرية .

وإذا انتقلنا إلى عهد موسى وهارون عليهما السلام ، وجدنا هارون عليه السلام يلتمس رضا أخيه باستجاشة عاطفة الرحم التي جمعت بينهما حين عاتبه موسى عليهما السلام ، قال تعالى : ﴿ قَالَ يٰ هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلَا تَتَّبِعُنْ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۚ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (سورة طه - آية ٩٢-٩٤).

«يبنؤم» أي : (ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف)^(٢).

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى مقياساً لخوف الناس وهلعهم يوم القيامة بالأم التي تعرض عن إرضاع ولدها من خوفها من هذا اليوم الشديد، وكذلك الحامل التي تضع حملها هلعاً ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (سورة الحج - آية ٢).

﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أي : تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في حال إرضاعها له ولهذا قال ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ولم يقل مرضع ، وقال ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أي عن رضيعها قبل فطامه ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول^(٣).

ومما هو ملفت للنظر ما روي في «الإصابة» من تعظيم رسول الله ﷺ

(*) النووي الإمام الحافظ شيخ الإسلام محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحواري الشافعي كان - رحمه الله - لا يضيع له وقتاً في ليل أو نهار حتى في الطريق وكان لا يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر ممن لا يشتغل عليه وكان يواجه الملوك والظلم بالإنكار ويكتب إليهم ويخوفهم بالله تعالى ، وتوفي في الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/٢٩٥) .

(١) النووي ، شرح صحيح مسلم ، م ٦ ، ج ١٢ ، ص ١٨ .

(٢) ابن كثير ، التفسير ، ج ٣ ، ص ١٦٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

للأمومة، وتقديره ﷺ للأم ولوعتها حين تصاب ، فقد استأذنت أنيسة بنت عدي* الأنصارية الصحابية والدّة عبد الله بن سلمة* رضي الله عنهم العذلاني المقتول بأحد ، في نقل ابنها عبد الله بن سلمة وكان بدرياً قتل يوم أحد فأجبت أن تنقله إليها تأنس بقرية ، فأذن لها رسول الله ﷺ في نقله فعدلته بالمجدر بن زياد* على بعير لها في عباءة فمرت بهما فنظر النبي ﷺ فقال سوى بينهما عملهما وكان المجدر خفيف اللحم ، وكان عبد الله جسيماً ثقيلاً^(١) - رضي الله عنهم - .

وقد روى في سيرة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قصصاً عديدة تدل على تعظيم أمير المؤمنين للأمومة ، فقد سمع رضي الله عنه مرة بكاء صبي فتوجه نحوه ، فقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه ، ثم سمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال لها ذلك ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فقال : ويحك إني لأراك أم سوء مالي أرى ابنك لا يرقد الليلة ؟ قالت يا عبد الله قد أبرمتني* هذه الليلة إني أربعه* عن الفطام فيأبى عليه . قال : ولم ؟ قالت لأن عمر لا يفرض إلا للفتيم ، فسألها عن عمره ، ثم قال لها ويحك لاتعجليه ، فصلى رضي الله عنه الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ، فلما سلم قال : يابؤساً لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ! ، ثم أمر منادياً فنادى أن لاتعجلوا صبيانكم عن الفطام فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام ، وكتب بذلك إلى الآفاق^(٢).

(*) أنيسة بنت عدي الأنصارية امرأة من بلى لها حلف في الأنصار استأذنت رسول الله ﷺ في نقل ابنها عبد الله بن سلمة البدرى حين قتل بأحد فأذن لها الرسول ﷺ . (الإصابة ٢٤٥/٤ ؛ الاستيعاب ٢٤٨/٤) .

(*) عبد الله بن سلمة بن مالك بن الحارث بن عدي البلوي الأنصاري بالحلف أبو محمد ، أمه أنيسة بنت عدي ، شهد بدرأ واستشهد بأحد ، وأذن الرسول ﷺ لأمه أن تنقله فتأنس بقرية . (الإصابة ٣٢١/٢) .

(*) المجدر بن زياد بن عمرو بن أخرم بن عمرو ، بن بلى البلوي «يقال اسمه عبد الله والمجدر لقب ، وذكر فيمن شهد بدرأ واستشهد بأحد ، وقيل قتل المجدر سويد بن الصامت في الجاهلية . وفي غرة يوم أحد رأى الحارث بن سويد المجدر فقتله غدرأ وهرب فلجأ بمكة مرتدأ ثم أسلم يوم الفتح فقتله الرسول ﷺ بالمجدر . (الإصابة ٣٦٣/٣ ؛ الاستيعاب ٤٧٨/٣) .

(١) ابن حجر ، الإصابة ج ٤ ، ص ٢٤٥ .
 (*) أبرمتني : يقال أبرمه فلان إبراماً أي أمّله وأضجره ، (اللسان ، (برم) ، ٣٩١/١ .
 (*) أربعه : أي ثوقفه وتقصره عن الرضاع ، وترفق به ، وتعطف عليه . (اللسان ، (ربع) ، ١٢١/٥ ، فيأبى الفطام ويبكي .

(٢) انظر : ابن الجوزي ، الحافظ أبا الفرج عبدالرحمن بن علي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، تاريخ عمر بن الخطاب ، قدم له وعلق عليه أسامه عبد الكريم الرفاعي ١٣٩٤ هـ ص ٨٤-٨٥ .

وقصة عمر رضي الله عنه مع الأم والصبية والقدر مشهورة معروفة حيث نقل - رضي الله عنه - لهم الطعام وطبخ لهم ولم يغادرهم رضي الله عنه حتى رأهم يضحكون كما كان رأهم وهم ييكون^(١).

ومرة أخرى يعظم الخليفة أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - شأن الأمومة، في صورة إنسانية فذة ما سجلها التاريخ إلا لعمر - رضي الله عنه - وذلك أنه كان مرة على عادته - رضي الله عنه - يتفقد الناس فمر - رضي الله عنه - برحبة من رحاب المدينة فإذا بيت شعر ينبعث منه أنين امرأة وعلى بابها رجل قاعد ، فسلم عليه عمر وسأله من هو ؟ فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين ، فقال عمر - رضي الله عنه - ما هذا الصوت الذي أسمع في البيت ، قال الرجل وهو لا يدري أنه عمر أمير المؤمنين، انطلق - رحمك الله - لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك ، فألح عليه عمر - رضي الله عنه - يريد معرفة الأمر ، فأجابه : امرأة تمخض على وشك الولادة ، وليس عندها أحد ، فعاد عمر إلى منزله ، وقال لامرأته أم كلثوم بنت علي* رضي الله عنها ، هل لك في أجر ساقه الله إليك ، قالت وما هو ؟ فأخبرها الخبر وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب ، وما تحتاج إليه المرأة من دهن ، وأن تأخذ معها قدراً وتضع فيه حبواً وسمناً ، فجاءت به فحمل القدر ومشيت خلفه حتى انتهت إلى البيت ، وقال لامرأته ادخلي إلى المرأة ، وجلس - رضي الله عنه - مع الرجل ، وأوقد النار وطبخ ما جاء به ، والرجل جالس لا يعلم من الرجل، وولدت المرأة فقالت زوجة عمر - رضي الله عنه - من داخل البيت بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام ، فلما سمع الأعرابي ذلك علم أنه أمير المؤمنين، فكأنه هابه ، فأخذ يبتعد عنه وعمر - رضي الله عنه - يقول له مكانك كما أنت، ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه وتطعم المرأة فلما أكلت ناول الرجل القدر فقال

(١) انظر : الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) الطبعة الثالثة (بيروت : مؤسسة عز الدين القسام ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م) ٢م ، ج ٤ ، ص ٤١٣ ؛ ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(*) أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، الهاشمية شقيقة الحسن والحسين رضي الله عنهم وأرضاهم تزوجها عمر بن الخطاب وولدت له زيد وقيل رقية وماتت هي وولدها زيد في يوم واحد ، وقيل لما استشهد عمر تزوجها عوف بن جعفر بن أبي طالب، وقيل مات عوف فتزوجها أخوه محمد ثم مات عنها فتزوجها أخوه عبد الله فماتت عنده وعندما خطبها عمر قيل له ماتريد إليها وهي صغيرة ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» .

سير ٥٠٠/٣؛ ط ابن سعد ٤٦٣/٨؛ الاستيعاب ٤٩٠/٤ ؛ الإصابة ٤٩٢/٤؛ أسد الغابة ٣٨٧/٧ .

له : كل ويحك فإنك سهرت الليل كله ، ثم خرجت زوجته وقال للرجل : إذا كان غداً فائتنا نأمر لك بما يصلحك، فلما أصبح أتاه ، ففرض لابنه في الذرية ، وأعطاه^(١).

يقول الدكتور مصطفى السباعي* رحمه الله معلقاً: (أما إني لأعلم في كل ما قرأت من تاريخ العظماء أروع ولا أنبل ولا أسمى إنسانية من مثل هذه الحادثة)^(١).
وقد وجدت في عصور الإسلام المزدهرة مؤسسات خيرية لرعاية الأمهات ، ومؤسسات خيرية لامداد الأمهات بالحليب والسكر^(٢).

(وكان من مبررات القائد صلاح الدين -رحمه الله-* أن جعل في أحد أبواب القلعة الباقية حتى الآن في دمشق ، ميزاباً يسيل منه الحليب وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر ، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ، ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ، ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر)^(٣).

هذه هي الأمومة عبر التاريخ : تقديراً وإكراماً وإعظماً ، واليوم هل لا زال حال الأمومة هكذا ؟ أم انتكست الأمومة أخذاً وعطاءً كما انتكست معظم المعاني الإنسانية ؟!

٣- الأمومة وأثرها في أحداث التاريخ الإسلامي :

قديماً قيل وراء كل رجل عظيم امرأة ، وهذا حق وصدق ، فما أكثر العظماء من الرجال الذين كانت وراء شهرتهم امرأة ، سواء كانت أماً أو أختاً أو زوجة أو بنتاً

(١) انظر : ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ، الطبعة الرابعة (دمشق ، المكتب الإسلامي ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ٦٩-٧٠).

(*) مصطفى بن حسني أبو حسان السباعي ، عالم إسلامي مجاهد ، ولد بحمص (في سورية) وتعلم بها وبالأزهر وسجنه الإنكليز والفرنسيون وبعد الإفراج عنه انطلق فكان على رأس كتيبة من «الإخوان المسلمين» في الدفاع عن بيت المقدس سنة ١٩٤٨م وشغل العديد من المناصب وأصيب بشلل نصفي سنة ١٩٥٧م ونشر من تأليفه ٢١ كتاباً ورسالة وتوفي في دمشق . (الأعلام ٢٣١/٧).

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٠.

(٣) انظر : د . السباعي ، من روائع حضارتنا ، ص ١٢٧.

(*) يوسف بن أيوب بن شاذي أبو المظفر ، صلاح الدين الأيوبي ، الملقب بالملك الناصر : من أشهر ملوك العرب ، ولد بتكريت كان أشهر أعماله : دفع غارات الصليبيين ، ومهاجمة حصونهم وقلاعهم وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي «يوم حطين» الذي تلاه فتح القدس وكان متواضعاً ، رقيق النفس والقلب ، رجل سياسة وحرب ، بعيد النظر توفي رحمه الله سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، (وفيات الأعيان ، ٣٧٦/٢ ؛ سير ٢١/٢٧٨).

(٤) المرجع السابق ص ١٢٧.

ولئن كان هذا القول أكثر ما ينطبق على المرأة الأم ، قولاً وواقعاً ، فالرجل أياً كان حاله محتاج إلى حنان المرأة وعطفها وودها وحماسها وتشجيعها ومواساتها في مراحل العمر كلها ، ولذا وليس من المبالغة أن يقال : صاغت المرأة أحداث التاريخ ، من خلال موقفين : موقف المرأة إلى جانب زوجها ومحارمها في كل حين بفطرتها السوية في الجهاد عند المديهيات وموقف المرأة الأم المريية الحاضنة الحانية الصانعة للأبطال ، يقول الاستاذ محمد قطب : «الأم المسلمة عليها أن تدرك أن الإسلام جهاد دائم في الأرض .. جهاد لتكون كلمة الله هي العليا .. جهاد يشترك فيه الرجل والمرأة كلاهما .. كل في دوره ووظيفته وما هو مهياً له .. وأن الطفل الذي ينشأ اليوم - فتى كان أو فتاة - هو رجل الغد أو امرأة الغد ، وكلاهما - في الإسلام - يؤدي دوره في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ، فينبغي أن يؤهل لهذا الجهاد منذ اللحظة الأولى .. منذ مولده .. بأن يعطى القدر المضبوط من الحب والحنان والراعية ، بغير نقص مفسد ولا زيادة مفسدة ، وأن كل نقص أو زيادة في ذلك العنصر الحيوي ، إنما تفسد بقدرها من كيان هذا الطفل ، الذي هو رجل الغد أو امرأة الغد ، ونحن محاسبون أمام الله عن كل فساد نحدثه في الفطرة السوية ، وعن كل تضييع لطاقة كان يمكن أن تبذل في الجهاد في سبيل الله ...»^(١)

وأمر آخر يأتي بعد الحب والحنان والعطف ، هو تعويد الطفل على «الضبط» «فالشوابط» في كيان الإنسان فطرية ، وتحتاج إلى معونة خارجية لتنميتها ، والطفل في حاجة إلى معونة أمه لكي يتعلم الضبط ويتعوده منذ نعومة أظفاره ، حتى يستطيع أن يقاوم رغباته ، لأن الجهاد في سبيل الله لا يستقيم في النفس التي لا تستطيع ضبط رغباتها ، فتتساق معها^(٢) .

ولذا فإن التنشئة السوية للطفل بإشباع الحاجات النفسية ، وتقييد الدوافع بالشوابط ، يوجد فيه التوازن الشخصي ، وأساس هذا كله سلامة الحب والكره عنده لأن الحب والكره خطان أصيلان أساسيان في النفس الإنسانية ، شديداً العمق فيها^(٣) . يقول الأستاذ محمد قطب : «إن الحب الذي تمنحه الأم للطفل ، ولا يستطيع غيرها أن

(١) منهج التربية الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) انظر : محمد قطب ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٣) انظر : محمد قطب ، دراسات في النفس الإنسانية ، ص ٨٤ ؛ منهج التربية الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

يمنحه إياه ، هو الذي يعلم الطفل الحب ، ويوازن في نفسه خط الكره الفطري ، الذي ينبت في النفس تلقائياً لأنه من خطوط الفطرة التي يولد بها الإنسان»^(١) .

و«الأم المسلمة - في المجتمع المسلم - في ظل الدولة المسلمة التي تطبق شريعة الله ومنهج في الحياة - أم متخصصة إلا في حالة الضرورة القاهرة وهي بتخصصها ذلك تمنح الطفل حاجته الفطرية إلى الحب والحنان والرعاية ، فينشأ نشأته السوية التي تتوازن فيها نفسه ، أو يكون لديها على الأقل استعداد للتوازن المطلوب . وتلك نقطة البدء في تربية الطفل ، وهي نقطة بدء خطيرة في حياة البشرية ، لأنها هي التي ترسم مستقبل البشرية»^(٢) .

إن على الإنسان أن يحب في الله، ويكره في الله، فيعرف بذلك من يجب أن يحب ومن يجب أن يكره وبالتالي تتولد لديه قوة المقاومة والدفاع والصبر والجلد والتحمل في سبيل ما يحب وضد ما يكره، وقد أدركت الأم المسلمة دورها في تربية طفلها فعززت عنده هذين البعدين وفق المفهوم الإسلامي الذي يحب لله ويبغض لله، فكان من أولاد هؤلاء الصحابييات الجليلات الأبطال والشهداء والعلماء وتتقدمهن أول شهيدة في الإسلام سمية -رضي الله عنها*- تقف صابرة محتسبة صامدة أمام ضربات أبي جهل، فلا تلين ولا تذلل وتضرب لابنها عمار رضي الله عنه أروع الأمثلة في الصمود والإباء حين تفوز بالشهادة الأولى في الإسلام - ويكفيها هذا وسام شرف إنها رغم كبر سنها وضعفها وعجزها صبرت وصابت على التعذيب ، ثم طعنها أبو جهل في قبلها فكانت أول شهيدة في الإسلام حتى إذا قتل أبو جهل يوم بدر واسى النبي ﷺ عماراً*

(١) المرجع السابق ، منهج التربية الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق .

(*) سمية بنت حُطَّاط بجمجمة وضوءة ثقيلة أول شهيدة في الإسلام مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ووالدة عمار بن ياسر وكانت سابعة سبعة في الإسلام ، طعنها أبو جهل بحرية في قبلها فماتت قبل الهجرة .

الإصابة ٣٣٤/٤ الاستيعاب ٣٣٠/٤ ؛ تبصير المنتبه ٥١٧/٢ .

(*) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة العنسي أبو اليقظان وأمه سمية وقد نزلت فيه ﴿إِلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ ، وعن عمرو بن ميمون قال عذب المشركون عماراً بالنار . وقتل مع علي بصفين سنة سبع وثمانين وعمره ثلاث وستون سنة .

الإصابة ٥١٣/٢ السير ٤٠٦/١ الاستيعاب ٢٢٥/٨ تهذيب ٤٠٨/٧ ؛ أسد الغابة ١٢٩/٤ ط ابن سعد ٢٤٦/٣ .

رضي الله عنه فقال له ﷺ : (قتل الله قاتل أمك)^(١)

وكان رسول الله ﷺ يمر بسمية وزوجها وابنها فيقول ﷺ : «صبراً يا آل ياسر موعدكم الجنة»^(٢) ، وسبقت سمية رضي الله عنها إلى الجنة، فهي أول من دخل الجنة من المسلمين فهنيئاً لك يا أم عمار ! .

وتقف أم رومان رضي الله عنها* التي بشرها رسول الله ﷺ بالجنة في حصن زوجها : بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه* تحرس المعقل وتربي الأولاد وتفدي الدعوة في فترة من أحلك الفترات بالغالي النفيس ، ومن ثم تحذو أسماء^(٣) وعائشة رضي الله عنهما حذوها مقتديتين بها فتسكن أسماء من روع جدها وتساعدها عائشة في ذلك رضي الله عنهما وأرضاهما، بينما يصحب أبوبكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ في رحلته إلى المدينة^(٤) .

وتلك أروى بنت عبد المطلب - رضي الله عنها* - الهاشمية عمة رسول الله

(١) انظر : الإصابة ، ابن حجر ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ .

(٢) المرجع السابق

(*) أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب ... امرأة أبي بكر الصديق والدة عبد الرحمن وعائشة أسلمت وبايعت وهاجرت ، اختلف في تاريخ وفاتها ، وقيل نزل الرسول ﷺ قبرها واستغفر لها وقال ﷺ «اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك» وقال الرسول ﷺ «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان» . (الإصابة ٤/٤٤٨ ؛ الاستيعاب ٤/٤٥٠) .

(*) عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التميمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة خليفة رسول الله ﷺ أمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر وهو أول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال ، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر ، وهاجر مع الرسول ﷺ وشهد بدرًا وغيرها والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ هو أول من جمع القرآن مناقبه وفضائله كثيرة جداً ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ ، ولقد قال فيه رسول الله ﷺ ﴿ولو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً﴾ وكانت وفاته -رضي الله عنه- سنة ثلاث عشرة من الهجرة في جمادى الأولى يوم الاثنين وعمره ثلاث وستون سنة (الإصابة ٢/٣٤١ ، أسد الغابة ٣/٣٠٩) .

(٣) أم أسماء ، ليست أم رومان وإنما هي قتلة بنت عبد العزي ، الإصابة ٤/٢٢٩ .

(٤) انظر ابن حجر ، الإصابة ج ٤ ، ص .

(*) أروى بنت عبد المطلب بن هاشم الهاشمية عمة رسول الله ﷺ تزوجها عمير بن وهب ثم خلف عليها كلدة بن عبد مناف ثم أسلمت وهاجرت وأسلم ولدها طليب من زوجها الأول في دار الأرقم .

(سير ٢/٢٧٢ ؛ الإصابة ٤/٢٢٧ ؛ ط ابن سعد ٨/٤٢ ؛ أسد الغابة ٧/٧) .

ﷺ ، أسلمت على يد ابنها طليب بن عمير* ، فقد دخل رضي الله عنه على أمه فقال لها قد أسلمت ، وتبعت محمداً ﷺ ، وما يمنعك أن تسلمي فقد أسلم أخوك حمزة* قالت فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم كانت بعد تعضد النبي ﷺ بلسانها وتحض ابنها طليباً على نصرته والقيام بأمره ، فكان أن عرض أبو جهل وعدة معه للنبي ﷺ فأذوه فعهد طليب رضي الله عنه إلى أبي جهل فضربه ، فشجه ، وأنشدت أروى - رضي الله عنها - في ذلك قائلة :

إن طليباً نصر ابن خاله* واساه في ذي ذمة وماله^(١)

وممن أثن في أحداث التاريخ الإسلامي من الصحابييات صفية بنت عبد المطلب الهاشمية* ، عمة رسول الله ﷺ ، ومن ذلك أنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، وجعل ﷺ النساء في أطم* وجعل معهن حسان بن ثابت* رضي الله عنه ، فجاء إنسان من اليهود فرقى في الحصن حتى أطل على النساء ، فقالت صفية رضي الله عنها لحسان رضي الله عنه قم فاقتله ، قال رضي الله عنه : لو كان ذلك في كنت مع رسول الله ﷺ - أراد أنه لا يقوى على ذلك - رضي الله عنه - وكان كبيراً مسناً فقامت صفية إليه فضربتته حتى قطعت رأسه ، وقالت - رضي الله عنها - لحسان

(*) طليب بن عمير بالتصغير أو عمرو بن وهب بن أبي كثير بن عبد بن قصي بن كلاب بن مرة أبو عدي أمه أروى عمة رسول الله ﷺ هاجر إلى الحبشة (سير ٣١٥/١٠؛ الإصابة ٢٣٣/٢) .

(*) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو عمارة عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة لقبه ﷺ بأسد الله وسماه سيد الشهداء أسلم في السنة الثانية من الهجرة وقيل في السادسة من الهجرة شهد بدرًا واستشهد بأحد وقتله وحشي وقد مثل به المشركون (الإصابة ٣٥٣/١؛ الاستيعاب ٢٧١/١؛ سير ١٧١/١؛ ط ابن سعد ٨/٣؛ أسد الغابة ٥١/٢) .

(١) انظر الإصابة ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

(*) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم القرشية الهاشمية ، عمة رسول الله ﷺ ، ووالدة الزبير ابن العوام أمها هالة بنت وهب خالة رسول الله ﷺ ، تزوجها الحارث بن حرب بن أمية ، ثم هلك ، فخلف عليها العوام بن خويلد وأسلمت ، وروت ، وقيل هي أول امرأة قتلت رجلاً من المشركين ، وتوفيت سنة عشرين ولها ثلاث وسبعون سنة ودفنت بالبقيع . (الاستيعاب ٣٤٥/٤؛ الإصابة ٣٤٨/٤؛ السير ٢٦٨) .

(*) أطم : بالضم بناء مرتفع ، وجمعه أظام . (ابن الأثير ، ج ١ ، (أطم) ، ص ٥٤) .

(*) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري ، الخزرجي ، ثم النجاري ، شاعر الرسول ﷺ وصاحبه ، المؤيد بروح القدس ، أبو الوكيد ويقال أبو الحسام وأبو عبد الرحمن وأمهم الفريعة واختلف في موته واتفق الجمهور على أنه عاش مائة وعشرين سنة وهاجر سنة ستين إلى المدينة . (الإصابة ٣٢٦/١؛ الاستيعاب ٣٣٥/١) .

رضي الله عنه قم فاطرح رأسه على اليهود ، وهم أسفل الحصن فقال رضي الله عنه والله ماذا ؟ فقامت صفية رضي الله عنها - فأخذت رأس اليهودي فرمت به عليهم ، فقالوا قد علمنا أن هذا لم يكن ليرك أهله خلواً ، ليس معهم أحد ، فتفرقوا^(١) . ولاعجب والأم هكذا ، أن يكون ابن هذه الصحابية رضي الله عنها حواري (٢) رسول ﷺ .

وتحدثنا نسيبة رضي الله عنها عما أصابها يوم أحد فتقول : خرجت يوم أحد ومعني سقاء وفيه ماء فانتبهينا إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه ، والدولة والراح للمسلمين فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله ﷺ ، فكنت أبشر القتال ، وأذب عنهم بالسيف ، وأرمي عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلي ، وكان على عاتق نسيبة رضي الله عنها جرح أجوف له غور ، وقتل مسيلمة الكذاب ابنها حبيباً رضي الله عنه* ، ولما بلغها قتل ابنها عاهدت الله سبحانه أن تموت دون مسيلمة أو تقتل ، فشهدت رضي الله عنها اليمامة مع خالد بن الوليد رضي الله عنه* ومعها ابنها عبدالله رضي الله عنه* ، وقاتلت نسيبة رضي الله عنه حتى قطعت يدها ، وجرحت اثني عشر جرحاً^(٢) . تلك هي الأم التي تركت بصماتها واضحة في التاريخ

(١) انظر الإصابة ، ج٤ ، ص ٣٤٨ .

(٢) هو الزبير بن العوام رضي الله عنه (انظر البخاري ، ٣٧١٩/٢٥٣/٤/٢) .

(٣) ط ابن سعد ، (بيروت : دار صادر ، ج٣ ، ص ١٠١) .

(*) أم عمارة الأنصارية واسمها نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبدول بن عمرو بن غنم بن ماذن بن النجار وهي أم حبيبة شهدت بيعة العقبة وأحداً مع زوجها زيد بن عاصم وابنيها وبيعة الرضوان ثم اليمامة ، (الاستيعاب ج٤/٤١٧، ٤٧٥؛ الإصابة : ٤١٨/٤) .

(*) حبيب بن زيد بن عاصم بن عمرو الأنصاري المازني أخو عبد الله بن زيد ذكره ابن اسحاق فيمن شهد بيعة العقبة وهو الذي قتله مسيلمة عندما بعثه رسول الله ﷺ ، إليه شهد أحداً والخندق والمشاهد وأمه هي أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وكانت قد نذرت أن لا يصيبها غسل حتى يقتل مسيلمة لقتله ولدها حبيب . الإصابة ٣٠٦/١ . الاستيعاب ٣٢٨/١ .

(*) خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي سيف الله المسلول أبو سليمان أمه لبابة الصغرى من كبار الصحابة . شهد الفتح وموتة وحنينا والطائف في هدم العزى أسلم بعد الحديبية قبل الفتح أمره أبو بكر على حرب الفرس مات ب حمص سنة ٢١هـ على قول أكثر الناس (الإصابة ٢١٣/١؛ الاستيعاب ٤٠٥/١) .

(*) عبدالله بن زيد بن عاصم بن كعب بن عمرو بن عوف الأنصاري المازني كنيته أبو محمد شهد أحداً ولم يشهد بدرأً أشترك مع وحشي بن حرب في قتل مسيلمة يوم اليمامة وكان مسيلمة قد قتل أخاه حبيباً وأمه هي أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية قتل يوم الحرة سنة ٦٣هـ . (الإصابة ٣١٢/٢؛ الاستيعاب ٣١٢/٢؛ السير ٣٧٧/٢؛ التهذيب ٢٢٣/٥) .

(٤) ابن حجر ، الإصابة ، ج٤ ، ص ٤١٨ .

الإسلامي حتى قيام الساعة في الإيمان وفي الصبر، في الجهاد ، وفي التضحية ، وفي التربية والقودة .

ومن هؤلاء أيضاً رضي الله عنهن تماضر بنت الشريد الشاعرة المخضمة والصحابية الجليلة ، الخنساء رضي الله عنها ، وقد ضربت لنا أروع الأمثلة في الجهاد ، حيث خاضت حرب القادسية - رضي الله عنها - مع أولادها الأربعة وهي تنادي بهم جميعاً قائلة ، أي بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين وإنكم لأب واحد وأم واحدة ، ماخنت أباكم ولا فضحت أخوالكم ، ثم راحت تعرضهم على القتال، فلما أصبحوا باشروا القتال واحداً بعد واحد وهم ينشدون الشعر ، حتى استشهدوا جميعاً رضي الله عنهم ، ولما بلغها خبرهم : قالت رضي الله عنها - الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته ^(١) .

ومن ذلك مواقف أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها ومواقفها البطولية وأعظمها موقفها مع ابنها رضي الله عنهما في تشبثه على الحق ^(٢) .

كانت تلك حال الأم المسلمة ، ولم يزل التاريخ الإسلامي يسطر بفخر نماذج ممن اتخذن من الصحابييات قدوتهن ونبراسهن ، قال صحفي فرنسي في مقال له في صحيفة فرنسية ، مؤكداً فيه أن الذي انتصر على فرنسا في الحرب ، هي المرأة الجزائرية لا الرجل ، معللاً ذلك بأن المرأة المتدينة تحسن صناعة الرجال ^(٣) .

ويتحدث الأستاذ المودودي رحمه الله عن أمنع القلاع للحضارة الإسلامية فيقول : (إن الحريم هو الملجأ الأخير الذي يدافع فيه (الإسلام) عن مدنيته وحضارته ، ولا ريب أن من المصالح الكبرى التي جعل الإسلام المرأة من أجلها من وراء الحجاب ، أن يتطهر على الأقل ذلك الصدر الذي يتغذى بلبانه الطفل المسلم ، فيبقى مشرقاً بنور الإسلام، وأن يحفظ على الأقل ذلك الحجر الذي يتربى فيه الطفل المسلم من تأثير الكفر والضلal وفساد الأخلاق والأعمال ، وأن يقام حول ذلك المهد الذي يجتاز فيه الجيل المسلم منازل حياته البدائية جو إسلامي خالص ، وأن تحرس من فعل المؤثرات الخارجية ، تلك الحدود البيتية على الأقل - التي ترسم فيها على ذهن الطفل وقلبه

(١) انظر الإصابة ج٤، ص ٤١٨.

(٢) انظر الإصابة ج٤، ص ٢٨١-٢٢٨.

(٣) انظر يوسف العظم ، أين محاضن الجيل المسلم ، الطبعة الخامسة ، السعودية ، الدار السعودية ، ص ٥١.

الصافي ، أولى نقوش التعليم والتربية والمشاهدة «فالحريم البيتي» إذن هو أحكم وأمنع قلعة للحضارة الإسلامية بنيت في الحقيقة لأجل أن تلجأ إليها هذه الحضارة متى انهزمت ونكصت من الميدان الخارجي»^(١).

(١) أبو الأعلى المودودي ، نحن والحضارة الغربية ، (بيروت ، دار الفكر ص ٢١٤)، ص ٢١٥

الفصل الرابع

الأهمية النفسية والأخلاقية

إن للأم أثرها البالغ في شخصية الطفل نفسياً وخلقياً وبدنياً وذلك بحسب الأساليب والأنماط السلوكية والمعرفية التي تراعيها في تربية طفلها :

أ- دور الأم في الصحة النفسية في مراحل العمر المختلفة :

لقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية العلاقة الحميمة بين الأم وطفلها كما في قوله تعالى عن مريم عليها السلام ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهَا﴾ (سورة مريم آية ٢٧). فالتعبير القرآني الصريح في قوله تعالى ﴿تَحْمِلُهَا﴾ لأكبر دليل على أثر الالتصاق بين الأم وطفلها وما لهذه الرابطة من تأثير على المدى البعيد ، وهذه أم موسى تؤمر بارضاع طفلها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ، ومن هنا فقد أثبت البحث العلمي الحديث أنه يجب «وضع الوليد على تماس حسي مع الأم بعد الولادة مباشرة وذلك لأهمية هذه اللحظات في مستقبل العلاقات اللاحقة بين الطفل والأم، وبين الطفل ومجتمعه»^(١) وقد أكدت هذه الأبحاث على ضرورة توفير الفرصة للأم لرؤية الطفل وملامسته بعد الولادة مباشرة ، فهي في أشد الحاجة لأن تلمسه وتشمه ، وتشعره . بدفئها ومن هنا كان لعلاقة الأم وقربها من طفلها من أكبر الأثر في تكوينه الاجتماعي إن الأم اليقظة لإشارات الطفل ، والحاضرة عند حاجته لها ، تعزز لديه الثقة بالكبار ، ويعمم الطفل هذه الثقة على الآخرين ، فهو لا يشعر بالخوف والفرع عند مشاهدة شخص غريب للمرة الأولى ، بينما تسهم الأم المغفلة انفعالياً والقليلة الحساسية بالنسبة لإشارات الطفل في تنمية التعلق القلق عنده مما يخلق لديه الغموض وعدم الثقة في الكبار عامة ، ويظهر مثلاً الخوف والهلع عند رؤيته شخصاً غريباً للمرة الأولى^(٢).

إن الطفل الذي يشعر بالأمن في علاقته بأمه يكون أقدر من غيره على التفاعل الاجتماعي مع الأتراب وفي اتخاذ المبادرة لإثارة اللعب والنشاطات المختلفة ضمن جماعة

(١) انظر : د. قنطار ، الأمومة ، ص ٧٢.

(٢) انظر : د. فايز قنطار (الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم) ص ٥٠.

الأقران ، ويكون أقل اضطراباً من غيره عند رؤية الغريب للوهلة الأولى^(١) .

إن الجو الذي يحاط به الطفل يؤثر في مستقبل حياته ، وذلك بحسب ما يقدم له فيه من الحب والرعاية والاهتمام ورسول الله ﷺ أعطى الأم الصورة المثلى في رعاية طفلها حين كان ﷺ يكرم أمانة رضى الله عنها* وهو يصلى ﷺ^(٢) ؛ وتقبيله للحسن* والحسين* رضى الله عنهما ، ورعايته لهم رضى الله عنهم ﷺ .

فقد قال البراء بن عازب رضى الله عنه* : (رأيت النبي والحسن بن علي على عاتقه يقول «اللهم إني أُحِبُّهُ فَأُحِبُّهُ»)^(٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٥١ .

(*) أمانة بنت أبي العاص التى كان رسول الله ﷺ يحملها في صلاته وهي رضى الله عنها وهي بنت زينب بنت رسول الله ﷺ تزوج بها علي بها علي بن أبي طالب في خلافة عمر وتزوج بها المغيرة بن نوفل بن حارث بن عبد المطلب من بعده ، فتوفيت عنده ماتت في دولة معاوية ولم ترو شيئا رضى الله عنها . (الاستيعاب ٢١١/١٢ ؛ أسد الغابة ٢٢/٧ ؛ سير ٣٣٥/١) .

(*) هو الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف ، الإمام السيد ريحانة رسول الله ﷺ وسيطه وسيد شباب أهل الجنة ، أبو محمد القرشي الهاشمي المدني . مولده في شعبان سنة ثلاث من الهجرة . وقيل في نصف رمضان وعق عنه جده ﷺ بكبش حفظ عن جده ﷺ أحاديث ، وعن أبيه وأمه فاطمة رضى الله عنهم . وكان يشبه جده رسول الله ﷺ . وقيل إنه حج خمس عشرة مرة وحج كثيراً منها ماشياً من المدينة إلى مكة ونجائبه تقاد معه . توفي سنة ٤٩ هـ رضى الله عنه (الاستيعاب ٣٨٣/٢ ؛ أسد الغابة ٢ ؛ تهذيب : ٢٩٥/٢ ؛ الإصابة ٣٢٨/١ ؛ سير ١٣٠/٤) .

(*) أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي ، وأمه فاطمة بنت محمد ﷺ رضى الله عنها . سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا ومحبيه كان أشبه برسول الله ﷺ من صدره إلى قدميه وهو سيد شباب أهل الجنة . حج الحسين خمساً وعشرين حجة ماشياً ولد في شعبان سنة أربع من الهجرة . وقتل في عهد يزيد بن معاوية وقد قتلته الفئة الباغية . استشهد سنة ٦١ هـ يوم عاشوراء رضى الله عنه . (الاستيعاب ٣٢٩ ؛ الإصابة ٣٣٢/١ ؛ تهذيب ٣٤٥/٢ ؛ سير ٢٨٠/٣) .

(٢) انظر صحيح البخاري . كتاب الصلاة - باب من حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة ج ١ ، ص ١٤٨ ، ح (٥١٦) .

مسلم ج ١ ، كتاب الصلاة باب جواز حمل الصبيان في الصلاة ص ٣٨٥ ت ح (٥٤٣) .

(*) البراء بن عازب بن الحارث الفقيه الكبير أبو عمارة الأنصاري الحارثي المدني من كبار الصحابة شهد غزوات كثيرة مع النبي ﷺ ، واستصغر يوم بدر توفي سنة إحدى وسبعين عن بضع وثمانين سنة الإصابة ١٤٢/١ ؛ ط ابن سعد ٣٦٤/٤ ؛ سير ١٩٤/٣) .

(٣) البخاري ، الصحيح م ٢ ، ج ٤ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب مناقب الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ص ٢٦٠ ، ح (٣٧٤٩) .

ويروى أبو هريرة رضي الله عنه فيقول : (خرجت مع رسول الله ﷺ فى طائفة من النهار لا يكلمنى ولا أكلمه - حتى جاء سوق بنى قينقاع ، ثم انصرف حتى أتى خباء فاطمة رضي الله عنها فقال : «أَتَمُّ لُكْعُ*؟ أَتَمُّ لُكْعُ؟» يعنى حسناً فظننا أنه إنما تحبسه أمه لأن تَغَسَّله وتلبسه سخاباً* ، فلم يلبث أن جاء يسعى حتى اعتنق كل واحدٍ منهما صاحبه ، فقال رسول الله ﷺ «اللهم إني أحبه فأحبه ، وأحب من يحب»^(١).

وأي عناية أكثر من عنايته وحبه للحسن والحسين رضي الله عنهما ، روى الإمام مسلم رحمه الله عن أحد الصحابة أنه قال : «لَقَدْ قَدَّتْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ والحسن والحسين بغلته الشهباء ، حتى أدخلتهم حُجْرَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، هذا قَدَّامُهُ وهذا خَلْفُهُ»^(٢).

(*) الإمام الفقيه المجتهد الحافظ أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني على الراجح من اسمه ، وأمه ميمونة بنت صبيح ، مسنده : خمسة آلاف وثلاث مئة وأربعة وسبعون حديثاً وهو من أكثرين لرواية الحديث . وفي سنن النسائي : أن أبا هريرة دعا لنفسه : اللهم ، إني أسألك علماً لا ينسى ، فقال النبي ﷺ : «آمين» . قال أبو هريرة : صحبت رسول الله ﷺ على شبع بطني . أسلم عام خيبر وقدم المدينة ، ومن حفاظ الصحابة وفضلائهم توفي سنة ٥٧ هـ وقيل ٥٨ وقيل ٥٩ هـ ودفن بالبقيع . (الاستيعاب ١٧٦٨/٤ ؛ أسد الغابة ٦٨ / ٣١٨ ؛ البداية والنهاية ١٠٣/٨ ؛ تهذيب ٢٦٢/١٢-٢٦٧ ؛ الإصابة ٦٣/١٢ ؛ سير ٥٩٦/٢) .

(*) فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ، كانت تكنى أم أبيها ، كانت رضي الله عنها أصغر بنات النبي ﷺ ، وأحبهن إليه ، كان مولدها قبل البعثة بقليل نحو سنة ، تزوجها علي رضي الله عنها سنة ثنتين من الهجرة وكان عمرها خمس عشر سنة ، وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا من فاطمة رضي الله عنها . أسر إليها رسول الله ﷺ قبل وفاته أنه مقبوض فبكت ، ثم أسر ﷺ أنها سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم فضحكت ، وأنها أول أهله لحوقاً به ﷺ . أنجبت الحسن والحسين سيدي شباب الجنة ومحسناً وزينب وأم كلثوم ، ولم يتزوج عليها علي حتى توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر ومناقبها كثيرة غزيرة ، وكانت أحب الخلق إلى رسول الله ﷺ رضي الله عنها وأرضاها توفيت رضي الله عنها لثلاث خلون من رمضان ، سنة إحدى عشرة ودفنت بالبقيع رضي الله عنها وأرضاها . (الإصابة ٣٧٧/٤ ؛ الاستيعاب ٣٧٣/٤) .

(*) لُكْعُ : الصغير (انظر : ابن الأثير ، ج ٤ ، (الكع) ، ص ٢٦٨) .

(*) سِخَاباً : هو خيط ينظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجواري (ابن الأثير ، ج ٢ ، «سخب» ، ص ٣٤٩) .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ص ١٨٨٢ ، ح (٢٤٢٢) . البخاري ، الصحيح م ٢ ، ج ٤ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ، ص ٢٦٠ ، ح (٣٧٤٩) .

(٢) المرجع السابق ح (٢٤٢٣) .

ويحمل ﷺ أمانة رضى الله عنهما فى الصلاة على عنقه كما جاء فى الصحيح ((أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمانة بنت زينب* بنت رسول الله ﷺ ، ولأبى العاص بن ربيعة بن عبد شمس* فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها))^(١).

إن الطفل فى المراحل الأولى من العمر - لا سيما السنوات الثلاث - يكون محتاجاً إلى رعاية أمه وعطفها ، ولذا فقد امتن القرآن الكريم على موسى عليه السلام وأمه بأن جمع الله سبحانه بينهما ثانية ، قال تعالى : ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (سورة طه آية ٤٠) فالرجعة لموسى عليه السلام وقرار العين لأمه ولكليهما نعمة وتفضل من الله سبحانه وتعالى.

ولذا فإنه لا يمكن للمحاضن أن توفر للطفل من الحاجات النفسية والروحية ما يوفره له قربه من أمه من الأمن والثقة والطمأنينة وهذا لا يوجد إلا بوجود الأم معه ، يقول الأستاذ محمد قطب : (الأم المسلمة عليها أن تدرك أنه لا شيء على الإطلاق ينبغي أن يحول بينها وبين منح الطفل حاجته الطبيعية من والحب الحنان والرعاية ، وأنها تفسد كيانه كله إن هى حرمته حقه من هذه المشاعر التى أودعها الله برحمته وحكمته فى كيانه بحيث تتفجر تلقائياً لتفى بحاجة الطفل حين تسير الأمور فى مسارها السوي ولا تتدخل الجاهلية لتلويها عن الطريق)^(٢) ، وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتهما ثلاث تمرات فأعطت كل

(*) زينب بنت سيد ولد آدم ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشية الهاشمية ، وهى أكبر بناته ﷺ ، ولدت قبل البعثة بمدة ، تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع العبشمي ، أسملت وهاجرت رضى الله عنها ، حين أبى زوجها أبو العاص أن يسلم ، وعندما أسلم ردها رسول الله ﷺ إليه بالنكاح الأول ماتت رضى الله عنها سنة ثمان من الهجرة . (الإصابة ٣١٢/٤ ؛ الاستيعاب ٤/ ٣١١) .

(*) أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي واسمه لقيط ، وكان يلقب بجرى البطحاء ، وأمه هالة بنت خويلد بن أسد أخت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ، أسلم قبل الحديبية بخمسة أشهر ، صهر رسول الله ﷺ زوج بنته زينب رضى الله عنها ، أثنى عليه رسول الله ﷺ فى مصاهرته خيراً وقال : «حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي» وكان قد وعد النبي ﷺ أن يرجع إلى مكة بعد وقعة بدر فيبعث إليه بزینب بنته فوفى بوعده ، وفارقها مع شدة حبه لها ، وكان من تجار قريش وأمنائهم وتوفي فى شهر ذى الحجة سنة ١٢ فى خلافة الصديق . (الإصابة ١٢١/٤ ؛ الاستيعاب ٤/ ١٢٥ ؛ أسد الغابة ٦/ ١٨٥) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م ، ١ ، ج ، ١ ، كتاب الصلاة ، باب من حمل جارية صغيرة على عنقه فى الصلاة ، ص ١٤٨ ، ح ٥١٦ .

مسلم ، ج ، ١ ، كتاب الصلاة ، باب جواز حمل الصبيان فى الصلاة ، ص ٣٨٥ ، ح (٥٤٣) .

(٢) منهج التربية الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١١١ .

واحدة منهما ثمرة ورفعت إلى فيها ثمرة لتأكلها فاستطعمتها ابتناها ، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ»^(١)

إنه درس فى الإيثار والعطاء والرحمة مستحيل أن تنساه تلك البنتان ، وهذا نموذج منه ﷺ يعلمنا فن التربية في العطف والرعاية للصغار ، عن أسامة* بن زيد رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدي على فخذه ، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول : «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»^(٢).

وقد توصل العلم الحديث إلى بعض هذه المعاني ، التي بثها رسول الله ﷺ في التربية ، ففي أبحاث في هذا الصدد قال العلماء فيها إن «الطفل الذي يشعر بأن لا شيء يمنعه من اللجوء إلى الأم (الوجه الذي يتعلق به) عندما يرغب وكلما اقتضت الظروف ذلك ، وأن الأم تقبل ذلك برحابة صدر يكون أكثر أمناً وأقل خوفاً ، من طفل آخر ، لا يملك الثقة بحضور الأم واستعدادها نحوه ، إن تشكيل هذه الثقة يتم عبر المراحل المختلفة من تطور الطفل ويتعزز من خلال التجربة التي يعيشها الطفل مع الأم بشكل يومي»^(٣) .

إن الطفل محتاج إلى عواطف فياضة ، لاتشع ولا تتوقف فى أحلك الظروف وأصعب الأوقات ، ولعل هذا النوع من العاطفة فى الحب والعطاء والإيثار والتضحية لا يكون إلا من الأم نحو ابنها ، لأنه حب لا يعدله كل عواطف الأرض الأخرى فهو

(١) مسلم الصحيح ، ج٤ ، كتاب البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلى البنات ، ص ٢٠٢٧ ، ح (٢٦٣٠) ؛ وأخرجه البخاري بنحوه ، م ١ ، ج ٢ ، كتاب الزكاة ، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ص ١٤٠ ، ح (١٤١٨).

(*) أسامة بن زيد بن حارثة بن شرحبيل بن عبد العزى الكلبي ، الحب بن الحب ، أبو محمد وقيل أبو زيد ، وأمه أم أيمن ، بركة حاضنة الرسول ﷺ ولد في الإسلام ، ومات الرسول ﷺ وعمر أسامة عشرون وقيل ثمانية عشرة . أمره الرسول ﷺ على جيش لغزو الشام وثبت عن أسامة قال كان الرسول ﷺ يأخذني والحسن فيقول : (اللهم إني أحبهما فأحبهما) ، واعتزل الفتن بعد مقتل عثمان وقيل إنه كان مع علي وقيل إنه مامات حتى تاب إلى الله من تخلفه عن علي وتوفي في آخر خلافة معاوية سنة أربع وخمسين وقيل غير ذلك . (الإصابة ٣١/١ ؛ الاستيعاب ٥٧/١ ؛ سير ٤٩٦/٢ ؛ ط ابن سعد ٧٢-٦١/٤ ؛ أسد الغابة ٨٢/١ ؛ تهذيب ٢٠٨/١) .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب الأدب ، باب وضع الصبي على الفخذ ص ١٠٠ ، ح (٦٠٠٣) .

(٣) د. قنطار ، الأمومة ، ص ٢١٦ .

«خلافًا للحب الأخوي أو الحب الزوجي الذي يقوم على المساواة في تبادل العطاء فحب الأمومة بين الأم والطفل بطبيعته غير متساو ، لأنه يقوم على العطاء الكامل من طرف ، والأخذ الكامل من طرف آخر ، وبسبب هذه الطبيعة الإيثارية المتجردة من الأثانية يعتبر حب الأم أسمى درجات الحب وأكثرها قداسة ، وأمتنها رباطاً ، ويبدو أن الأثر الحقيقي لحب الأم لا يكمن في حب الأم لطفلها الصغير فحسب وإنما في استمرار حبها لابنها النامي في عمره خلال مراحل الحياة كلها»^(١).

إن حب الأم لطفلها يمنحه الاستقرار والأمن والطمأنينة ، فينشأ سوياً سليماً يقول عالم النفس الشهير «ايرك فروم» (وفائدة حب الأم للطفل أنه ضمان مؤكد لاستمرار حياته وتلبية حاجاته ، أما أنه ضمان لاستمرار حياته فإن لذلك مظهرين :

المظهر الأول : أن رعاية الطفل والمسؤولية عنه ضرورة مطلقة لحفظ حياة الطفل ونموه .
المظهر الثاني : يذهب إلى أعمق من مجرد الرعاية ، فهو يغرس في أعماق الطفل ومشاعره أن هناك ما يستحق أن يعيش من أجله ، وأن الحياة شيء مفيد وجميل ، وأنه من المفيد أن يكون الطفل ولدًا أو بنتًا صغيراً ، وأنه من الجميل والمبهج أن يدب على الأرض»^(٢).

ويقول فروم أيضاً: «إن حنان الأم يرمز إلى الجنة الموعودة ، فالكتب المقدسة تذكر أن الجنان تقدم لبناً وعسلًا ، والأم تقدم اللبن أو الحليب ، الذي يرمز إلى استمرار الحياة وبقائها ، ولكن قليلاً من الأمهات يستطعن تقديم العسل . الذي هو جمال الحياة وزينتها ... ولتستطيع الأم تقديم العسل أو جمال الحياة وبهجتها - لا يكفي أن تكون أماً صالحة ... فحسب ، بل تكون إنساناً مرحاً بهيج النفس والمظهر - لأن حب الأم للحياة وبهجتها وسعادتها ينتقل أثرهما إلى الطفل . والواقع أننا نستطيع أن نلمس أثر هذين المظهرين في حياة الطفل ومستقبله : أي نستطيع أن نرى الإنسان الذي تلقى في طفولته (لبناً) فقط ، وذاك الذي أعطته أمه لبناً وعسلًا»^(٣).

(١) erich from the nature of love in the contemporary scene, ed leay poenel B. (١)
weisz.(newyork; mccerow-kim Book ao 1970) p. 1630

(٢) المرجع السابق : p. 162

(٣) المرجع السابق : p. 163

وبعد ، فالأم هي النافذة التي يطل منها الطفل على العالم : سواء عالمه الصغير في داخله ، أو العالم المحيط به ، وعلى قدر إشراقها ونورها ، يكون مايملكه الطفل من ملكات نفسية وخلقية وعقلية .

إن الإسلام قد أعطى الأم مسؤولية كبرى في إعداد الأطفال وما سيرة الأنبياء والصالحين إلا نبزاً ومعلماً لهذا ، فمحمد بن عبد الله ﷺ تربي في حضنة أمه دون أبيه ، وموسى عليه السلام ربه أمه ، وعيسى عليه السلام ، ومريم ابنة عمران التي كان لأمها الأثر الأكبر في تنشئتها وكثير من صالحى الأمة الإسلامية وعلمائها تفردت الأم بتربيتهم كالخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز* رضي الله عنه ، والأمير عبد الرحمن الداخل* ، صقر قريش رحمه الله وغيرهم كثير .

٢- دور الأم فى التربية الأخلاقية :

ذكر القرآن الكريم أهمية الأم فى التربية الأخلاقية حيث قال تعالى فى مريم عليها السلام ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٧) ، فقد هيا الله سبحانه وتعالى للصديقة وخير نساء العالمين ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (سورة آل عمران- آية ٤٢، ٤٣).

لقد هيا سبحانه وتعالى لها الأم الصالحة ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (سورة مريم - آية ٢٨) وقد اتجهت هذه الأم الصالحة إلى ربها بالدعاء والتضرع أن يتقبل منها حملها الذي ، نذرت لخدمة بيت الله ، فلما وضعتها أعادتها بالله من الشيطان الرجيم ووساوسه ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٦).

ومن تلك الآيات الكريمة يمكن أن نخلص إلى العوامل التى هيات لمريم وابنها عليهما السلام الجو الأخلاقى الصالح وهي :

(*) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص الخليفة الصالح والملك العادل وكان يدعى بخامس الخلفاء الراشدين وكان من خلفاء الدولة الأموية ومدة خلافته سنتان ونصف وأخبره في عدله وحسن سياسته كثيرة . (تهذيب ٧ / ٤٧٥ ؛ سير ١١٤ / ٥ .

(*) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بصقر قريش وهو مؤسس الدولة الأموية في الأندلس وكان حازماً شجاعاً شديد الحذر توفي بقرطبة ودفن في قصرها وبني الرصافة بقرطبة . (الكامل لابن الأثير ١٨٢ / ٥ ؛ ابن خلدون ٤ / ١٢٠ ؛ سير ٢٤٤ / ٨).

١- الأصل الوراثي الطيب ﴿يَأْخُذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ (سورة مريم - آية ٢٨).

٢- الأم المؤمنة الصالحة القاتنة المحسنة .

٣- دعاء الأم وتسليمها وتوجهها لله سبحانه وتعالى في حملها .

٤- كفالة النبي زكريا عليه السلام لهذه الفتاة .

والعجيب في تربية مريم أنه لم يرد ذكر لأبيها في تربيته إلا في قوله تعالى ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ أما عملية التربية والتحسين الأخلاقي فكانت للأم .

لقد تضافرت العوامل البيئية والوراثية لمريم بإذن ربها فأنتجتها امرأة صالحة عابدة زاهدة تقية عفيفة قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْقِنْتُينِ﴾ (سورة التحريم - آية ١٢) وكانت نتيجة هذا الإحصان والقنوت أن جعلها الله سبحانه وتعالى آية للعالمين ورزقها عيسى عليه السلام مباركاً ونبياً ويراً بها، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء - آية ٩١) .

وقد توصل العلم في العصر الحديث إلى أهمية الأم في التربية الأخلاقية وعظيم أثرها في ذلك يقول الدكتور عبد الغني تبارة «إن الأم في المفهوم الحديث مطالبة بأن تضع السكينة تلك السكينة التي تمتصها وتذوبها الحضارة المادية مخلقة القلق والضياء ، وحين تتمكن السكينة في أعماق المولود يكون منها الاطئنان إلى عالم الكبار ، ويحس أن الكبار أناس طيبون ، وهكذا تتكون ذاتية الطفل لبطريق التهيب والانطواء وتدمير الذات ، ولابطريق التخريب والعدوان وافتعال الأزمات والصراعات»^(١) .

إن إعداد الطفل تربوياً ، وأخلاقياً هو الجسر الذي ينجيه في الدنيا إلى نعيم الآخرة، والمربون - لاسيما الوالدان - هم المسؤولون عن ذلك

وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الاهتمام بالنشء والرعية ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (سورة الشورى - آية ٤٥).

(١) د. عبد الغني تبارة ، من تقديمه لكتاب سيكلوجية الأمومة ، السبعيني ج ١ ، ص ٤

وأيه خسارة أشد على الإنسان ألا يوجد معه أهله ذويه وأحبته في الجنة ، قال تعالى : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (سورة التحريم - آية ٦)

وقد أشار الأستاذ وحيد الدين خان إلى أثر الأم في الأخلاق مستنتجاً ذلك من قصة إبراهيم عليه السلام وزيارته لبيت إسماعيل وسؤاله ورده مرتين (غير عتبة بيتك) فقال : «إنما هذه استعارة معناها أهرج هذه الزوجة واتخذ زوجة أخرى لان هذه الزوجة لاتصلح لإيجاد جيل يريد الله - سبحانه - لتنفيذ إرادته فى واقع الدنيا ، ثم طلق إسماعيل زوجته وتزوج امرأة أخرى ، ثم حدث أن عاد إبراهيم مرة أخرى راكباً فرسه ولم يكن إسماعيل موجوداً فى البيت هذه المرة أيضاً ، فسأل إبراهيم نفس الأسئلة ، فأثنت الزوجة الجديدة الثناء العاطر على إسماعيل وقالت : لقد اعطانا الله خيراً كثيراً فله الشكر فقال لها إبراهيم عندما يأتي إسماعيل بلغيه سلامي وقولي له (ثبت عتبة بيتك)^(١) ، معنى هذا أن هذه الزوجة الجديدة تصلح لتنفيذ إرادة الله التى اختطها لعباده ، فحافظ على علاقتك بهذه الزوجة الطيبة، وهكذا فى منطقة عربية نائية أخذ جيل يتكون من سلالة اسماعيل هم بنو إسماعيل ثم بعث محمد ﷺ من هؤلاء القوم^(٢).

ونقلة تاريخية إلى خير القرون ٠٠ مع الصحابييات رضي الله عنهن وتربيتهن لأولادهن فممنهن عفراء بنت عبيدة* رضي الله عنها - التى أعطتنا أروع النماذج لأثر الأم فى أبنائها فلها سبعة أولاد شهدوا بداراً مع رسول الله ﷺ ، وكانوا لأبوين ،

(١) انظر الحديث بكامله عند البخاري فى قصة ماء زمزم م ٢ ، ج ٤ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب يزفون النسلان فى المشي ، ح (٣٣٦٤) ، ص ١٣٧ .

(٢) قضية البعث الإسلامى ، ترجمة السيد محسن الندوي ، مراجعة عبد الحليم عويس ، دار الصحوة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م) ص :

(*) عفراء بنت عبيدة بن ثعلبة بن سواد بن غنم ، ويقال ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم ابن مالك بن النجار ، وهي والددة معاذ وعوف بنى الحارث ، وقال ابن سعد أمها الرعاة بنت عدي بن معاذ . تزوجها الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد وتزوجت بعد الحارث الكبير بن ياليل الليثي فولدت له أربعة إلياساً وعاقلاً وخالداً وعامراً وكلهم شهدوا بداراً ، وكذلك إخوتهم لأهمهم بنو الحارث . (الإصابة ٤/٣٦٤).

وهم معاذ* ومعوذ* وعوف* بنو الحارث ، وإياس* وعاقل* وخالد* وعامر* بنو البكير بن ياليل رضي الله عنهم ، فاجتمعت لها خصيصة لم توجد لغيرها . وقد اشتهر هؤلاء بنسبتهم إلى أمهم وأشهرهم معاذ ومعوذ ابنا عفراء رضي الله عنهم جميعاً^(١) لقد ربتهم رضي الله عنها على الشجاعة والفروسية ، ومنهن الأخوات المؤمنات اللاتي ذكرهن رسول الله ﷺ فقال

(*) معاذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم بن النجار شهد العقبة الأولى، وبدراً، واشترك في قتل أبي جهل ، توفي في خلافة علي . (الإصابة ٤٢٨/٣؛ الاستيعاب ٣/٣٦٣).

(*) معوذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم بن النجار شهد بدرأ مع أخويه، وأمه عفراء ضرب هو وأخوه معاذ أبا جهل فقتلاه وأصيب في بدر فاستشهد قتله مسافح . (سير ٣٥٩/٢؛ ط ابن سعد ٤٩٢/٣؛ أسد الغابة ٥/٢٤٠؛ الإصابة ٤٥٠/٣؛ الاستيعاب ٣/٤٤٥).

(*) عوف بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد من بني النجار أمه عفراء ، شهد بدرأ واستشهد فيها . وقيل شهد العقبتين وقيل هو أحد الستة ليلة العقبة الأولى . (الإصابة ٤٢/٣؛ الاستيعاب ٣/١٣١؛ ط ابن سعد ٤٩٢/٣؛ أسد الغابة ٤/٣١١).

(*) إياس بن البكير ويقال ابن أبي البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد بن ليث بن بكير بن عبد مناة بن كنانة الليثي حليف بني عدي وشهد بدرأ والمشاهد كلها وشهد فتح مصر . توفي سنة أربع وثلاثين هجرية . (الإصابة ٨٩/١؛ أسد الغابة ١٨١/١؛ سير ١٨٦/١؛ ط ابن سعد ٣/٣٨٩).

(*) عاقل بن البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد بن ليث بن بكير بن عبد مناة بن كنانة الليثي حليف بني عدي .. كان من السابقين إلى الإسلام، وهو أول من بايع الرسول ﷺ في دار الأرقم، شهد بدرأ واستشهد فيها وعمره ٣٤ سنة قتله مالك بن زهير الجشمي . (الإصابة ٢٤٧/٢؛ السير ١٨٥/١؛ ط ابن سعد ٣/٢٨٨؛ أسد الغابة ١١٦/٣).

(*) خالد بن البكير بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد الليثي حليف بني عدي بن كعب من السابقين وشهد بدرأ وأحدأ واستشهد يوم الرجيع في صفر سنة أربع، وله أربع وثلاثون سنة. (سير ١٨٦/١؛ ط ابن سعد ٣/٣٨٩؛ أسد الغابة ٩١/٢؛ الإصابة ٤٠٢/١؛ الاستيعاب ١/٤٠٥).

(*) عامر بن البكير ، بن عبد ياليل بن ناشب بن غيرة بن سعد الليثي حليف بني عدي شهد بدرأ والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ واستشهد عامر يوم اليمامة . (الإصابة ٢٤٧/٢؛ الاستيعاب ٣/٢؛ سير ١٨٧/١؛ ط ابن سعد ٣/٣٨٩؛ أسد الغابة ١١٨/٣).

« الأخوات الأربع مؤمنات أم الفضل * وميمونة (*) وأسماء وسلمى (*) » إنهن أخوات لأم وليس لأب ، وقد ذكر ابن الأثير أن عدتهن ست أخوات لأب وأم ، وتسع أخوات لأم ، أمهن كلهن هند بنت عوف الكنانية^(٢) .

فمن هؤلاء الأخوات ؟ ومن أزواجهن ؟ ومن أولادهن ؟

فإحدهن ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها وتزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء ، وكان ﷺ قد تزوج أختها زينب بنت خزيمة* بعد أن استشهد زوجها عبد الله بن جحش* رضي الله عنه في أحد ، فما لبثت عند رسول الله ﷺ إلا شهرين أو ثلاثة ثم ماتت رضي الله عنها ، وكان يقال لها أم المساكين ، لأنها كانت تعلمهم وتتصدق عليهم^(٣) .

(*) أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب وهي لبابة الكبرى أخت ميمونة قيل إنها أول امرأة آمنت بعد خديجة وهي أم الحسين بن علي من الرضاعة ماتت في خلافة عثمان قبل زوجها العباس . (سير ٣١٤/٢؛ الاستيعاب ٣٩٨/٤ ؛ أسد الغابة ٢٥٣/٧؛ تهذيب ٤٤٩/١٢؛ الإصابة ٤٨٣/٤).

(*) ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية أخت أم الفضل لبابة أم المؤمنين كان اسمها برة فسمها النبي ﷺ ميمونة تزوجها الرسول ﷺ في ذي القعدة سنة ٧هـ بسرف وبني بها وماتت في نفس الموضع كانت وفاتها سنة ٥١هـ . (الإصابة : ٤١١/٤؛ الاستيعاب : ٤٠٤/٤).

(*) سلمى بنت عيسى بن سعد الخثعمية كانت تحت حمزة ثم خلف عليها بعد مقتل حمزة شداد بن الهاد الليثي. وهي إحدى الأخوات اللاتي قال فيهن الرسول ﷺ الأخوات المؤمنات . (الإصابة ٣٣٢/٤؛ الاستيعاب ٣٢٥/٤).

(١) الإصابة ج ٤ ، ص ٤٨٤

(٢) الاستيعاب ٤/ص ٤٠٠ قال ابن حجر اسم أمهن خولة بنت عوف ، قالوا هي العجوز التي قيل فيها أكرم الناس أصهاراً ، الإصابة ٤/ص ٢٣١ .

(*) زينب بنت خزيمة بن عبد الله بن عمر بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ (الإصابة ٣١٥/٤ ؛ الاستيعاب ٣١٢/٤) .

(*) عبد الله بن جحش بن رباب بن يعمر بن خزيمة الأسدي حليف بني شمس ، أمه أميمة بنت عبد المطلب أحد السابقين إلى الإسلام ، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرأ ، وكان أول أمير في الإسلام وكان يقال له المجدع في الله لأنه دعا يوم أحد فقال : اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرده أقاتله فيك حتى يأخذني فيجدع أنفي وأذني فإذا لقيتك قلت هذا فيك وفي رسولك فتقول صدقت ، وقد انقطع سيفه يوم أحد فأعطاه الرسول ﷺ عرجوناً فصار في يده سيفاً فكان يسمى العرجون استشهد يوم أحد ودفن هو وحمزة في قبر واحدة - رضي الله عنهما : (الإصابة : ٢٨٦/٢) .

(٣) انظر : الإصابة ، ج ٤ ، ص ٣١٥ ، انظر أسد الغابة ١٢٩/٧.

ومنهن أم الفضل لبابة الكبرى زوجة العباس بن عبد المطلب* ، وأم أكثر بنيه، ويقال إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة* رضي الله عنها وأرضاها ، فكان رسول الله ﷺ يزورها ويقل عندها ، وكانت من المنجيات ، ولدت للعباس رضي الله عنهما ستة رجال ، لم تلد امرأة مثلهم ، وهم الفضل* وبه كانت تكنى ،

(*) العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي عم رسول الله ﷺ أبو الفضل ، أمه نفيلة بنت جناب بن كلب ، ولد قبل الرسول ﷺ بسنتين وضاع ، وهو صغير ، فنذرت أمه أن تكسو البيت الحريم فكست البيت الحريم ، وكان إليه في الجاهلية السقاية والعمارة وحضر بيعة العقبة قبل أن يسلم ، وشهد بدرًا مع المشركين مكرهاً ، فأسر فافتدى نفسه ورجع إلى مكة ، ويقال إنه أسلم وكنم ذلك على قومه وصار يكتب إلى رسول الله ﷺ بالأخبار ، ثم هاجر قبل الفتح وثبت يوم حنين وكان جواداً وصولاً للرحم مطعماً وكان له دعوة مرجوة ، ورأي حسن له من المناقب والفضائل الكثير توفي سنة ٣٢ هـ (الإصابة ٢٧١/٢ ؛ الاستيعاب ٩٤/٣ ؛ ط ابن سعد ٥/٤ - ٣٣ ، تهذيب ١٢٢/٥).

(*) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية ... زوج النبي ﷺ وأول من صدقت ببعثته مطلقاً قال الزبير كانت تدعى قبل البعثة الطاهرة وأمها فاطمة بنت زائدة ، قرشية من بني عامر ، كان زواجها بالرسول ﷺ قبل بخمسة عشرة سنة وقيل أكثر من ذلك ، وعمره ﷺ ٢٥ سنة . ومما يدل على فضلها ما روته عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ، فغضب ﷺ ثم قال : «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها آمنت إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء» قالت عائشة ، فقلت في نفسي لا أذكرها بعدها بسبة أبداً ، وفي صحيح البخاري أن الرسول الله ﷺ «خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة». أرسل الله عز وجل إليها بالسلام مع جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب . ويقال كان موتها قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح وقيل غير ذلك ودفنت بالحجون ونزل الرسول ﷺ في حفرتها ولم تكن شرعت صلاة الجنائز . (الإصابة ٢٨١/٤ ؛ الاستيعاب ٢٧٩/٤).

(*) الفضل بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله ﷺ ... وأمّه لبابة بنت الحارث الهلالية غزا مع النبي مكة وحنيناً وثبت معه يومئذ وشهد حجة الوداع وثبت أن الرسول ﷺ أردفه خلفه في حجة الوداع ، وقد حضر غسل رسول الله ﷺ قيل مات الفضل في طاعون عمواس بالشام سنة ١٨ هـ وقيل غير ذلك . (الإصابة ٢٠٨/٣ ؛ الاستيعاب ٢٠٨/٣).

وعبدالله * الفقيه وعبيدالله * الفقيه ، ومعبد * ، وقثم * وعبد الرحمن * ، وأم حبيبة * سابعة .

وقد (روى) عن رضي الله عنها - ابنها عبدالله بن عباس، وعبد الله بن الحارث^(١) .

وقد أرضعت أم الفضل الحسن حيث ذكرت للنبي ﷺ أنها رأت مناماً فقالت: يا رسول الله رأيت أن عضواً من أعضائك في بيتي ؛ فقال ﷺ ، تلد فاطمة غلاماً وترضعه بلبن ، فولدت فاطمة رضي الله عنها حسيناً فأخذه أم الفضل فأرضعته^(٢) فكانت أمّاً من الرضاعة لسيد شباب الجنة .

ومما يدل على رجاحة عقل أم الفضل رضي الله عنها ، ما روته رضي الله عنها : (أن ناساً اختلفوا عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ : فقال بعضهم هو صائم ، وقال بعضهم ليس بصائم ، فأرسلت إليه بقدر لبن وهو واقف على بغير فشره)^(٣) ﷺ ولا عجب والحالة هذه أن تكون أم الفضل هي والدة ابن عباس

(*) عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم يكنى أبا محمد وأمه أم الفضل لبابة، قال الزبير كان سخيًا جواداً ، استعمله علي بن أبي طالب على اليمن قيل مات سنة ثمان وخمسين وقيل غير ذلك . وكان يقول إن لاموه في طلب العلم : إن نشطت فهو لذتي وإن اغتممت فهو سلوتي . (الإصابة ٤٣٧/٢ ؛ الاستيعاب ٤٢٩/٢ ؛ سير ٥١٢/٣ ؛ أسد الغابة ٥٢٤/٣ ؛ تهذيب ١٩/٧) .

(*) معبد بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي يكنى أبا العباس ولد على عهد الرسول ﷺ ، ولم يسمع منه ، واستشهد بإفريقية في خلافة عثمان بن عفان سنة خمس وثلاثين، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث أخت ميمونة زوج النبي ﷺ . (الإصابة ٤٧٩/٣ ؛ الاستيعاب ٤٥٧/٣) .

(*) قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، أمه أم الفضل لبابة ، وقال ابن حبان خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان إلى سمرقند فاستشهد هناك . (الإصابة ٢٢٦/٣) .

(*) عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي قيل ولد في عهد النبي ﷺ واستشهد بإفريقية . (الإصابة ٧/٣) .

(*) أم حبيبة ويقال حبيب كذلك بنت العباس بن عبد المطلب وأمها أم الفضل لبابة تزوجها الأسود بن سنان بن عبد الأسد المخزومي فولدت له لبابة وقيل ولدت له لبابة وزرقاء . (الإصابة ٤٤٠/٤ ؛ الاستيعاب ٤٤٢/٤) .

(١) انظر : ابن الأثير ج ٤ ص ٣٩٨ .

(٢) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ٤٨٣-٤٨٤ .

(٣) البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ٢ ، كتاب الحج ، باب الوقوف على الدابة بعرفة ، ص ٢١٢ ، ح (١٦٦١) ؛

مسلم ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٢ ، كتاب الصيام ، باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة ص ٧٩١ ، ح (١١٢٣) .

ترجمان القرآن ، وحبر الأمة ، ولا عجب أن توافقه دعوة رسول الله ﷺ : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) وقد لمس فيه رسول الله ﷺ صفات المفسر والمترجم والفقيه والمفتي .

ومنهن أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، وهي من المهاجرات إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب* رضي الله عنه ، ولدت له هناك أولاده ، فلما قتل جعفر تزوجها أبو بكر رضي الله عنه فولدت له محمداً* ثم تزوجها علي* رضي الله عنهم جميعاً .

وفى الصحيح أن أسماء رضي الله عنها قالت يارسول الله إن رجلاً يفخرون علينا ويزعمون أنا لسنا من المهاجرين الأولين فقال ﷺ «ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»^(١) وذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس رضي الله عنها وكان عمر رضي الله عنه يسألها عن تفسير المنام.

(*) جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الله بن عم رسول الله ﷺ ، هاجر الهجرتين من الحبشة إلى المدينة، فأقام بها شهراً، ثم أمره الرسول على جيش مؤتة، فاستشهد وقد سر الرسول ﷺ بقدومه كثيراً وحزن لوفاته أيضاً، وعن أبي هريرة مرفوعاً «رأيت جعفرأ له جناحان في الجنة» وفي رواية عن ابن عباس عن الرسول « رأيت جعفر بن أبي طالب ملكاً في الجنة مضرجة قواده بالدماء يطير في الجنة» . واستشهد سنة ثمان في جمادى الأولى وكان أشبه الناس خلقاً وخلقاً برسول الله ﷺ كان عمره يوم قتل ٤١ سنة وكان جعفر يحب المساكين ويحبونه ويجلس إليهم ويحدثهم ويجلسون إليه ويحدثونه فكانه الرسول ﷺ أبا المساكين . (الإصابة ٢٣٧/١؛ الاستيعاب ٢١٠/١؛ اسير ٢٠٦/١؛ ط ابن سعد ٣٤/٤؛ أسد الغابة : ٣٤١/١ ؛ تهذيب ٩٨/٢).

(*) محمد بن أبي بكر الصديق بن أبي قحافة بن تيم بن مرة بن كعب القرشي التيمي، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية، ولدته في طريق المدينة إلى مكة في حجة الوداع، وشهد محمد مع علي الجمل وصفين، ثم أرسله إلى مصر أميراً فتولى أمارتها لعلي ثم جهز معاوية عمرو بن العاص في عسكر إلى مصر فقاتلهم محمد فهزم ثم قتل في صفر سنة ثمان وثلاثين . (الإصابة ٤٧٢/٣).

(*) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الحسن، وهو أول من آمن من الناس بعد خديجة، ولد قبل البعثة بعشر سنين وشهد مع الرسول ﷺ جميع المشاهد إلا غزوة تبوك لأن الرسول ﷺ خلقه على المدينة وقد قال له (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدي) وزوجه بنته فاطمة رضي الله عنها قال الإمام أحمد : لم نقل لأحد من الصحابة ما نقلى لعلي ، وقال غيره كان ذلك بسبب بغض بني أمية له، فكان كل من كان عنده علم من شيء من مناقبه من الصحابة يثبته، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، سماه الرسول ﷺ أبا تراب وهاجر إلى المدينة وأجمع على أن علياً صلى القبلتين ، وقتل في ليلة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف . (الإصابة ٥٠٧/٢؛ الاستيعاب ٢٦/٣).

(١) انظر الحديث وتخريجه ص ٤٠٦ من هذا البحث .

ومما يروى عن حكمتها أيضا ورجاحة عقلها رضي الله عنها ، أنه تفاخر ولداها محمد بن جعفر* ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنهم فقال كل منهما أنا أكرم منك وأبي خير من أبيك فقال لها علي اقضي بينهما فقالت : مارأيت شاباً خيراً من جعفر ولا كهلاً خيراً من أبي بكر ، فقال لها علي رضي الله عنه فما أبقيت لنا .

وروى عن أسماء رضي الله عنها ابنها عبد الله بن جعفر وحفيدها القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعبد الله بن عباس ، وابن أختها عبد الله بن شداد بن الهاد ، وحفيدتها أم عون بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب^(١) - رضي الله عنه - .

ومنهن لبابة* الصغرى وهى التى ولدت سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه وقد قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين شكا الصحابة من بكاء النسوة عليه حين مات : (ماعلى نساء قريش أن تبكين أبا سليمان مالم يكن نَقْعٌ* أو لَقْلَقَةٌ)* .

ومرة أخرى يقول أمير المؤمنين رضي الله عنه حين رأى أمه باكية وهل قامت النساء عن مثل خالد^(٢) .

وكذلك أختهن سلمى بنت عميس زوجة حمزة رضي الله عنه ، وابنها عبد الله ابن شداد رضي الله عنه ، استشهد في وقعة الجمام وكان من أهل العلم^(٣) .

(*) محمد بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي وقبل هو أول من سمي محمداً في الإسلام من المهاجرين وقال الدارقطني ولد بأرض الحبشة وقالوا إنه ولد على عهد النبي وكنيته أبو القاسم ، تزوج أم كلثوم بنت علي بعد عمر واختلف في كيفية وفاته . (الإصابة : ٣٧٢/٣) .

(١) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ٢٣١ .

(*) لبابة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهرم بن ربيعة بن عبد الله بن هلال بن عامر ابن صعصعة الهلالية وهى لبابة الصغرى تلقب العصماء وأمها فاختة بنت عامر الثقفية وهى والدة خالد بن الوليد المشهور ... قيل في صحبتها نظر (الإصابة ٣٩٨/٤ : الاستيعاب ٤٠١/٤) .

(٢) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ٣٩٨ .

(*) نَقْعٌ : رفع الصوت ، ونَقْعُ الصوت ، واستنْقَع إذا ارتفع (ابن الأثير ، ج ٥ ، (نقع) ص ١٠٩) .

(*) لَقْلَقَةٌ : الصياح والجلبة عند الموت . (ابن الأثير ، ج ٤ ، (لقلق) ، ص ٢٦٥) .

(٣) انظر ابن حجر الإصابة ، ج ٤ ، ص ٦٠ ؛ الاستيعاب لابن عبد البر ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

واخيراً فإنني لأعجب من هؤلاء الأخوات أي أم تلك التي أنجبتهن ، وأي أولادٍ هُنَّ أنجبن رضي الله عنهم جميعاً ، فكان منهن صناديد الإسلام جهاداً وعلماً .

والخلاصة إن الطفل إنما يتأثر بالمحيطين به سلباً وإيجاباً ، فإذا توفرت له الأم الصالحة ، والبيئة المناسبة للنمو السليم من آباء وإخوة ومجتمع محيط به ، فإنه ينشأ على حب الخير والفضيلة وكراهية الشر والرذيلة ، وإلا كان العكس .

وإن الدور الأول في العملية التربوية للوالدين معاً ، لا سيما الأم لأن : «الطفل حيوان صغير مقلد يتأثر بكل مايحيط به من أنماط سلوكية مختلفة ، وليس أهم من الوالدين من يستطيع أن يرسم للطفل طريق المحاكاة والتقليد، فالطفل يتعلم الكثير من والديه ويتعلم ذلك بسرعة فائقة ، فكل اضطراب في سلوك الوالدين أو انحراف في شخصيتهم لاشك يعكس آثاره على شخصية الطفل عاجلاً أو أجلاً»^(١).

وقد أثبت العلم الحديث أن أهم عوامل الانهيار الأخلاقي داخل الأسرة بل أخطرهما هو انحراف الوالدين أو أحدهما ، أو انحراف أكبر الأبناء أو أكبر البنات والمقصود بالانهيار الخلقى هنا هو انعدام القيم الروحية ، وفقدان المثل العليا واختلال المعايير الاجتماعية ، داخل جدران المنزل ، مما يجعل الحياة داخل الأسرة مجردة من معاني الشرف والفضيلة أو السلوك الطيب وتصبح فيها الجريمة أو الانحراف أو سوء الخلق أمراً عادياً ، لا يرى فيه أفراد الأسرة غضاظة ولا يحسون فيه معنى للخطيئة^(٢) .

والأم والأب في تحمل تلك المسؤولية على سواء ، وإن كان يبدو في الغالب أن أثر الأم وتأثيرها أكبر من الأب .

وهذا الشاعر يوسف العظم يشيد بأثر أمه في شخصيته في هذه القصيدة فيقول :

قالوا حياتك نورٌ قلتُ يرسلُهُ * قلبٌ كبيرٌ يشعُّ النورُ مذكّانا

قالوا حياتك حبٌ قلتُ واهبُهُ * مَنْ هَدَّهَدَ القلبَ إشراقاً ووجدانا

قالوا حياتك عطرٌ قلتُ مصدَرُهُ * مَنْ أَنْبَتَتْ في حنايا القلب رِيحانا

(١) د. محمد سلامة محمد غباري ، الانحراف الاجتماعي ورعاية المنحرفين ودور الخدمة الاجتماعية لهم ، (مصر . الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٨٩ م) ص ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق .

قالوا حياتك لحنٌ قلتُ تعزفُـه * قمريةٌ ملأتُ جَنبيَّ أَلحاناً
قالوا حياتكُ نبعٌ قلتُ فجَّـره * مَنْ فاضَ مِنْ موطنِ الإيمانِ إيماناً
قالوا فمنَ تِلْكَ في دنياكَ تملؤها * عطرًا ونورًا وإلهامًا وإحساناً
فقلتُ أُمِّي الَّتِي هامتَ بها كِبدي * فَيَرْبُّهَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ قُرْآنًا
لَوْلَا حنانُكَ أُمِّي مَنْ يُعَلِّمُنَا * حُبًّا ويملاً بالتَّحْنانِ دُنيانا
أَنْتِ الَّتِي كابدتِ في حَمَلِنَا زمناً * وَأَرْضَعْتِنَا لبانَ الخَيْرِ الْوانِ
جزاكِ رَبُّكَ يا أُمَّاهُ مَغْفرةً * وَجَنَّةَ الْخُلْدِ تَكْرِيمًا ورضواناً^(١)

وبعد هذه الوقفات عند أهمية الأمموة ، وأثرها العميق والخطير في بناء الإنسان ، لابد من تعريف الأمموة ومصطلحاتها ، وماهي الأمموة الحققة الرئيسة . . وما مقوماتها . . ؟ ! . وذلك قبل الشروع في عرض البحث .

(١) د. يوسف العظم ، ديوان «في رحاب الأقصى» ، بيروت : المكتب الإسلامي ١٩٨٠م ، ص ٢٢١.

تعريف الأمومة

١ - في اللغة :

الأمومة مشتقة من كلمة - أم - ووردة كلمة أم في القرآن الكريم ومنها :
﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الحمد ، وهى الفاتحة ، لأنه يبدأ بها فى المصاحف ، قبل سائر القرآن ، (أم القرآن) علم الكتاب قال تعالى : ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (سورة الرعد-آية ٣٩)

وقيل الكتاب كله : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا﴾ (سورة الزخرف - آية ٤)
وقيل المحكم من آياته ... ، وقيل اللوح المحفوظ ، والعرب تغوذاً أصل كل شىء أمّه .
وأمُّ كل شىء : معظّمه ، ويقال لكل شىء اجتمع إليه شىء فضّمه هو أمُّ له ،
ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ﴾ (سورة القارعة آية ٩) .

وأم القرى مكة المكرمة ، قال الله تعالى ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (سورة الأنعام آية ٩٢) .

ويقال للنهر الكبير الذى تحمل السواقي منه : الأمُّ ، وتسمى سواقيه الرواضع ،
كأنما اِزْتَصَعَتْ من الأمُّ ، وأمُّ كل ناحية أعظم بلده وأكثرها أهلاً ، وقيل على نحو
هذا من التعظيم لأزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ﴿وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (سورة
الأحزاب - آية ١٦) .

ويقال للقوم المتفقيّن على الأمر بنو أمٍّ وللمختلفين بنو عِلَّة ، والعِلَّةُ الضُّرَّة ،
ويقال لبني الضرائر بنو العِلَّات ، ولبنى الأمِّ الواحدة أمّ .

وأمهات في الناس وأمّهات أيضاً في البهائم^(١) ، وأمّه قصّده ، كائنتمه ، وأمّمه
وتأمّمه ، ويَمّمه وَيَمّمه والمئم بكسر الميم الدليل الهادي ، والأم وقد تكسر الوالدة
وأمُّ كل شىء أصله وعماده . وأمّت أمومة صارت أمّا وتأمّمها واستأمّمها
اتَّخَذَهَا أُمًّا^(٢) .

(١) «المخصص» لابن سيده ، علي بن إسماعيل النحوي ، تحقيق لجنة إحياء التراث ،
(بيروت ؛ دار الآفاق الجديدة) ، ج ٤ ، السفر الثالث عشر ، باب الأمّهات ، ص
١٨٠-١٩٢ .

(٢) القاموس المحيط مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ، الطبعة السادسة (بيروت : دار
الجيل ، باب الميم ، فصل الهمزة ، ج ٤ ، ص ٧٧ ،

ويقال للأم الأمّة ومنهم من يقول الأمّهة ، فألحقها هاء التأنيث ، جمع أمّات ، وذكر إنها لغة صفيقة وإنما الفصح أمّها ، وقيل : الهاء من حروف الزيادة وهي مزيدة في الأمّها ، والأصل الأمّ وهو القصد^(١)

وقيل : تفسير الأم في كل معانيها أمه ، لأن تأسيسه من حرفين صحيحين والهاء فيها أصلية ، ولكن العرب حذفت تلك الهاء إذ أمنوا اللبس ، ويقول بعضهم في تصغير أم أميمة ، والصواب أميئة ترد إلى أصل تأسيسها ، ومن قال أميمة صغرها على لفظها^(٢) .

وتطلق على الوالدة وتطلق على الجدة ، يقال حواء أمّ البشر ، وتطلق على الشيء يتبعه ما يليه ، ويقال هو من أمّها الخير : من أصوله ومعانيه .
ويقول في الذم والسب لأُمّ لك وقد تكون للمدح والتعجب .
والأمّة : الوالدة ، وجماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد^(٣) .

٢- الأمومة في الاصطلاح :-

الأمومة : نظام تعلو فيه مكانة الأم على مكانة الأب في الحكم ، ويرجع فيه إلى الأم في النسب والوراثة^(٤) .

وقد تكرر لفظ (أم) في القرآن الكريم في عدة آيات ، وفي معان متعددة ، والذي يدور حوله البحث هو الأمومة الصلبية ، كأمومة أم موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (سورة القصص - آية ٧) .

فاشتملت الآية الكريمة على الأمومة الحقيقية للطفل الصلبي ، فهي أمومة نسب ، وأمومة حمل وولادة وأمومة رضاع ، ومن ثم أمومة حضانة وإشراف فهي أمومة حقيقية كاملة الجوانب .

(١) جمهرة اللغة لابن دريد ، ج ١ ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، (بيروت : دار مكتبة الحياة) ، ج ٨ ، ص ١٩١ .

(٣) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى حسن الزيات ، مجمع اللغة العربية ، (طهران : المكتبة العلمية) ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

لكن الأمر الذى تتحقق فيه الأمومة هو الولادة لاغير كما أفاد أسلوب الحصر فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ (سورة المجادلة - آية ٢).

وقد ورد ذكر الأم الوالدة فى الحديث الشريف كما فى قوله ﷺ حين سئل ﷺ من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : «أُمُّكَ»^(١).

وقد ذكرت الوالدة فى القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ...﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية* رحمه الله فى إطلاق قوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ لأن المرأة هى التى تلده ، وأما الأب فلم يلد له بل هو مولود له .

﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣٣).

ولكن إذا قرن بينهما قيل ﴿وبالولدين إحساناً﴾ (سورة الإسراء آية - ٢٣) .
وأما مع الإفراد فليس فى القرآن تسميته والدًا ، بل أبًا^(٢).

فالقُرآن الكريم لم يفرد الأب بتسميته والدًا ولا فى موضع ، بينما ورد اسم الوالدة فردًا فى آيات عدة^(٣).

تلك هى الأمومة الأكيدة الحقة أمومة الرحم والولادة قال تعالى :

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (سورة الأحقاف - آية ١٥).

و «قانون الامومة سنة مفردة انفردت بها الزوجة دون الزوج ، بتأهيل روعي خاص جعلها المصدر الوحيد الذى ينبفخ فى نفوس الأولاد فتثمر ماشاء الله من أدب

(١) البخاري ، الصحيح ، ٤، ج ٧، كتاب الأدب ، باب من أحق الناس بحسن الصحبة ص ٩١، ج (٥٩٧١)؛ مسلم ، الصحيح ، ٤، ج ٤، كتاب البر والصلة ، باب بر الوالدين ص ١٩٧٤، ج (٢٥٤٨).

(*) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين بن تيمية الإمام شيخ الإسلام، ولد فى حران وكان كثير البحث فى فنون الحكمة، ذاعية إصلاح فى الدين، آية فى التفسير والأصول، فصيح اللسان قلمه ولسانه متقاربان، وأفتى ودرس وهو دون العشرين، أما تصانيفه فربما تزيد على أربعة آلاف كراسة وتوفى رحمه الله معتقلاً بقلعة دمشق سنة - ٧٢٨هـ .
(الدرر الكامنة ١/١٤٤؛ البداية والنهاية ١٤/١٣٥؛ النجوم الزاهرة ٩/٢٧١؛ سير ١٣٥/١٤)

(٢) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم العاصمي وساعده ابنه محمد، (الرياض : دار عالم الكتب ١٤١٢هـ - ١٩٩١م) ج ٣٤، ص ٦٨.

(٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضعه فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الثانية (بيروت : دار المعرفة ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م) مادة «ولد»، ص ٩٣٠ - ٩٣١.

الحفد ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ سورة النحل آية ٧٢ وتتضح معالم هذا المعنى أي انفراد الزوجة بتلك السنة في قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (سورة لقمان - آية ١٤).

فالوصية بالوالدين إحسانا واضحة في قوله تعالى ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ ولكن ربط تلك الوصية بوظيفتين خاصتين بالزوجة هما الحمل والفصال أي الإرضاع إشارة للتأهيل الذي أفرد الزوجة بقانون الأمومة وتحقيق الحفد^(١).

والحقيقة .. إن قانون الأمومة لا ينشئ الحفد ولا يخلقه بل يشره كما أن قانون الزوجية لا يخلق المودة والرحمة ، في نفوس الزوجين وكأن فطرة الإنسان فيها بذور المودة والرحمة ، وقانون الزوجية يتولى إمدادها بالري والإخصاب ، كذلك فطرة الإنسان بالنسبة لأحفاده من تهيتها له ، وقانون الأمومة ينفخ فيها الحياة نماء فتثمر في نفوس الأولاد^(٢).

ويمتد هذا التعظيم إلى أمهات الوالدين في أمومة الحفد ، فيسميها القرآن الكريم أمًا قال تعالى : ﴿حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (سورة النساء - آية ٢٣).

والأم : (اسم لكل أنثى لها عليك ولادة ، فيدخل في ذلك الأم دنية* ، وأمهااتها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون^(٣)).

وأمومة الولادة بدرجاتها ، تثبت لها أحكام النسب والإرث والعقل والولاية والمحرمية ، والحرمة ، والإحسان .

وثمة أمومة مجازية تلحق بالأمومة الحقيقية في بعض الأحكام والآداب وتأخذ عدة صور :

(١) البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ، ص ١٤٢.

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٤٢.

(*) دنية : أي رجماً أدنى إليّ من غيرها ، لسان العرب ، ابن منظور ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م) ، ج ٤ ، (دنا) ، ص ٤٢٠.

(٣) القرطبي ، محمد بن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، الطبعة الثانية ، (١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م) ، .

١- أمومة روحية دينية لجميع الخلق بعد بعثة محمد ﷺ ممثلة في أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قال تعالى

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (سورة الأحزاب- آية ٦) وقال ﷺ في عائشة رضي الله عنها حين كسرت القصعة «غارت أمكم»^(١).

ولهذه الأمومة آدابها برّاً وإحساناً ، ولا يثبت لها إلا حكم واحد وهو حرمة النكاح المنحصرة فيهن لاتتعداهن رضي الله عنهن .

٢- الأم المرضع قال تعالى ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ (سورة النساء -آية ٢٣) ولها حكما الحرمة والمحرمية .

٣- الأم الخالة قال ﷺ «الخالة بمنزلة الأم»^(٢) وتثبت لها الحرمة والمحرمية فقط وأدب الصلة والبر والصحبة .

٤- الأم الحاضنة ، وهي من تحضن الصغير وتلي شأنه ، كأم أيمن رضي الله عنها حاضنة رسول الله ﷺ حتى كبر^(٣) فلا يثبت لها حكم من أحكام الأمومة ، وليس لها إلا أدب الصلة والبر والإحسان كما كان منه ﷺ معها .

والخلاصة : فالأمومة القطعية في تحققها ، الكاملة في أحكامها هي أمومة الولادة ، أمومة الرحم ، ذلك الجهاز الذي كرمت به الأنثى وخصت به، فما هو؟

الرحم :

الرحم : من رحم ، رحمة : الرقة ، والتعطف والمرحمة مثله ، وقد رَحِمْتُهُ ، وَتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ .

الرَّحِمُ : رَحِمُ الْأُنْثَى ، وهي مؤنثة ، والرَّحِم ، والرَّحِمُ بَيْتُ مَنِبَتِ الْوَلَدِ ووعاؤه في البطن^(٤) ويقال : الرَّحْمُ^(٥).

والرَّحِمُ : أسباب القرابة ، وأصلها الرَّحِمُ التي هي منبت الولد ، وهي الرَّحِمُ بالكسر .

(١) البخاري ، الصحيح ٣، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب الغيرة ، ص ١٩٢ ، ح (٥٢٢٥).

(٢) البخاري ، الصحيح، ج ٣، كتاب الصلح ، باب هذا ما صالح عليه فلان ص ٢٢٢ ج (٢٦٩٩) .

(٣) انظر مسلم الصحيح ، ج ٣، كتاب الجهاد والسير ، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منانهم، ص ١٣٩١، ح (١٧٧١).

(٤) لسان العرب لابن منظور ، ح ٥ ، مادة رحم ، ص ١٧٣-١٧٥.

(٥) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى الزيات ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، مادة (رحم).

ويقال ذو رَحِمٍ ، مُحَرَّمٍ ، وَمُحَرَّمٍ وهو من لا يحل نكاحه كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة .

وَأَمُّ رُحْمٍ ، وَأَمُّ الرُّحْمِ : مكة ، أى أصل الرَّحْمَةِ^(١).

فمكة المكرمة أم الرحمة للمسلمين ، والأم أم الرحمة لأبنائها ، فلا رحمة مثل رحمة الأم لطفلها وماذا لك إلا لأنها حملته فى الرحم ، التى هى منبت الولد ، وهى أصل الرحمة قال تعالى :

﴿وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَآثِئًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (سورة الحج-آية ٥).

وأى رحمة وعناية تفوق هذا ! وقال تعالى :-

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ (سورة المرسلات - آية ٢٠-٢٣). والقرار هو الرحم

فى قرار : أى مستقر وهو الرحم ، (مكين) أى : متمكن ، فالرحم نفسها متمكنة ، ومعنى تمكنها أنها لاتنفصل لثقل حملها أو لاتمتج مافيها فهو كناية عن جعل النطفة محرزة مصونة^(٢) فالرحم عين الرحمة ، والحصن الحصين ، المنيع الأمين .

والرحم هو القرار المكين والوعاء الوحيد الذى يتكون فيه الإنسان ، وقد ورد ذكر الرحم فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فى مواضع كثيرة ، وهو لا يعدو أحد معنيين :-

- ١- الرحم :الذى ينمو فيه الجنين حتى يحين وقت خروجه إلى الدنيا، قال تعالى :
﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (سورة آل عمران - آية ٦).
- ٢- هو وشيجة القربى والصلة التى تربط بين القرابات خاصة وبين بنى آدم وحواء عامة، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (سورة النساء -آية ١).

(١) النهاية فى غريب الحديث ، ابن الأثير ، ج ٢ ، مادة رحم ، ص ٢١٠ .

(٢) الألويسي : شهاب الدين محمود البغدادي ، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، (بيروت : دار الفكر) م ٩ ، ج ١٨ ، ص ١٣ ؛ الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر الخوارزمي ، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل (بيروت : دار الفكر) ج ٣ ، ص ٢٧ .

وفى الحديث الشريف قال ﷺ: «الرَّحِمُ معلقةٌ بالعرشِ تقولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ»^(١).

وهذه الرحم تستغيث برب الخلق منذ خلق الله سبحانه وتعالى الخلق ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ ، قالت بلى يارب ، قال فهو لك » قال رسول ﷺ اقرؤوا إن شئتم^(٢) : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ (سورة محمد آية ٢٢-٢٣) .

قال ﷺ « لا يدخل الجنة قاطع رحم »^(٣).

وقال ﷺ «من سرّه أن يُيسرَ له في رزقه أو يُنسأله في أثره فليصل رحمه»^(٤).

فللرحم أهميته الكبرى فى الإسلام ، وقد اشتق الله سبحانه وتعالى له اسماً من اسمه ، فكانت له المكانة الأولى والدرجة المميزة من بين جميع أعضاء الإنسان ، و «إنه تشريف لم يحظ به كثير من أعضاء جسم الإنسان (على أهمية تلك الأجزاء مثل القلب والدماغ والكبد). وذلك راجع لأن الرحم منبت للبذرة الإنسانية ، فيها تنمو وتترعرع . يغذوها بدمه ويحفظها من كل سوء حتى إذا آن موعد خروجه إلى الدنيا انقبض الانقباضات متتالبة حتى يخرجها إلى الدنيا سليماً معافى دون أن يمسه أذى مع أن مثل تلك الانقباضات الشديدة يمكن أن تؤدي بحياة الجنين، ولكن الله سبحانه يجعل له سبيلاً ليخرج، ويجعل تلك الانقباضات متقطعة ولا تؤثر على حياة الجنين لأنها تتجه إلى أسفل لتوسيع عنق الرحم بدلاً من الضغط المباشر على الجنين»^(٥) ، حقا لا يمكن لاسم أن يعطى مدلوله مثل هذا الاسم الذى أطلقه الله سبحانه وتعالى

- (١) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم ، ص ١٩٨١ ، ح (٢٥٥٤).
- (٢) البخاري ، الصحيح ، م٤ ، ج٧ ، كتاب باب من وصل وصله الله ص ٩٦ ، ح (٥٩٨٧).
- (٣) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، ص ١٩٨١ ، ح (٢٥٥٦).
- (٤) البخاري ، الصحيح ، م٢ ، ج٣ ، كتاب البيوع ، باب من أحب البسط فى الرزق ص ١٠ ، ح (٢٠٦٧) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، ص ١٩٨٢ ، ح (٢٥٥٧).
- (٥) دورة الأرحام ، د. محمد علي البار ، الطبعة الرابعة (جدة ، الدار السعودية ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م) ص ١٦.

يعطي مدلوله مثل هذا الاسم الذي أطلقه الله سبحانه وتعالى على هذه العضلة الصغيرة ألا وهو (الرحم) وجدير به أن يحمل كل معاني الرحمة في أروع صورها في هذه الأرض ، في داخله ونحن أجنة في بطون الأمهات ، لأنه القرار المكين ، فهو مكان الاستقرار ، والإيواء زمن الضعف والوهن ، وهو المسكن القوي الراسخ المتين الذي يتحمل ما أعد له من الحمل والولادة .^(١) وكذلك هو الحماية الاجتماعية للإنسان من خلال قرابة الرحم التي يلوذ بها الإنسان بعد الخروج من الرحم إلى الدنيا، من كل ضغط مادي أو نفسي عبر مفازات هذه الحياة .

ولاغربة - وللرحم هذه المكانة - أن تأتي الرحم يوم القيامة مستغيثة بالله عز وجل . . قال ﷺ :

«توضعُ الرَّحِمُ يومَ القيامةِ ، لها حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ المِغْزَلِ* ، تَكَلِّمُ بِلِسَانِ طَلْقٍ ذَلْقٍ* ، فتصلُ مَنْ وَصَلَهَا وتَقْطَعُ مَنْ قَطَعَهَا»^(٢) .

(١) انظر : د. محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، الطبعة السابعة (جدة ، الدار السعودية ، ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م) ، ص ٥٥-٦٧ ؛ مأمون شقفة ، القرار المكين ، الطبعة الثانية ، (الرياض ، دار حسان ، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ص ٥٠-٦٢ .

(*) حُجْنَةُ المِغْزَلِ : بضم الحاء وسكون الجيم صَنَارَةُ المِغْزَلِ وهي المِغْزَلَةُ في رَأْسِهِ («حجن» ، ابن الأثير ، ٣٤٧/١ ؛ اللسان ٦٨/٣) .

(*) طَلْقٌ ذَلْقٌ : على فُعْلٍ بوزن صُرِدَ ، أي لسانٍ فصيحٍ بليغٍ . («ذلق» ، ابن الأثير ١٦٥/ ؛ اللسان ٥٤/٥) .

(٢) مسند الإمام أحمد ، شرح وفهرسة أحمد شاكر ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٣٧٥ هـ - ١٩٦٥ م) ، ج ١١ ، ص ٥١ ، ح (٦٧٧٤) .

وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح ؛ وأخرجه الحاكم بلفظ «يجيء الرحم» ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، (المستدرک ، ١٦٢/٤) .

الباب الثاني

الشروط اللازمة لنجاح الأمومة

- ١- اختيار الزوجة الصالحة ♦
- ٢- إعداد الزوجين لحمل مسؤوليات الأبوة والأمومة ♦
- ٣- المحافظة على تماسك الأسرة ونموها ♦
- ٤- الزواج المبكر والمحافظة على الصحة العاطفية للوالدين ♦

تمهيد :-

إن الأمومة الحقة يجب أن تتوافر لها البيئة الشرعية والأسباب والشروط الصحيحة حتى تؤتي ثمرها طيباً مباركاً، ولا يكون ذلك إلا بالزواج .

والزواج خلاف الفرد ، ويقال هما زوجان للاثنيين ، وهما زوج ، ويطلق العرب الزوجين على الجنسين المختلفين ، والزوجان اثنان ، قال تعالى :

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (سورة النجم - آية ٤٥)،

فكل واحد منهما زوج، وزوج المرأة بعلمها، وزوج الرجل امرأته، والزواج الاقتران^(١). والإسلام قد دعا إلى الزواج ورغب فيه ، اتفاقاً مع الفطرة والسنن الكونية التي أوجدها الله عز وجل في هذا الكون، فلا يخلو شيء في الوجود من نظام الزوجية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الذاريات - آية ٤٩)، وقال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس - آية ٣٦)، وقال تعالى في سورة النساء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء - آية ١) ،

قال الإمام الشوكاني* في معنى هذه الآية الكريمة (خلق من تلك النفس التي هي عبارة عن آدم زوجها وهي حواء) . فالله عز وجل جعل بدء الكون ، بتكاثر الخلق وقيام الكون على أساس التزاوج ، سواء في ذلك أدنى المخلوقات وأعلاها، والزوجية في عالم الإنسان كما يقول الأستاذ البهي الخولي ، (ضرورة فطرية أعمق مما يتصور الناظر إلى الوالدية وشهوة الجنس هي نظام أزلي يلتئم به شمل الكون كله ويصلح عليه وجوده ويخرج به ثمره .

إن نظام الزواج ليس دائرة ضيقة ولا أفقاً محصوراً مقصوراً على الإنسان والحيوان والنبات، بل هو سنة كونية دقيقة واسعة المدى وفطرة أزلية لا يلتئم شمل

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، (زوج) ، ج ٦ ، ص ١٠٧ .

(*) محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني، نشأ بصنعاء وجد في طلب العلم وقد خلف رحمه الله كتباً في العلم نافعة وكثيرة، وكان رحمه الله فريداً في عصره ونادرة لدهره وقُدوة لغيره وتوفي سنة ١٢٥٠ هـ . (البدر الطالع ٢/ ٢١٤) .

الشيء إلا إذا أخذت مكانها الطبيعي فى وجوده، فهناك حنين أزلي ونزوع فطري يتجاذب به أزواج النوع الواحد بعضها إلى بعض، وقد خلق الله سبحانه حواء لآدم وماكان سبحانه ليخلقها له إلا لأن خلقها تكملة لنظام وجوده وسداد لفراغ أصيل في حياته ولتكون هي مايكمل به نسقه المعنوي والحسي جميعاً .

وما حدث لآدم وحواء فى الجنة ، وإغواء إبليس لهما معاً ونزولهما معاً من الجنة إلى الأرض لأكبر دليل على أن غريزة الزواج هي أول غريزة فى بدء الوجود ، وليست فقط لإرواء الشهوة ، أو الولد وإنما هي أعمق من ذلك ، هي ملازمة إنسانية بين شقي النفس الواحدة ، تلك الإنسانية التى تنقسم إلى سالب وموجب ومايثمر عن هذا اللقاء الإنساني من المعاني الرفيعة السامية حتى قيام الساعة^(١) .
ومن هنا فقد رغب الإسلام فى الزواج وحض عليه . قال تعالى . .

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور - آية ٣٢) ،

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي ، في تفسير هذه الآية : (والله تعالى قد أمر جماعة المسلمين . . . أن يهتموا بتزويج من كان في مجتمعهم بدون نكاح من الرجال والنساء والأحرار ومن وجدوا فيهم الصلاح من عبادهم وإمائهم)^(٢) .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن التبتل والانقطاع عن الدنيا وعدم الزواج ، فقال ﷺ لمن سلكوا هذا المسلك فى حديث أنس رضي الله عنه : «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سُنتي فليس مِنِّي »^(٣) .

وهكذا . . . فإنه ﷺ وهو القدوة لأمته ، والقمة فى المثالية البشرية الواقعية ، لايعرض عن الزواج بل يرغب فيه ويحض ﷺ عليه لأنه أصل فى حياة الإنسان التى لاتستقر إلا إذا كانت وفق السنن الكونية والنواميس الإلهية .

(١) انظر : البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) أبو الأعلى المودودي ، تفسير سورة النور ، (جدة : الدار السعودية ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ، ص ١٨٠ .

(٣) البخاري، الصحيح، م ٣، ج ٦، كتاب النكاح، باب الترغيب فى النكاح ، ص ١٤٢، ح (٥٠٦٣) .

وقد خاطب رسول الله ﷺ الشباب «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة* فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

إن الله سبحانه وتعالى قد فطر الذكر والأنثى على الميل والتجاذب الفطري فيما بينهما ، وذلك أصل بيولوجي هرموني ، يؤثر في المبيض عند الأنثى والخصيتين عند الذكر ، لتنظم أمور الحياة بينهما من لحظة النطفة حتى معاناة التريبة ومكابدة العيش بكل صوره ، وقد جاء في كتاب «القرار المكين» في تصوير هذه الرغبة الفطرية التي استكنت في النفس مايلي : «لقد حسبت كل الاستروجين "هرمون" الموجود في نساء العالم حالياً وحسبت كل "التستوسترون" الموجود في رجال العالم الآن فوجدت أنها لاتكاد تصل بضعة آلاف من الكيلوغرامات ٠٠٠ وقلت في نفسي ماذا لو جمعنا هذين الهرمونين من رجال العالم ونسائهم ووضعناهما في طرف أي مستودع من مستودعاتنا ، أو أي غرفة في مختبر ، إذن لأنقذنا العالم من أمضى سلاح بيد إبليس اللعين ، ولكننا في نفس الوقت نوقف عملية التناسل إلى الأبد ، ونجعل الدنيا جافة قاحلة مملّة حتى على المؤمنين»^(٢) .

فالزواج فطرة جبلية مركوزة في كل نفس سوية ، ولذا فقد استنه خير البشر ﷺ ورغب فيه ودعا إليه تمشياً مع السنن الكونية في الزوجية والفطرة .

وإن الإسلام دين الحنيفية السمحة ، قد سهل أمر هذه الغريزة فسهل أمر الزواج بل وجعل لصاحبه الأجر والثواب فقد قال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم (٠٠٠) وفي بضع أحدكم صدقة قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها أجر؟ فكذاك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً»^(٣) .

(*) الباءة : النكاح والتزوج ، وهو من المباءة : المنزل ؛ لأن من تزوج امرأة بوأها منزلاً؛ (النهاية ١٦٠/١ «بأ») .

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب النكاح ٣، ج ٦، كتاب النكاح ، باب من لم يستطع منكم الباءة فليصم ، ص ١٤٣، ح (٥٠٦٦)؛ مسلم ، الصحيح ، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن طاقت نفسه إليه ووجد مؤنة ، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ، ج ٢، ص ١٠١٨ ، ح (١٤٠٠) .

(٢) د . مأمون شقفة ، ص ٩٨ .

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الزكاة ، باب كل نوع من المعروف صدقة ، ص ٦٩٧ ح (١٠٠٦) .

إن الزواج صلة شرعية بين الذكر والأنثى وفق حدود ما أحل الله سبحانه من شروطه عقداً وميثاقاً .

وقد أحل الإسلام الزواج وحرم الزنا ، قال الله تعالى :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء - آية ٣٢) ،

وفتح أبواب الزواج على مصراعيها . وجعل : «الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع ويدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها ،

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلِيَسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (سورة النور - آية ٣٢) ،

ويستقر في أخلاق المؤمنين أن البقاء بدون إحسان ولو فترة قصيرة لا ينال رضى الله ، فيقول الإمام علي - كرم الله وجهه - وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجته فاطمة بنت الرسول ﷺ : (لقد خشيت أن ألقى الله وأنا أعزب) ، فيدخل الزواج في عرف المؤمن في الطاعات التي يتقرب بها إلى ربه ، وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة في ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه «^(١) .

(١) سيد قطب في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٣٥٩٦ .

يقول الأستاذ المودودي فى كتابه نظام الحياة فى الإسلام : «يريد الإسلام أن يجعل الزواج أسهل عمل وأيسره فى المجتمع ، والزنا والعهر أصعب عمل وأشقه ، ولأجل هذا لم يحرم الإسلام إلا الأرحام والقربيات المخصصة، وأحل للمرء أن يتزوج بعدها حيث يشاء مما شاء من الأرحام والأنساب القريبة أو البعيدة، وقد قضى على الفوارق الطائفية وقوض دعائمها تقويضاً وأذن للمسلمين كافة إذناً مشاعاً أن يتزوجوا فيما بينهم ، وأمرهم بتحري السذاجة والاعتدال فى صداق المرأة وجهازها»^(١) .

وباختصار فقد قصد الإسلام من عقدة النكاح حكماً وأهدافاً كثيرةً إنسانية وروحية واجتماعية فطرية بيولوجية .

وقد عدد بعضها الإمام ابن القيم فقال منها : -

«قضاء الوطر وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلمها ، وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة . . ، وحصول علاقة المصاهرة التى هي أخت النسب وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب الخلق الى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبي ﷺ بالأنبياء بأمتة إلى غير ذلك من مصالح النكاح»^(٢) .

ولعل أهم هذه المقاصد مايلى :-

١- حماية العرض والأخلاق . . . فالزوجان إنما يرتبطان بعقد الزواج ليعيشا ويشبعوا رغباتهما الفطرية فى سياق الشريعة وحمايتها ، وبذلك تصان الأعراض، وتسمو الأخلاق ، وينعدم الفساد فى المجتمع ، والقرآن الكريم سَمَّى الزواج إحصاناً ، أي : حماية ، قال تعالى :

﴿وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ (سورة النساء - ية ٢٤) .

(١) ص ٤٢ - ٤٤ .

(٢) ابن القيم ، محمد بن أبى بكر بن الجوزية ، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافى ، تحقيق عبد اللطيف . آل محمد الفواعير ، (عمان : دار الفكر ١٩٨٦م، ص ١٧٩) .

وهكذا يرتفع الإسلام بالإنسان من بهيمية الغريزة إلى تنظيمها والسمو بها ، قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ٠٠٠ ﴿الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَفِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون - آية ١، ٥، ٦-٧) .

٢- السكن والمودة والرحمة ، قال سبحانه وتعالى ٠٠

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم - آية ٢١) أي إن العلاقة بين الزوجين ينبغي أن تقوم على المودة والرحمة ليتمكن كلاهما من تحقيق المقاصد الاجتماعية والحضارية المناطة بهذا الزواج ، وإن سكن الزوجية بين الشيوخ واضح ملموس ، رغم ما يعتري الزوجين من ضعف بدني وقد تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة رضي الله عنها ، وكانت كبيرة السن ^(١) .

٣- بقاء النوع الإنساني : والحقيقة ٠٠ إنه وإن كان هذا المقصد يأتي من حيث الأهمية والترتيب متأخراً إلا أن ما قبله ماهو إلا وسيلة لتحقيقه ، فالله سبحانه وتعالى استودع في النفس الإنسانية هذه الرغبة في النكاح حتى يثمر عن الذرية التي بها يستمر الإعمار البشري الإنساني ، قال الله عز وجل ٠٠

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (سورة النحل - آية ٧٢) ،

يقول الشيخ محمود شلتوت في تفسير هذه الآية الكريمة : «وحسبنا في ذلك أن الله سبحانه وتعالى نظم الأزواج وما يمنحنا منهن من بنين وحفدة ، مع رزق الطيبات في عقد واحد ، وهو صنيع يشعرنا بأن الحاجة إلى الأزواج وثمرتها الأزواج ، والتفضل بتنظيم الزواج يشعر بأن كل ذلك ، ليست حاجتنا إليه بأقل من حاجتنا في حفظ حياتنا والتمتع بلذات الحياة ، من حاجتنا إلى طيبات الرزق التي تحفظ كياننا وتقينا التعرض للضعف والانحلال» ^(٢) .

(١) انظر: ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ٣١٥ .

(٢) الإسلام عقيدة وشرعة ، ص ١٤٣ .

لقد اقترن الهدف من الزواج هنا بتكاثر النوع وحفظ النفس معاً . في حين انفراد الهدف منه بالذرية في آيات أخر ومنه . قال الله تعالى ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٣) .

يقول الامام ابن القيم فى معنى هذه الآية الكريمة (فسبحان من جعل السماء كالأب والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينعد من الولد . . . ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلاًفاً مؤلفة)^(١) .

فشبه الإمام ابن القيم رحمه الله نبات الأرض ورزقها بتكاثر البشر وتوالدهم وتنوعهم ، ثم يعقب رحمه الله على ذلك قائلاً: (وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه فى هذه الأم)^(٢) .

وأخيراً فإن الزواج برغبته الغريزية وميله النفسى والروحى والسكن والحب الحاصل منه ليس إلا وسيلة إلى النسل والذرية السوية القوية ،

يقول الأستاذ المودودي : «إن مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة هي فى الحقيقة مسألة أساسية للتمدن ، يتوقف على حلها الصحيح أو الخاطئ ، صلاح التمدن ، أو فسادة ، وخيره أو شره ، وقوته أو ضعفه ، وإن بين الجنسين الإنسانين علاقتين إحداها علاقة بهيمية وبكلمات أخرى جنسية شهوانية خالصة ، ليس المقصود بها إلا بقاء النوع ، وأخرى علاقة إنسانية ، يراد بها للجنسين أن يتعاونوا فيما يشتركان فيه من المصالح ، والأغراض حسب ماأوتي كل واحد منهما من المواهب ، والكفاءات الفطرية ، ويعينهما على هذا التعاون حبهما الجنسى الذى يكون بينهما واسطة الاتصال»^(٣) .

ثم يضيف رحمه الله مبيناً أن صلاح المجتمع وتقدمه متوقف على رابطة الزوجية فيقول : «وهذان العنصران البهيمي والإنساني ، يتعاملان فى الجنسين ،

(١) التبيان فى أقسام القرآن ، ابن القيم ، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية ، صححه وعلق عليه طه يوسف شاهين ، (بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ص ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أبو الأعلى المودودي ، الحجاب ، الطبعة الرابعة ، (جدة ، الدار السعودية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ص (١٥٦) .

ويستخدمانها للقيام بشؤون التمدن ، وفي الوقت نفسه لإنتاج المزيد من الأفراد الذين يواصلون تدبير تلك الشؤون ، وصالح هذا التمدن متوقف على أن يكون امتزاج هذين العنصرين معتدلاً متزاناً»^(١) .

ولأدل على أن المقصد السامي من الزواج هو طلب الولد الصالح من قوله تعالى : ﴿ نَسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٣) .

وقدموا لأنفسكم أي : بطلب الولد^(٢) .

وقد قال ﷺ محبباً بالذرية «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعوه له»^(٣) .

وعن أبي سعيد* الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للنساء «مأمَنكن امرأة تُقدِّمُ ثلاثةً من وَلَدِها إلا كان لها حِجاباً من النار» فقالت امرأة : واثنين؟ فقال ﷺ «واثنين»^(٤) .

إن الإسلام رغب في النكاح وسهل سبله ، ويسرطره ، وضمن للزوجين اللذين يعيشان في ظل رضوان طاعة الله سبحانه وتعالى خيري الدنيا والآخرة ، وأعطى العناية الكبرى في ذلك للمرأة ، لأن الزوجية والأمومة بالنسبة للأنثى وظيفة تكوينية نفسية في كيانها الأساسي ، وهي مظهر جمالي وتكاملي في حياتها كلها في الدنيا والآخرة ، وهي التي تحقق لها أيضاً السعادة في الدنيا والآخرة ، فما هي الشروط اللازمة التي ينبغي أن توفر للأمومة حتى تنجح على أحسن صورة وأكمل وجه ...

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر تفسير الرازي ، م ٣ ، ج ٦ ، ص ٧٩ .

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج ٣ ، كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، ص ١٢٥٥ ، ح (١٦٣١) .

(*) أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري ، استصغر يوم أحد ، واستشهد أبوه بها وشهد ما بعدها وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم وكان من حفظ عن رسول الله سنناً كثيرة ، وتوفي سنة أربع وسبعين رضي الله عنه . (الإصابة ٢ / ٣٥ ؛ الاستيعاب ٢ / ٤٧)

(٤) البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ١ ، كتاب العلم ، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم ، ص ٣٩ ، ح (١٠١) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب البر والصلة ، باب فضل من مات له ولد ، ص ٢٠٢٨ ، ح (٢٦٣٣) .

الفصل الخامس

اختيار الزوجة الصالحة

لقد ركز الاسلام جملة على اختيار الزوجة الصالحة ، التى ستكون أم المستقبل ، لأن للأُم الدور الأكبر ، والنصيب الأوفر فى التأثير على النشء الذى سيولد منهما .
وقد حدد الله سبحانه وتعالى الصفات التى يجب أن تتوفر فى الزوجة الصالحة لنبيه وصفوة خلقه محمد ﷺ ، فهنَّ رضي الله عنهن صفوة النساء وخيرهن ، قال الله تعالى . .

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَنْبَغِي عِبَادَاتٍ سَابِغَاتٍ ثِيَابًا وَأَبْكَارًا﴾ (سورة التحريم - آية ٥) ،

لقد بين الله سبحانه فى هذه الآية الكريمة الصفات التى يجب أن تتحلّى بها الزوجة الصالحة ، حتى يؤتي الزواج ثمرته مباركة طيبة نافعة ، وهذه المزايا ، هي الإسلام أي الاستسلام والخضوع والانقياد لله عز وجل ، وذلك لما يعمر قلب هذه الزوجة من الإيمان، بالله والتصديق بما جاء به رسول الله ﷺ فتقنت وتطيع ، وتستجيب لنداء الإيمان بالعبادة والتوجه لله سبحانه وحده بالتوبة وطلب المغفرة والرحمة، لما ترى من الآيات المبثوثة فى هذا الكون الدالة على وجود الله الخالق سبحانه، فتزيد من الطاعة والقرب من الله عز وجل ، وتطبع حياة هذه الأسرة التى ترعاها بهذه الصفات، فتتعم الأسرة بجو الإيمان الذى يفيض الخير والبركة على من فيه ومن حوله فى ظل رضوان الله عز وجل .

وقد حصَّ رسول الله ﷺ على الزواج من المرأة الصالحة فقال ﷺ «تُنكِحُ المرأةُ لأربعٍ : لمالِها وحسبِها، وجمالِها ، ولدِينِها ، فَاظْفَرُ بذاتِ الدِّينِ تَرِبْتُ يَدَاكَ»^(١) .
قال الامام النووي فى معنى هذا الحديث الشريف ، (إن النبي ﷺ أخبر بما يفعله الناس فى العادة فإنهم يقصدون هذه الخصال الأربعة ، وآخرها عندهم ، ذات الدين ، فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين)^(٢) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ كتاب النكاح ، باب الأكفاء فى الدين ، ص ١٤٩ ، ح (٥٠٩٠) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدين ، ص ١٠٨٦ ، ح (١٤٦٦) .

(٢) النووي ، شرح صحيح مسلم ، م ٥ ج ١٠ ، ص ٥٢ .

إن الحصول على الزوجة الصالحة الملتزمة بالإسلام هو كنز ونصر لهذا الزوج في دنياه وآخرته . ثم تابع الإمام النوى مشيراً إلى ما يرشد إليه الحديث فقال رحمه الله : « وفي هذا الحديث ^{الحديث} على مصاحبة أهل الدين في كل شيء لأن صاحبهم يستفيد من أخلاقهم وبركتهم وحسن طرائقهم ويأمن المفسدة من جهتهم » (١) .

بل إن الأمر أشد من ذلك لأن الزوج قرين زوجه في الآخرة ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (سورة الصافات - آية ٢٢) .

وإذا كان الإنسان حريصاً على دنياه وآخرته فليحرص على أن يكون قرينه المرأة الصالحة ، فهي زينة الدنيا ، ونعيم الآخرة ، قال ﷺ : « الدنيا متاعٌ وخيرُ متاعِ الدنيا المرأةُ الصالحة » (٢) ، أى خير زاد المرء في الدنيا ، وأفضل ما يسعده ويلتذ عيشه به الزوجة الصالحة ذات الدين التي تخاف الله سبحانه وترعى زوجها وتحفظه ، قال الله عز وجل . .

﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَنِتَاتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (سورة النساء - آية ٣٤) ، قال الإمام الطبري * (الصالحات) : المستقيمات في الدين ، العاملات بالخير ، وقوله تعالى ﴿ قَنِتَتْ ﴾ أي : مطيعات لله سبحانه ولأزواجهن .

(حافظات للغيب) أي : صالحات في أديانهم مطيعات لأزواجهن ، حافظات لهم في أنفسهم وأموالهم ، وقوله تعالى : ﴿ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ أي : بحفظهن الله سبحانه في طاعته ، وأداء حقه بما أمرهن من حفظ غيب أزواجهن كقول الرجل للرجل ، ما حفظت الله في كذا وكذا ، بمعنى : راقبته ولاحظته (٣) ، ومن جميل ما ذكره الإمام ابن جرير أنه قال بعد ذلك : (وفى الكلام متروك) استغنى بدلالة الظاهر من الكلام عليه من ذكره ومعناه (فالصالحات ، قانتات حافظات للغيب بما حفظ

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ص ١٠٩٠ ، ح (١٤٦٧) .

(٣) انظر : تفسير جامع البيان م ٥٤ ، ج ٥ ص ٥٩-٦٠ .

(*) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري الإمام الجليل المجتهد المطلق رحل في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره وصنف كتباً في العديد من العلوم ، وتوفي رحمه الله سنة عشر وثلاثمائة ٠ (وفيات الأعيان ٢/ ٢٣٢ ؛ سير ١٤ / ٢٦٧) .

الله) فأحسنوا إليهن وأصلحو ، وكذلك هو فيما ذكر من قراءة ابن مسعود (١١) ، فالزوج مأمور بحفظ هذه الزوجة الصالحة ، وليجعلها كالكنز الذي يحرص عليه ويخاف أن يضيع منه لأنها سكنه وراحته ولن يجد السكن والراحة فى حياته إلا إلى جوار المرأة الحافظة لحدود ربها، قال الله سبحانه :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ (سورة الروم - آية ٢١) ، فقله تعالى . ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ يدل على أن المرأة موضع الراحة والسكنى للرجل ، ووظيفتها الفطرية «أن تهىء للرجل زاوية أمن وسكون وراحة فى هذه الدنيا المملوءة بالمتاعب والمشاق ، وهذه الزاوية هى حياة المرء العائلية ، التى قد تهاون بأمرها أهل الغرب لأجل المنافع المادية ، والحال أن لهذه الشعبة من حياة المرء من الخطورة والأهمية ، مالم يأت شعب التمدن والعمران» (١٢) .

ومما يؤسف له أن المسلمين قد حذوا حذو الغربيين فبهتتهم المادة واتجهوا نحوها بسبل متعددة، غير ملتفتين إلى ما دعا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية من ضرورة اختيار الزوجة على أساس الدين والخلق لأنها أم الأولاد وراعية الأجيال ، فينبغى أن تكون من البيئات النظيفة الطاهرة الجيدة ، لتنتقل إلى أبنائها الصفات الحميدة التى تغذيها ينابيع الإيمان بالله سبحانه وبرسوله ﷺ والتي تتجاوب مع الفطرة السوية التى فطر الله سبحانه الناس عليها ، فالأنثى فى فطرتها مطبوعة على الحياء والحفظ والصون لزوجها وأسرته إلا أن يعرض لهذه الفطرة ما يفسدها من عوامل البيئة والتربية وعند ذلك يحدث الانتكاس لهذه الأنثى ، وينعكس أثر ذلك على المحيطين بها من أسرة وذرية .

(١) انظر: المرجع السابق ، ص ٦١؛ أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى ، البحر المحيط فى التفسير ، (مكة المكرمة : المكتبة التجارية ، ج ٣ ، ص ٦٥٢ ، (بما حفظ الله) قرأ أبو جعفر بنصب الهاء وقرأ الباقون برفعها ، ذ(ما) على قراءة أبي جعفر موصولة وفى (حفظ) ضمير يعود عليه مرفوع أى بالبر الذى حفظ حق الله فى التعفف وغيره ، وقيل بما حفظ دين الله وتقدير المضاف متعين لأن الذات المقدسة لا ينسب حفظها إلى أحد . (ابن الجزري - محمد بن محمد الدمشقي ، طيبة النشر فى القراءات العشر ، (دار الكتاب العربى) ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) الحجاب ، ص ٢٤٤ .

إن الحياة والوقار والحشمة والالتزان هي فطرة الله سبحانه وتعالى التي فطر الله عز وجل عليها الأنثى ، أما كل خروج على ذلك فهو هبوط إلى الحضيض ، وسببه البيئة التي أنشأت هذه المرأة ، فالبيئة الصالحة تخرج الأم الصالحة قال الله سبحانه وتعالى في مريم عليها السلام في كتابه الكريم حين توجهت أمها إلى ربها ناذرة لوجهه الكريم ما في بطنها :

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٧)

وفي التاريخ الإسلامي ما يدل على أثر الأم الصالحة في أولادها ومن ذلك قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابنه عاصم* رضي الله عنه حين زوجه رضي الله عنهما من ابنة بائعة اللبن، والتي سمعها عمر رضي الله عنه ليلاً تنصح أمها بألا تغش اللبن لأن رب عمر يراها ، والتي صدقت فيها فراسة أمير المؤمنين رضي الله عنه حين قال لابنه عاصم - رضي الله عنه - فما أحرأها أن تأتي بفارس أسود يسود العرب، فمن هو هذا الفارس، إنه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومن أمه إنها أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم^(١)، والذي يبدو من سياق القصة أن بنت بائعة اللبن هذه كانت سواداء ، والذي يدل عليه وصف عمر رضي الله عنه للفارس (بفارس أسود) ، فأنجبت المرأة الحافظة لله عز وجل ، من يحفظ الله سبحانه في الأمة كلها ، فكان

(*) عاصم بن عمر بن الخطاب أبو عمرو القرشي العدوي ، ولد في أيام النبوة، وأمّه هي جميلة بنت ثابت بن أبي الألقح الأنصارية ، كان من نبلاء الرجال ديناً خيراً صالحاً ، وكان شاعراً فصيحاً وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأمه ، توفي سنة سبعين .

(سير ٩٧ / ٤ ؛ ط ابن سعد ١٥ / ٥ ؛ أسد الغابة ٧٦ / ٣ ؛ تهذيب ٥٢ / ٥) .

(١) انظر : عبد الله بن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، الطبعة السادسة ، (بيروت، عالم الكتب ، ١٤٠٤ ، ١٩٨٤م) ، ص ٢٣-٢٤ ؛ ابن الجوزي ، تاريخ عمرين الخطاب ، ص ١٠٢ .

منه رضي الله عنه العدل والخير والإحسان لسائر المسلمين وكان بحق الخليفة العادل» .

وكذلك فإن الاهتمام باختيار الزوج الصالح من ضرورات الزواج الناجح كما كان الحال من خديجة رضي الله عنها في زواج رسول الله ﷺ ، إنها خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها ، والتي حمل إليها جبريل عليه السلام والبشرى من ربها سبحانه وتعالى ، فقد وجدت في رسول الله ﷺ من الشمائل والصفات الحميدة ما جعلها تقبله زوجاً ، وتكون له الزوجة الصادقة ، والسند والظهير في الحياة ، ومما جاء فيها ما روته عائشة رضي الله عنها أنها قالت : «ما غرّت على امرأة للنبي ﷺ ما غرّت على خديجة ، هلكت قبل أن يتزوجني ، لما كنت أسمع يذكّرها ، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب وإن كان ليدبح الشاة فيهدي في خلّائها»^(١) وكانت خديجة رضي الله عنها خير الزوجات في العالمين .

إنها أم المؤمنين وأم الدعوة الإسلامية وأول من آمن برسول الله ﷺ وقفت إلى جواره وساندته ووهبته كل ماله ونفساً ومالاً وعقلاً ، قال ابن القيم رحمه الله في وصفها رضي الله عنها : (وبادر إلى الاستجابة له ﷺ صديقة النساء : خديجة بنت خويلد وقامت بأعباء الصديقة ، وقال لها ﷺ لقد خشيت على نفسي ، فقالت له : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة ، والأخلاق والشميم على أن من كان كذلك لا يخزي أبداً فعلمت بكمال عقلها ، وفطرتها ، أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، والشميم الشريفة ، تناسب ، أشكالها من كرامة الله وتأنيده وإحسانه ولاتناسب الخزي والخذلان ، وإنما يناسبه أضدادهما ... وبهذا العقل والصديقة استحققت أن يرسل إليها ربها بالسلام منه مع رسوله جبريل

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٢ ، ح ٤ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها ، ص ١٧٨ ، ح (٣٨١٦) :

مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، ص ١٨٨٨ ، ح (٢٤٣٥) .

لقد اختارت خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ ، فتنبأت برجاحة عقلها ونور بصيرتها أن لهذا الرجل شأنًا ، فأرسلت إليه تخطبه .

ومن هنا فإنه كما للزوج أن يحسن الاختيار في زوجه ، كذلك ينبغي أن يُخْتَارَ للفتاة الرجلُ الصالح الذي يتقي الله في نفسه وفي أسرته كما كان من شعيب الرجل الصالح حين لمس في موسى عليه الصلاة والسلام الصفات الفاضلة التي جعلته يزوجه من إحدى ابنتيه : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾ ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ (سورة القصص - آية ٢٣ ، ٢٥) مما جعل ابنة شعيب تقول لأبيها : ﴿ يَأْتِ اسْتَجْرَهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرَتِ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴾ (سورة القصص - آية ٢٦) فاختاره شعيب عليه السلام زوجاً لابنته :

﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هتين ﴾ (سورة القصص-آية ٢٧) .

يقول الأستاذ سيد قطب في الظلال معلقاً على موقف الرجل الصالح شعيب : «وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد ، ولعله كان يشعر أنها محددة ، عرضها في غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحاً لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا خجل ، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أوولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم ، أولاً يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة !» (٢) .

(١) ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد تحقيق : شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ، الطبعة السادسة ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ج ٣ ، ص ١٩ .

(٢) ج ٥ ، ص ٢٦٨٨ .

وقد عمل الصحابة رضي الله عنهم على ، تخير ذوي الدين والتقوى في نكاح بناتهم ، فقد عرض عمر رضي الله عنه ابنته حفصة* رضي الله عنها حين تأيمنت على أبي بكر ثم عثمان رضي الله عنهما ، وتراجع الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً ، بل والسنة الصحيحة ، فيها الكثير من هذه الأخبار وقد ذكر بعضها الإمام البخاري في الصحيح . في كتاب النكاح ، مترجماً لذلك بباب (عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير)^(١) .

روى أنس رضي الله عنه قال «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها ، قالت : يا رسول الله ألك بي حاجة ؟ ، فقالت بنت أنس : ما أكل حياءها ، وأسواتاه ، قال: هي خير منك ، رغبت في النبي ﷺ ، فعرضت عليه نفسها»^(٢) .

وقد بوب الإمام البخاري للحديث الشريف فقال : (باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح) ، وقد علق ابن المنير على ذلك فقال : (من لطائف البخاري أنه لما علم الخصوصية في قصة الواهبة استنبط من الحديث مالا خصوصية فيه وهو جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح رغبة في صلاحه فيجوز لها ذلك وإذا رغب فيها تزوجها بشرطه)^(٣) .

ولماذا اهتم الإسلام باختيار الزوجة وانتقائها أكثر من اختيار الزوج ، لماذا أعطى التخير للنطف هذه الأهمية كما في الحديث «تخيروا لنطفكم وانكحوا

(*) حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية أم المؤمنين وبنت أمير المؤمنين تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة السهمي في سنة ثلاث من الهجرة وكان والدها قد عرضها على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما فلم يجيباه فشكا ذلك للنبي ﷺ فخطبها ﷺ وتزوجها وحفصة وعائشة هما اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ فأنزل تعالى فيهما ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ، وتوفيت رضي الله عنها سنة إحدى وأربعين للهجرة

(الإصابة ١٩٧/١٢ ؛ ٢٢٧/٢ ؛ ط ابن سعد ٨١/٨ ؛ تهذيب ٤١١/١٢ ؛ الاستيعاب ١٨١١/٤ ؛ اسد الغابة ٦٥/٧) .

(١) م ٣ ، ج ٦ ، ص ١٥٨ .

(٢) البخاري الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، ص ١٥٧ ، ح (٥١٢٠) .

(٣) نقله ابن حجر في فتح الباري ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ابن حجر ، شهاب بن أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تعليق : فؤاد عبد الباقي ، تصحيح عبد العزيز بن باز (لبنان : بيروت ، دار الفكر) ، ج ٩ ، ص ١٧٥ .

لقد أثبت العلم أن للأم أثرها الأكبر في الذرية منذ المرحلة الأولى لتكون النطفة الأمشاج حيث : «يساهم كل من الحيوان المنوي والبويضة بنصيب مماثل في تكوين نواة الخلية الأمشاج ولكن البويضة تساهم أكثر من ذلك بجبلية النطفة الأمشاج ، والحيبيات الغذائية»

وبويضة أكبر خلية في جسم الإنسان إذ يبلغ قطرها خمسة ميليمتر وليس ذلك عبثاً وإنما لأنها تتكفل بغذاء النطفة (الأمشاج) حتى يحين موعد علوقها بالرحم والتصاقها به وتغذيتها منه ، أي إن على البويضة أن تقوم بتغذية هذه النطفة (الأمشاج) أثناء تكاثرها وانقسامها ولمدة أسبوع كامل»^(٢) وكذلك الدراسات النظرية^(٣)

وهكذا يأخذ الطفل من أمه أكثر مما يأخذ من أبيه منذ البدايات الأولى لتشكله ، فكيف بعد وهو يجلس في هذا الرحم تسعة أشهر يغتذي من دم الأم وعظمها ولحمها حتى إذا خرج إلى الدنيا ، أرضعته من صدرها ، ثم لقنته ثقافتها .
وقد أثبتت الدراسة الميدانية والمنظرية : أن الأبعاد السلوكية سلباً وإيجاباً تخضع لتأثيرات الأم على طفلها أكثر من الأب^(٤) .

وقد بين رسول الله ﷺ صفات المرأة الصالحة والخيرة في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (نساءٌ قريشٌ خيرٌ نساءٍ ركبُنَّ الإبلُ : أحنأهُ على طفلٍ ، وأرعاه على زوجٍ في ذاتِ يده)^(٥) وقد دل حديث

(١) ابن ماجه ، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، السنن ، (بيروت : دار الكتب العلمية) ، ج ١ ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء ، ص ٦٣٣ ، ح (١٩٦٨) .
وقوى الحافظ ابن حجر الحديث ، وقال : للحديث إسنادان يقوي أحدهما الآخر . (فتح الباري ، ج ٩ ، ص ١٢٥) .

(٢) د . محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ١٩٨ .

(٣) د . ميسرة كايد طاهر ، أساليب المعاملة الوالدية : الاتساق والاختلاف فيها كما يراها الأبناء ، (رسالة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة الملك عبد العزيز ، مكة المكرمة ، ١٣٩٩هـ) ، ص ٢٩-٣٠ .

(٤) البخاري ، الصحيح ، م ٢ ، ج ٤ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم﴾ ص ١٦٧ ، ح (٣٤٣٤) ، ومريم عليها السلام خير نساءها كما في أحاديث هذا الباب .

مسلم ، الصحيح ، م ٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل نساء قريش ص ١٩٥٨ ، ح (٢٥٢٧) ، بنحوه .

رسول الله ﷺ كما ذكر الحافظ ابن حجر أن خير الأمهات هن صالح نساء قريش فهن الحانيات على أولادهن الرفيقات بأزواجهن ، والمقصود من الحكم هنا الصالحات منهن لاعمومهن .

وفي الحديث الحث والترغيب في نكاح الأشراف ، خصوصاً القرشيات ، ولحسن التربية والقيام على الأولاد ، ولذا قال الإمام البخاري رحمه الله في ترجمة الحديث : (باب إلى من ينكح ، وأي النساء خير ، وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب) ^(١) وذلك لتخير الأولاد منهن ^(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن أمر الكفاءة في الزواج والتخير للنطف إنما معياره الدين والخلق فقد مر رجل على رسول الله ﷺ فقال : «ماتقولون في هذا» ؟ قالوا : حريٌّ إن خطب أن يُنكح ، وإن شفع أن يُشفع وإن قال أن يُستمع ، قال: ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : ماتقولون في هذا ؟ قالوا حريٌّ إن خطب أن لا يُنكح وإن شفع أن لا يُشفع وإن قال أن يُستمع فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» ^(٣) .

لقد تلاشت قيم الأرض ، إلى جانب قيم الإيمان والتقوى ، فرجل تقي هو خير في ميزان الله ﷻ ملء الأرض من ذاك الرجل الذي أعجب الناس بشكله وماله ومنطقه .

فعند قيم السماء والروح والإيمان تتصاغر جميع متع الدنيا ومزاياها بما فيها الأصل والحسب ، أما إذا اجتمع ذلك مع الدين والتقوى والخلق فلا بأس .

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، ص ١٤٧ ، ح (٥٠٨٢) .
 (٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٩ ، ص ١٢٥ .
 (٣) البخاري ، الصحيح م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين ، ص ١٥٠ .

الفصل السادس

إعداد الزوجين لحمل مسؤوليات الأبوة والأمومة

إن الله سبحانه وتعالى خلق الزوجين ، الذكر والأنثى ، وجعل الهدف من وجودهما في هذا الكون واحداً وهو إخلاص العبودية لله سبحانه ، والتوجه إلى إعمار هذا الكون ، وتحقيق الخلافة التي أرادها سبحانه .

ومن هنا كان الإنسان مؤتمناً على هذا الكون المسخر له بكل ما فيه وذلك حين حمله الله عز وجل المسؤولية فقبلها ، قال الله عز وجل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (سورة الأحزاب - آية ٧٢) ، قال الإمام الطبري : إنه عني بالأمانة في هذا الموضع : جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس ، وذلك أن الله ^{سبحانه} لم يخص بقوله ^{سبحانه} ﴿عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ بعض معاني الأمانات ^(١) .

وإن من الأمانة التي ذكرت في تفسير هذه الآية ماروى موقوفاً عن أبي بن كعب * رضي الله عنه قال : (من الأمانة أن أوثمنت المرأة على فرجها) ^(٢) إن المرأة تحمل أكبر وأكرم وأشرف أمانة في الوجود بعد الإيمان .

فتلك أولى درجات المسؤولية ، ثم بعد ذلك مسؤولية التربية والتوجيه والرعاية: قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (سورة التحريم - آية ٦) ، وذلك بالمتابعة والموعظة الحسنة بفعل الصالحات وترك المنكرات ، فالوالدان يسهمان في تحديد مسار الأبناء في طريق الإيمان على الكثير الغالب ، قال الله عز وجل ..

(١) تفسير جامع البيان ، ج ٢٢ ، ص ٥٧ .

(*) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري الخزرجي سيد القراء من فضلاء الصحابة ، شهد بيعة العقبة الثانية، وشهد بدرأ والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ ليهنك العلم أبا المنذر، وكان عمر أمير المؤمنين يسأله عن النوازل ، ويتحاكم إليه في المعضلات ، قال الحافظ ^{رحمته الله} بأن موته كان في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ثلاثين وهو الأثبت . (الإصابة ١٩/١؛ الاستيعاب ٤٧/١) .

(٢) رواه الإمام الطبري في تفسيره ج ٢٢ ، ص ٥٥ ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح رجاله رجال الصحيح ، ج ٩ ، ص ٤٨٢ ،

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (سورة الطور - آية ٢١) .

إن البداية والنهاية في الأمر كله لله سبحانه . ومن يتوجه إليه سبحانه في التربية والدعوة لأسرته ومن في حدود مسؤوليته ، سوف يفوز معهم في جنات النعيم دون أن ينقص من أجرهم شيئاً ، وقال تعالى في الذين لا يحسنون حمل المسؤوليات وأدائها :

﴿قُلْ إِنْ الْخُسْرَيْنِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (سورة الزمر-آية ١٥) . إنها الخسارة الكبرى التي لاتعدلها خسارة نعيم الدنيا كله ، فقد جنى هؤلاء الآباء على أنفسهم وعلى ذويهم لعدم أدائهم لما يجب عليهم من مسؤولية ، وقد حدد رسول الله ﷺ مسؤولية الفرد حيث قال ﷺ : (كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته ، والأميرُ راعٍ ، والرجلُ راعٍ على أهل بيته ، والمرأةُ راعيةٌ على بيت زوجها وولده ، فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته) ^(١) .

لكن المسؤول الأول عن بناء البيت وإعمارهِ وعن هذه الأسرة هو الرجل كما حدد ذلك حديث رسول الله ﷺ ، وقد دلت آيات الكتاب الكريم في قصة آدم عليه السلام وهبوطه من الجنة على ذلك ﴿وعصى آدمُ ربهُ فغوى﴾ (سورة طه-١٢١) ﴿ولقد عهدنا إلى آدمَ من قبلُ فنسى ولم نجدْ له عَزْماً﴾ (سورة طه-١١٥) ، ﴿فتلقى آدمُ من ربهِ كلماتٍ فتابَ عليه إنه هو التَّوابُ الرحيمُ﴾ (سورة البقرة-آية ٣٧) ، لقد استمع آدم وحواء عليهما السلام إلى وساوس إبليس فأكلا معاً من الشجرة ، وعوقبا معاً بالخروج من الجنة إلى هذه الأرض ﴿فلما ذاقَا الشَّجَرَةَ﴾ (سورة الأعراف- آية ٢٢) ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ (سورة البقرة - آية ٣٨) . لكن آدم عليه السلام - كما دلت الآيات التي سبق ذكرها - تحمل مسؤولية المعصية والخروج من الجنة فكان منه أن طلب المغفرة من الله- سبحانه وتعالى له .

وقد أدرك الأنبياء عليهم السلام ما يجب عليهم نحو أبنائهم ، حيث جعلوا عليهم السلام غايتهم في الأبوة الذرية الصالحة ﴿ربنا واجعلنا مسلمينٍ لك ومن

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب المرأة راعية في بيت زوجها ، ص ١٨٥ ، ح (٥٢٠٠) .

مسلم ، الصحيح ، ج ٣ ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل . . . ، ص ١٤٥٩ ، ح (١٨٢٩) مطولاً .

ذريتنا أُمَّةً مسلَّمةً لك وأرنا مناسِكَنا وتبَّ علينا إنك أنت التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ (سورة البقرة آية ١٢٨) ثم يوصي إبراهيم عليه السلام ذريته بذلك ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة-آية ١٣٢) .

ثم يؤكد يعقوب عليه السلام الموعظة على بنيه .

قال الله تعالى : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالْهَاءُ أَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة-آية ١٣٣) .

وتلك أم مريم تنادي ربها سبحانه متوجهة إليه عز وجل أن يتقبل جنينها بالرعاية والحفظ .

لقد أدرك الأنبياء عليهم السلام واجب الأبوة وفهموا معناه ومقصوده ، لأن بقاء النوع وامتداد العمر لن يكون مثمراً وخيراً إلا إذا كان باسقاً في ظل رضوان الله سبحانه ، ولذا فإنه لابد لهذه الذرية أن تتربى على الإسلام والتوحيد ، لتحمل هي الأخرى للأجيال التالية هذه الأمانة حتى قيام الساعة ، ونداء إبراهيم عليه السلام لايزال صده صورة مجسمة حية نابضة بالخير حتى قيام الساعة :

﴿ربنا إني أسكنتُ من ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (سورة إبراهيم-آية ٣٧) .

وقد حضَّ رسولُ الله ﷺ أصحابه على القيام بمسؤولياتهم تجاه أسرهم وذوئهم ففي الحديث الشريف عن مالك* بن الحويرث رضي الله عنه قال : (أتينا النبي ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أنا اشتقنا أهلنا ، وسألنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرنا ، وكان رفيقاً رحيماً ، فقال ﷺ: «ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحذكم ، ثم ليؤمكم أكبركم»^(١) .

(*) مالك بن الحويرث بن أشيم بن زياد بن خشيش الليثي سكن بالبصرة ويكنى أبا سليمان وله أحاديث ، توفي رضي الله عنه بالبصرة سنة أربع وسبعين .
(الإصابة ٣/٣٤٢ ، الاستيعاب ٣/٣٧٤) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م ، ٤ ، ج ٧ ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم ، ص ١٠٢ ، ح (٦٠٠٨) .

فقد أمر رسول الله ﷺ هؤلاء بتعليم أهلهم الإسلام ومن ثم تنتقل المسؤولية في التبليغ والتعليم والدعوة إلى المرأة .

وقد أمر الله عز وجل أمهات المؤمنين بتعليم الأمة وتبليغها ما يذكر من تعاليم الدين في بيوتهن رضوان الله عليهن من القرآن الكريم والسنة الشريفة .
قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُنَّ عَالِمَاتٌ﴾ (سورة الأحزاب - آية ٣٤) .

هكذا حملت المرأة المسلمة المسؤولية كما حملها الرجل فكلاهما صنوان في التبليغ حتى يتم النور الذي أراده الله سبحانه لهذا الدين في هذه الدنيا

وإن الإسلام يقرر في تلبية الفطرة التي خلقت عليها المرأة ، وهي « الإنسانية ، ذات العقل والإدراك والفهم » أن المرأة ذات مسؤولية مستقلة عن مسؤولية الرجل ، مسؤولة عن نفسها وعن عبادتها ، وعن بيتها وعن جماعتها وهي لا تقل في مطلق المسؤولية عن مسؤولية أخيها الرجل ، وأن منزلتها في المثوبة والعقوبة عند الله معقودة بما يكون منها من طاعة أن مخالفة^(١) .

قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (سورة آل عمران - آية ١٩٥) .

والإنسان ، لديه شعور فطري بالوالدية حين يكون هذا الإنسان طبيعياً ولم تتدخل عوامل الفساد في تغييره ، فإنه ينمو لدى الإنسان في مرحلة الشاب إحساس والدي يتضمن الاهتمام بإنجاب الأطفال والعناية بهم ، وهذا الإحساس الوالدي هو شعور نفسي تتجمع فيه ضرورة الإنجاب والرعاية والتضحية في سبيل الصغار ، وتنشأ عنه وظيفة الوالدية ، حيث أعد كل من الرجل والمرأة (العادين) لها فطرياً ، فهي مرحلة أساسية من التكامل الإنساني ، حيث يتوق الفتى الناشئ للزواج ، فإذا تزوج يتوق ليكون والداً ، فإذا أصبح والداً ، يتطلع إلى الأحفاد ، وكذلك الفتاة تنتظر اليوم الذي تغدو فيه زوجة ثم والدة ثم ذات أحفاد ، وفي كل ذلك سعادة كبرى

(١) محمود شلتوت ، الإسلام عقيدة وشريعة ، الطبعة الثالثة عشر ، لبنان ، دار الشروق
بيروت ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٥ م) ص ٢٢٣ .

للإنسان لاتعد لها سعادة^(١) .

وفي سبيل تحقيق هذه السعادة يأخذ كل من الزوجين مكانه في الأسرة ، فالرجل في جميع أطوار التاريخ الإنساني حتى في غمار الحضارة الغربية الحديثة هو عماد الحياة العاملة القاسية ، وذلك لأن الرجل بحكم تكوينه الجسمي أكثر تفرغاً واستعداداً للقيام بأعمال الحياة المضيئة خارج حدود المنزل والعرمان ، فالمرأة حين يعتريها الحيض كل شهر أو أقل ، وحين يشغلها الحمل، والإرضاع ، والمعاناة مع الصغار ، كل ذلك مما يعرقل نشاطها الطبيعي في حياة الأعمال الكادحة القاسية ، ولذا فجمال الرجل ، في رجولته المتكاملة في شخصيته ومظهره ومركزه ونشاطه العام . أما المرأة فجمالها في أنوثتها التي تعتبر غاية التكامل في زواجها وأمومتها ، ولذا فهي تتفرغ للبيت والصغار ، بينما يقف الزوج حارساً لهذا البيت من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية^(٢) .

ومن هذا الأساس الفطري ، والمنطلق الطبيعي فقد «نظم القرآن الكريم العلاقة بين الزوجين على قاعدة من قوله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٨) وهي قاعدة تذهب فيها المرأة بطائفة من الحقوق والواجبات ، ويذهب الرجل بمثلها ، فهل تنجح الحياة الزوجية دون معرفة تلك الحقوق والواجبات ؟ إن قانون القوامنة وحده - مثلاً - في قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (سورة النساء - آية ٣٤) أو قانون السكن في قوله تعالى : ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ (سورة الروم - آية ٢١) يتطلب دراسات نفسية واجتماعية دقيقة لبيان مكانه من الحياة الزوجية ، وضرورته لها . . . فإذا كان لذلك ونحوه أثره العملي في التقارب الفكري والوجداني بين الزوجين ، فهو باب من المعرفة له أثره في شحذ ملكات الفكر، وتعدد جوانب النفس ، وجه الإسلام إليه كلاً من الرجل والمرأة لتنظيم الحقوق والواجبات»^(٣) .

(١) انظر : د . عبد الحميد الهاشمي ، علم النفس التكويني ، الطبعة الرابعة ، (جدة : دار المجمع العلمي ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ص ٣١١-٣١٢ .

(٢) انظر د . الهاشمي ، علم النفس التكويني ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٣) البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ، ص ٢١٣ .

ومن هنا فإن على التربية ان تعد الزوجين على تحمل تبعات الحياة اليومية ، ومتطلباتها ، وأداء واجباتها ، فالمرأة ترعى البيت وتحرس ما فيه من نفوس وأموال وأسرار ، والرجل يكدح ليؤمن لهذه الأسرة متطلبات الحياة التي لا بد فيها من الكدح فكلاهما يكدح وكل في دائرة اختصاصه .

قال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِيهِ﴾ (سورة الانشقاق - آية ٦) .

إن المرأة - ولاسيما الأم - مكلفة مع الرجل في تحمل التبعات والأمانات وإعداد النشء ويحتل الدرجات الأولى من سلم المسؤولية والمطلوب منها أن تقف صابرة مصابة مع الزوج في خوض غمار الحياة .

لقد أمر الإسلام الرجل بالإنفاق والبذل والمرأة بالصبر والطاعة والقنوت والقرار في البيت لحراسة النشء ، في ظل طاعة الله سبحانه والإخلاص له سبحانه وكل عمل لا يكون منه الإخلاص والصواب فهو مردود عند الله سبحانه .

قال تعالى ﴿الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (سورة النساء-آية ٣٤) .

إن الزوج مسؤول عن حماية الأسرة من جميع النواحي وأولها الإنفاق ، قال ﷺ مخاطباً الرجل : «ولست تُنفِقُ نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك»^(١) ، وفي حديث آخر قال ﷺ : « وابدأ بمن تعول ، تقول المرأة : إما أن تطعمني ، وإما أن تطلقني ، ويقول العبد : أطعمني واستعملني ويقول الابن : أطعمني إلى من تدعني ؟ »^(٢) .

والزوجة راعية لهذا المحضن وهذا النشء الذي هو مدد الحياة .

إن على المجتمع بأكمله أن يعد الزوجين لتحمل مسؤولية الأبوة والأمومة ، البيت ، والمدرسة ، وجميع المؤسسات التربوية ، حيث يلحق فيها كل من الذكر والأنثى

(١) البخاري ، الصحيح ٣ ، ج ٥ ، كتاب المغازي ، باب حجة الوداع ، ص ١٤٩ ، ح (٤٤٠٩) .

(٢) البخاري ، الصحيح ٣ ، ج ٦ ، كتاب المنفقات ، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال ، ص ٢٣٣ ، ح (٥٣٥٥) .

حدود مسؤوليته بل ويدرب على تحمل المسؤوليات وأداء الأمانات وحب العمل وبذل الجهد والتضحية والتفاني حتى إذا ما وصلا إلى مرحلة تكوين الأسرة استطاع كل منهما أن يقوم بأعباء الزوجية والأبوة أو الأمومة خير قيام ، وليعلم الزوجان عند ذلك أن زواجهما له هدف أسمى ، وهو إعداد الأفراد المسلمين الصالحين المصلحين ، « فالزوجية ليست مجرد استعداد للعمل الجنسي ولا الأمومة مجرد استعداد للحمل والإرضاع . وإن حكمة الله سمت بالزواج الانساني عن أن يكون مجرد اقتران رجل بامرأة ، فجعلته إلى ذلك زواج إنسانية بإنسانية ، ليثمر لنا من عالم القدس ثمرأ معنوياً ليس من طبيعة هذه الأرض ، هو : المودة والرحمة . وسمت كذلك بالأمومة عن أن تكون مجرد ولادة وحمل فجعلتها « خاصة روحية » تقتبس للولد - جيناً - وغير جنين - ما يجعل في مجتمعاتنا صوراً من أدب الملاء الأعلى .

فتقدير الإسلام للأسرة أنها « جهاز » ذو فاعلية في تطوير معنى الحياة ومنح ظلمتها وماديتها عناصر من أفق المعنويات تجعلها جذيرة بنظر الله »^(١) .

والتربية المقصودة هنا التربية الإيمانية ، والتي تدخل ضمن حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام مسلم : (العلم فريضة على كل مسلم)^(٢) ، والفريضة هنا واجب تعليم أمور الدين ، فإذا قصد المجتمع في تعليم الفرائض لأبنائه ومن ثم قصد الآباء في تبليغ أبنائهم الأمور الواجبة من الدين ، فينبغي على المجتمع بمؤسساته أن يعد أبناءه آباء وأمّهات المستقبل لحمل مسؤولية التربية الإسلامية الإيمانية للأبناء ، ولن يكون ذلك إلا بوضع برامج ومناهج في المدارس التعليمية التي تخصص لإعداد الآباء ، نساء ورجالاً لمهمة الأبوة والأمومة ، حتى ينهض المجتمع بأكمله على قواعد أصيلة إيمانية إسلامية عميقة الجذور ، لتحقيق العزة للإسلام والمسلمين .

ولكن وللأسف كيف يربى الآن الغالبية ، من الآباء والأمّهات ، أو هل يعد الآباء والأمّهات لتحمل المسؤولية؟ مسؤولية أنفسهم بله مسؤولية أولاد المستقبل ، والجيل التالي لهم ، والإجابة على ذلك هي : (إن فقدان علاقة المسؤولية أمام الله ، انعكس انعكاساً خطيراً على الأسرة وهي إحدى المؤسسات الهامة لبقاء النوع البشري، واستمرار ارتقائه ، وإنما تقدم التربية الأسرة باعتبارها أحد أماكن المتع الدنيوية

(١) البهي الخولي ، الإسلام والمرأة المعاصرة ، ١٤٩-١٥٠ .

(٢) (الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن أحمد ، المعجم الكبير ، ج ١٠ ، ص ٢٤٠ . ح (١٠٤٣٩) .

ووسيلة من وسائلها ، ولذلك حين يجابه الكثير من الأزواج والزوجات بمسؤولياتهم نحو بعضهم البعض ونحو أبنائهم وبناتهم ، يتنكرون لهذه المسؤوليات ، ويضيعون بها ، ثم يمشون في زرع الغام التدمير في بنیان الأسرة وإلقاء الذرية الناشئة ، في متاهات التشرد والضیاع^(١)

ان نظرة واحدة إلى أوضاع المسلمين الآن تنذر بالخطر المهدق بالأمة الإسلامية ، فإذا أفلح العالم الإسلامي بتأمين الغذاء والمسكن من قبل الأبوين للأبناء فإنه لم يفلح في إعداد هذين الأبوين لمهتهما في إعداد النشء وتربيته ، ولذا انحدر من هؤلاء الآباء أبناء مترهلون غير مبالين وغير آبهين ، بما أراد الله سبحانه وتعالى من خلق الإنسان لإعمار الكون المسخر له بكل مافيه ، فإذا كان الغرب قد ضيع الروح ، فقد حافظ على العقل ، فكان العلم المادي الذي غزا الفضاء أما - نحن المسلمين - فقد ضيعنا الروح والعقل والجسد في التربية .

ولا يفهم من هذا أن نجعل هم التربية ضمن الحدود الدنيوية ، وتسهيل الحياة والمعاش وتحقيق الإعمار والتسخير ، ولكن لابد من ربط ذلك الحبل بحبل متين شديد يتصل بالسما ، فيواكب مسيرة الإيمان ، ليكون من المؤمنين قدوة لجميع الناس ، في جميع صورها متكاملة متقدمة حية ، صورة الإنسان المؤمن ، المسلم ، العابد ، العالم ، العزيز ، الآخذ بكل أسباب القوة المتوجه إلى الآخرة جزاءً ومآباً ، حيث ينشد الراحة والأمن والاستقرار . قال الله تعالى واصفاً هؤلاء :

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (سورة الفرقان-آية ٧٤-٧٦) .

ومما رواه الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ما قال رحمه الله : (يعبدونك يحسنون عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر)^(٢) ، وفي قوله تعالى : ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ : جاء التعبير عن الجمع بصيغة المفرد لأن معناها جماعة ، فجعلوها (إماماً) مصدراً من أم^(٣) .

(١) د . ماجد عرسان الكيلاني ، فلسفة التربية الإسلامية ، الطبعة الثانية ، مكة المكرمة ، مكتبة هادي ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م ص ٢٨٠ .

(٢) جامع البيان ج ١٩ ، ص ٥٢ .

(٣) انظر : جامع البيان ج ١٩ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

وعلى هذا فجماعة المسلمين هم الإمام للناس جميعاً في التقوى والهدى والصلاح ، فيبنون ويعمرون الكون وفق السنن الإلهية ليفوزوا بالجنان العلوية ، لقاء صبرهم على شدائد الحياة وصعوباتها وكدها وكدها ، مثلهم في ذلك كمثل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، حين ابتلوا عليهما السلام فصبروا ، وحين أمروا بالبناء فبنوا ، وكان الأب والابن والأم هاجر عليهما السلام نواة المجتمع الإسلامي في البناء والحركة والحياة والنشاط ، التي بدأتها أم إسماعيل ، ثم أتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليكمل بناء مابدأت ويشرف على هذا المجتمع الذي أصلته تلك الزوجة الصالحة العاقلة، ومن ثم وحين اشتد عود ذلك الابن عليه السلام ، كان بناء ذلك البيت العتيق .

وبعد كل هذا العناية منهم جميعاً - عليهما السلام - يتوجه إبراهيم بالدعاء بعد أن وضع القواعد من البيت ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (البقرة - آية ١٢٧-١٢٨) .

ثم يتابع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الدعاء ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (سورة البقرة - آية ١٢٩) .

ليتابع ﷺ مسيره البناء والإعمار والخلافة ، والعبادة ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (سورة البقرة - آية ١٣٠) .

وهكذا كانت أمة إبراهيم عليه السلام هي الأمة الإمام للناس جميعاً حتى قيام الساعة ثم وَرَثَ اللهُ سبحانه هذه الإمامة إلى الأمة المحمدية لتكون هي القدوة للناس جميعاً ، تلك الأمة الإمام في التقوى والصلاح والإعمار والبناء في رضا الله - سبحانه - ليتحقق للمسلمين العزة والنصر والسؤدد وليحكموا الكون بما أنزل الله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة المنافقون آية ٨) لاعزة الكفر التي انبثقت عن إمامة الكفر الآن ، ممثلة في إمامة أمريكا التي حكمت العالم بقوتها البشرية والفكرية والمادية . وحري بنا أن نبني من جديد جيلاً مؤمناً عارفاً بحدود المسؤولية يستطيع حمل أمانة الخلافة بإقامة العدل في هذا الكون ، ويحقق النجاة والفوز بالجنة في الآخرة ، وذلك حين تستمر عملية البناء بين الآباء والأبناء على التوالي على هذه الصورة .

قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ءَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ * وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفُكْهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (سورة الطور - آية ٢١-٢٢)

وما ذاك إلا لأنهم اتبعوا منهج الرحمن في حياتهم الدنيا فزكوا أنفسهم وأمروا أهلهم بذلك كما في قوله تعالى :

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ*فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم*إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الطور-آية ٢٦-٢٨) .

إن ماسبق في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليدل على المسؤولية المتوازنة بين الآباء والأبناء، والمرأة لاتقل مسؤولية في ذلك عن الرجل، إن المرأة تحمل مسؤولية عظمى ، وقد جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً في وجود الخلق وتكاثرهم ، ومن ثم تتابع عملية الإعمار بالترية والإعداد مع الرجل ، ذلك أن الإنسان لم يخلق في هذه الحياة ليأكل ويشرب ويتمتع كالأنعام ، وإنما خلق ليعمر هذا الكون ، وهذا يقتضي تحمله للمسؤوليات ، ولهذا ينبغي أن يهيأ كل من الزوجين ويعدا له ، إعداداً بيئياً فيقويان بهذا الإعداد على الحياة المستقلة ويكونان قادرين على أداء مايلقى عليهما من تبعات الحياة الزوجية في الأبوة ، والأمومة ، وقد قالالاتعالى محمداً سبحانه مسيرة حياة الإنسان الاجتماعية والدُّبُوبَةِ وَالْبَهْوِيَةِ..

﴿ووصينا الإنسان بوالديه إِحْسَنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وحمله وفضله ثلثون شهراً * حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي * إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأحقاف - آية ١٥) .

جاء في التفسير الكبير في معنى هذه الآية الكريمة ما يلي :

«إن قوله تعالى يدل على أن الإنسان كالمحتاج إلى مراعاة الوالدين له إلى قريب من هذه المدة ، ذلك لأن العقل كالناقص فلا بد له من رعاية الأبوين على رعاية المصالح ودفع الآفات ، وفيه تنبيه إلى أن نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد إلى هذه المدة الطويلة . وذلك يدل على أن نعم الوالدين ، كأنه يخرج

عن وسع الإنسان مكافأتهما إلا بالدعاء والذكر الجميل (١)

فعملية التربية حلقة متصلة من المسؤولية بين الآباء والأبناء ، على الآباء وعلى الأبناء ، إنها حكمة رب الكون سبحانه ، للإعمار بالعطاء والتضحية وأداء الواجبات وتحمل التبعات والمسؤوليات ، تلك التي حملها الإنسان ليسلمها إلى أبنائه ثم أحفاده حتى يوم الدين . وفي ذلك وردت الأوامر والتوجيهات في الأسلوب الذي تؤدي فيه تلك الأمانة .

قال ﷺ في الإحسان إلى الرعية : «اللهم مَنْ وَلِيٍّ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَاشَقُّ عَلَيْهِ . وَمَنْ وَلِيٍّ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً ، فَارْفُقْ بِهِمْ ، فَارْفُقْ بِهِ» (٢) .

«إن الأب والأم أميران على أبنائهما ، ولذا فإنهما مسؤولان عن كل تفريط في هذه الإمارة والولاية قال ﷺ : «ما مِنْ أَمِيرٍ يَلِيَّ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةُ» (٣) .

وقال ﷺ : «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيةً ، يموت يومَ يموت وهو غاشٍ لرعيته ، إلا حَرَّمَ اللهُ عليه الجنة» (٤) ورواه الإمام البخاري بلفظ (ما من عبدٍ استرعاه الله رعيةً فلم يحطها بنصيحةٍ ، إلا لم يجد راحة الجنة) (٥) .

أما كيف تكون هذه التربية وبأي أسلوب ينقلها الآباء إلى الأبناء ؟ إنه أسلوب الرحمة والحب والحكمة ، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران - آية ١٥٩) .

(١) الرازي ، فخر الدين ، محمد بن عمر خطيب الري ، تفسير مفاتيح الغيب ، (بيروت : دار الفكر ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) ج ١٤ ، ص ٢٨ ، ص ١٩ .

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ٣ ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ، ص ١٤٥٨ ، ح (١٨٢٨) .

(٣) ، (٤) مسلم الصحيح ، ج ١ ، كتاب الإيمان ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار ص ١٢٥-١٢٦ ، (١٤٢) .

(٥) البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٨ ، كتاب الأحكام ، باب من استرعى رعية فلم ينصح ، ص ١٣٦ ، ح (٧١٥٠) .

إنها الرحمة والمحبة التي تفتح مغاليق القلوب وتكسر كبرياء النفوس ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أبصر الأقرع بن حابس* رضي الله عنه- النبي ﷺ وهو يُقبَل الحسن والحسين رضي الله عنهما فقال: إن لي عشرةً من الولد ما قبلت أحداً منهم فقال ﷺ : «من لا يرحم لا يُرحم»^(١)) .

وهكذا ربي رسول الله ﷺ وعلم صحابته رضي الله عنهم حمل الأمانة ، وأداء المسؤولية على الوجه الأمثل ، فكان من هؤلاء أفضل الآباء وأبر الأبناء في خير القرون والأزمان رضي الله-عز وجل- عنهم أجمعين .

(*) الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي كان من المؤلفة قلوبهم وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف وشهد مع شرحبيل بن حسنة دومة الجندل ومع خالد بن الوليد فتح الأنبار وكان مجوسياً قبل أن يسلم. (الإصابة ٥٨/١ ؛ الاستيعاب ٩٦/١) .

(١) البخاري ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ص ٩٩ ، ح (٥٩٩٧) ؛ مسلم ، الصحيح ، م ٤ ، كتاب الفضائل ، باب رحمته ﷺ ، الصبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلك ، ص ١٨٠٧ ، ح (٢٣١٨) .

الفصل السادس

المحافظة على تماسك الأسرة ونموها

لقد دعا الاسلام إلى بناء الأسرة وأحاط هذا البناء بالأسوار المنيعة وجعل له القواعد القوية التي تحفظه من أن يقع ، لأن الأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتربى فيه الفرد ليكون أب أو أم المستقبل .

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (سورة النساء - آية ١) .

إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام وخلق منه حواء فنشأت أول علاقة بين بني الإنسان من تلك الرابطة الزوجية ، ووجد كل من هذين الزوجين سكناً في صاحبه فكانت الأسرة التي أرادها الإسلام وذكرها القرآن الكريم ووضع أصولها وقواعدها في المحافظة على أهداف الحياة العليا في الخلافة في الأرض من خلال الأسر التي أساسها الدوام والاستمرار والامتداد .

وقد عرف الأستاذ سيد قطب الأسرة فقال فيها: هي (التقاء إنسانين تربط بينهما حياة مشتركة وآلام مشتركة ومستقبل مشترك يلتقي في الذرية المرتقبة ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان) ^(١) .

وحفاظاً على هذا النشء وحماية للذرية ، ورعاية للنمو السليم لتحقيق الإعمار والبناء فقد حرس الإسلام هذه الأسرة يقول الإمام أبوزهرة في ذلك : «نظم الإسلام أحكام الزواج، وحمل الحياة الزوجية ومنع الاعتداء عليها بأي نوع من أنواع الاعتداء وإن المحافظة على النسل اقتضت منع الاعتداء على الأعراض سواء أكان بالفاحشة ترتكب أو كان بالقذف بالزنى، إذ من شأنه إشاعة الفاحشة في المجتمع الفاضل فيفسده، لأن الفاحشة اعتداء على الأمانة الإنسانية التي أودعها الله تعالى جسم الرجل والمرأة ، ليكون منها النسل والتوالد الذي يمنع فناء الجنس البشري أو يجعله يعيش عيشه هنيئاً سهلة فيكثر النسل ويقوى ، والنسل في ذاته ثروة وقوة ، فهو يوجد الثروة والثروة لا توجد» ^(٢) . ولذا كان حتماً لازماً قيام الأسرة للحفاظ

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٢٤٨٩ .

(٢) أبوزهرة ، تنظيم الإسلام للمجتمع ، دار الفكر العربي ، ص ٥٩ .

على أفرادها ، تناسلاً وتكاثراً ونمواً ، ذلك لأن الفوضى الجنسية تدمر الأسرة وتمنع نموها حيث يستغنى عن الزواج ، فيقل التناسل كما يلاحظ اليوم في العالم كالأمة الفرنسية . وتناقص تعدادها بشكل خطير ، لأن سهولة تلبية الدافع الجنسي وفوضى العلاقات الجنسية ، والتخلص من الأجنة والمواليد لاتدع مجالاً لتكوين الأسرة ، ولا لاستقرارها ، ونموها وبذلك يقل الزواج ، ويقل التناسل ، وتدحرجت فرنسا منحدره إلى الهاوية^(١) .

يقول الأستاذ سيد قطب في ضرورة قيام الأسرة :

«ولولا أهمية الأسرة في الوجود لكان للتكاثر في النوع البشري طريقة أخرى ، وتنظيم آخر لاسيما وأن الإخصاب والإكثار وحده قد يتم بأقل عدد من الذكور ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - قدر في الحياة الإنسانية أن هذا ليس هو غاية الالتقاء بين الذكر والأنثى ، إنما الغاية التي تميز الإنسان عن الحيوان هي استقرار الحياة الزوجية بين ذكر وأنثى ، (لستقر الذرية في كنف أبوين في محيط الأسرة) لإعداد هذه الذرية لدورها الإنساني الخاص الذي يحتاج الى الاستقرار بين أبوين في أسرة فترة أطول جداً مما تحتاج اليه طفولة الحيوان»^(٢) .

لقد حمى الإسلام الأسرة وجعل المحافظة عليها كالمحافظة على الصلاة .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿حَقِّظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣٨) .

لقد فصل الله عز وجل بهذه الآية الكريمة بين أحكام الطلاق فقد اعترضت الآية الكريمة في الحديث عن الطلاق-قبلها وبعدها-دون مناسبة ظاهرة أو فيما يبدو للناظر ، وقد يدل ذلك - والله تعالى أعلم - على :

١- أن حفظ الأسرة أمر مهم كالصلاة ، فكما تحافظ أيها المسلم على صلاتك حافظ على أسرتك .

٢- اتق الله أيها المسلم في أسرتك وزوجك وكذلك المرأة فإن للبيوت أسرارها التي لايعلمها إلا رب العالمين، فكما أن الله عز وجل هو المطلع وحده على حقيقة

(١) انظر : في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ٦٣٣ .

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ٢ ص ١١٦٠ .

صحة صلاة المسلم بشروطها وأركانها والقيام بها ، كذلك فإن القيام على الأسرة بالحق والعدل أساسه تقوى النفوس لأنه مما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، فقد يكد كل زوج للآخر بما لا يعبر عنه بالكلمات ولا يمكن للأحرف أن تصفه ، مما يكون له أثره البالغ- في النفوس- الذي يؤدي إلى انفصام عرى الأسرة وخرابها .

٣- لابد من المحافظة على الأسرة الإسلامية من التصدع حتى يقوم المجتمع القوي السليم .

٤- الأسرة أساس المجتمع الإسلامي كما أن الصلاة أساس العبادات .

يقول الأستاذ سيد في ذلك : (وفي هذا الجو يربط القلوب بالله ويجعل

الإحسان والمعروف في العشرة عبادة لله ، يدس حديثاً عن الصلاة - أكبر عبادات الإسلام - ولم ينته بعد من هذه الأحكام ، وقد بقي منها حكم المتوفى عنها زوجها وحققها في وصية تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله ، وحكم المتاع للمطلقات بصفة عامة - يدس الحديث عن الصلاة في هذا الجو ، فيوحي بأن الطاعة لله في كل هذا عبادة كعبادة الصلاة ، ومن جنسها ، وهو إحياء لطيف من إحياء القرآن ، وهو يتسق مع التصور الإسلامي لغاية الوجود الإنساني في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات-آية ٥٦) واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر، بل شاملة لكل نشاط، الاتجاه فيه إلى الله، والغاية منه طاعة الله^(١).

وقد نهى الإسلام عن الإسراع إلى الطلاق وذلك باتخاذ الوسائل والسبل التي تعمل على استمرار الحياة ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نشوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ (سورة النساء - آية ٣٤) .

إلى غير ذلك من السبل والوسائل التي يطول ذكرها ، مما جاء في آيات الكتاب العزيز .

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

وكذلك في الحديث ٠٠ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ٠ قال رسول الله ﷺ :
 « إن المرأة خلقت من ضلعٍ ، لن تستقيم لك على طريقةٍ فإن استمتعتَ بها ، استمتعتَ
 بها وبها عوجٌ ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها » (١) .

قال الإمام النووي : (وفي هذا الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهن
 والصبر على عوج أخلاقهن واحتمال ضعف عقولهن وكراهة طلاقهن بلاسبب وإنه
 لايطمع باستقامتها) (٢) ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من
 كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخيراً أو ليسكت ، واستوصوا
 بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلعٍ ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه إن ذهبت
 تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، استوصوا بالنساء خيراً» (٣) .

وقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع «فاتقوا الله في النساء
 فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن ألا يوطئن
 فرشكم أحدٌ تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن عليكم رزقهن
 وكسوتهن بالمعروف» (٤) .

وقد بين الله سبحانه وتعالى سبل الإصلاح بين الزوجين ، ولو كان بالتنازل
 عن بعض الحقوق ليصلحا بينهما في قوله تعالى :

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناحَ عليهما أن
 يصلحا بينهما صلحاً والصلحُ خيرٌ﴾ (سورة النساء - آية ١٢٨) .

وروى الشيخان رحمهما الله عن عائشة رضي الله عنها في قوله عز وجل
 ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ ، قالت نزلت في المرأة تكون
 عند الرجل فلعله أن لا يستكثر منها وتكون لها صحبة وولد فتكره أن يفارقها فتقول
 له أنت في حل من شأني (٥) .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء ، ص ١٠٩١ ، ح (١٤٦٨) .

(٢) شرح صحيح مسلم ، ج ١٠ ، ص ٥٧ .

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء ، ص ١٠٩١ ، ح (١٤٦٨) ،
 البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب المدارة مع النساء ، ص ١٧٧ ، ح
 (٥١٨٤) ، بنحوه .

(٤) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الحج ، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ،
 ص ٨٨٩ ، ح (١٢١٨) .

(٥) مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب التفسير ، ص ٢٣١٦ ، ح (٣٠٢١) ، البخاري م ٢ ،
 ج ٣ ، كتاب المظالم ، باب إذا حلل من ظلمه ص ١٣٧ ، ح (٢٤٥٠) .

وقد حض القرآن الكريم على الإمساك بالزوجة حتى مع الكراهية بل حبيب إلى الزوج الإحسان إليها وأمره بمعاشرتها وصحبته بالمعروف فقد قال الله تعالى . . . ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء - آية ١٩)، قال ابن عباس رضي الله عنه : خيراً كثيراً : أي ترزق الولد منه ويجعل الله في ولدها خيراً^(١) .

وقد تكون هذه الكراهية وسواساً شيطانياً لا يلبث أن يزول ، فلا يزال الشيطان بالمرء حتى يفرق بينه وبين زوجته ، قال رسول الله ﷺ : «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ينجي أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا فيقول : ما صنعت شيئاً ، ثم قال ينجي أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال : فيدنيه منه ويقول، نعم أنت» ، قال الأعمش -رحمه الله- أراه قال فيلتزمه^(٢) .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن تتبع عورات النساء فقد «كان النبي ﷺ يكره أن يأتي الرجل أهله طروقاً» وجاء في رواية أخرى مفسراً في قوله ﷺ «إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً»^(٣) .

والقرآن الكريم يعبر عن الرابطة الزوجية بالميثاق الذي استعمله القرآن الكريم في الحروب والمعاهدات الدولية : قال تعالى :

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (سورة النساء - آية ٢١) كيف تأخذ أيها الزوج المهر وقد كان بينك وبين زوجك ما كان من الإفضاء بالسر والخفي من الأمر ، بعد أن أخذت منك تلك الزوجة العهد والوعد بدوام العشرة واستمرارها بعقد النكاح ، فأنت المسؤول عن الحفاظ على هذا العهد أو نقضه .

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان ، م ٣ ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينه ، ص ٢١٦٧ ، ح (٢٨١٣) .

(٣) البخاري الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح باب لا يطرق أهله ليلاً إذا أطال الغيبة مخافة أن يخوفهم أو يلتمس عثرتهم ، ص ١٩٦ ، ح (٥٢٤٣) .

أما إذا فشلت جميع الدعوات للإصلاح فهناك الحكمان المصلحان لتدبير الأمر قبل وقوع كارثة الطلاق قال تعالى :

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (سورة النساء - آية ٣٥)

إن لم تجد السبل ، وكان لابد من الفراق وجب على الزوج أن يراعي في طلاقه الآداب والأحكام المستقاة من روح الإسلام ونصوصه يقول الله جل وعلا :

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣١) .

يقول الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله «وليس المقصود من الطلاق اللعب واللهو، حتى يزعم الرجل لنفسه أنه يملك الطلاق كما شاء ، وكيف شاء ، ومتى شاء ، وأنه إن شاء أبان المرأة بته ، وإن شاء جعلها معتدة يملك عليها الرجعة . كلا ثم كلا ، بل هو تشريع منظم دقيق من لدن حكيم عليم شرعه الله لعباده ترفيهاً لهم ورحمة بهم ، وعلاجاً شافياً لما يكون في الأسرة بين الزوجين من شقاق وضرار ، ورسم قواعده ، وحد حدوده بميزان العدالة الصحيحة التامة ونهى عن تجاوزها ، وتوعد على ذلك ولهذا تجد آيات الطلاق تكرر ذكر حدود الله ، والنهي عن تعديها وعن المضارة ﴿تلك حدودُ الله فلا تعتدوها﴾ ، ومن يتعد حدودَ الله فأولئك هم الظالمون ﴿تلك حدودُ الله يُبينها لقوم يعلمون﴾» (سورة البقرة - آية ٢٢٩ ٢٣٠) .

ثم أمر الله سبحانه المرأة المطلقة بالعدة :

﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٨)

فقد تهدأ ثورة النفوس فتكون الرجعة بينهما في العدة قال تعالى :

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ (سورة

البقرة - آية ٢٢٨)

فمن حكمة الله سبحانه أن يجعل العدة بعد الطلاق في بيت الزوجية فرصة لكل الزوجين وحفاظاً على الأسرة من الانهيار فقد يعود البناء من جديد، بل إن رسول الله ﷺ حرم الطلاق في الحيض ، (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن ذلك فقال رسول الله ﷺ «مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ، ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أُمْسِكْ بَعْدَ ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقْ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ فِتْلِكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطْلَقَ لَهَا النِّسَاءُ»^(١) .

وذلك مراعاة لحال الزوجة وضعفها في الحيض ، وبعد الزوج عنها فسن رسول الله ﷺ السنة في الطلاق لعل هذا الذي ركب رأسه ، يعود إلى صوابه ، ويغير من رجهته ، ويفعل الخير فيمسك ولا يطلق ، فلا يفرط بهذه الزوجة ، ولا بهؤلاء الأطفال ولا يسلمهم إلى مصير . . ينتظرهم فيبوء بالإثم والمعصية قال ﷺ «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»^(٢) .

والعجيب أن يذهب بعض الفقهاء إلى عدم الإثم في الطلاق بلا سبب^(٣) ، مع أن التوجيهات التشريعية تحض على الإمساك والإحسان ، وكيف استنبط ذلك ، وهل ناقض العهد والميثاق لا يأتى في الشريعة الإسلامية ؟!

ثم إن القرآن الكريم اعتبر التلاعب بالزواج والطلاق هزأً بآيات الله سبحانه وتعالى قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣١) .

وقد وقف الأستاذ سيد قطب عند آيات القرآن الكريم في الحديث عن الطلاق فألمح إلى معان وإيحاءات لم يسبق إليها . ولعل الأستاذ سيد بحق هو منظر الأسرة وفيلسوفها . .

«وآيات الله التي يبينها في العشرة والطلاق واضحة مستقيمة جادة ، تقصد إلى تنظيم هذه الحياة وإقامتها على الجد والصدق ، فإذا هو استغلها في إلحاق الإضرار والأذى بالمرأة ، متلاعباً بالرخص التي جعلها الله متنفساً وصمام أمن ،

(١) البخاري ، ٣، ج ٦ ، كتاب الطلاق ، باب قوله تعالى «يأياها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة» ص ١٩٩ ، ح (٥٢٥١) ؛ مسلم ، الصحيح ، ٢، ج ٢ ، كتاب الطلاق ، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ، ص ١٠٩٣ ، ح (١٤٧١) .

(٢) مسند الإمام أحمد ، ٩، ج ٩ ، ص ٢٥٧ ؛ (٦٤٩٥) وقال أحمد شاكر صحيح .

(٣) انظر : النووي ، شرح صحيح مسلم ، ٥، ج ٩ ، ص ٦١ ؛ ابن حجر ، فتح الباري ، ٩، ج ٣ ، ص ٣٤٦ .

واستخدم حق الرجعة الذي جعله الله فرصة لاستعادة الحياة الزوجية وإصلاحها ، في إمساك المرأة لإيذائها وإشقاتها ، إذا فعل شيئاً من هذا فقد اتخذ آيات الله هزواً .

وذلك كالذي نراه في مجتمعنا الجاهلي الذي يدعي الإسلام في هذه الأيام ، من استخدام الرخص الفقهية وسيلة للتحايل والإيذاء والفساد ، ومن استخدام حق الطلاق ذاته أسوأ استخدام ، وويل لمن يستهزئ بآيات الله دون حياء من الله ،^(١)

ويستجيش الله سبحانه شعور الحياء في النفوس فيذكرهم بما أنعم عز وجل عليهم من المنهج الإلهي من آيات الله وسنة رسوله ﷺ فليتقوا الله سبحانه الذي أنعم عليهم والذي يعلم سرهم وجهرهم وعلمه سبحانه محيط بالكون كله فليتقوا الله وليستجيبوا لأوامره ولا سيما في هذا الحكم الذي هو أساس الدين والدنيا «الأسرة» ممثلة في قضية الزواج الذي هو آية ونعمة من نعمه سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فالؤمن التقي لايهزأ بآيات الله ولا يتنكر لنعم الله سبحانه.

ويبسط الأستاذ سيد القول في نظام الإسلام للأسرة وعلاجه للتصدع ويستشف من خلال ذلك حكماً كثيرة لضرورة قيام الأسرة في حياة الإنسان فيقول

«ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها، وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله في السموات والأرضين ، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره ، وفي الفرج والسعة لمن يتقونه وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي ، وإيثار الجميل والإطماع في الخير ، والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق وفي اليسر والعسر» .

«يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام - حتى ليوجه الخطاب إلى النبي - ﷺ - بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، زيادة في الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه» .

«وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة ، والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته ، وتقوى الله في تنفيذه ، ومراقبة الله في تناوله ، والإطالة في

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥١-٢٥٢ بتصرف .

التعقيب بالترغيب والترهيب ، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التي تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن ، وتوعد الملتزمين والمتكئين والمضارين بأعنف وأشد ما يلقاه عاصٍ ، وتلوح للناس بالرجاء الندي والخير والمخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة التجميل والتيسير) .

«ويقرأ القارئ في هذه السورة : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ ، ﴿وتلك حدودُ الله ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه﴾ ، ﴿لاتدري لعلَّ الله يَخْدِثُ بعد ذلك أمراً﴾ (سورة الطلاق - آية ١) ، ﴿وأشهدوا ذَوِي عَدْلٍ منكم وأقيموا الشَّهَدَةَ لله﴾ ، ﴿ذلكم يُوعِظُ به من كان يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخر﴾ ، ﴿ومن يَتَّقِ الله يجعلْ له مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ من حيثْ لا يَحْتَسِبُ﴾ ، ﴿ومن يَتَوَكَّلْ على الله فهو حسبه إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (سورة الطلاق آية ٢-٣) ، ﴿ومن يَتَّقِ اللَّهَ يجعلْ له من أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ ، ﴿ذلك أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ ، ﴿ومن يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ (سورة الطلاق - آية ٥) ، ﴿..... سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ .

«كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل :

﴿وَكَايْنُ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكَراً﴾ * فذاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ (سورة الطلاق آية ٨-٩-١٠) .

يعقبه التذكير من مثل هذا المصير والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور والتلويح بالأمر الكبير :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ * رسولاً يتلوا عليكم ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ .

«ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا» .

يقرأ هذا كله تعقيباً على أحكام الطلاق ، ونجد سورة كاملة في القرآن من هذا الطراز ، كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان في المجال الكوني والنفسي ، وهي حالة تهدم ، لاحالة بناء ، وحالة انتهاء ، لاحالة إنشاء ، لأسرة ٠٠٠٠ لالدولة ٠٠٠ وهي توقع في الحس أنها أضخم من إنشاء دولة ! . علام يدل هذا ؟ إن له دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة» .

«إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي : فالإسلام نظام أسرة . البيت في اعتباره مثابة وسكن ، في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ، وفي كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل (.

«ومن ثم يصور العلاقة البيتية تصويراً رفاقاً شفيفاً يشع منه التعاطف وترف فيه الظلال ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العبير : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ فهي صلة النفس بالنفس ، وهي السكن والقرار وهي صلة المودة والرحمة وهي صلة الستر والتجمل» .

«وإن الإنسان ليحس في الألفاظ ذاتها حنواً ورفقاً ويستروح من خلالها نداوة وظلاً ، وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها منها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق ، ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها ، بما فيها الحياة بالنسل ، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة ،

ويعترف بطهارتها وجديتها وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها ، ذلك حين يقول : (نساؤكم حرثٌ لكم) فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار» .

«والذي ينظر فى تشريعات الأسرة فى القرآن والسنة فى كل موضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها ، وينظر فى التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات ، وفى الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ، وفى ربط هذا الشأن بالله مباشرة فى كل موضع - كما هو الحال فى هذه السورة وفى غيرها - يدرك إدراكاً كاملاً ضخامة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى وقيمة هذا الأمر ، عند الله وهو يجمع بين تقواه - سبحانه - وتقوى الرحم فى أول سورة النساء حيث يقول :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين فى سورة الإسراء وفى غيرها ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (سورة الإسراء-آية ٢٣) وبين الشكر لله والشكر للوالدين فى سورة لقمان ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِمَنْ وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (آية ٢١) .

«وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهى بإقامة الحياة البشرية ابتداءً على أساس الأسرة ، حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية فى الوجود البشرى هي أسرة آدم وزوجه ، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى ، وكان الله سبحانه - قادراً على أن يخلق الملايين من الإنسانين دفعة واحدة، ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة فى وظيفة الأسرة الضخمة فى حياة هذا المخلوق ، حيث تلبي حياة الأسرة فطرته واستعدادته ، وحيث تنمي شخصيته وفضائله، وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات فى حياته ، ثم جرت هذه العناية فى النظام الإسلامى - منهج الله الأخير فى الأرض مع القدر الإلهى فى خلقه الإنسان ابتداءً كما هو الشأن فى كل ما يصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف» .

«إن الأصل فى الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار ، والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التى تكفل لها استقرارها ، واستمرارها، وفى سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء

والفقيرات، ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق ويفرض حد الزنا وحد القذف ، ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها والاستئذان بين أهلها في داخلها» .

«وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محدده ، ويقيم نظام البيت على أساس قوامة أحد الشريكين وهو الأقدر على القوامة ، منعاً للفوضى والاضطراب والنزاع إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز فوق التوجيهات العاطفية ، وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تتهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات ، وهي حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية ، اعتراضاً بمنطق الواقع الذي لا يجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية ويصبح الإمساك بالزوجة عبثاً لا يقوم على أساس !»

«والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول وهلة ولأول بادرة من خلاف ، إنه يشد على هذا الرباط بقوة ، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس» .

«إنه يهتف بالرجال ﴿وعاشروهن بالمعروفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء - آية ١٩) فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية ، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فما يدرهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيراً - وأن الله يدخر لهم لهذا الخير ، فلا يجوز أن يفلتوه ، إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا في استحياء الانعطاف الوجداني واستشارته ، وترويض الكره وإطفاء شرته» .

«فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام بل لا بد من محاولة يقوم بها الآخرون وتوفيق يحاوله الخيرون» ، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة النساء آية ٣٥) ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ ۖ ۖ وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾

«إن الحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة ، واستشارة عواطف المودة ، وذكريات الحياة المشتركة حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم

الطلاق قريبة من العين ، فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين» .
﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (سورة
الطلاق-آية ١)

«وهذا هو التحذير الثاني فالحارس لهذا الحكم هو الله ، فأني مؤمن إذن
يتعرض لحد يحرسه الله ؟! إنه الهلاك والبوار ﴿ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلمَ
نفسه﴾ ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها
ويرعاها ، وظلم نفسه بظلم زوجه ، وهي وهو من نفس واحدة ، فما يظلمها يظلمه
كذلك بهذا الاعتبار . ثم ..

﴿ لا تدري لعلَّ الله يُحْدِثُ بعد ذلك أمراً ﴾

وهي لمسة موحية مؤثرة ، فمن ذا الذي يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء
أمره بالعدة هناك وأمره ببقاء المطلقات في بيوتهن إنه يلوح هناك أمل ويصوص
رجاء ، قد يكون الخير كله ، وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناءة ورضى ، فقدر
الله دائم الحركة ، دائم التغيير ، ودائم الأحداث ، والتسليم لأمر الله أولى ،
والرعاية له أوفق ، وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك» .

«والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة ، وما فيها في أوضاع
وملابسات ، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل ، فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة ،
وتشعر أنها سرمد ، وأنها باقية ، وأن ما فيها من أوضاع وأحوال سيرافقها
ويطاردها ، وهذا سجن نفسي مغلق مفسد للأعصاب في كثير من الأحيان» .

«وليسست هذه هي الحقيقة ، فقدر الله دائماً يعمل ودائماً يغير ، ودائماً
يبدل ، ودائماً ينشئ مالا يجول في حسابان البشر من الأحوال والأوضاع ، فرج بعد
ضيق ، وعسر بعد يسر ، وبسط بعد قبض ، والله كل يوم هو في شأن ، يبيده
للخلق بعد أن كان عنهم في حجاب» .

«ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة في نفوس البشر ، ليظل تطلعهم إلى
ما يحدثه الله من الأمر متجدداً ودائماً ، ولتظل أبواب الأمل في تغيير الأوضاع
مفتوحة دائمة ، ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل ، ندية بالرجاء لاتغلق المنافذ ،
ولاتعيش في سجن الحاضر ، واللحظة التالية قد تحمل مالميس في الحسابان»
﴿ لا تدري لعلَّ الله يُحْدِثُ بعد ذلك أمراً ﴾

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ (سورة الطلاق - آية ٨-١١) .

«ونقف لحظة أمام هذا التحذير فنرى أن الله أخذ سبحانه القرى واحدة بعد واحدة ، كلما عتت عن أمر ربها ورسوله . . . ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه ، فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية ، ويوحى هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو أزواج ، إنما هو أمر الأمة المسلمة ، فهي المسؤولة عن هذا الأمر ، وهي المسؤولة فيه عن شريعة الله ، ومخالفتها عن أمر الله فيه أو مخالفتها عن أمر الله في غيره من أحكام هذا النظام ، أو هذا المنهج الإلهي المتكامل للحياة ، هي عتو عن أمر الله ، لا يؤاخذ به الأفراد الذين يرتكبونه ، إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التي تقع فيها المخالفة ، والتي تنحرف في تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره . فقد جاء هذا الدين ليطاع ، ولينفذ كله ، وليهيمن على الحياة كلها ، فمن عتا عن أمر الله فيه ، ولو كان هذا في أحوال الأفراد الشخصية . فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التي لا تتخلف أبداً» .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ، لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (سورة الطلاق - آية ١٢) .

«ويبين هذه السماوات السبع والأرض أو الأرضين السبع يتنزل أمر الله - ومنه هذا الأمر الذي هم بصدده في هذا السياق ، فهو أمر هائل إذن حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم في المكان والزمان بقدر ما يطبقون التصور ، والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين ، ويتسامع به الملائكة الأعلى وخلق الله الآخرون في السماوات والأرضين ، فهي مخالفة بقاء شنعاء لا يقدم عليها ذو عقل مؤمن ، جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات ، ويبين له هذا الأمر ، ليخرجه

من الظلمات إلى النور»^(١) .

« إن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر ، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمان لحساسية هذه الضمائر في شأن لايجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور .

وهكذا تختتم السورة بهذا الإيقاع الذي يهول ويروع ، بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع ، فسبحان خالق القلوب ، العليم بما فيها من المنحيات والدروب»
كانت تلك التدابير والطرق العلاجية التي اتبعها الإسلام لحماية الأسرة وصيانتها مما يصيبها من ضعف أو انهيار .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل وضع الشرع الحنيف أموراً وقائية فرضها على المجتمع عامة حماية للأسرة التي هي عماد المجتمع ومن ذلك الأمر بغض البصر ، ومنع الخلوة والاختلاط ، وأمر النساء بالحجاب ، وخفض الصوت ، وعدم الخضوع بالقول ، والوقار والقرار في البيوت وعدم التبرج وإبداء الزينة، إلى غير ذلك مما راعاه الإسلام لحفظ النفوس والأحاسيس والمشاعر صيانة للأعراض والبيوت والحرمان^(٢) .

(١) مقتطفات من «في ظلال القرآن» ، ج ٦ ، ص ٣٥٩٤ - ٣٦٠٧ .

(٢) انظر : فصل تأثر نظم التعليم مؤسسته بالأهداف الإسلامية من باب «التربية والأمومة ص ٥٤٧ وفصل مضاعفات خروج المرأة للعمل إلى جانب الرجل من باب «أثر العمل وثقافة الانتاج والاستهلاك على الأمومة» ١-٢ ص ٦٩٦. من هذا البحث .

الفصل الرابع الزواج المبكر

والمحافظة على الصحة العاطفية للوالدين

إن مما يعزز من وظيفة الأمومة ويسر نجاحها ، وإيتاء ثمارها على الوجه الأكمل ، الزواج المبكر- لاسيما للأنثى- ، لما له من محاسن وميزات على مستوى الفرد نفسه والأمة .

وقد نص القرآن الكريم والسنة النبوية على قيام الزواج المبكر فى المجتمع الإسلامى ووجوده فقد قال تعالى فى عدة الصغيرة ٠٠

﴿وَالَّتِي يَتَسَنُّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ ، وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (سورة الطلاق -آية ٤) قال الإمام الطبري فى قوله تعالى : ﴿فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ : وكذلك عدة اللائي لم يحضن من الجوارى لصغر إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول^(١) وقال الإمام الشوكاني : (لصغرهن وعدم بلوغهن سن المحيض ، أي فعدتهن ثلاثة أشهر)^(٢) ، ومما يؤيد ذلك ويدعمه ما روي فى معنى قوله تعالى ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ أي إن لم تعلموا التي قعدت عن الحيضة، والتي لم تحض فعدتهن ثلاثة أشهر (٣) فخرجت من النص السابق فى الآية الكريمة ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ التي لاتحيض البتة، وفى هذا الدلالة الواضحة على أن الصغيرة تزوج، فقد روت عائشة رضي الله عنها قائلة «تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا فى بني الحارث بن الخزرج فَوَعِكَتْ* فتمزق شعري فوقى جُمَيْمَةً* فأتتني أمي أم رومان -واني لفي أرجوحةٍ ومعى صواحبٌ لي- فصرخت بي فأتيتها لأدري

(١) الطبري ، جامع البيان ، ج ٢٨ ، ص ١٤٢ .

(٢) محمد بن على الشوكاني، فتح القدير بين فني الرواية والدراسة من علم التفسير، (دار الفكر)، ج ٥ ، ص ٢٤٢ .

(٣) الطبري ، جامع البيان ، ج ٢٨ ، ص ١٤٠ .

(*) فَوَعِكَتْ : من الوَعَكَ أي الحُمَّى ، وقيل وَعَكَه المرض وَعَكَ (ابن الأثير (وعك)، ٢٠٧/٥)

(*) فوقى جُمَيْمَةً : كثر فصار جُمَيْمَةً ، والجُمَيْمَةُ تصغير الجُمَّة ، وهي ما سقط على المنكبين (ابن الأثير ، (جمم) ، ج ٣٠٠/٥) .

ماتريدُ بي، فأخذت يدي حتى أوقفْتُني على باب الدار، وإني لَأَنْهَجُ حتى سَكَنَ بعضُ نفسي ثم أخذت شيئاً من ماءٍ فمسحتُ به وَجْهِي ورَأْسِي، ثم أدخَلْتُني الدارَ، فإذا نسوةٌ من الأنصار في البيتِ، فقلن: على الخيرِ والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهنَّ، فأصلحن من شأني فلم يرُعني إلا رسول الله ﷺ صُحَيَّ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذٍ بنتُ تسعِ سنين»^(١).

وفي رواية عند الامام مسلم عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت سبع سنين . وَزَفَّتْ إليه وهي بنت تسع سنين وَلُعِبَهَا معها، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة)^(٢).

وباختصار فالقرآن الكريم والسنة النبوية قد وجها إلى الزواج لمبكر للفتى والفتاة وقد استنتج الإمام البخاري ذلك في تبويبه لكتاب النكاح فجعل فيه باباً بعنوان (إنكاح الرجل ولده الصغار لقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ لَمْ يَحْضَنْ﴾ فجعل عدتها ثلاثة أشهر قبل البلوغ)^(٣).

والرسول ﷺ يوجه الأمر إلى الشباب بالزواج قائلاً ومخاطباً ﷺ «يامعشر الشباب من استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوج فإنه أَعْظُ للبصرِ وأَحْصَنُ للفرجِ، ومن لم يستطعَ فعليه بالصَّوم فإنه له وَجَاءُ»^(٤).

وقد ذكر العلماء أن سن الشباب من لدن البلوغ اثنتان وثلاثين سنة^(٥).

وقد زوج رسول الله ﷺ بناته كلهن وهن صغيرات السن - رضي الله عنهن وأرضاهن، فزينب رضي الله عنها ولدت قبل البعثة بعشر سنين، وهاجرت إلى المدينة وحدها دون زوجها أبو العاص بن الربيع، حين أمره رسول الله ﷺ بفراقها.

(١) البخاري، الصحيح، م ٢، ج ٤، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، ص ٣٠٣، ج (٣٨٩٤)؛ مسلم، الصحيح، م ٢، كتاب النكاح، باب تزويج الأب البكر الصغيرة، ص ١٠٣٨، ج (١٤٢٢).

(٢) مسلم، الصحيح، ج ٢، كتاب النكاح، باب تزويج الأب البكر الصغيرة، ص ١٠٣٩، ج (١٤٢٢).

(٣) صحيح البخاري، م ٣، ج ٦، ص ١٦٣.

(٤) سبق تخريجه ص ٦٨ من هذا البحث.

(٥) انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج ٩، ص ١٠٨.

ورقية* وأم كلثوم* - رضي الله عنهما - أصغر منها زوجها رسول الله ﷺ من ابني أبي لهب -تبت يداه- فلما بعث رسول الله ﷺ أمرهما أبوهما (أبو لهب -تبت يداه) بطلاقهما رضي الله عنهما^(١).

وتزوجت فاطمة أصغرهن رضي الله عنها وسنها خمس عشر سنة وخمسة أشهر -وقيل أقل من ذلك- وكان سن علي* رضي الله عنه إحدى وعشرين سنة^(٢). وكذلك فقد تزوج أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما وكانت صغيرة السن^(٣).

وقد دل القرآن الكريم على أن اليتيمة التي في الحجر تزوج قال تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبْعٍ﴾ (سورة النساء-آية ٣).

قالت عائشة رضي الله عنها هذه الآية الكريمة ، نزلت في اليتيمة تكون عند الرجل وهي ذات مال فلعله ينكحها لمالها ، وهي لاتعجبه ، ثم يضربها ويسيء صحبتها^(٤) وكذلك اليتيم إذا بلغ النكاح صار راشداً قال الله سبحانه ﴿وَابْتََلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ (سورة النساء-آية ٦).

(*) رقية بنت سيد البشر محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمية هي زوج عثمان بن عفان ، وأم ابنه عبد الله ، وكانت أولاً عند عتبة بن أبي لهب ، فلما بعث النبي ﷺ أمر أبو لهب ابنه فطلقها ، وهاجرت مع زوجها ، عثمان بن عفان إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، ومرضت بها لما خرج النبي ﷺ إلى بدر ، فتخلف عليها عثمان ، عن بدر فماتت يوم وصل زيد بن حارثة مبشراً بوقعة بدر ، رضي الله عنها وأرضاها . (الإصابة ٣٠٤ / ٤ ؛ الاستيعاب ٢٩٩ / ٤).

(*) أم كلثوم بنت سيد البشر رسول الله ﷺ تزوجها عثمان رضي الله عنه بعد موت أختها رقية رضي الله عنها ، وكان عتيبة بن أبي لهب قد تزوجها قبل البعثة ، فلما بعث النبي ﷺ أمره أبوه بفراقها ، فتزوجها عثمان سنة ثلاث للهجرة ، ولم تلد له هاجرت إلى المدينة مع أختها فاطمة ، وتوفيت عند عثمان في شعبان سنة تسع من الهجرة رضي الله عنهم . (الإصابة ٤٨٩ / ٤ ؛ الاستيعاب ٤٨٦ / ٤).

(*) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي أبو الحسن، أول الناس إسلاماً، تربى في حجر النبي ﷺ وشهد معه المشاهد كلها إلا عزوة تبوك، وكان أحلم الشورى الذين نص عليهم عمر رضي الله عنه، قال له رسول الله ﷺ : لا يحبك إلا مؤمن ولا يغيظك إلا كافر . وزوجه النبي ﷺ ابنته فاطمة -رضي الله عنها- وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أولكم وروداً علي الحوض أولكم إسلاماً؛ علي بن أبي طالب . وقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين ثم آخى بين المهاجرين والأنصار وقال في واحدة منها لعلي : أنت أخي في الدنيا والآخرة - ومناقبه كثيرة حتى قال الإمام أحمد : لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي ، وكان قتله في ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر رضي الله عنه . (الإصابة ٥٠٧ / ٢ ؛ الاستيعاب ٢٦ / ٣).

(١) انظر: ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٤ ، ص ٢٩٩ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤٩٠ .

(٤) تفسير الطبري ، م ٣ ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله : (بلغوا النكاح) عند الحلم^(١) والذي يبدو- والله تعالى أعلم أن في هذه الآية الكريمة تنبيهاً إلى أن أول سن النكاح هو سن البلوغ ، أو ما يدل على أماراته من إنبات شعر وتغير صوت وغيره .

فالله سبحانه وتعالى يختار لعباده ما يصلح حالهم ، فهو سبحانه العليم بما خلق ، وكل إعراض عن سنن الله سبحانه الفطرية هو تعرض للهلاك ، وقد توصل العلم الحديث إلى الكيفية التي تعمل فيها الغدد في الإنسان ، وأثرها في سلوكه فغدد الجسم كلها بما فيها الغدد التناسلية ، تخضع للغدة النخامية الواقعة في أسفل المخ في حفرة قاع الجمجمة ، وتقع ملكة الغدد هذه تحت تأثير منطقة هامة بالمخ تدعى تحت المهاد^(٢) وهي التي تتحكم في الغدد التناسلية في مراحل العمر .

«ولاتزال هذه المنطقة (المهاد) من المخ ترسل أوامرها إلى ملكة الغدد في أثناء الطفولة تمنعها من إرسال هرموناتها المنشطة والمغذية للغدد التناسلية حتى إذا قدر الله أن يبلغ الفتى أو الفتاة أمر هذه المنطقة من المخ أن توقف رسائلها المثبطة للغدد النخامية ، فتتوقف تلك الرسائل فوراً ، وعندئذ ينطلق العقال الذي كان يكبت الغدة النخامية ويكبح جماحها فتعلم أنه قد آن الأوان أن ترسل هرموناتها المنشطة لغدد التناسل فتفعل ذلك سريعاً ، وهذه الهرمونات ليست إلا رسلاً كيماوية تنتقل عبر الدم من غدة إلى أخرى ، أو من غدة إلى بقية الجسم ، وتؤثر فيه تأثيراً شديداً»^(٣) .

ومن المعلوم أن بلوغ الأثنى يسبق الذكر وليس هذا فحسب بل إن البويضات تشيخ وتكبر مع كبر الأم ذلك أنه حين تولد الطفلة الصغيرة يكون : «المبيضان عندها يحتويان على ما يقرب من (٢٥٠٠ و ٢٥٠) من أمهات البيض ، يصل إلى النضج منها حوالي ٣٥٠ بويضة وذلك عندما تبدأ في سن النضج الجنسي ، وحتى مرحلة سن اليأس والتي عندها يقف تكوين البويضات الناضجة ، وتتكون كل بويضه ناضجة خلال كل دورة حيضية ٠٠٠ أي مرة كل شهر ، وبلوغ ونضوج هذه البويضات محكم ومنضبط بتوجيه الهرمونات الجنسية»^(٤) .

(١) المرجع السابق ، م ٣ ، ج ٤ ، ص ٢٥٢ .

(٢) انظر : د محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٨ .

(٣) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) د صالح عبد العزيز كريم ، المدخل إلى علم الأجنة الوصفي ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار المجتمع ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، ص ١٦٧ .

ولكن الأعجب من ذلك أن الخلايا فى البويضات تبدأ بعملية الانقسام والنمو والطفلة جنين فى بطن أمها ، ذلك : «أن الانقسام الاختزالي فى الخلايا الجرثومية التناسلية عند الرجل لا يبدأ إلا عند البلوغ ، ويحتاج إلى إتمامه ثلاثة أسابيع على الأكثر بينما الانقسام الاختزالي للمرأة يبدأ وهي بعد جنيناً فى بطن أمها ولا يكتمل إلا بعد الزواج ، وعند وجود الحيوان المنوي الذي سيلقح البويضة ، وآخر البويضات خروجاً أي قبيل سن اليأس مباشرة يكون قد مضى عليها خمسون عاماً منذ ابتداء انقسامها الاختزالي»^(١) .

ويقول الدكتور ستانوي فى كتابه «لبن الأم هو الأفضل» : «إن الجهاز التناسلي عند المرأة يبقى لفترة (١٢-١٥) سنة (حتى تبلغ سن الطمث) غير قادر على إنجاب أول طفل وإننا إذا ما قررنا منع هذا الجهاز من الإنجاب فإننا سوف نعرض نساءنا لمشاكل كثيرة ، وبالطبع فإن الجواب المثالي هو أن تعود النساء إلى النموذج الطبيعي للتناسل»^(٢) .

بل إن الأعجب من ذلك أن رحم الأنثى الجنين يتضخم تحت تأثيرات الحمل، ثم لا يلبث أن يضم بعد ذلك ، حتى سن البلوغ كما جاء فى كتاب القرار المكين «القصد والتخطيط للمستقبل واضحان هنا وضوح الشمس ، فهذه النطف تشتق فى مرحلة النطفة الأمشاج ثم تحفظ فى غدد (المبيضين) قد هيئت لها لتستعمل فقط بعد البلوغ ، وهذا الرحم يخلق فى طور العلقه ، ثم تجرب استجابته للهرمونات ويدرب عليها أثناء بقية الحمل ، ثم يبقى هاجعاً يستعمل فقط بعد ١٣-١٥ سنة بعد البلوغ ، فإذا انتهت مهمته فى سن اليأس (٤٥-٥٠ سنة) ضمير كثيراً إلى ما يشبه التلاشي»^(٣) .

يستدل مما سبق على أن الزواج المبكر للشباب -وأخص الشبابات -هو خير كله من جميع النواحي يقول الدكتور الكسيس كاريل : «إن النساء من بين الثدييات ، هن فقط اللائي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنتين ، كما أن النساء اللائي لم يلدن ، لسن متزنات توازناً كاملاً كالوالدات ، فضلاً عن أنهن يصبحن أكثر عصبية»^(٤) ، ويعلل ذلك قائلاً « إن وجود الجنين الذي تختلف أنسجته اختلافاً

- (١) د . محمد على البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ١٧٤ .
- (٢) د . حسان شمسي باشا، الرضاعة من لبن الأم ، الطبعة الأولى ، (جدة : مكتبة السوادي، ١٤١١هـ-١٩٩٠م) ص ٢٤ .
- (٣) القرار المكين ، ص ٣٣-٣٤ .
- (٤) الكسيس كاريل ، الإنسان ذلك المجهول ، تعريب شفيق أسعد فريد ، (بيروت : مكتبة المعارف، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م) ص ١١٠ .

كبيراً عن أنسجة الأم بسبب صغرها ، ولأنها جزءاً من أنسجة زوجها تحدث أثراً كبيراً في المرأة . إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن إلى درجة كافية ، مع أن أهمية هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة «^(١)» .

ثم إن الزواج المبكر يقي المرأة من الأمراض ، يقول الدكتور ستانوي : «إن على المرأة من الناحية البيولوجية أن تبدأ الحمل خلال سنوات قليلة بعد سن البلوغ، فقد تبين أن إنجاب المرأة لأول طفل من أطفالها في سن مبكرة تحت العشرين هو أحد أهم وسائل الوقاية من سرطان الثدي»^(٢) .

فالله سبحانه وتعالى قد هيا المرأة فطرياً للحمل والإنجاب وماينتج عنه من رضاع ، فإذا عطلت هذه الأعضاء لفترة طويلة فإنها قد تضر وتفقدها وظيفتها الحيوية ، لتتحول إلى أدواء مستعصية .

يقول الدكتور كاريل : «كلما زاد عمل العضلة كلما زاد نموها لأن النشاط يقويها بدلاً من أن يؤدي إلى استهلاكها ، ذلك لأن أي عضو في جسم الإنسان يضر إذا لم يستعمل ، فإن من المعلومات الأولية التي اكتسبت بالملاحظة أن الوظائف الفسيولوجية والعقلية تتحسن بالعمل وإن بذل الجهد أمر لامعدي عنه حتى يبلغ الفرد أقصى درجات النمو»^(٣) .

قام أخصائي في أمراض النساء والولادة (اسمه ديفيد هارتلي) في مستشفى أبها العسكري ، ببحث قارن فيه حالات حمل وولادة في سن ١٢ سنة إلى ١٧ سنة وهو مايعتبر زواجا مبكراً جداً ، وحالات حمل وولادة . في سن عشرين سنة إلى سن ٢٥ سنة ، وهو مايعتبر زواجا مبكراً عادياً ، فوجد أن حالات الحمل المبكر جداً كانت مشاكلها أقل من حالات الحمل المبكر العادي^(٤) .

والمقارنة مع حالات الحمل والولادة من زواج متأخر أي سن الثلاثين فما بعدها ، توضح بجلاء مدى الفرق الشاسع بين الزواج المبكر والزواج المتأخر ، إذ أن

(١) المرجع السابق ، ص ١١٠-١١١ .

(٢) د . حسان شمسي باشا، الرضاعة من لبن الأم ، ص ٢٤ .

(٣) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢٥٦ .

(٤) انظر : د . محمد علي البار ، تيه العرب وتيه بني إسرائيل ، الطبعة الأولى ، (جدة : الدار السعودية ١٤٠٩ هـ-١٩٨٨ م) ص ٢٤١ ، نقلاً عن المجلة الطبية السعودية، عدد أبريل، ١٩٨٠ .

الزواج المتأخر يؤدي إلى مجموعة كبيرة جداً من الأمراض الخلقية في النسل كما يؤدي إلى زيادة في مضاعفات الحمل والولادة^(١)، حيث تتضاعف هذه المشاكل للمرأة التي تحمل لأول مرة في سن الثلاثين - فما بعدها - كمرض تسمم الحمل الذي يؤدي إلى ارتفاع شديد في ضغط الدم مما يؤثر على الكلى ، مما قد يعرض حياة الأم والطفل للخطر أو كليهما ، أو التعرض للعملية القيصرية لإخراج الجنين من بطن الأم^(٢) إلى غير ذلك من المضاعفات .

وإن تأخير سن الزواج لا يتقصر ضرره على الأم نفسها بل يتعدى ذلك إلى أولادها ، فقد ذكر كتاب أساسيات علم الوراثة أن الأمهات كبار السن قد يتعرض أولادهن للإصابة بأحد مرضين هما : تشوه العمود الفقري ونقص تكون المخ وعظام الرأس^(٣)، وكذلك فإنه ذكر : (أن نسبة الإصابة ب(مرض داون)* تزيد في حالات الأمهات المتقدمة في السن ، ففي الأمهات فوق سن الأربعين يصل الاحتمال في الإصابة (٢٥/١)، وبالتقريب نصف هذه النسبة يكون من زيادة صبغى ٢١، ونصفها الآخر من احتمال تكون شذوذ فى أي صبغى آخر ، ٠٠٠ واحتمال الإصابة ينقص إلى النصف في الأمهات بين ٣٥-٤٠^(٤)، والسبب هو كهولة البويضة الناتجة التي بدأت اختزالها وعملها منذ كانت الأم جينياً فى بطن أمها .

يقول الدكتور آلان إمري أستاذ علم الوراثة بجامعة أدنبرة : من العوامل المؤثرة فى الانقسام الصبغى واختلاله تأخير إخصاب البويضة ، فقد وجد أن تطويل فترة الإخصاب عند الحيوانات ينتج أجنة عددها الصبغى زائد أو ناقص ، وهذا يوضح علاقة مرض(داون)بالعمر لدى المرأة في حالة سلامة الأم من مرض وراثي^(٥) بل إن هذا الاختلال في الصبغيات حاصل عند الذكر والأثني حيث تصاب الخلايا

(١) انظر : د . محمد علي البار ، تيه العرب وتيه بني إسرائيل ، ص ٢٤١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

(٣) انظر : د . آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة ، تعريب د. أحمد الكباريتي ، (الكويت : مركز الإستشارات الوراثية ، جامعة الكويت) ، ص ١٧٠ .

(*) مرض داون : أو المغولية ، ويتميز هذا المرض بالتخلف العقلي والعتة ، ويكون شكل وجه الطفل يشبه إلى حد ما وجه المغول ، ولهذا سمي بالمغولية ، واستبدل هذا الاسم باسم متلازمة دوان (الطبيب الذي اكتشف هذه الحالة) . انظر د . محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ١٨٨ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

الموجودة فى الخصية (عند الرجل) بالشيخوخة المبكرة، كلما تقدم بها العمر وكذلك البيضة^(١)

بالاضافة إلى ذلك فإن من مضار تأخير الزواج أنه يسبب العقم عند النساء فقد ذكرت مجلة الصحة أنه : (ترداد احتمالات العقم إلى حد ما مع تقدم سن المرأة قبل الزواج ، فالمرأة التي يتراوح سنها بين ٣٠-٣٤ سنة تتعرض للعقم بمعدل سيدة من كل سبع زوجات فى نفس العمر ، وكذلك سيدة من كل أربع زوجات ممن تتراوح أعمارهن بين ٣٥ ، ٣٩ سنة^(٢) .

ولا يخفى أن الاسلام قد رغب فى النسل والتكاثر لما فى ذلك من قوة للمسلمين أمام أعدائهم ، ولا شك أنه من أسباب القوة التي أمر المسلمون بإعدادها، قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (سورة الأنفال - آية ٦٠) .

إن الزواج المبكر يعطي الأمة أجيالاً فتية حيث تتقارب المسافات الزمنية والفكرية بين الآباء والأبناء ، وما ينتج عن ذلك من روابط الالتئام الاجتماعي والثقافي ، فالأم التي تنجب أولادها في مرحلة الخصوبة أي الشباب ، تكون قد أثرت الإسلام والانسانية بأبناء على الغالب أقوىاء الأجسام صحاح العقول ، وقد ذهب إلى ذلك الكسيس كاريل فقال : (وكلما قصرت المسافة الزمنية التي تفصل بين جيلين كلما كان تأثير الكبار الأدبي على الصغار أكثر قوة ، ومن ثم يجب أن تكون النساء أمهات في سن صغيرة حتى لاتفصلهن عن أطفالهن ثغرة كبيرة لايمكن سدها حتى بالحب)^(٣) .

وبالاضافة إلى هذا فإن من مميزات الزواج المبكر أنه يقضي على الفساد في المجتمع ، لأنه يتناسب مع فطرة الإنسان الطبيعية ومراحل نموه .
ومن هنا فإنه يجب ألا يغض الطرف عن المشاكل التي تحصل في المجتمع ، لاسيما مع توفر وسائل الاتصال والإعلام في هذا العصر .

(١) انظر : د . البار ، تيه العرب وتيه بني إسرائيل ص ٢٤٠ .

(٢) آفاق جديدة لعلاج العقم ، منظمة الصحة العالمية ، جنيف ، المنظمة العالمية للوقاية والعلاج ، جنيف ، مؤسسة الجزيرة ، بيروت : العدد ٤٧ ، ص ٣٥ .

(٣) الكسيس كاريل ، الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢١٥ .

وكان لابد من فتح باب الزواج المبكر سواء للفتى أو الفتاة وتيسير سبل ذلك حماية للأخلاق، وصيانة للأعراض، وحفظاً لطاقت الشباب العاطفية، والنفسية، والبدنية، وقد أسفرت دراسة ميدانية للمجتمع السعودي حول سن الزواج عن أن السن المفضل لذلك هو ما بين ٢٠-٣٠ سنة^(١) وقد يعزى السبب في ذلك إلى عامل التعليم حيث يستهلك مرحلة طويلة من عمر الشباب، وإلى التغالي في المهور والتكاليف، ولهذا فقد رأى مجلس هيئة كبار العلماء في الرياض أن يمنع الإسراف وتجاوز الحد في ولائم الزواج ومعاقبة من أسرف في ذلك، وأنه ينبغي الحث على تقليل المهور، وعلى القادة في المجتمع الإسلامي أن يسارعوا إلى التنفيذ^(٢).

إن ظاهرة تفشي العنوسة في المجتمع الإسلامي، لا يمكن إنكارها أو التغاضي عنها، وقد ذكر الرسول الله ﷺ ما ينتج عن الإعراض عن الزواج في المجتمع من مفسد ومشاكل فقال ﷺ «من أشراط الساعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء ويقل الرجال؛ حتى يكون لخمسین امرأة القیم الواحد»^(٣).

إنني كطالبة في الجامعة لابد لي أن أذكر مالمسته من تأخير الزواج ففي المجموعات التي تبلغ الواحدة منها خمسين طالبة يكون بينهن على الغالب خمس طالبات متزوجات فقط أي ١٠% وبالتالي يجدر بالمسؤولين أن يجدوا الحلول الناجعة لهذه المشكلة، وأن ينتبهوا إلى المشاكل الأخلاقية والاجتماعية الناتجة عن ذلك ولاسيما والأقمار الصناعية تنقل إلى العالم أجمع من كل الثقافات جيدها وورديتها، رذيلها، وفاضلها، حسننها وسيئها، وكذلك فإن طول مدة العزوبة قد تجعل المرء ذكراً أو أنثى يعرض عن الزواج وذلك لما يجده في الزواج من مشاكل وتعقيدات، ولما قد يمر به هو خلال هذه الفترة من أزمات نفسية أو عاطفية أو اجتماعية، أو أخلاقية فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وكل علاقة نفسية مهما كان نوعها في حياة المرء لابد وأن تترك بصماتها التي لاتمحى في النفس، جاء في كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام»: (إن كل علاقة نفسية تنفصم هي جرح في القلب تنزف منه

(١) انظر أبو بكر باقادر، الآثار الاجتماعية والاقتصادية لهجرة العمالة في البلدان النفطية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (الرياض، جامعة الملك عبد العزيز كلية الآداب)، المجلد الرابع ص

(٢) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء بالملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، ص ٤١٠-٤١٣.

(٣) البخاري، الصحيح، م، ١، ج، ١، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، ص ٣٣، ح (٨١)؛ مسلم، الصحيح، ج، ٤، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن، ص ٢٠٥٦، ح (٢٦٧١) بنحوه.

الدماء وقد يجف الدم ويندمل الجرح ولكنه هيهات أن يزول ، ولن يكون قط عالماً بالنفس ذلك الذي يقول : إن علاقة ما يمكن أن تنتهي دون أن تترك وراءها العقابيل في الشعور أو في اللاشعور، بحيث تظل موجودة أبداً ولو زالت كل ملابساتها، من الوجود فكيف بالذي يتلقى كل حين طعنة، وتنزف كل حين من قلبه الدماء»^(١)، وهذا ما حدث في المجتمع الغربي وغيره من المجتمعات التي تبيح الاختلاط ، أو تمنع سبل الزواج، وتعقدها ، فيفقد الرجل الثقة بجميع من حوله من النساء، وتفقد المرأة الأمان الذي تنشده بجوار زوجها ، فيعيش كل منهما بعيداً عن الآخر ويعزفان عن الزواج، ويكون الدمار والخراب بكل صورته بدءاً بالتحلل الخلقي من واجب ومسؤولية وخوف من الله سبحانه، وانتهاء بالأمراض والأوبئة والتحلل الجسدي البطيء كالإيدز .

وبالتالي فإنه مما ينبغي أن يذكر أن سن البلوغ قد انخفض في الولايات المتحدة وأوروبا بمعدل ثلاثة أشهر لكل عقد من الزمن ، وأنه انخفض بمعدل سنتين ونصف منذ بداية القرن العشرين ، نتيجة لما يسمى بالثورة الجنسية التي تبثها أجهزة الاعلام ، وتراخي النظرة الاجتماعية بالنسبة للعلاقات الجنسية ، وغياب سلطة الوالدين ، والبلوغ المبكر^(٢) .

«وقد أوضحت الاحصائيات زيادة متسارعة في النشاط الجنسي للفتيات غير المتزوجات في سن المراهقة ، وقد زادت نسبة النشاط الجنسي لهؤلاء الفتيات المراهقات (١٥-١٩ سنة) بنسبة ٦٤ بالمائة في الفترة من عام ١٩٧١ إلى ١٩٧٩م»^(٣) .

ومن يدري قد تكون كل التطورات موجودة في المجتمع العربي والاسلامي، والحقيقة أن بعضاً منها حاصل وموجود فقد ذكرت دراسة ميدانية أن ظاهرة حمل

(١) محمد قطب ، الطبعة الثانية ، (بيروت : دار الشروق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) ص ١٨٣ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٤١ .

(٣) د . محمد علي البار، سياسية ووسائل تحديد النسل في الماضي والحاضر ، الطبعة الأولى، (بيروت: مكتبة العصر الحديث ، ١٤١٣هـ - ١٩٩١م) ص ١٤٠-١٤١ .

الأمهات (غير المتزوجات) تقع أعمارهن في مرحلة المراهقة المبكرة^(١) ، والإشارة تكفي عن البيان!؟ .

والجدير بالذكر أن ظاهرة حمل المراهقات في أمريكا غدت بنسبة عالية ، ففي عام ١٩٨٢ تم حمل أكثر من مليون فتاة ما بين سن الخامسة عشرة والتاسعة عشرة، انتهت نصفها إلى الولادة ، والباقي إلى الإجهاض التلقائي أو المتعمد^(٢) .

وأخيراً لاأملك إلا أن أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجنب المسلمين هذه الكوارث وأن يلهمهم الصواب في الاستجابة لنداء الفطرة وفق ما أحل الله سبحانه عاملين بقوله تعالى : ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور-آية ٣٢) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (سورة محمد-آية ٢٢) .

إن سن التكليف في الإسلام هو خمس عشرة سنة فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد في القتال وأنا ابن أربع عشرة سنة "فلم يَجْزِنِي" وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة "فأجازني")^(٣) .

قال نافع* رحمه الله : (فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ خليفة فحدثته هذا الحديث ، فقال : إن هذا لحدٌ بين الصغير والكبير ، فكتب إلى عمّاله أن يفرضوا لمن كان ابن خمس عشرة سنة ، ومن كان دون ذلك فاجعلوه في العيال)^(٤) .

(١) د . مصطفى رزق مطر ، تنظيم وإدارة مؤسسات الرعاية والتنمية الاجتماعية من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٧م) ص ٢٠٩ .

(٢) د . محمد على البار ، المرجع السابق .

(*) نافع الفقيه مولى ابن عمر رضي الله عنه أبو عبد الله المدني ، قال الإمام البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر كان رحمه الله من أئمة التابعين ، بالمدينة وكان يحدث عن ابن عمر رضي الله عنه ، وهو من أصل فارسي على الأرجح ، توفي رحمه الله سنة تسع عشرة ومئة .

(سير ٩٥/٥ ؛ تهذيب ٤١٢/١٠) .

(٣)، (٤) مسلم ، الصحيح ، ج ٣، كتاب الإمارة ، باب بيان سن البلوغ ، ص ١٤٩٠ ، ح (١٨٦٨) .

إن نظام التعليم الحالي ، والقيود التي وضعها المجتمع على الزواج ، قد حالت دون تكوين الأسرة وإنجاب الذرية في وقت مبكر لكلا الجنسين فشتان بين أن ينتظم المرء في أسرته وهو ابن ثلاثين وبين أن يصبح أباً ومسؤولاً وهو في ربيع الشباب وتفتح العقل وتوقد الذكاء والتفكير ، إن البدايات لسن الشباب تحمل معها كل الآمال والتطلعات والأفكار والأحاسيس والمواهب ، وإن هذه القدرات لو استغلت في تكوين الأسرة وإعداد الذرية لكان لها حصيلتها ومردودها الذي ينعكس خيراً وبركة وتجديداً وعطاءً على المجتمع بأسرة .

هذا عدا عما يقدمه الزواج المبكر من حل لمشكلة الغريزة عند الشباب وقد عرض لهذه المشكلة وحلها فضيلة الشيخ علي الطنطاوي - أمد الله في عمره - ويبحث أسبابها ونتائجها^(١) .

إن الدين الإسلامي هو دين الفطرة والواقع، فهو لا يطلب من الناس أن يكونوا ملائكة، لاسيما وأن القليل من الناس من قد يسمو بمشاعره إلى المثالية في بعض الأحيان - لظرف ما، أو لفكرة ما، أو هدف يريد تحقيقه - أما العامة من الناس وهم الغالبية في المجتمع، فلا بد من تقديم الحل العملي لهم وهو تحقيق الزواج بعرضه الحل العملي الناجع والناجح للبعد عن الفاحشة، وعدم الوقوع في المعصية .

يقول الأستاذ محمد قطب «تلك هي طريقة الإسلام في تهذيب النفوس ، فهو لا يعظهم على المنابر وإنما يقدم الحلول العملية للمشاكل ، ثم يجعل الوعظ متمماً للحل العملي ، وباعثاً على الوصول به إلى النتيجة المطلوبة .

ولكن هذا الحل يبدو اليوم في حكم المستحيل ! هكذا يقول الذين لا يتصورون الأشياء إلا كما يرونها موجودة أمامهم في هذا الجيل !»

فهم يرون في معظم أجزاء العالم نظاماً اقتصادياً معقداً ، ولا يتيح للفرد أن يتكسب إلا بعد فترة طويلة من التعليم والمرانة ، وحتى بعد ذلك فإن كسبه لا يكاد يكفي لضروراته ، فضلاً على إنشاء أسرة ومواجهة تكاليفها المتزايدة^(٢) .

« ويرون نظاماً تعليمياً معقداً لا يتيح للطالب أن يتخرج في سن مبكر إذا أراد أن يحصل على شهادة محترمة ، تهيء له بعد الجهد المضني هذا الكسب

(١) انظر : مع الناس، الطبعة الثانية ، (جدة : دار المنارة ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) ، ص ٨٢-٨٦ ، ص ٢٠٣-٢٠٥ .

(٢) انظر : الإنسان بين المادية والإسلام ص ٢١١ .

الضيئل ، ولاتتيح له هذه الدراسة بنظامها المعقد ، أن يعمل في أثناء الدراسة ، ليحصل على شيء من الكسب .

ويقولون غير ذلك : إن الفتى لا يستطيع أن يدرس ويتزوج في آن واحد ، فلامناص من تأخير الزواج إلى مابعد التخرج ، ثم تأخيره إلى مابعد الحصول على عمل ، ثم إلى مابعد القدرة على توفير مبلغ صالح للزواج والإنفاق .

بل يقولون ليس من المصلحة أن يتزوج مبكراً قبل أن تصقله التجارب فيعرف كيف يختار ، وكيف يحتمل التبعة ، وكيف يربي أولاده . الخ . فإذا كانت الأمور كلها كذلك (فما الحل)»^(١) ؟

«الحل هو بتطبيق الإسلام كلية ، لا أجزاء متفرقة . . . وإن الإسلام ليس مكلفاً أن يصح للناس أخطاءهم ويحل لهم مشاكلهم إلا إذا حكموه جملة وتفصيلاً في حياتهم وعاشوا تحت ظله لاتحت ظل نظام أجنبي عنه ، له جهازه الخاص ومشاكله الخاصة فلايجوز ولايصلح أن ننتقي قطعة إسلامية بذاتها ، ونضعها بدل قطعة جاهلية في نظام جاهلي كامل . إنها بطبيعة الحال لن تصلح، ولن تحل المشكلة ، لا لأنها فاسدة في ذاتها ، ولكن لأنها من (مقاس) آخر ومفصلة على جهاز آخر ، يختلف عن غيره اختلافاً رئيسياً في الطريقة والأهداف»^(٢) .

لأن المجتمع المسلم الذي يقوم على الحكم بما أنزل الله - سبحانه - ، في كل شأن من شؤونه ، في كل صغيرة وكبيرة من أمره ، يستطيع بالتكافل الاجتماعي ، إن لم يستطع القيام بحق كل فرد من أفراد وأداء ماله من حقوق ، إنه يستطيع عن طريق التكافل الاجتماعي الذي أوجبه الإسلام على الأمة جميعها ، أن يسد هذه الفجوة في المجتمع ، فيوفر اللازم من المال لهذا الغرض .

قال الله تعالى : ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيِّمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور - آية ٣٢) .

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

قال الأستاذ المودودي رحمه الله في معنى هذه الآية (قد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الأمر في هذه الآية للندب ، ومعناه أن المسلمين عامة ينبغي أن يهتموا بعضهم ببعض ، حتى لا يبقى في مجتمعهم رجل ولا امرأة بدون نكاح فينبغي لأهل الأسرة والجيران والأصدقاء جميعاً أن يعيروا هذا الأمر كل اهتمامهم ، وأما من لم يكن له قريب ولا صديق ، فعلى الدولة أن تساعد على الإحصان بالزواج»^(١) .

ثم يتابع رحمه الله تفسير معنى قوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وليس معنى هذه الآية أن الله لا بد أن يغني من تزوج على فقره ، وإنما معناه أنه لا ينبغي أن يكون الفقر ، عائقاً في وجوه الناس عن الإقدام على الزواج ولا أن يكونوا عبيد الحساب في هذا الأمر . ففي ذلك تنبيه لذوي البنت على أنه إذا خطبها إليهم شاب صالح حسن السيرة والأخلاق ، فلا يأبوا إجابته لمجرد فقره ، وتنبيه لذوي الولد على ألا يرجئوا تزويجه لمجرد أنه لا يكسب كثيراً ، ووصية للشباب نفسه بأن لا يرجئ أمر زواجه انتظاراً للمزيد من الغنى واليسر^(٢) .

إن ما ذهب إليه الأستاذ المودودي - رحمه الله - في تفسيره للآية السابقة الذكر حق وصواب ، ولكنه لا يمنع من القول فيها بأن الزواج باب من أبواب الرزق ، كما ورد في السنة النبوية ، حيث أشارت الأحاديث إلى المعنيين معاً فلم يمنع الفقر من زواج صحابة رسول الله ﷺ ولو بخاتم من حديد ، وإنه كان دعوة وسبيلاً للغنى ، فنشأ جيل إسلامي فريد ، في عهده صلى الله عليه وسلم ، اتجه للخلافة والإعمار ولم تعد لتشغله حاجاته البيولوجية ، بل انطلق نحو تحقيق المثل العليا ، بعد أن تطهر المجتمع بأسره من مظاهر الانحراف والفاحشة والمعصية ، ولذا فالإسلام يدعو إلى «التبكير في طلب الزواج ، بمجرد الاستطاعة ، ويشهد الواقع الإسلامي بأن هذا كان حلاً ناجحاً للمشكلة الجنسية ، إلى حد أنه لم يحوج الناس إلى ارتكاب الجريمة ، لا لأنهم مكبوتون وممنوعون ، ولكن لأنهم واجدون فمستغنون»^(٣) .

« وقد كانت الأغلبية الساحقة من المسلمين لا ترتكب الخطيئة (أيام محمد بن عبد الله ﷺ) ، لا لأن الناس قد صارت ملائكة ، ولكن لأن دوافع الجريمة لم تعد موجودة ، واكتفى الناس بالزواج المبكر فلم يعودوا يشعرون بالحرمان»^(٤) .

(٢،١) تفسير سورة النور ، (جدة : الدار السعودية ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ص : ١٨٠ - ١٨١ .

(٤،٣) محمد قطب ، الإنسان بين المادية والإسلام ، الطبعة الثامنة ، (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣) ص ٢١٠ .

إن هذا الجيل من الصحابة ، كان نموذجاً مثالياً واقعياً ماشهد تاريخ البشرية ولا الإنسانية مثله ، فعمر الدين والدنيا ، وأقام خلافة الله سبحانه في أرضه . لقد تنبه الغرب إلى هذه القضية ، فحققوا للفرد ما يحتاج من حاجات وما يحتاجه من الشعور بالأمن والانتماء والتقدير ، مما جعل الإنسان عندهم - إن صحت التسمية - ينطلق لتحقيق ذاته وذلك بالعلم والعمل معاً ولكنه العلم اللاديني والعمل للإصلاح ، فدمروا الحياة ، وقتلوا الإنسان وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ومهما يكن من أمر فينبغي ألا نغض الطرف عما يحققه تأمين حاجات الفرد بمجموعها بديناً وعقلياً ونفسياً - من نجاح ومن خير للمجتمع ، مما يؤدي إلى ميلاد أمة وقيام حضارة^(١) والعكس بالعكس .

والنتيجة ! كيف حقق رسول الله ﷺ تربية ذلك النموذج من الأمة المسلمة ! لقد قام ﷺ على رعيته خير قيام فتفقد حاجاتها من طعام وشراب ومسكن وملبس وتعلم وزواج ، إنه لم يدع ﷺ صغيرة ولا كبيرة من أحوال الناس إلا وأوجد لها الحل . أما مشكلة الزواج فقد قدم ﷺ لها المال اللازم حيث كان ﷺ إذا أتاه فيء قسمه من يومه فأعطى الأهل حظين ، وأعطى العزبَ حظاً واحداً^(٢) . وكان هذا حاله ﷺ في كل مال يأتيه .

وسار الخلفاء الراشدون - رضي الله عنهم - على سنة رسول الله ﷺ ، فيوزع عمر - رضي الله عنه - المال على الناس فيعطي المتزوج ضعف الأعزب^(٣) . ويكتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - إلى عامله : أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه ، فزوجه وأصدق عنه^(٤) .

ويمتد العطاء إلى الذرية كما كانت سنة رسول الله ﷺ ، فيفرض عمر - رضي الله عنه - المال للمواليد قبل الفطام وبعده^(٥) ، ويتفقد عثمان - رضي الله عنه -

(١) انظر د. ماجد عرسان الكيلاني، الأمة المسلمة مفهومها - إخراجها - مقوماتها، (عمان : المكتبة الوطنية، ص ١٤٩ - ١٥١) وانظر سلم الحاجات الذي وضعه إبراهيم ماسلو.

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، تعليق محمد خليل هراس ، (القاهرة : دار الفكر ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م) ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٣ ص ٣٥٧ .

(٥) انظر المرجع السابق ج ٢ ، ص ٣٣٨ .

المواليد الجدد فيفرض لهم من العطاء • ويعطي علي - رضي الله عنه للعيال ولذي العيال فرضهم من المال^(١).

وهكذا فالإسلام لم يقدم المال للزواج فحسب ، بل أمن حاجات الأبناء والذرية والأفراد بكل مراحلها من الولادة حتى الشيخوخة ، إن عدم الإنسان المال اللازم لتحقيق ما هو ضروري ولازم للحياة •

فقد روى الإمام أحمد* عن المستورد بن شداد* رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، وما أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غلول»^(٢) •

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران - آية ١٦١) •

وأخيراً ••• فلا بد من الاعتراف بأن ضرر تأخير الزواج ومساوئه ، يقع أكثرها على البنت ، وعلى حسابها ، كما بين البحث ، وكما يشته الواقع المشهود ، لأن الأمومة هي وظيفة المرأة الأولى والأخيرة ف «البنت مهما بلغت من المنزلة والغنى والشهرة والجاه ، لاتجد أملها الأكبر ، وسعادتها إلا في الزواج في أن تكون زوجاً صالحاً ، وأماً موقرة ، وربة بيت ، سواء في ذلك الملكات والأميرات ، فالزواج أقصى أمانى المرأة ولو صارت عضوة البرلمان وصاحبة السلطان»^(٣) •

(١) انظر : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٣٩ •

(*) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد إدريسي الشيباني ، أبو عبدالله أحد الأئمة الأعلام وشيخ الإسلام ، طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقال عنه الإمام الشافعي : خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل وامتحن في أمر خلق القرآن أيام المعتصم بالله امتحاناً شديداً وحبس على ذلك وكان رحمه الله عفيفاً لا يقبل الهدية ولا الصدقة مع شدة فقره ، وتوفي في الأول من ربيع الأول يوم الجمعة سنة إحدى وأربعين ومئتين (السير ١١/١٧٧ ؛ ط ابن سعد ٣٥٤/٧ ؛ تهذيب ٢٢/١) •

(*) المستورد بن شداد بن عمرو بن جبل بن لاجب القرشي الفهري المكي نزيل الكوفة وله ولأبيه صحبة وشهد فتح مصر وتوفي بالاسكندرية سنة خمس وأربعين (الإصابة ٤٠٧/٣) •

(٢) المسند ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ •

(٣) الشيخ علي الطنطاوي ، يابني ويابنتي ، الطبعة الثانية ، (جده : دار المنارة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ص ١٥-١٦ •

الباب الثالث

الأمومة والفطرة

هل الأمومة وظيفة فطرية أم مكتسبة ؟!

وهل يمكن اختلاط أو تبادل الأدوار بين الذكر والأنثى في الحياة ؟!
دون أن يؤدي ذلك إلى خلل في نظام الحياة الإنساني والمدني ؟!

هذا ما أراد البحث أن يثبته في هذا الباب من خلال الفصول التالية:

- الذكر والأنثى

- الفوارق الجسدية بين الذكر والأنثى وارتباطها بالأمومة .

- التكوين النفسي والعقلي عند المرأة وعلاقته بالأمومة .

- وظائف فيسيولوجية خاصة بالمرأة .

- نتيجة دعوى التماثل بين الذكر والأنثى .

الفصل التاسع

الذكر والأنثى

إن الدين الإسلامي هو دين الفطرة التي وجد الإنسان عليها في هذا «الكون» قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم-آية ٣٠) .

أي اتبع خلقه الله التي خلق عليها البشر فأنشأهم عليها ابتداءً^(١) قال الإمام الطبري في معنى هذه الآية : فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك مستقيماً لدينه وطاعته وفق صفة الله التي خلق الناس عليها بلا عوج عن هذه الحنيفية المستقيمة إلى اليهودية أو النصرانية وغير ذلك من البدع والضلالات^(٢) وقال القرطبي رحمه الله «أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف وهو فطرة الله الذي على الإعداده فطر البشر ، لكن تعرضهم العوارض»^(٣) فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق وهو عز وجل أعلم بمن خلق لأنه عز وجل هو ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (سورة الأعلى - آية ٣) فالكون بما فيه يسير وفق سنن ثابتة لا تتغير، الليل والنهار والشمس والقمر فلا يضطرب مسار الكون ولا يتغير محور الفلك ، وكذلك الخلق في الكائنات لا يتغير ما عليه أصلها وهو الذرة الموجبة والسالبة في أصغر أحوالها ، والذكر والأنثى في أسمى وأعلى صورها قال تعالى :

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ (سورة الليل آية ١-٤) «إن قدرة الله سبحانه وتعالى تدبر هذا الكون ليله ونهاره بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة ، وإن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضاً ولا يتركهم سدى ، كما أنه لا يخلقهم عبثاً»^(٤) وكذلك الحال في خلقه سبحانه وتعالى للذكر والأنثى ، إنه قانون الله سبحانه الذي لا يتخلف

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (فطر) ، ج ١٠ ، ص ٢٨٧ .

(٢) انظر : جامع البيان ، م ١١ ، ج ٢١ ، ص ٤٠ ، ٤٢ .

(٣) الجامع الأحكام القرآن ، ج ١٤ ، ص ٢٩ .

(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٩٢١ .

ف «يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات من قبيل المصادفة ، فلا يبقى إلا أن هنالك مديراً يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة»^(١)

«فقيم هذه الاختلاف في نهاية المطاف ؟ لماذا تتوافر هذه العوامل هنا ، وهذه العوامل هناك؟

وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكراً وصيرورة هذه أنثى ؟ هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى؟»^(٢) ما أبعد المسافة والاختلاف بين الليل والنهار ، وما أشد الحاجة إلى كليهما كل في زمنه، كذلك الحاجة إلى جهود الذكر والأنثى كل في موقعه فالحياة لا تقوم إلا بالتباين بين الذكر والأنثى في الشكل والمكان والوظيفة ، وإن كانا متحدتين في أصل الخلقة والنشأة ، مستأويين في الجزاء والمآل والمصير ، قال تعالى :

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء ، آية ١) وقد دلت الروايات على أن المراد بقوله تعالى : ﴿من نفسٍ واحدةٍ﴾ آدم عليه السلام، و ﴿خلق منها زوجها﴾ أي امرأته حواء التي هي الزوج الثاني لهذه النفس الأولى^(٣) يقول الأستاذ محمد قطب في تفسير هذه الآية « إن الزوجين - الرجل والمرأة - ﴿من نفسٍ﴾ واحدة ، والإشارة إلى النفس هنا ذات دلالة لا تخفى . إن المشاركة ليست في النوع الإنساني فقط ، ولكنها أخص من ذلك كثيراً، إنها مشاركة في (النفس) الواحدة ومن ثم يتشاركان في الكيان الإنساني الداخلي ، الذي تشير إليه لفظة

(٢،١) المرجع السابق .

(٣) انظر: ابن جرير الطبري ، جامع البيان ، م ٣ ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ .

(النفس) كما يتشاركان في الإطار الخارجي للإنسان^(١) ، فالذكر والأنثى هما كيان إنساني واحد من أصل واحد ومصيرهما ومألهاً واحد، كل بحسب ما يزكي هذه النفس ويرفعها بالأعمال الصالحات ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (سورة النساء-آية ١٢٤) وفي سورة آل عمران حين دعا المؤمنون ربهم ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آية ١٩٣-١٩٤) كانت الإجابة من الله عز وجل بالاستجابة للذكر والأنثى على سواء : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (آية ١٩٥) فجميعكم من أصل واحد على اختلاف حالكم لا تفضيل لأحد ، ولا مزية ، ولا فضيلة لذكر على أنثى في الاستجابة والجزاء . قال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة الاحزاب آية ٣٥) .

إنهما على درجة واحدة في العمل والجزاء ، فالخالق سبحانه وتعالى واحد والهدف الذي خلقا له هو عبادة الله سبحانه وتعالى، كل بحسب التقدير والخلق الذي جبل عليه ، صحيح أنهما من جبلة واحدة ، لكنهما ذوا طبائع مختلفة وظاهر مختلف في الشكل والخلقة ، وهذا الاختلاف حدد وظيفتهما في الحياة والدور الذي يؤديه كل منهما في إعمار الكون ، فهذه أم مريم العابدة الصالحة تناجي ربها قائلة

(١) التطور والشباب في حياة البشرية ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م) ص ١٩٤ .

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِذَا الذَّكَرُ
كَالْأُنْثَىٰ﴾ (سورة آل عمران آية ٣٦) .

فهني ولدتها أنثى ، وكانت تؤمل نفسها بولد لتهبه لخدمة بيت المقدس ، كما
نذرت لربها ، فإذا هي تضعها أنثى لا تصلح لهذا العمل لأن الذكر أقوى على
الخدمة وأقوم بها ، ولأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام
بخدمة الكنيسة لما يعتريها من الحيض والنفاس^(١) ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ وورد
التعبير بـ (ليس) للنفي العام المستغرق المراد به الجنس^(٢) ، بالتالي نفت ما تضمنته
الجملة من معنى في مساواة الذكر والأنثى ، هذه الجملة التي تضمنت اسمين فقط
(الذكر والأنثى) بهذا الإيجاز وبهذه البلاغة كان الإفصاح فيها عن حال الأنثى وأنها
ليست مثل الذكر ، لكن من يعلم أين الخير ، وفي أي منهما تكون السعادة ، وهل
أدل على هذا من أن مريم عليها السلام كانت آية من الله سبحانه للعالمين ﴿
وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾ (سورة الأنبياء آية ٩١) وقد دل على ذلك القرآن
في ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم بهذا المولود (مريم)
وما سيكون له من الشأن العظيم ، ولكن أم مريم عليهما السلام ، جاهلة بما
ولدت، وجاهلة بمستقبل هذا الذي وضعت وغير عالمة بالخير الذي حل معه ، والذي
لا تحدده الذكورة وإنما يحدده سمو الإنسان في جوهره في خلال ترقيه من الحياة
بنفخة الروح والأمانة التي وهبت له ، إن التزكية ليست بالذكورة ، وإنما بما يقدمه
هذا المخلوق من عمل صالح، وما يكون عليه من عبادة لله سبحانه وتعالى، تلك
العبادة التي تتمثل في طاعة الله عز وجل ، وأداء الأمانة على الصورة التي أرادها
سبحانه وتعالى فهذا هو التميز والتفاضل لاغير، أما غير ذلك من اختلاف يحدد
الذكر والأنثى في الشكل وطريقة التوجه في الحياة ، فهو مجرد دور في التخصص وفي
الأداء لاغير ، وقد أفاد الإمام الرازي في معنى قوله تعالى

(١) الطبري ، جامع البيان ، م٣ ، ج٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢) انظر السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، الإتيان في علوم القرآن ، وبهامشه
إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني ، (بيروت : المكتبة الثقافية) ج١ ، ص ١٧٥

﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ فقال رحمه الله : إن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان . . والذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى ، فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة . . والذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس ، وليس كذلك الأنثى . . وأن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى ، فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى^(١) وباختصار . . فقد ساوى الإسلام بين الذكر والأنثى في المنشأ والكرامة والمصير وفرق وفصل بينهما في الدور والوظيفة وأداء المهمة في الحياة ، وفق التكوين الخلقي ، الذي ركب عليه كل منهما ، فجعل لهما اسمان، الذكر والأنثى ولكل لفظ منهما معناه ومدلوله في أصل اللغة والبيان فما معنى الذكر والأنثى لغة؟! الذكر . . يقال قول ذكر : صلب متين^(٢) وداهية مُذكرٌ : شديدة والذَكَرُ والذَكِيرُ من الحديد : أيبسه وأشدّه وأجوده ، وهو خلاف الأنثى ، ورجل مُذكرٌ إذا كان قوياً شجاعاً أنفياً ألباً .

وقيل في عبدالله بن الزبير رضي الله عنه يوم استشهد : والله ما ولدت النساء أذكَرَ منه ، يعني شهماً ماضياً في الأمور^(٣) .

الأنثى . . خلاف الذكر من كل شيء ، ويقال هذه امرأة أنثى إذا مُدِحَتْ بأنها كاملة من النساء ، كما يقال : رجل ذَكَرٌ إذا وُصِفَ بالكمال ؛ ويقال للرجل : أَكْثَتْ تَأْنِيثاً أي لِنَتْ له ولم تَتَشَدَّدْ ، والْأُنْثَى من الرجال الْمُخَنَّثُ شَبَّهَ المرأةَ . . وبلد أُنْثَى : لَيْسَ سَهْلٌ ؛ ومكان أُنْثَى إذا أَسْرَعَ نباته وكثر ، ومن كلامهم : بلد دَمِيثٌ أُنْثَى طَيِّبُ الرَّيْحَةِ ، مَرَّتِ الْعُودِ . وزعم أن المرأة إنما سميت أنثى من البلد الأنثى ، لأن المرأة أَلْيَنُ من الرجل ، وسميت أنثى للينها ، فأصل (أنث) إنما هو الْأُنْثَى الذي هو اللَّيْنُ^(٤) وهكذا يظهر من هذه المعاني اللغوية اللفظي الذكر والأنثى ، أن كلا منهما مغاير للآخر وعلى خلافه ، مما يؤثر في نمط الحياة وسلوكها ، إنه القرآن

(١) انظر : التفسير الكبير المسمى ومفاتيح الغيب ، م ٤ ، ج ٨ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) الزمخشري ، محمود بن عمر ، أساس البلاغة الطبعة الثالثة - القاهرة : مركز تحقيق التراث (١٩٨٥) ج ١ فصل الذال مع الكاف (ذكر) ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ، مادة (ذكر) ، ص ٤٩ .

(٤) المرجع السابق ، ج ١ ، مادة (أنث) ص ٢٢٩ ؛ وانظر الزمخشري أساس البلاغة ، ج ١ ص ٢١ ، فصل الهمزة مع النون (أنث) .

الكريم الحكيم ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (سورة الشعراء - آية ١٩٥) وقال تعالى : ﴿حَمْدُكَ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف - آية ٣-٢) .

وقال سبحانه «وليس الذكر كالأنثى» ، رغم أنهما مخلوقان من ماء واحد هو النطفة التي جعل منها خلق الإنسان قال تعالى : ﴿قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (سورة عبس - آية ١٧-١٩) .
إن المغايرة بين الذكر والأنثى تبدأ من مرحلة النطفة .

إنه خلق الله سبحانه وتعالى وتقديره ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَنْ يُشْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدَرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (سورة القيامة - آية ٣٦-٤٠) قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَى﴾ (سورة النجم - آية ٤٥ - ٤٦) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ . (سورة الإنسان آية ٢) .

إن الآيات الكريمة تدل على خلق الإنسان من النُّظْفَةِ* ومصدرها من الرجل والمرأة فنطفة الرجل هي ما يطلق عليه (الحيوان المنوي) ، ونطفه المرأة هي (البويضة) وبتحاد نطفة الذكر مع بويضة الأنثى يتم التخصيب وبالتالي تبدأ نقطة البداية في الحمل ويتعين معها جنس الجنين .

(فلقد وجد أن الحيوانات المنوية تحوي من الصبغيات* (٢٣) صبغياً ، ووجدوا أن الحيوانات المنوية نوعان من ناحية حمل الصفات الجنسية ، فقسم يحمل صبغياً

(*) النُّظْفَةُ : الماء الصَّافِي ، وماءُ الرَّجُل ، والتي يكون منها الولد . (لسان ، ج ١٤ ، نطف) ، ص ١٨٧

(*) الصبغيات أو الكروموسومات : حتى يتوصل إلى تعريفها لابد من خلفية عن الخلية الحية : إن الكائن الحي القادر على أن يوجد مستقلاً بذاته يسمى عضوية Organism والعضويات جميعاً مبنية من خلايا cells - وهي الوحدات الأساسية للحياة ، والتي تقوم بكل العمليات الكيميائية الحيوية ، وأسط العضويات مبنية من خلية واحدة فقط وتسمى وحيدات الخلية unicellular أما العضوية المعقدة كالإنسان مثلاً ، فهي مبنية من آلاف بل ملايين الخلايا ، وهي متعددة الخلايا multicellular متنوعتها . وكل نوع منها متخصص لأداء عمل محدد ، ورغم اختلاف الخلايا فيما بينها إلا أنها مبنية من أقسام أساسية واحدة ، ولكل قسم منها دور خاص يضطلع به

أقسام الخلية

- ١- الغشاء الخلوي وهو جلدة الخلية الخارجية ويتميز بكونه نصف نفوذ .
- ٢- سيتوبلازما الخلية : وهي المادة الضرورية التي تحدث فيها كل التفاعلات الكيميائية الضرورية لوجود الحياة
- ٣- النواة nucleus جمع نوى وهي مركز التحكم في الخلية ، تحتوي النواة في داخلها على نوية nucleolus واحدة أو أكثر وعلى المادة الوراثية المسماة (دنا) DNA
- ٤- الفجوات . . أكياس ممتلئة بالسوائل تعمل على إخراج المواد أو العكس .

يرمز له بـ X وقسم يحمل صبغياً آخر يرمز له بـ Y كما وجد أن الذكر تحتوي خلاياه على (٢٣) زوجاً من الصبغيات ، (٢٢) منها تتعلق بالصفات الجسمية والزوج الأخير يتعلق بالصفات الجنسية وهو مكون من اجتماع صبغي X مع صبغي Y ، وهكذا فإن صبغة الذكر الجنسية هي (XY) بينما وجدوا أن الأنثى لا تحتوي إلا نوعاً واحداً من الصبغيات الجنسية هي X فقط ووجدوا أن الصيغة الجنسية في خلايا الأنثى هي كما يلي (٢٣) زوجاً منها (٢٢) زوجاً للصفات الجسمية و XX الزوج الأخير للأنوثة .

فإذا التحم حيوان منوي يحمل صيغة X كان الجنين أنثى لأن البويضة بطبيعة الحال تحمل صيغة X فتكون النتيجة هي الصيغة الجنسية XX وهي صيغة الأنثى ، بينما إذا التقى حيوان منوي يحمل الصبغي Y كان الجنين ذكراً لأن الصيغة ستكون XY وهي صيغة الذكر^(١) .

كيف يتحدد جنس الجنين ؟ وهل للأمر دور في ذلك ؟ !

= الصبغيات الموجودة في النواة من الخلية هي التي تحمل صفات الكائن الحي ولكل نوع من الكائنات الحية عدد محدد من الصبغيات في كل خلية يسمى العدد ثنائي الصيغة، ولدى الإنسان (٤٦) صبغية، وتنظم الصبغيات في أزواج تسمى الأزواج المتجانسة (٢٣) زوجاً صبغياً .

وجميع الصبغيات موجوده في الخلية بصورة مزدوجة وتسمى الصبغيات الذاتية ، ماعدا الصبغيات الجنسية chromosomes فإن فيها نوعين من الصبغيات الجنسية هما (X و Y) فللرجل واحدة وأخرى Y ، وتحمل الصبغية Y العامل الوراثي (لا المورثة) الذي يحدد الذكورة . ومن ثم فإن كل الأشخاص الذي يحملون صبغيتي X هم إناث .

فالصبغيات أو الكروموسومات : جسيمات فاعلة تنقل الصفات الوراثية من جيل إلى جيل ، وكل صبغية تتكون من مورثات .

(انظر معجم البيولوجيا المصور ، انجليزى عربى ، تأليف كورين ستوكلى ، ترجمة د/ محمد أحمد شومان (بيروت : دار الكتاب العربي ، أكاديميا انترنا شيونال ، ١٩٩٢م) ص ١٠ ، ١٩٦)

والخلايا كلها تتجدد باستمرار بعملية الانقسام أو الانشطار ، وعند انقسامها ينشطر كل جسيم منها إلى اثنين متماثلين تماماً ، ثم يتعد كل منهما عن الآخر ، وفي نهاية الانقسام نجد خليتين تحتوي كل واحدة منها على ٤٦ صبغياً يتشابهان ، بل ويتطابقان تماماً ، وهكذا يعوض الجسم ما يفقده من ملايين الملايين من الخلايا ففي كل ساعة - يخلق الله ويميت آلاف الملايين من الخلايا . سبحانه الله .

يسير الانقسام والانشطار في جميع خلايا الجسم على هذا المنوال لايحيد عنه ولا يميل إلا في موضع واحد هو الخصية في الرجل والمبيض في المرأة .

حيث يحصل انقسام مغاير هو الانقسام الاختزالي miesiois لأنها تنقسم إلى نصفين كل منها مكون من ٢٣ صبغياً فقط بدلاً من ٤٦ صبغياً كما يحصل في الانقسام العادي في بقية خلايا الجسم كلها .

وقدرة الله سبحانه وتعالى وحكمته هيأت الأمر هكذا لمستقبل هذه الخلية المنقسمة والتي ستتحول إلى نطف في الخصية أو إلى بويضات في المبيض وهي لا توجد بهذا الشكل إلا في الخصية والمبيض أي يحويان على خلايا تحوي ٢٣ صبغياً فقط بينما خلايا الجسم كلها تحوي ٤٦ صبغياً .

فإذا قدر الله سبحانه والتقوى الحيوان المنوي (نطفة الرجل) بالبويضة (نطفة المرأة) كان حاصل الجمع خلية سوية تحتوى على ٤٦ جسيماً ملونا . تلك الخلية هي البويضة الملقحة أو النطفة الأمشاج كما سماها القرآن الكريم (انظر : د/ محمد على البار ، خلق الإنسان ، ص ١٣١ - ١٣٣) .

(١) انظر : د. خالص جلبي ، الطب محراب الإيمان ، الطبعة السابعة ، (بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧) ص ٧٧ .

قال الله عز وجل ٠٠ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ من نطفة إذا تُمْنَىٰ ﴿(سورة النجم - آية ٤٥-٤٦) ٠

تدل هذه الآية الكريمة على أن جنس الجنين يتعين في طور النطفة ، وأن ذلك يتعين أثناء إِمْنَاء النطفة^(١) ٠ أي إِزَاقَتِهَا وتَقْدِيرُهَا^(٢) والنطفة التي تقدر هي نطفة الرجل والمرأة ٠

والملاحظ أن ما تعطيه الأم دائماً هو صبغي الأنوثة بينما يكون ما يعطيه الأب إما صبغياً مذكراً أو صبغياً مؤنثاً ٠ ومع ذلك فقد دل الحديث الشريف على أن للأم دوراً في تحديد جنس الجنين فعن ثوبان* رضي الله عنه أنه جاء خبرٌ من أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ وسأل رسول الله ﷺ ثلاثة أسئلة ومنها أنه قال : (جئتُ أسألك عن الولد ؟ قال ﷺ : «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ٠ فإذا اجْتَمَعَا ، فعلا مَنِي الرجل ، مَنِي المرأة ، أَذْكَرَا بإذن الله ٠ وإذا علامِنِي المرأة مَنِي الرجل ، آتَا بإذن الله»^(٣)

وجاءت رواية أخرى بلفظ : «أذكر وأث» ٠ ولم يقل أذكرا وآثا^(٤) ٠

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث : «أذكرا بإذن الله وآثا بإذن الله» معنى الأول كان الولد ذكراً ومعنى الثاني كان أنثى^(٥)

قال القرطبي رحمه الله : «يتعين تأويل حديث ثوبان رضي الله عنه بأن المراد بالعلو السابق»^(٦) ٠ وإلى ذلك ذهب الحافظ ابن حجر رحمه الله^(٧) ٠

(١) انظر : د ٠ مأمون شقفة القرار المكين ، ص ١٦٠ ٠

(٢) انظر : لسان العرب (بن منظور ، ج ١٣ ، (مني) ، ص ٢٠٢ ٠

(*) ثوبان : مولى رسول الله ﷺ ، صحابي مشهور ، خدم الرسول ﷺ إلى أن مات ٠ ثم تحول إلى الرملة ثم حمص ومات بها ، وقبره في حمص معروف ، مات سنة أربع وخمسين رضي الله عنه ٠ (الإصابة ١/٢٠٤) ٠

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج ١ ، كتاب الحيض ، باب صفة مني الرجل والمرأة ، ص ٢٥٢ ، ح (٣١٥) ٠

(٤) مسلم ، المرجع السابق ، ص ٢٥٣ ٠

(٥) شرح الصحيح مسلم ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ ٠

(٦) ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٧ ، ص ٢٧٣ ٠

(٧) انظر : المرجع السابق ٠

أما في الطب . .

فقد تبين أن الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة يختلف عن الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة . على أن جميع الحيوانات المنوية المذكرة والمؤنثة والميئة تصل كلها في وقت واحد إلى قناة الرحم ، وذلك بفعل تقلصات الرحم التي تتسبب في سحب السائل المنوي إلى داخل الرحم .

لكنه يبقى لعامل الحركة في الحيوان المنوي فعله وأثره ، الذي لم يعرف بعد على وجه الدقة ، وذلك أن الحيوان المنوي المذكر أسرع من الحيوان المنوي المؤنث ، فالحيوان المنوي المذكر يصل إلى موقع البويضة في خلال ست ساعات تقريباً ، أما الحيوان المنوي المؤنث فلا يصل إلى موضع البويضة إلا بعد أكثر من اثنتي عشرة ساعة . وربما وصل في أربع وعشرين ساعة . فإذا سبق الحيوان المنوي المذكر ولقح البويضة كان الجنين ذكراً وإن تأخر ذلك حتى وصل الحيوان المنوي المؤنث إلى البويضة كان الجنين أنثى ^(١) .

وقد ذكر الأطباء أسباباً أخرى تتعلق بالأُم كحموضة المهبل ذلك أن الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الذكورة تميل إلى المحلول القاعدي ، بينما تميل الحيوانات التي تحمل شارة الأنوثة إلى المحلول الحامضي ^(٢) . وقد يكون لهذا أثره في تحديد جنس الجنين .

وقد تبين كذلك أن وجود هرمون الأنوثة (الاستراديول) ، يجعل حركة الحيوانات المنوية المذكرة تزداد سرعة بالمقارنة مع الحيوانات المنوية التي تحمل شارة الأنوثة ^(٣)

يضاف إلى ذلك أن إفرازات عنق الرحم دورها في التأثير على حركة الحيوانات المنوية بنوعيتها ، ووصولها إلى البويضة ، ذلك أن إفراز عنق الرحم تتفاوت لزوجته ويبوسته باختلاف المدة التي يتم فيها الإبياض ، فهي قبل التبويض تكون أرق وأخف ، مما يسمح للحيوانات المنوية المذكرة على خفتها وسرعتها ٥ بالوصول إلى البويضة قبل تلك المؤنثة .

(١) انظر : د . محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) انظر : د . محمد علي البار ، طفل الأنبوب والتلقيح الصناعي ، الطبعة الأولى ، السعودية دار العلم ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) ص ٨٧ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٨٧ .

أما إذا يبست هذه الإفرازات وازدادت سماكتها بعد التبويض ، فإن الحيوانات المنوية المؤنثة تكون أقدر على الوصول إلى البويضة ، وذلك لثقل هذه الحيوانات فهي أشبه بالمدرعات ، في حين تفشل الحيوانات المنوية المذكورة في الوصول لصعوبة العبور .

ولذا فإنه يمكن القول : إن الأم تحدد بإفرازاتها التي تمكن هذا ولا تمكن ذاك الحيوان المنوي ، وتحدد بالتالي جنس الجنين ذكراً أم أنثى^(١) واليقين الذي لا يشوبه الشك أن قدرة الله عز وجل ومشيتته هي التي تحدد الذكر والأنثى ، فهو سبحانه خالق الأسباب وموجدها . . والأمر أولاً وأخيراً إليه عز وجل ، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَهْبِ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهْبِ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ أَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (سورة الشورى - آية ٤٩-٥٠) .

عودة الى الصبغيات :

وإن أي زيادة أو نقص في صبغيات الخلية خلافاً خطراً على الكيان الإنساني^(٢) إذا مازاد صبغي أو نقص في تلك الصيغة ، (إن كلاً من الحيوان المنوي والبويضة قبل التلقيح يشكل نصف خلية فقط من ناحية عدد الكروموسومات (الصبغيات) إذ تحتوي الخلية الجسدية على (٤٦) كروموسوماً بينما تحتوي البويضة على ٢٣ كروموسوماً فقط وكذلك الحيوان المنوي ، وعند تكون النطفة الأمشاج يكتمل عدد الكروموسومات الحاملة للصفات الوراثية ، من الآباء والأجداد (٤٦) كروموسوماً ، ومنذ لحظة التخصيب تبدأ تلك النطفة بالانشطار : الخلية تصبح خليتين ، والخليتان أربعاً ، وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت التي ما تلبث أن تنغرس متوسدة في النصف العلوي من الرحم ، حيث تنشب وتعلق في جدار الرحم المستعد لاستقبالها سابقاً فقد امتلأت أوعيته الدموية حتى تغذيها وتنميتها ، وعند ذلك تدخل النطفة الأمشاج مرحلة جديدة هي العلقه^(٣) قال تعالى ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ (سورة الحج - آية ٥) .

(١) انظر : د . حسان حتوت ، ندوة ، ص ٤٢ - ٤٥ ؛ د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ١٣٩ (وهل هناك طب نبوي) ، ص ١٦٨ .

(٢) انظر : د . خالص جلبي ، الطب محراب الإيمان ، الطبعة السابعة ، (بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ص ٧٧ ؛ محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ١٢٧ - ١٣٨ .

(٣) انظر : محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

وهكذا تعلق العلقه في جدار الرحم ، فقسم منها يتخصص لتغذية الجنين مساهمة مع الأم ، والقسم الثاني الداخلي منها يخلق الله سبحانه وتعالى منه الجنين وأغشيته ، التي سرعان ما تتحول إلى مضغة^(١) حيث تبدأ ملامح الجنين الظاهرة بالتخلق والتشكل ولاسيما جنس الجنين من ذكر أو أنثى ، فتخط معالمها ابتداء ، كما دلت على ذلك أحاديث الصحيحين فما هي المضغة ؟! وما معناها لغة واصطلاحاً ؟

المُضِغَةُ : كل عَصَبَةٍ ذاتِ لَحْمٍ ، فَإِذَا أَنْ تَكُونُ مِمَّا يُمَضَّغُ وَإِذَا أَنْ تَشْبِهَ بِذَلِكَ إِنْ كَانَ مِمَّا لَا يُؤْكَلُ ، وَأَمَضَّغَ التَّمْرَ حَانَ أَنْ يُمَضَّغَ ، وَمَضَّغَ الْأُمُورَ صِغَارَهَا ، وَالْمَضَّغُ مِنَ الْجِرَاحِ صِغَارُهَا ، وَالْمُضْغَةُ مِنَ اللَّحْمِ قَدْرُ مَا يُلْقَى الْإِنْسَانُ فِيهِ ، وَالْمُضْغَةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ لِمَكَانِ الْمَضْغِ ، وَقِيلَ تَكُونُ الْمُضْغَةُ غَيْرَ اللَّحْمِ ، وَإِذَا صَارَتِ الْعَلَقَةُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا الْإِنْسَانُ لَحْمَةً فَهِيَ مُضْغَةٌ^(٢) ويعرف الدكتور محمد علي البار المضغة بأنها عبارة عن كتل بدنية متعددة إذ يبدو الجنين فيها وكأن أسناناً انغرزت فيه ولاكته ثم قذفته^(٣) «فالكتل البدنية هي أبرز ما في الجنين في هذه الفترة ، ويمكن التعرف عليه من النظر إلى سطح الجنين الخارجي.. وهذه الكتل أيضاً هي الأساس الذي يقوم عليه الجهاز الهيكلي والعضلي.. ومنها هذه الكتل يتكون الجهاز الهيكلي والعضلي ، ويمكن معرفة عمر الجنين بمعرفة عدد الكتل^(٤) ويتوافق هذا الزمن - والله تعالى أعلم - في اليوم الأربعين ، وهو الوقت الذي حددته الأحاديث ليقوم الملك بما أمر به من التقدير في الجنين^(٥)»

(١) انظر المرجع السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٣ ، (مضغ) ، ص ١٢٩ .

(٣) انظر : خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٢٥٥

(٤) د . محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، نقلاً عن كتاب علم الأجنة الإنساني ، الطبعة الرابعة ، ص ١٧٨ :

Humn EMBRYOLOGY

وكتاب علم الأجنة ، الطبعة الثالثة ، ص ٦٥-٦٦ .

MEDICAL EMBRYOLOGY

(٥) د / محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٦٢ ، بتصرف .

فقد روى أنس بن مالك وحذيفة بن أسيد ، رضي الله عنهما (واللفظ لأنس رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وَكَلَّ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فيقول : أي رب نُطْفَةٌ ؟ أي رب عِلْقَةٌ ؟ أي رب مَضْغَةٌ ؟ فإذا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قال : أي رب ذَكَرٌ أم أُنْثَى أَشَقِيٌّ أم سَعِيدٌ ، فما الرِّزْقُ فما الأَجَلُ ؟ فيُكْتَبُ كَذَلِكَ في بطن أُمِّهِ) ^(١) وعن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بعدما تَسْتَقَرُّ في الرَّحِمِ بأَرْبَعِينَ ، أو خَمْسَةَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فيقول : يارب! أَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ ؟ فيُكْتَبَانِ . فيقول : أي رب ! أَذَكَرٌ أم أُنْثَى ؟ . فيُكْتَبَانِ . وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ ، ثم تُطَوَّى الصُّحُفُ . فلا يُرَادُ فيها ولا يُنْقَصُ) ^(٢) ، وهكذا وافقت ملاحظات العلماء التجريبيين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في تشكل المضغة في اليوم الأربعين ، أو بعده بقليل ، بعد وقوع النطفة في الرحم ، تلك المضغة التي قال عنها القرآن الكريم ﴿مَخْلُوقَةٌ وَغَيْرَ مَخْلُوقَةٍ﴾ فما هي هذه المضغة المخلقة والمضغة غير المخلقة ؟ هل تنطبق على تشكل الذكر والأنثى وتحديد جنس كل منهما في هذه الفترة كما نص الحديث الشريف أم أن المخلقة وغير المخلقة تدل على شيء آخر؟ .

ذهب علماء التفسير في معنى ذلك إلى عدة آراء ، ملخصها ومفادها :

- * أن (المخلقة) هو الجنين المكتمل ، و(غير المخلقة) السقط قبل التمام .
- * وأن (المخلقة) الجنين التام الخلقة ، السالم من العيوب والتشوهات و (غير المخلقة) عكسه .
- * وقيل (المخلقة) و (غير المخلقة) ما تتابع عليه الأطوار خلقاً بعد خلق ، فتكون

(١) البخاري ، الصحيح ، ٤م ، ج ٧ ، كتاب القدر ، باب (١) ، ص ٢٦٧ ح (٦٥٩٥) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، ص ٢٠٣٨ ، ج (٢٦٤٦) .

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي ، ص ٢٠٣٧ ح (٢٦٤٤) .

غير مخلقة، ثم تصبح مخلقة، ظاهرة الخلقة، في ظهور الأعضاء على المضغة^(١) .

روى الإمام الطبري من حديث ابن مسعود* رضي الله عنه أنه قال : (إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال غير مخلقة مجها الرحم دماً ، وإن قال مخلقة ، قال : يارب ماصفة هذه النطفة ؟ أذكر أم انثى ؟ مارزقها ؟ ما أجلها ؟ أشقي أم سعيد^(٢)) .

والحديث وإن كان مقبولاً إلا أنه موقوف على عبدالله رضي عنه - وما ورد عنه - في الصحيحين ، ليس فيه زيادة (مجتها الأرحام دماً) ، وقد استند الإمام الطبري في تفسيره للآية على حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال في التفسير : (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : (المخلقة) : المصورة خلقاً تاماً ، وغير المخلقة السقط قبل تمام خلقه ، لأن المخلقة وغير المخلقة من نعت المضغة والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصير خلقاً سواً إلا التصوير ، وذلك هو المراد بقوله (مخلقة وغير مخلقة) خلقاً سواً ، و (غير مخلقة) : بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوير ، ولا ينفخ فيها الروح^(٣)) .

وقد علق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي على قول الإمام الطبري ، ومن ذهب مذهبه من أهل العلم فقال رحمه الله : «هذا القول الذي اختاره الإمام الجليل الطبري - رحمه الله تعالى - لا يظهر صوابه ! وفي نفس الآية الكريمة قرينة تدل على ذلك وهي قوله جل وعلا في أول الآية ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ لأنه على القول المذكور الذي اختاره الطبري يصير المعنى : ثم خلقناكم من مضغة مخلقة ،

(١) انظر تفسير : الطبري ، م ١٠ ، ج ١٧ ، ص ١١٧ ؛ الزمخشري ، ج ٣ ، ص ٥ ، الرازي ، م ١٢ ، ج ٢٣ ، ص ٩ ؛ القرطبي ، ج ١٢ ، ص ٩ ؛ أبي حيان ، ج ٧ ، ص ٤٨٥ ؛ ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ؛ أبي السعود ، ج ٦ ، ص ٩٤ ؛ الشوكاني ، ج ٣ ، ص ٤٣٦ ، الألويسي ، م ٩ ، ج ١٧ ، ص ١١٦ ؛ سيد قطب ، ج ٤ ، ص ٢٤١٠ الشنقيطي ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

* عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمع بن مخزوم أبو عبد الرحمن الهذلي ، وأمّه أم عبد بنت عبد ود أسلمت . وهو أحد السابقين الأولين . الإمام الحبر فقيه الأمة شهد بدرًا والمشاهد كلها وهاجر الهجرتين كان صاحب سواد رسول الله ﷺ ووساده وسواكه ونعليه وطهوره قال فيه ﷺ من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد ، قال ﷺ «لرجل» عبدالله أثقل في الميزان من أحد» وهو أول من جهر بالقرآن في مكة توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ (الإصابة ٣٦/٢ ؛ الاستيعاب ٣١٦/٢ ؛ سير أعلام النبلاء ٤٦١/١) .

(٢) جامع البيان ، م ١٠ ، ج ١٧ ، ص ١١٧ ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : إسناده صحيح ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

(٣) جامع البيان ، م ١٠ ، ج ١٧ ، ص ١١٧ .

وخلقناكم من مضغة غير مخلقة . وخطاب الناس بأن الله خلق بعضهم من مضغة غير مصورة ، فيه من التناقض ، كما ترى فافهم (فإن قيل : في نفس الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بغير المخلقة : السقط ، لأن قوله تعالى : (ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى يفهم منه أن هناك قسماً آخر لا يقره الله في الأرحام ، إلى ذلك الأجل ، وهو السقط) (فالجواب : أنه لا يتعين فهم السقط من الآية ، لأن الله يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره إلى أجل مسمى ، فقد يقره ستة أشهر ، وقد يقره تسعة ، وقد يقره أكثر من ذلك كيف شاء) .

(أما السقط : فقد دلت الآية على أنه غير مراد بدليل قول تعالى : ﴿فإنا خلقناكم﴾ الآية ، لأن السقط الذي تلقيه أمه ميتاً ، ولو بعد التشكل والتخطيط لم يخلق الله منه إنساناً واحداً من المخاطبين بقوله تعالى : ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ الآية .

فظاهر القرآن يقتضي أن كلاً من المخلقة وغير المخلقة : يخلق منه بعض المخاطبين في قوله تعالى ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ الآية^(١) إلى هنا ينتهي الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - من التعليق على أقوال العلماء ليدي رحمه الله تعالى بدلوه في معنى الآية الكريمة فقال : «وبذلك تعلم أولى الأقوال في الآية ، هو القول الذي لا تناقض فيه ، لأن القرآن أنزل ليصدق بعضه بعضاً ، لا ليتناقض بعضه مع بعض وذلك هو القول الذي قدمنا عن قتادة^(٢) والصخاك^(٣) وقد اقتصر عليه الزمخشري ولم يحك غيره : وهو أن المخلقة : هي التامة ، وغير المخلقة : هي غير التامة»^(٤) ، ثم نقل^(٥) رحمه الله تعالى ، ما قاله الزمخشري - رحمه الله تعالى - في «الكشاف» : (والمخلقة المسواة للمساء من النقصان والعيب ، يقال : خلق السواك والعود إذا سواه وملسه ، من قولهم صخرة خلقاء ، إذا كانت ملساء ، كأن الله تعالى يخلق المضع متفاوتة . منها : ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب . ومنها ما هو

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، (بيروت : عالم الكتب) ج ٥ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ، م ١٠ ، ج ١٧ ، ص ١١٦ - ١١٧ ؛ تفسير الرازي ، م ١٢ ، ج ٢٣ ، ص ٩ .

(٣) انظر تفسير الرازي ، م ١٢ ، ج ٢٣ ، ص ٩ .

(٤) أضواء البيان ، ج ٥ ، ص ٢٣-٢٤ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

عكس ذلك ، فيتبع ذلك تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم»^(١) .

وقد استند الزمخشري رحمه الله في تفسير الآية الكريمة على معاني اللغة ، ا
المخلقة وغير مخلقة التي سيذكرها البحث بعد عرض أقوال العلماء .

وجزم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في تفسير الآية الكريمة
بأن ما ذهب إليه الزمخشري - رحمه الله - (هو أولى الأقوال بالصواب فيما يظهر ،
لجريانه على اللغة التي نزل بها القرآن وسلامته من التناقض ، والله جل وعلا
أعلم»^(٢) .

كانت تلك أقوال علماء التفسير رحمهم الله ، فماذا قال ويقول العلماء
التجريبون ؟ .

جاء في كتاب «خلق الإنسان» أن معنى (مخلقة وغير مخلقة) هو التمايز
الذي يحصل للعلة حيث تنقسم إلى طبقتين حين انغرازها في جدار الرحم: طبقة
خارجية وظيفتها تهيئة الغذاء للجنين ، وطبقة داخلية وظيفتها تكوين الجنين
وأغشيتها ، فالطبقة الخارجية غير مخلقة قطعاً ، والداخلية مخلقة لأنه يخلق منها
الجنين وأغشيتها^(٣) وتكون هنا قد بدأت مرحلة المضغة ، ثم قال المؤلف بعد أن عرض
بعض أقوال علماء التفسير رحمهم الله ، «وهذه الأقوال كلها تتفق تمام الاتفاق مع
الحقيقة العلمية ويؤيدها الواقع ، ولا غرو إذا تطابقت الحقيقة العلمية مع الحقيقة
القرآنية مع التفسير النبوي فكلها صادرة من الخالق سبحانه وتعالى»^(٤) .

وقد ذكر المؤلف أقوال الأطباء وملاحظاتهم على طور المضغة وتخلقها فقال :
«وهناك وجه قوي أشار إليه الأستاذ الدكتور عزيز عبد العليم رئيس قسم وأستاذ
جراحة الأطفال في جامعة طنطا عندما تفضل بزيارتي ومناقشتي في هذه النقطة من
كتاب خلق الإنسان . . وهو أن المخاطبين بهذه الآية هم عموم الناس جميعاً

(١) ج ٣ ، ص ٥ .

(٢) أضواء البيان ، ج ٥ ، ص ٢٥ .

(٣) انظر : د . محمد علي البار ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢١٠ .

وأن مخلقه وغير مخلقة تتحدث عن خلايا غير متميزة (undiferrentiated cells) وهي خلايا عميمة وجميمة ولها قدرة بأمر بارئها وخالقها على التشكل والتحول . . . وهي موجودة في الجنين في مرحلة المضغة وما بعدها وتعرف بالخلايا الميزانيكيميية (mesenchymal cells) . . . وهذه الخلايا تتحول إلى خلايا متميزة عندما تكون العظام أو خلايا الدم الحمراء أو البيضاء أو عندما تلتئم الجروح والكسور . . . ولها دور هام في الجنين، وفي الطفل، بل وفي البالغ والكبير ، هذه الخلايا غير المتميزة هي الخلايا غير المخلقة . . . وأما الخلايا المتميزة (Differeenti ated) فهي مخلقة . . . وعلى ذلك فإن مخلقة وغير مخلقة هي صفة للمضغة وما بعد المضغة حتى نهاية العمر . . . وهو وجه مستساغ يودليله من علم الطب قائم، ولا يمنعه مفهوم الآية بل يؤيده^(١) ثم ذكر فضيلته رأي الدكتور عبد الحميد دياب والدكتور أحمد قرقوز في كتابهما (مع الطب في القرآن) حيث جاء فيه (فطور المضغة يمر إذاً بمرحلتين . . . المرحلة الأولى حيث لم يتشكل أي عضو أو أي جهاز في الجنين وأسميناها مرحلة المضغة غير المخلقة ، والمرحلة الثانية حيث تم فيها تمييز الأجهزة المختلفة وأسميناها مرحلة المضغة المخلقة ، وهكذا يتضح جلياً إعجاز القرآن الكريم في وصفه لطور المضغة بقوله تعالى : (مخلقة وغير مخلقة) وقد اعتبر المؤلفان أن مرحلة المضغة تبدأ من الأسبوع الثالث وتكون غير مميزة حتى نهاية الأسبوع الرابع . . . ويبدأ التمايز في بداية الأسبوع الخامس ، وهو ما يؤدي إلى ظهور الأعضاء والأجهزة . . . وبذلك يكون قبل مرحلة التمايز (DIFFERENTIATION) وهو المضغة غير المخلقة ، وما بعد التمايز يعتبر المضغة المخلقة^(٢) ، وهو قريب من المفهوم السابق الذي قاله الدكتور عزيز عبد العليم والذي وسع مفهومه باعتبار (أن) التمايز يستمر منذ مرحلة المضغة إلى أن يولد ثم يستمر بعد ذلك أثناء الحياة على درجات متفاوتة حتى نهاية العمر^(٣) .

وقد وجد البحث أن أقوال العلماء^(٤) ممن فسروا القرآن الكريم متوافقة مع ما أتى به العلم الحديث في الأقوال التي سبق ذكرها ، بل تكاد أن تتطابق

(١) انظر : خلق الإنسان ، هامش ص ٢٠٧ ؛ وكذلك ذكر الدكتور محمد علي البار قول العلم بالتمايز للخلايا في كتاب الدكتور اليزلي أري في كتابه (DEVELOPMENTAL ANATOMY) ، الطبعة السابعة ، ص ٢٦ .

(٢) انظر : مع الطب في القرآن ص ٨٠-٨١ .

(٣) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٠٩ .

(٤) انظر تفسير الرازي ، م ١٢ ، ج ٢٣ ، ص ٩ ، القرطبي ، ج ١٢ ، ص ٩ ؛ ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ، أبي السعود ، ج ٦ ، ص ٩٤ الشوكاني ، ج ٣ ، ص ٤٣٦ .

أقوالهم جميعاً^(١) .

عود على بدء . . . مالذي جر الحديث إلى المضغة والكلام يدور في البداية حول خلق الذكر والأنثى ؟ يجيب البحث : إن حديث رسول الله ﷺ وسلم الذي رواه أنس وحذيفة - رضي الله عنهما - قد يكون فيه دلالة على ذلك مع «ماورد في كتاب خلق الإنسان» في خلق الذكر والأنثى .

وجاء فيه مايلي (يتحدد جنس الجنين على ثلاثة مستويات :

١- المستوى الصبغي (الكروموسومي)

ويتحدد ذلك بأمر الله تعالى عندما يلحق حيوان منوي يحمل كروموسوم Y أو كروموسوم X البويضة التي تحمل دائماً كروموسوم X فتكون البويضة الملقحة إما Xy ويعني ذلك جنيناً ذكراً أو XX ويعني ذلك جنيناً أنثى وقد نص القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تُمْنى ﴾ (سورة النجم ٤٥-٤٦) والنطفة التي تمنى هي نطفة الذكر والتي يتحدد معها جنس الجنين عند لحظة التلقيح .

٢- المستوى الغدي وهو تكون الغدة الجنسية وتتكون الغدة الجنسية في الجنين في الأسبوع الخامس (منذ تلقيح البويضة) في الحدة التناسلية من الخلايا الجنسية الأولية Bimordial Germ cells وإذا فشلت هذه الخلايا في الوصول إلى الحدة التناسلية حيث يتكون ما يسمى الحبال الجنسية الأولية Primary Sex Cords فإن الغدة التناسلية لا يتم تكوينها Gonadal Dysgenesis ورغم عدم وجود غدة جنسية إلا أن نمو الجنين يتجه نحو تكوين أعضاء الأنثى .

وقد أثبتت التجارب العديدة أن وجود الخصية هام في اتجاه الجنين نحو الذكورة بينما وجود المبيض ليس ضرورياً لتكون أعضاء التناسل الأنثوية (كيث مور في الإنسان النامي وسيسل لوب في الأمراض الباطنية) ، وفي هذه الفترة التي تسبق تمايز الغدة التناسلية يكون جنس الجنين غير معلوم وهو يسمى في الطب : الجنس

(٤) هناك رأي آخر ذهب إليه الدكتور مأمون شقفة في كتابه (القرار المكين ، ص ٢٣٦-٢٤٦) حيث اعتبر المضغة المخلقة هي الجنين والمشيمة وقد أغرب حيث جعل طور المضغة يبدأ من اليوم الحادي والثمانين إلى اليوم المائة والعشرين من أول يوم في آخر طمث رآته المرأة وحملت به ص ٢٣٦) .

غير المتميز Indifferent sex وفي بداية الأسبوع السابع تبدأ الخصية في التمايز وتظهر بوضوح كما في (مقطع لغدة تناسلية في الجنين في الأسبوع السابع وبالذات ٤٣ يوماً ويظهر فيها أنها قد تمايزت إلى خصية نقلاً عن كتاب (الطفل النامي كيث مور صفحة ٢٧٥)^(١) وهذا يوافق حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه عند الإمام مسلم «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء»^(٢).

ويسير نمو الأعضاء التناسلية الظاهرة والباطنة في اتجاه الأنثى إلا إذا وجدت كمية من هرمون* الذكورة التستسترون* Testosterone الذي تفرزه الخصية فيتحول المسار آنذاك إلى الذكورة . إن نمو الأعضاء التناسلية الظاهرة والباطنة يعتمد إلى حد كبير على وجود هرمون الذكورة التستسترون الذي تفرزه الخصية . لذا فإن إزالة الخصية من جنين ذكر أو عدم تكونها يؤدي إلى وجود جهاز تناسلي أتثوي رغم أن جنس الجنين على مستوى الصبغيات (الكروموسومات) هو ذكر xy . أما إزالة المبيض أو عدم تكونه فإنه لا يؤثر على سير الأعضاء التناسلية فهي تسير في اتجاه الأعضاء التناسلية للأنثى . وخاصة إذا كان جنس الجنين على مستوى الصبغيات xx . . . «وقد تم إزالة الخصيتين من بعض أجنة الذكور في الأرانب وعند مولد هذه الأرانب وجد أنها قد تحولت إلى إناث رغم أن المحتوى الجيني الذكري (XY) مادام موجوداً»^(٣) .

إذن الجهاز التناسلي الظاهر والباطن (عدا الغدة التناسلية بطبيعة الحال) يتجه إلى الأنثى . فإذا وجدت الخصية أو هرمون التستسترون . فإن الزيادة تجعل الجهاز التناسلي يتحول إلى ذكر^(٤) ، فما هو هرمون الأنوثة والذكورة ؟! وما علاقة كل منهما بالآخر .

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٥٠٠ .

(٢) انظر : خلق الإنسان ، ص ٤٩٦ - ٤٩٨ ، وانظر تخريج الحديث ص ٢٧٣ من هذا البحث

(*) هرمون : الهرمونات hormones (رسل) كيميائية خاصة تتحكم بنشاطات متنوعة في داخل العضوية (معجم البيولوجية ١٠٦)

(*) التستسترون Testosterone : هرمون جنسي ذكري يوجد غالباً في الخلايا الخلالية في الخصيتين ، ينشط نمو الصفات الجنسية الثانوية عند البلوغ والحفاظ عليها مثل نمو شعر الذقن (معجم البيولوجيا ، ص ١٠٦) .

(٣) د . آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة ص ٩٩ .

(٤) انظر : المرجع السابق .

«إن التستسترون نفسه في تركيبة الكيمائي يمثل هرمون الأنوثة* + مجموعة مثيلية(١) فإننا ندرك ببساطة عظمة الآلية الكريمة في قوله تعالى : ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ (سورة البقرة آية ٢٢٨) حيث إن الذكر يساوى أنثى مع زيادة أخرى أو إضافة أخرى . إن هذا الهرمون يشكل الجهاز التناسلي للجنين فيحوله من أنثى إلى ذكر .

يبدأ إفراز هذا الهرمون من الخصية في مرحلة مبكرة جداً تحت تأثير الهرمون المنمي للغدة التناسلية الذي تفرزه المشيمة Chorioic Gonado Trophins ويقوم هرمون التستسترون في الجنين بالتأثير على منطقة في المخ تسمى (تحت المهاد) Hypothalamun وهي بدورها تؤثر على الغدة النخامية وعلى اتجاه نمو الأعضاء نحو الذكورة أو الأنوثة في الجنين^(٢) وعلم الفسيولوجيا يثبت التمايز بين الذكر والأنثى منذ التكوين المبكر حتى الموت في الحالات الطبيعية ، ذكر كتاب علم الفسيولوجيا للدكتورة فلورستراند أنه «في أثناء تكوين الجنين في مراحله الأولى يكون جنين الذكر مشابهاً أول الأمر لجنين الأنثى ويصعب التفريق بينهما إلا على مستوى الصبغيات (الكروموسومات) . . ولكن سرعان ما تتميز منطقة في المخ تدعى تحت المهاد* . . لدى الجنين الذكر عن مثيله الجنين الأنثى وهذه الإضافة أو الزيادة في مخ جنين الذكر تؤدي إلى الفروق الهائلة فيما بعد بين الجهاز التناسلي للذكر والجهاز التناسلي للأنثى . . كما تؤدي إلى الفروق الهائلة بين غدد الذكر الصماء وغدد الأنثى . . وتؤثر هذه الغدد على مختلف أنشطة الجسم وعلى هيكله أيضاً ، ومن ثم يختلف

(١) انظر د/ محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، الطبعة الثالثة ، (جدة : الدار السعودية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ص ٧٨ .

(*) هرمون الأنوثة : يوجد في المبيضين . وينشط نمو الصفات الجنسية الثانوية عند البلوغ كنمو الثديين ، وتهيئة الرحم للحمل ، وإنتاج الحليب في الثديين .
ويسمى البروجسترون Proserone والأستروجين Oestrogen ، ويعملان معاً على ظهور صفات الأنوثة هذه (معجم البيولوجيا ، ص ١٠٦)

(*) تحت المهاد : هي الضابط المدير لمعظم وظائف الجسم الداخلية ، فهو يتحكم بالجهاز العصبي المستقل (أي الخلايا العصبية التي تسبب الأفعال غير الواعية كحركة الغذاء في الأمعاء مثلاً) وفعل الغدة النخامية ونشاطات تحت المهاد مهمة وحيوية بالنسبة إلى استتباب أي إقامة استقرار الظروف الداخلية وثباتها . (معجم البيولوجيا ، ص ٧٥ ، ١٠٥)
الغدة النخامية : وتسمى أيضاً النخامة ، غدة عند قاعدة الدماغ ، تتأثر مباشرة بتحت المهاد ، تفرز هرمونات تحفز الغدد الأخرى في الجسم كي تفرز هرموناتها (معجم البيولوجيا ، ص ٦٩) .

(٢) د/ محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٥٠٠ .

بناء هيكل الذكر عن بناء هيكل الأنثى كما تختلف الوظائف تبعاً لذلك»^(١)

«وعند الولادة تهجع هذه المنطقة المخية في فترة الطفولة ثم تبدأ في النشاط قبيل البلوغ فترسل هرموناتها إلى الغدة النخامية التي تقوم بدورها بإيقاظ الخصية أو المبيض من سباته ويؤدي ذلك إلى حالة البلوغ وظهور العلامات الثانوية الجنسية Secondary Characteristics التي تظهر فيها علامات الرجولة أو الأنوثة»^(٢) .

جاء في كتاب «عمل المرأة في الميزان» ماييلي: «ومن الغريب حقاً أن هيكل البناء يصمم أساساً على هيكل الأنثى فإذا وجد صبغ الذكورة (كروموسوم الذكورة) فإنه يضيف إلى ذلك الكيان إضافات تجعل النهاية ذكراً . أما إذا اختفى هذا الكروموسوم العام في تركيب البويضة الملحقمة كما يحصل في بعض الحالات النادرة التي ترينا قدرة المولى عز وجل فإن النتيجة النهائية هي جسم امرأة وإن كانت ناقصة التكوين

فإن البويضة الملحقمة تحتوي فقط على كروموسوم x فلا هي أنثى محتوية على xx ولا ذكر محتوية على xy . . . فماذا تكون النتيجة ؟

تكون النتيجة أنثى غير أنها لا تحيض ولا تحبل ولا تلد ، أما إذا كانت النتيجة xxy فإن الطفل المولود يكون ذكراً رغم وجود صبغيات الأنوثة بصورة كاملة . . . وإن كان ذكراً كان ضعيف الهممة بارد الشهوة خائر العزيمة . . وذلك لتراكم صبغ الأنوثة فيه .

أما إذا زاد صبغ الذكورة في البويضة الملحقمة وصار حاصلها الكروموسومي xyy أي بها صبغين (كروموسوميين) كاملين من أصباغ الذكورة فإن النتيجة تكون ذكراً قوي الشكيمة شديد البأس كثير العدوان . . حتى إن الفحوصات التي أجريت لأعتى المجرمين في السجون وأشدّهم بأساً وإقداماً أظهرت أن كثيراً منهم كانوا ممن لديهم زيادة في صبغ (كروموسوم) «الذكورة»^(٣) .

(١) د / محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، الطبعة الثالثة ، (جدة : الدار السعودية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ص ٧٨ ، نقلاً عن الكتاب المذكور طبعة ١٩٧٨ بدون ذكر الصفحة

• Physiology : Aaregueatory Systems Approach BY Fleur Strand 1978

(٢) د / محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٥٠٠

(٣) د . محمد علي البار ص ٧٩ .

« والفروق بين رجل وآخر من حيث الإقدام وصفات الرجولة يرجع في بعض الأحيان إلى زيادة هرمون الرجولة لدى هذا وقلته النسبية لدى ذاك .

ونظرة إلى المخصيين الذين تم خصيهم قبل البلوغ ترىنا كيف تتحول رجولتهم إلى الأنوثة . . ولا ينبت شعر عذاري المخصي وذقنه وشاربه . . ويتوزع الدهن بنفس الطريقة التي يتوزع فيها في الأنثى . . أي في الأرداف والعجز . . وتلين عظامه وترق . . ويبقى صوته رخيماً على نبرة الطفولة دون أن تصيبه غلظه الرجولة وخشوتها .

أما أولئك الذين أخصوا بعد البلوغ فإن علامات الرجولة سرعان ما تندثر ويسقط شعر الذقن والشارب ولا يعود إلى النمو ثانية . وتبدأ العضلات في الترهل . . كما تبدأ الصفات الأنثوية البدنية والنفسية في الظهور لأول مرة . .»^(١)

بعد هذا العرض عن تكون الذكر والأنثى وأثره ، ألا يمكن أن يطلق على المضغة «مُضْغَةٌ مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» على الذكر والأنثى حيث يتميز جنس كل منهما بالخصية ، التي تؤثر في الجنين الذكر وتميزه عن الجنين الأنثى وبغياب هذه الخصية وعدم إفراز هرمون الذكورة يعود الهيكل إلى أصله فيتحول إلى أنثى ولو استمر حال الأجنة بلا تمايز بين ذكر وأنثى لما تميز الخلق ولما كان التكاثر ولا التناسل ولما وجدت الشعوب والقبائل - سبحان الله - .

فلو اشتبه الأمر كما يحدث في بعض الحالات لنرى قدرة الله سبحانه ماذا يحدث : «لا ينتج عن هذه الحالات المشتبهة أن تقوم الخنثى (الأنثى الحقيقية وظاهرها ذكر) بدور الذكر كاملاً أي أنها لا تستطيع مطلقاً أن تنجب بنكاح النساء وكذلك الخنثى (الذكر في حقيقته وظاهرة أنثى) لا يستطيع أن يحيض فضلاً عن يحمل وينجب»^(٢) سبحان الله القادر ألم يقل عز وجل ﴿لَنُبَيِّنَنَّ لَكُمْ﴾ فإذا اشتبه

(١) المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٢) د/ محمد على البار ، خلق الإنسان ، ص ٥٠٧ ؛ وقد ذكر المؤلف أن حالات الخنثى الحقيقية نادرة الوجود جداً ، بل تكاد أن تكون في صورتها الواقعية غير موجودة ، فالخنثى في حقيقته إما ذكر وإما أنثى ، (المرجع نفسه) ؛ وقد ذكر مؤلف الكشف الإمام الزمخشري أن المشكل عند الخلق هو عند الله سبحانه غير مشكل ، لأنه إما ذكر أو أنثى ، أي معلوم الذكورة والأنوثة ، (ج ٤ ، ص ٢٦١) ، وكذلك قال مؤلف التفسير الكبير (الرازي ، م ١٦ ، ج ٣٢ ، ص ١٩٩) كلاهما ذكراً -رحمهما الله- ذلك في قوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) (سورة الليل - آية ٣)

الأمـر فلا تناسـل .

والخلاصة . وأياً كان مدلول معنى قوله تعالى ﴿من مـُضْغَةٍ مُّخَلَقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَقَةٍ﴾ * فالآية الكريمة تنص على أن (مخلقة) و (غير مخلقة) حاصلة في مرحلة المضغة ، أي أن هذا التمايز يبدأ في هذه المرحلة من عمر الجنين فما معنى (مخلقة) و(غير مخلقة) في اللغة ، لعل في ذلك ما يهدي إلى تفسيرها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الْخَلْقُ : التقدير ، والخلق في كلام العرب على وجهين : أحدهما الإِثْناء على مثال أَبْدَعَهُ ، والآخر التقدير ، وقوله عز وجل ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (سورة الزمر - آية ٦) أي يخلقكم نطفًا ثم علقًا ثم مُضْغًا ثم عِظْمًا ثم يكسو العظام لحماً ثم يُصَوِّرُ وَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، فذلك معنى خلق من بعد خلق في ظلمات ثلاث في البطن والرحم والمشيمة .

ويقال تَخَلَّقَ للناس ، أي أظهر في خُلُقِهِ خلاف نِيَّتِهِ ، و«مُضْغَةٌ مُّخَلَقَةٌ» أي تامة الخلقة ، وقيل فيها : الناس خُلِقُوا على ضريين : منهم تامّ الخلق ، ومنهم خَدِيج ناقص غير تامّ ، وقيل : (مخلقة) قد بدا خُلُقُهَا «وغير مخلقة» لم تُصَوِّرْ ، ورجل خَلِيقٌ بَيْنَ الْخَلْقِ إذا تم خُلُقُهُ وَخُلِقَتِ الْمَرْأَةُ خَلَاقَةً إذا تَمَّ خُلُقُهَا ، والجمل المَخْلُوقُ : أي التامّ الخلق ، وَالْخَلِيقَةُ الطَّبِيعَةُ التي يخلق بها الإنسان .

وَتَخَلَّقَ بِخُلُقٍ كَذَا : استعمله من غير أن يكون مخلوقاً في فِطْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا تَأْوِيلُهُ الإِظْهَارُ .

وَالْخَلِيقَةُ «التقدير» ، وَخَلَقَ الْأَدِيمَ يَخْلُقُهُ خَلْقًا : قَدَرَهُ لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه مَزَادَةً أَوْ قِرْبَةً أَوْ حُفًّا .

وَالْخَلِيقَةُ : الْحَفِيرَةُ الْمُتَخَلُّقَةُ فِي الْأَرْضِ ، وَقِيلَ هِيَ الْأَرْضُ ، وَقِيلَ هِيَ الْبُئْرُ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا ، وَقِيلَ هِيَ النَّقْرَةُ فِي الْجَبَلِ يَسْتَنْقِعُ فِيهِ الْمَاءُ .

وَالْأَخْلَقُ : اللَّيِّنُ الْأَمْلَسُ الْمُضْمَتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَهَضْبَةٌ خَلْقَاءُ مُضْمَتَةٌ مَلْسَاءٌ لَانِبَاتٍ فِيهَا ، وَصَخْرَةٌ خَلْقَاءُ بَيْنَةَ الْخَلْقِ لَيْسَ فِيهَا وَضْمٌ وَلَا كَسْرٌ .

الْخَلْقَاءُ : الرِّتْقَاءُ مِنَ الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءِ الْمُضْمَتَةِ .

وَقَدْ حُكِّمَ مُخَلَّقٌ : مُسْتَوٍ أَمْلَسَ مُلَيِّنٌ ، وَقِيلَ كُلُّ مَا لَيِّنٌ وَمُلْسٌ فَقَدْ خُلِقَ^(٢) .

وبعد هذه الجولة في رحاب قوله تعالى ﴿مُخَلَّقةٌ وَغَيْرِ مُخَلَّقةٍ﴾ يمكن أن يقال فيها -والله تعالى أعلم- إنها قد تدل على المضغة في طور تخلقها - بعد خلقها مضغة- إلى ذكر وأثنى ، وتمايز الجنين وظهور ، ما يمكن أن يستدل به على أنه ذكر أو أثنى ، سواء في التشريح في المرحلة المبكرة من المضغة أو المتأخرة، وهي تخلق الأعضاء وظهورها بعد نهاية طور المضغة حين يبدو شكل الجنين كاملاً كما جاء في كتاب «خلق الإنسان» بأنه «لا يمكن تمييز (الجنين) ولو نزل سقطاً وشرح تشريحاً كاملاً حتى نهاية الأسبوع السادس الرحمي^(١) فغدد التناسل : الخصية (في الذكر) والمبيض (في الأثنى) تتشابهان تماماً في هذه المرحلة المبكرة من النمو ٠٠ ولا يمكن التمييز بينهما ٠٠ وفي بداية الأسبوع السابع تبدأ الخصية بالنمو قبل المبيض، ويظهر فيها نسيج خاص ، كما أنها تلف بغلالة بيضاء تدعى اللفافة البيضاء ٠٠ ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : (إذا مرَّ بالنطفةِ ثنَّتَانِ وأربعون ٠٠٠) (الحديث السابق الذي رواه حذيفة رضي الله عنه) .

وفي تلك اللحظة يعلم الملك نوع الجنين ذكراً أم أثنى ٠٠»^(٢) .

ومن المعلوم أن الأعضاء التناسلية الخارجية إنما تنشأ من نتوءات بالجلد فيما بين الأسبوع العاشر والثاني عشر^(٣)

أما مراحل تكون الخصية فتتوافق مع تصور الملك الرحم لتحديد الذكورة والأنوثة وهو الذي يشير إلى أهمية هذه المرحلة في الجنين لأن حديث عبدالله رضي الله عنه «فينفخ فيه الروح»^(٤) ، ليس فيه ذكر تعيين جنس الجنين .
وبعد ٠٠٠٠ فهذه أسس في المسألة أما ما يؤيدها فعدة أمور :

١- المعاني اللغوية التي تحتملها .

٢- التضعيف في (مخلقة) وإفادته التكثير في الفعل^(٥) ، أي خلقاً بعد خلق،

(١) انظر هامش ص ٢٩٩ .

(٢) د ٠ محمد علي البار ، ص ٢٩٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٣٠٣ .

(٤) انظر : الحديث ص ٢٧٢ من هذا البحث مع تخريجه .

(٥) انظر : أحمد الحملاوي ، شذا العرف في فن الصرف الطبعة الرابعة ، (مكة المكرمة : إحياء التراث الإسلامي) ، ص ٤١ .

وهو ما تتابع عليه الأطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلوق لتتابع الخلق عليه^(١).

٣- الآية الكريمة أتى الخطاب فيها للناس كافة وليس للمفرد أو للبعض وهذا ما يشعر بأن جميع المخاطبين هم خلقوا من مضغة مخلقة، ومضغة غير مخلقة أي هما مضغتان وليست مضغة واحدة ، وإنما أتى التعبير عنهما بالمفرد لأن الكلام عن أصل الخلق كما يقال - ولله سبحانه المثل الأعلى - بني الجدار من حجارة مهذبة وغير مهذبة أو معلمة وغير معلمة .

فالبناء من نوعين من الحجارة وعبر بالأصل عن الاثنتين (حجارة) .

ولا يعني ذلك أنهما قسمان في كل واحدة ، ولا أن التغيير حصل في قطعة واحدة من هذه الحجارة ، بل هما حجارتان على نوعين ، إحداهما على أصلها والثانية أضيف عليها وأحدث فيها جديد .

فالمضغة نفسها لم تنقسم .

٥- لو كانت المضغة هي واحدة (المخلقة وغير المخلقة) أي انتقلت من طور إلى طور، لما احتاج أن يكون الخطاب عاماً .

٦- ولو أن هذه المضغة هي ما لا يخلق منها، لتنافى ذلك مع فصاحة القرآن الكريم وبلاغته . لأن المخاطبين كلهم خلقوا من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، وما يتلاشى بلا حياة لا يكون منه خلق ، إلا أن يكون ذلك دليلاً على بعث السقط يوم القيامة قبل هذه المرحلة أي قبل أن يخلق .

٧- لم 'خُصَّ' هذا الطور بالأهمية والذكر لو لم يكن له مزية ومزيد عناية من الله سبحانه وتعالى ، فعلى أساس هذا التمايز يتم الخلق فيما بعد .

٨- أتى التعبير هنا بحرف العطف الواو وليس (أو) (مخلقة وغير مخلقة) لأن الخطاب بصيغة الجمع لا المفرد ، وعلى هذا فالمقصود هو التمايز بين الجنسين الذي هو أساس في التناسل ، وهذا من بلاغة القرآن الكريم .

٩- قوله تعالى ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي طفلاً واحداً إما ذكراً أو أنثى وعبر به عن الأصل حين خروج الجنين إلى الدنيا طفلاً لمناسبة الخطاب بالجمع .

١٠- أتى التعبير بالمفرد في قوله تعالى ﴿مُضْغَةً﴾ مما يدل على أصل الخلقة كما

(١) الرازي ، التفسير الكبير ، ج ١٢ ، ج ٣ ، ص ٩ .

في ذكر النطفة حيث إنهما نطفتان لا واحدة وعبر عنها بلفظ النطفة دلالة على النوع والكيفية في الخلق ، فمن نطفة واحدة لا يكون الناس .

١١- قال تعالى : ﴿لَنبَيِّنَنَّ لَكُمْ﴾ فلم احتاجت هذه المرحلة بالذات هذا الاهتمام ، ولولا هذا التبيين من الله من سبحانه وتعالى في خلق الجنين كيف يهتدي الناس إلى معرفتهما وترتيب الأحكام والحياة على أساسها ، حتى في حال نزول الجنين قبل التمام يُحتاج لمعرفة جنسه في كثير من الأحكام كالعدة والإرث وغير ذلك .

١٢- ما قيل من أن «لنبيين» لكم هي بيان قدرة الله سبحانه وتعالى هذا مما لاشك فيه ، ولكن لم جاءت بعد هذه المرحلة بالذات ومقترنة معها .
ثم إن معنى بين في اللغة من أَلْفَاظُ الْأَضْدَادِ ، فهي الفُرْقَةُ والوَصْلُ ، والمباينة المفارقة .

والبيان ما بين به الشيء من الدلالة وغيرها ، وبيان الشيء بياناً اتضح ، وأبان الشيء فهو مبين .

وبينهما بين أي بعد، والبين : الفصل بين الشئين ، والبون : الفضل والمزية^(١) .
فالله سبحانه وتعالى جعل الأمر بيناً، وبالتالي على أساس هذه الغدد الجنسية يكون التمايز أيضاً بين القبائل والشعوب حتى في الخلقة الظاهرة ، ﴿يَأْيَاهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (سورة الحجرات - آية ١٣) . لأن هذه الغدد هي التي تحمل الصفات الوراثية من جيل إلى جيل .

١٣- إن ما قاله العلماء من أن (المخلقة) هي التام (وغير المخلقة) هي السقط لا يتناسب مع أسلوب الخطاب في الآية قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : «فظاهر القرآن يقتضي أن كلاً من المخلقة ، وغير المخلقة يخلق منه بعض المخاطبين في قوله ﴿يَأْيَاهَا النَّاسُ ٠٠﴾ الآية ، وبذلك تعلم أن أولى الأقوال في الآية ، هو القول الذي لا تناقض فيه لأن القرآن أنزل ليصدق بعضه بعضاً ، لا ليتناقض بعضه مع بعض ٠٠٠ وذلك هو القول الذي قدمنا عن قتادة والضحاك، وقد اقتصر عليه الزمخشري في الكشف ولم يحك غيره : وهو أن

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١ ، مادة (بين) ، ص ٥٥٩ ج ٥٦٢ ، ٥٦٤ .

المخلقة : هي التامة وغير المخلقة : هي غير التامة^(١) إن ما قاله الشيخ رحمه الله وردبه على القائلين بالقضية وحصرها بالسقط، قد يكون أقرب للصواب، لكنه رحمه الله جعل الخطاب موجهاً لبعض الناس دون بعض وذلك ليتطابق الكلام مع التفسير الذي ارتضاه وما يتناسب مع اللغة ففسر الآية بالسليم الخلق وغير السليم ، فهل كل الخلق ينطبق عليهم هذا الوصف ؟ بل هم إما هذا أو ذاك .

لكن الخطاب في الآية الكريمة لم يستثنِ أحداً ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ ۝٠٠﴾ وهذا يفسره قوله تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (سورة الحاقة - آيه ١٧) فالمخاطبون جميع الناس من لدن نوح عليه السلام بعد الطوفان حتى قيام الساعة-والله سبحانه وتعالى أعلم-: فكيف يكون الخطاب هنا للبعض ؟ .

١٤- أما قوله تعالى ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝٠٠٠﴾ فهو لا يتناقض مع هذا لأنه بعد التشكل والتمايز بين الذكر والأنثى إما أن يستمر هذا الحمل فيسقط قبل التمام وبذلك تميزونه أيضاً، سواء بتشريح الخلايا أو بالمشاهدة إن كان ظهر ، أو أنه قد يستمر فيخرج طفلاً إلى الحياة فلا تناقض قال الإمام الرازي : «يجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنساناً وذلك يبعد في السقط لأن يكون سقطاً ولم يتكامل فيه الخلقة ، فإن قيل هلا حملتم ذلك على السقط لأجل قوله ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ وذلك كالدلالة على أن فيه ما لا يقره في الرحم وهو السقط ، قلنا إن ذلك لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لأنه بعد أن تتم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يتكامل ذلك بل فيه ما يقره الله في الرحم وفيه ما لا يقره وإن كان قد أظهر فيه خلقة الإنسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط»^(٢) .

قال رحمه الله ذلك رغم أنه ذهب في القول بالمخلقة وغير المخلقة على أنها التخليق من طور إلى طور أي تتابع الأطوار عليها .

(١) أضواء البيان ، ج ٥ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) التفسير الكبير ، م ١٢ ، ج ٢٣ ، ص ٩ .

يضاف إلى ما سبق ما توصل إليه العلم اليوم وسبق ذكره مطولاً ..

- ١- الغدة الجنسية أساس التمايز بين الذكر والأنثى ، وفترة المضغ هي زمن هذا التمايز سواء في النسيج الخلوي أو في الجلد .
- ٢- الزيادة في هرمون الذكورة عند الجنين الذكر عن الأنثى .
- ٣- الأصل في الجنسين هو الكروموسوم (x) وهو موجود في كليهما ويتميز الجنين الذكر عن الأنثى بالكروموسوم y فيكون تركيب الصبغي في كل منهما هكذا xy و xx .
- ٤- إن الخلق الجنسي في الجنين الذكر يسبق بالأنثى، حيث إن تمايز الغدة الجنسية إلى خصية يسبق تمايزها إلى مبيض^(١) ، بل والواقع المشاهد يبين ذلك في الأجنة المجهضة .
- ٥- إن الغدة الجنسية هي التي تحمل الصفات الوراثية في الصبغيات ولذا فقد حرم العلماء نقل الخصية والمبيضين من شخص إلى آخر وزرعها حيث قالوا : «بما أن الخصية والمبيض يستمران في حمل وإفراز الصفات الوراثية (الشفرة الوراثية) للمنقول منه حتى بعد زرعها في متلقٍ جديد ، فإن زرعها محرم شرعاً»^(٢) .

(١) انظر : د/ محمد علي البار، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٣٩٧ .

(٢) قرارات المجمع الفقهي في جدة ، الندوة السادسة التي عقدت في الكويت بالتعاون مع المنظمة الإسلامية ٢٣ - ٢٧ شعبان حتى ٢٣ - ٢٦ ربيع الأول ١٤١٠هـ ، ص ١٢ .

الفصل العاشر

الفوارق الجسدية بين الرجل والمرأة وارتباطها بالأمومة

إن جسم الأنثى فى تركيبه يختلف عن جسم الذكر ، ليس ذلك فيما يظهر ، بل الأمر أعمق من ذلك حيث ينشأ الاختلاف بينهما فى تكوين خلايا الجسم نفسه ، والفرق بينهما واضح ، جاء فى كتاب «عمل المرأة فى الميزان» ما يلي : (إن هيكل المرأة الجسدي يختلف عن هيكل الرجل ، بل إن كل خلية من خلايا جسم المرأة ، تختلف فى خصائصها وتركيبها عن خلايا الرجل ، وإذا دققنا النظر فى المجهر لهالنا أن نجد الفروق واضحة بين خلية الرجل وخلية المرأة ٠٠ ستون مليون مليون خلية فى جسم الإنسان ومع هذا فإن نظرة فاحصة فى المجهر تنبئك الخبر اليقين : هذه خلية رجل وهذه خلية امرأة ، كل خلية فيها موسومة بميسم الذكورة ، أو مطبوعة بطابع الأنوثة»^(١) .

ولا يقتصر الفرق بينهما على الخلايا فقط ، بل إن الصبغيات التي تحمل المورثات فى الإنسان ، تختلف فى هيئتها فى الذكر عنه فى الأنثى ، إنها هي المسؤولة عن تحديد شكل الإنسان ، فهي :

«ثلاثة وعشرون زوجاً ، اثنان وعشرون منها مسؤولة عن بنيان الجسم وصفاته وواحد منها فقط مسؤول عن تعيين الجنس ذكراً أم أنثى ، لا يمكن قط أن تشذ خلية ٠ ملايين من الخلايا توضح لك تلك الحقيقة الفاصلة بين الجنسين ، خلايا الجلد ، خلايا الشعر ، خلايا الفم ، خلايا الدم ، حتى خلايا المخ والعظم تنبئك بالحقيقة التي يريد بعض الناس اليوم تجاهلها ، وادعاء تماثل الجنسين وهم بذلك يصادمون الفطرة التي فطر الله الناس عليها ٠ يصادمون الفطرة فى كل خلية من خلايا الجسم الإنساني وفى كل ذرة من ذرات تكوينه ، وفى هرموناته المختلفة بين الذكورة والأنوثة وفى تشريحه الجسماني المختلف ليس فحسب فى الجهاز التناسلي ، بل فى تكوين العظام وهيئتها ، وتكوين العضلات والأوتار وشدتها ، ثم ترتفع الفروق من الجسم إلى النفس ٠ ومن الخلية إلى السلوك ومن العظم إلى الفكر ومن الجلد إلى المنزع والرغبة والتوجه»^(٢) .

(١) د ٠ محمد علي البار ، ص ٦٤ .

(٢) د/محمد علي البار ، خلق الانسان بين الطب والقرآن ص ١٢٧ .

لقد نص القرآن الكريم على الاختلاف الشاسع بين الذكر والأنثى في قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٦)، وها هو علم التشريح يكتشف هذه الحقائق المدهشة كلاهما مخلوق من نفس واحدة لكنهما زوجان مختلفان كل الاختلاف - سبحانه وتعالى - ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك - آية ١٤) إن كلا من الذكر والأنثى ، خلقا في هذا الكون لتأدية مهمة ووظيفة تختلف عن دور الآخر في الحياة ، فلا عجب أن يختلف تركيبهما حتى في الهيكل العظمي، وأكثر ما يظهر هذا الفرق في عظام الحوض، يقول الدكتور شفيق عبدالملك، أستاذ علم التشريح في كتابه : «تشرح الحوض للذكر والأنثى» : «يمتاز حوض السيدة عن حوض الرجل بالنسبة لقيامه بوظيفة هامة إضافية تتطلب منه بعض الضروريات اللازمة التي لا يحتاج إليها حوض الرجل،، فنمو الجنين في الحوض وطرق تغذيته وحفظه ثم مروره بتجويف الحوض ومن مخرجه وقت الولادة، مما يستلزم بعض التغييرات والتعديلات التي يسهل معها إتمام الولادة بالنسبة للأم والطفل، وتنحصر كل هذه التغييرات في أن يكون تجويف حوض السيدة أوسع وأقصر، وأن تكون عظامه أرق وأقل خشونة وأبسط تضاريساً»^(١) ثم حدد الدكتور شفيق عبدالملك تسعة عشر فرقا بين حوضي الذكر والأنثى^(٢) ومن ثم وصف نوعية هذه العظام وكيفيةها عند الأنثى وميزاتها التي أهلتها لمهمة الأمومة فقال : «وإن تكن رقة العظام ونعومتها ، وبساطة تضاريسها ، وصغر شوكتها وقلة غور حفرها ، ظاهرة جلية في أكثر عظام الهيكل في المرأة غير أنها تتجلى بأوضح شكل في عظام الحوض للأنثى التي بلا نزاع تشارك صفات عظام الهيكل الأخرى بقسط وافر في صفاتها المميزة للأنثى زيادة على تكيفها النوعي الخاص بما يناسب ما يتطلب منها القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل»^(٣) وكل إنسان سوي الفطرة ، قوي البصيرة ، سليم القلب ، يرى الفرق شاسعاً بين شكل الفتى وشكل الفتاة ، في كل أمر من أمورهما ، ولا ينكر هذه الحقيقة إلا إنسان انتكس عن آدميته ليكون أضل من الأنعام والحيوانات ، والفروق تبدأ في الظهور حتى في الأجنة وهي في بطون أمهاتها، فجنين الذكر يختلف في التحليل والتشريح عن جنين الأنثى ، حتى إذا بلغ

(١) الطبعة الثالثة (القاهرة : المطبعة التجارية ، (١٣٩١هـ - ١٩٧١م) ص ٢٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦ .

الشهر الرابع من الحمل ، تميزت الأعضاء الظاهرة عند كل منهما إلى ذكورة أو أنوثة^(١) فإذا أطل على الحياة ورأى النور ، اتخذ كل منهما وجهة في التربية والحياة ، جاء في كتاب «عمل المرأة في الميزان» مايلى : «يعرف الآباء والأمهات الذين رزقهم الله ذرية من الأولاد البنات الفروق الشاسعة بين أطفالهم وتستمر الفروق تنمو يوماً بعد يوم حتى تبلغ أوج اختلافها عند البلوغ ، عندما تستيقظ الغدد التناسلية من هجعتها الطويلة وتنشط وترسل هرمونات الذكورة إلى الصبي ليصبح رجلاً فينمو شعر عذاريه وذقنه وشاربه ويصبح صوته أجش غليظاً وتنمو عضلاته وعظامه وتقوى .. ويتوزع الدهن في جسمه توزيعاً عادلاً .. ويكون عريض المنكبين قوي الساعدين مفتول الذراعين .. أما الفتاة ، فتتهدم عليها هرمونات الأنوثة ، فتتبدأ أعضاؤها وأجهزتها التناسلية وتبدأ الحيض .. ويتوزع الدهن في جسمها بحيث يخفي أي تنوء أو حفرة لا ترتاح إليها العين ، ويزداد الدهن في (بعض المناطق من جسمها دون بعض) ، وينعم صوتها .. ليس هذا فحسب ، ولكن الهرمونات تؤثر في السلوك كما تؤثر في القوام والمشيية ، فتجعل الفتى مقداماً محباً للمغامرة ، وتجعل الفتاة شديدة الخفر والحياء ميالة إلى الدلال ..»^(٢) .

إن هذه الفروق وهذه الظواهر البادية للعيان ، فطرية جوهرية أصيلة ، وأي تغيير يصيبها هو خروج عن السنن والفطرة ، لأن الجانب اللا إرادي في الإنسان يسير وفق هذا النمط من الاختلاف والتضاد ، حيث يشاهد هذا الفرق على مستوى النطف في الحيوان المنوي والبيضة ، ثم لا يلبث أن ينتقل إلى الكائن الحي المتشكل من النطفة الأمشاج ، ليرافقه طيلة العمر كما جاء في الكتاب السابق الذكر «والفرق تراه في الرجل البالغ والمرأة البالغة ، كما تراه في الحيوان المنوي والبويضة .

والبويضة ساكنة هادئة لاتتحرك إلا بمقدار ، وعليها التاج المشع ، والحيوان المنوي صاروخ مصفح وقذيفة تنطلق عبر المفاوز لتفوز بغرضها أو تموت .. ليس ذلك فحسب بل ترى الفرق في كل خلية من خلايا المرأة ، وفي كل خلية من خلايا الرجل

(١) انظر : د / محمد علي البار ، خلق الإنسان ص ٣٠٠ .

(٢) د / محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٨٩ - ٩٠ .

٠٠ تراه في الدم والعظام ، تراه في الجهاز التناسلي ، تراه في الجهاز العضلي ، وتراه في اختلاف الهرمونات هرمونات الذكورة وهرمونات الأنوثة ، وتراه بعد هذا وذاك في الاختلاف النفسي بين إقدام الرجل وصلابته وخفر المرأة ودلالها .

وإذا أردنا أن نقلب الموازين ، وكـم من موازين قد قلبناها ، فإننا نصادم بذاك الفطرة التي فطرنا الله عليها ونصادم التكوين البيولوجي والنفسي الذي خلقنا الله سبحانه عليه»^(١) .

بل إن الأعجب من ذلك أن رحم الأنثى يستعد لوظيفته والطفلة جنين : كلها في كتاب «القرار المكين» :

(وفور تشكل الرحم لدى الجنين الأنثى فإنه يتضخم تحت تأثير هرمونات الحمل فيبلغ طوله ٣,٥سم ويزن غرامين ثم لا يلبث أن يضمر خلال اسبوعين من الزمن لانحسار الهرمونات الحملية عنه ، وقد يحدث للوليدة في هذا الوقت نزف تناسلي يشبه الحيض سببه الانحسار الهرموني المذكور ثم تهدأ الأمور تماماً حتى سن البلوغ حيث يبدأ بالتضخم من جديد

القصد والتخطيط للمستقبل البعيد واضحان هنا وضوح الشمس فهذه النطف تشتق في مرحلة النطفة الأمشاج ثم تحفظ في غدد قد هيئت لها (المبيضين) لتستعمل فقط بعد البلوغ وهذا الرحم يخلق في طور العلقة ثم تجرب استجابته للهرمونات ويدرب عليها أثناء بقية الحمل ثم يبقى هاجعاً يستعمل فقط بعد ١٣ - ١٥ سنة أي بعد البلوغ ٠٠ فإذا انتهت مهمته في سن اليأس (٤٥ - ٥٠) ضمراً كثيراً إلى ما يشبه التلاشي»^(٢)

(١) د . محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) د / مأمون شقفة «القرار المكين» ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

الفصل الثالث عشر

التكوين النفسي والعقلي عند المرأة وعلاقته بالأمومة

إن الاختلاف بين الذكر والأنثى يتغلغل ليستقر في أعماق النفس والعقل ، فتكوين الأنثى النفسي والعصبي والعقلي يختلف كلية عن الرجل ونظراً لما بين العقل والنفس والجسد من ارتباط لا ينفصل ، إلا في حالات الخروج عن الفطرة فإنه كان لزاماً على المرأة أن تقف عند حدود هذه الطبيعة التي جبلت عليها ، ذلك أنه للجانب النفسي والعصبي عند المرأة حيز كبير ، مما جعله يطبع الأنثى بسمات الهدوء والدعة والسكينة واللين ، وقد يعود ذلك إلى فروق بينهما في تركيب المخ الذي هو عمدة التمايز بينهما، لما للمخ من تأثير على جميع أجهزة الجسم ووظائفها، فقد «أثبتت الأبحاث الطبية أن دماغ الرجل أكبر من دماغ المرأة وأن التلافيف الموجودة في مخ الرجل هي أكثر بكثير من تلك الموجودة في مخ المرأة .

وتقول الأبحاث إن المقدرة العقلية والذكاء تعتمدان إلى حد كبير على حجم وزن المخ وعدد التلافيف الموجودة فيه .

فالإنسان يعتبر صاحب أكبر دماغ بين جميع الحيوانات بالمقارنة مع حجم ووزن جسمه . . . وتلافيف مخه أكثر بكثير مما هي عليه في أي من الحيوانات الدنيا أو العليا .

وقد يقال إن وزن وحجم المخ يعتمد على وزن وحجم الشخص وهذا صحيح فإن مخ الفيل أكبر من مخ الإنسان ولكن مخ الفيل بالنسبة لوزنه وحجمه ضئيل جداً . . . وأما مخ الإنسان فإنه كبير بالقياس إلى جسمه ومقارنته ببقية الحيوانات . وحتى لو أخذنا هذه الحقيقة في الحسبان فإن دماغ الرجل سيظل أكبر وأثقل وأكثر تلافيفاً من دماغ المرأة .

ويزيد مخ الرجل في المتوسط عن مخ المرأة بمقدار مئة جرام . . . كما يزيد حجمه بمعدل مائتي سنتيمتر مكعب ونسبة وزن مخ الرجل إلى جسمه هي ١/٤٠ بينما مخ المرأة إلى جسمها تبلغ ١/٤٤ فحسب»^(١)

(١) انظر : د / محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٨٤ .

وفي مقال نشرته مجلة الريدرز دايجست الواسعة الانتشار في عدد ديسمبر ١٩٧٩م تحت عنوان «لماذا يفكر الأولاد تفكيراً مختلفاً عن البنات»، وهو ملخص لكتاب «الدماغ : آخر الحدود» للدكتور : ريتشارد ديستاك جاء مايلي «إن الصبيان يفكرون بطريقة مغايرة لتفكير البنات رغم أن هذه الحقيقة الناصعة ستصدم أنصار المرأة والداعين إلى المساواة التامة بين الجنسين . . . ولكن المساواة الاجتماعية في رأينا تعتمد على معرفة الفروق في كيفية السلوك ومعرفة الفروق بين مخ الفتى والفتاة .

وفي الوقت الحاضر فإن الفروق بين الأولاد والبنات التي لاحظها الآباء والمعلمون والباحثون على مدار السنين تتجاهل تجاهلاً تاماً، ويقدم للطلبة والطالبات منهج دراسي متماثل . إن طرق التدريس في المدارس الابتدائية تلائم البنات أكثر مما تلائم الأولاد ولذا فهم يعانون في هذه المرحلة . . أما في المراحل التي تليها حتى الجامعة فهي تلائم الفتيان أكثر مما تلائم الفتيات .

ويعتقد الباحثون الاجتماعيون أن الاختلاف في سلوك الأولاد عن البنات راجع إلى التوجيه والتربية في البيت والمدرسة والمجتمع، التي ترى أن الولد يجب أن يكون مقداماً كثير الحركة، بل ويقبل منه أي سلوك عدواني بهز الكتفين بينما ترى الفتاة أن تكون رقيقة هادئة لطيفة .

ولكن الأبحاث العملية تبين أن الاختلاف بين الجنسين ليس عائداً فحسب إلى النشأة والتربية وإنما يعود أيضاً إلى اختلاف التركيب البيولوجي وإلى اختلاف تكوين المخ لدى الفتى عن الفتاة .

وحتى لو حاول الداعون إلى المساواة المطلقة بين الفتى والفتاة أن ينشئوهما على نفس المنهج حتى لتعطى لعب المسدسات وآلات الحرب للفتيات وتعطى العرائس للأولاد فإن الفروق البيولوجية العميقة الجذور ستفرض نفسها وتؤدي إلى السلوك المغاير بين الفتى والفتاة .

ولقد أدرك العلماء والباحثون عمق هذه الفروق فوجدوا أن الطفل الرضيع يختلف في سلوكه على حسب جنسه فالبنات بعد ولادتها بأيام تنتبه إلى الأصوات

وبخاصة صوت الأم بينما الولد لا يكثر لذلك .. ولهذا فإن الرضاعة يمكن إياها بإحداث صوت مفاجيء بأكثر مما يمكن إخافة أخيها ...

وتقول الدراسة إن الطفلة تستطيع في الشهر الخامس أن تميز بسهولة بين الصور المعهودة لديها .. وتبدأ الطفلة محاولة الكلام والمناغاة من الشهر الخامس إلى الثامن بينما يفشل أخوها في التفريق بين وجه إنسان ووجه لعبة .. وتبدأ الطفلة في الحديث عادة قبل أخيها .. وتتمكن من تعلم اللغات في الغالب أكثر من أخيها .

ويظهر الأولاد تفوقاً كبيراً على البنات في الأمور البصرية وفي الأشياء التي تتطلب توازناً كاملاً في الجسم .. ويقوم الطفل الذكر بالاستجابة السريعة لأي جسم متحرك أو لأي ضوء غماز، كما أنه ينتبه إلى الأشكال الهندسية بسرعة أكبر من أخته وله قدرة فائقة على محاولة التعرف عليها وتفكيكها ..

وفي سن الصبا فإن الأولاد يتوقون إلى التعرف على بيئاتهم وينتقلون بكثرة من مكان لآخر لاكتشافها بينما تميل البنات إلى البقاء في أماكنهن ..

ويستطيع الأولاد التصرف بمهارة أكبر في كل ما يتعلق بالأشكال الهندسية وفي كل ماله اتجاهات ثلاثية three Dimensional apjects وعندما يطلب من الولد أن يكون شكلاً معيناً من ورق مقوى فإنه مثلاً يتفوق على أخته في ذلك تفوقاً كبيراً .

وما يعتبر اكتشافاً مذهلاً هو أن تخزين القدرات والمعلومات في الدماغ يختلف في الولد عنه في البنت ..

ففي الفتى تتجمع القدرات الكلامية في مكان مختلف عن القدرات الهندسية والفراغية، بينما هي موجودة في كلا فصي المخ لدى الفتاة ومعنى ذلك أن دماغ الفتى أكثر تخصصاً من مخ أخته .

ولعل هذه الحقائق المكتشفة حديثاً تفسر ولو جزئياً لماذا نرى أغلب المهندسين المعماريين من الذكور دون الإناث .. وقد كان أول من اكتشف هذه الحقيقة الباحث النفسي لانسدل من المعهد القومي للصحة في الولايات المتحدة عام ١٩٦٢ ثم أكد هذه الأبحاث كثيرون منهم أستاذة علم النفس في جامعة مكماستر بكندا «ساندرا ويلسون» .

ولهذا نجد أن اختبارات الذكاء ترينا تساوياً بين الفتى والفتاة ماعدا فحصين منهما ٠٠ وهما فحص ترتيب الصور والفراغات بين الأصابع Picture Arrang - ment and Digiital span فإنهما يريان تفوقاً كبيراً في صالح الأولاد على البنات .

ولهذا فإن فحص الذكاء في مجموعة يؤدي دائماً إلى تفوق الأولاد على البنات . ويقول أستاذ علم النفس في جامعة جورجيا البروفسور تورا ناس «إن المساواة بين الجنسين تشكل عقبة كأداء في القدرات الخارقة . فالقدرات الخلاقة لدى الفتاة تحتاج إلى الحساسية والصفات الأنثوية، بينما تحتاج في الفتى إلى الاستقلالية وصفات الرجولة» .

وتقول الدراسة إن أغلب الأولاد يميلون إلى كثرة الحركة وشيء من العنف بينما تميل أكثر الفتيات إلى السكينة والهدوء وقلة الحركة .

إن هذه الدراسات إحصائية، وتحدث عن الجنسين على صورة العموم، ولكنها ليست شخصية أي أنها لا تحدث عن هذا الشخص أو ذاك وإنما تحدث عن المجموع والصيغة الغالبة ٠٠

وإمكان أن يشذ فرد من هذا الجنس أو ذاك عن القاعدة أمر لا يلغي القاعدة في ذاتها .

وعلينا أن لا نتجاهل الحقائق العلمية البيولوجية فنحاول أن نجعل تربية الفتى مماثلة لتربية الفتاة ودور الفتى في الحياة مماثلاً لدور الفتاة لأننا فقط نرغب في ذلك ٠٠ فهذا التفكير المبني على الرغبات wishful thinking يصادم الحقائق العلمية»^(١) .

إن الدين الإسلامي هو دين الفطرة ، لأنه منبثق من حاكم واحد للكون كله ، فكل شيء في هذا الوجود خاضع لخالق هذا الوجود ، والإنسان الذي أوجده الله عز وجل ، لا يمكن له أن يشذ عن حاكمية وسنن هذا الكون ، والمنهج الإسلامي قد راعى هذا الجانب في الإنسان في حياته وبكل نشاطاته ، ولا سيما في سلوك الجنسين، فالله سبحانه وتعالى نص في كتابه الكريم على اختلاف الذكر عن الأنثى قال تعالى : ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ ومن هنا فما كان لهذه الشريعة الربانية أن توكل إليهما

(١) د/محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٨٠ - ٨٣ (نقلاً عن المجلة المذكورة) .

وظيفة واحدة في إعمار هذا الكون وإن كان الهدف من نشاطهما واحداً وهو العبودية لله سبحانه وتعالى .

لكن لهما اتجاهين وطريقين . فالرجل مأمور بالعمل خارج البيت والدفاع عن هذا البيت بما فيه من نساء وصغار حماية ورعاية، إنفاقاً وصيانة ، والمرأة مسؤولة عن تهيئة ورعاية ما في داخل هذا البيت ، قال تعالى ﴿الرجال قوَّامونَ على النساءِ بما فَضَّلَ اللهُ بعضَهُم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالِهِم فَالصَّالِحَاتُ قَنُوتٌ حَقِظَتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾ (سورة النساء - آية ٣٤) وإن للرجل شأنًا آخر ، إنه مكلف بمجابهة الحياة خارج أسوار البيت ، إنه يصطدم مع الحياة بكل ما فيها من أوجه الصراع : في الحقل ، في الشارع ، في المعمل ، في الجبال ، فعمله ووظيفته أساسها الصراع مع الحياة والمكابدة لتأمين سبل العيش ، وهذا يطلب منه ألا يتخلف عن الكفاح ، ولو لفترة من الزمن ، بل المطلوب منه مواصلة الكفاح . ومواصلة الكفاح وظيفة لاتنفعها العاطفة أن تكون هي الحاكمة فيها بل لابد للعقل من أن يكون هو المسيطر والمدير يقول الأستاذ محمد قطب في ذلك : «هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش بل ذلك يضرها ولا ينفعها فالعاطفة تنقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض . ولا تصبر على اتجاه واحد إلا فترة تتجه بعدها إلى هدف جديد وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغيرة المتقلبة ولكنه لا يصلح لعمل خطة مرسومة ، ويحتاج في تنفيذها إلى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة، من الوقت وإنما يصلح لذلك الفكر، فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ، وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجرة ولكن المطلوب منه ليس هو السرعة بقدر ما هو تقدير الاحتمالات والعواقب، وتهيئة أحسن الأسباب للوصول إلى الهدف المنشود، وسواء كان المقصود هو صيد فريسة أو اختراع آلة، أو وضع خطة اقتصادية، أو سياسة حكم، أو إشعال حرب أو تدبير سلم، فكلها أمور تحتاج إلى إعمال الفكر ويفسدها تقلب العاطفة»^(١) .

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى طبيعة المرأة وضعفها حيث قال ﷺ «إن المرأة خُلِقَتْ من ضِلَعٍ»^(١) ففيه دلالة على ضعف بنيتها بتشبيهه انكسارها بالضلع ، وقد جعل رسول الله ﷺ ، جهاد المرأة في حجبها ، ذلك لأنها لا تصلح لميادين القتال ، فأنزل ﷺ الحج منزلة الجهاد ، بما يتناسب مع حالها ، ضعفاً ومشقة ، ووظيفة ، قال صلى الله عليه وسلم حين سألته عالمة وأفقه الأمة في العامة عائشة رضي الله عنها : «أَلَا نَغْزُو وَنُجَاهِدَ مَعَكُمْ» فقال ﷺ: لَكِنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَجْمَلَهُ الْحَجُّ ، حَجٌّ مَبْرُورٌ»^(٢) والرجال هم الذين فرض عليهم الجهاد ، حماية للنساء والأطفال والضعفاء . . قال تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ (سورة النساء . آية ٧٥) .

يقول الشهيد سيد قطب «إن الجهاد لم يكتب على المرأة ، لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون ، وهي مهياة لميلاد الرجال بكل تكوينها ، العضوي والنفسي ، ومهياة لإعدادهم للجهاد للحياة سواء .

وهي في هذا الحقل - أقدر وأنفع

وهي أنفع بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة على المدى الطويل - فالحرب حين تحصد الرجال وتستبقى الإناث ؛ تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ ، والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال - أو حتى حين تحصد النساء وتستبقى الرجال . . .»^(٣) .

وهل أبلغ في تصوير حال المرأة وضعفها وتكوينها من قول الله تعالى : ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَوْنَ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (سورة الزخرف-آية ١٨) .
إنها تتربى وتنشأ لتتعامل مع النفوس الضعيفة في صغارها ومن حولها مما استلزم أن تكون لينة الطبع ، غنية بالأحاسيس والمشاعر ، مما يقلل من بيان حاجتها ومنطقها ، والرسم العثماني لكلمة (ينشأ) بالتصغير لكأن فيه دلالة على أن هذا

(١) سبق تخريجه ص ٩٨ من هذا البحث

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ١ ج ٢ ، كتاب الحج ، أجزاء الصيد ، باب حج النساء ، ص ٢٦٧ ، ج (١٨١٦) .

(٣) في ظلال القرآن ، ج ٢ ، ٦٤٤ .

الحال مستمر معها طيلة عمرها لا يتغير .

بل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشبه النساء بالقوارير لضعفهن وبسرعة انكسار القوارير لرققتها قال ﷺ ، لأنجشة* رضي الله عنه - الذي كان يحدو النساء في السفر وقد أسرع (ويحك يا أنجشة رويداً سَوْكَ بالقوارير) وفي رواية . . (رُويداً يا أنجشة لتكسر القوارير)^(١) .

إن الأنثى رغم ضعفها البدني ، والنفسي ، فإنها تملك قوة التأثير والجاذبية مما يجعل لها أثراً فيمن حولها أكثر من الرجل في أي موقع كانت . . أختاً أو بنتاً أو أمّاً ، أو زوجة . . . وربما يكون سلاحها كامناً في ضعفها وتدفق عواطفها ، كما نص الحديث على ذلك حديث رسول الله ﷺ مخاطباً النساء : «ما رأيتُ من ناقصات عقلٍ ودينٍ أغلبَ لذي لبٍ منكن»^(٢) .

فهذا صاحب العقل الراجح ، والطبع الحازم ، تغلبه المرأة ناقصة العقل ، بما تملكه من قوة التأثير النفسي ، ذلك التأثير الذي يعطل أكبر عقل رجل .

وقد علل رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب هذا النقص ولم يطلقه ﷺ ، بل قيده ﷺ بأمرين : «أما نُقصانُ العقلِ فشهادةُ امرأتينِ تعدلُ شهادةَ رجلٍ : فهذا نُقصانُ العقلِ ، وتمكُّثُ الليالي ما تُصلي ، وتُفطر في رمضان ، فهذا نُقصانُ الدين»^(٣) .

وهكذا فقد حدد رسول الله ﷺ سبب هذا النقص ، وهو كامن في الشهادة التي لا تصلح لها النساء ، وأما ما يختص في أمورهن فشهادة المرأة الواحدة مقبولة وتعتبر أساساً في الحكم .

وفي الرواية الأخرى عند الإمام البخاري قال ﷺ : «ما رأيتُ من ناقصاتِ

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب الفضائل ، باب رحمة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء ، ص ١٨١٢ ، ح (٢٣٢٣) .

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ١ ، كتاب الإيمان ، ص ٨٦ ، ح (٧٩)

* (أنجشة) : الأسود الحادي . . كان حسن الصوت بالحذاء ، وكان حبشياً يكنى أبا مارية ، قيل كان ممن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم من المخنثين من البيوت ، (الإصابة ١ / ٦٧) .

(٣) مسلم ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ^(١) .

إن المرأة بغنى عواطفها ، ولين أنوثتها ، ورقة حواسها ، تستطيع بكل هذا لأن تغلب عقلها - بل عقل الرجل الحازم ، صاحب اللب الكبير ؟ فهل ثمة بعد من دعوى تقول بأن نقص العقل هذا الذي قالوه ؟ ليست له قوة ! بل القوة كامنة في المشاعر والعواطف التي تستطيع بها أن تغلب ذا العقل والحكمة ، وهذا ما تحتاجه عملية التربية والتعامل مع الأسرة ، لاسيما الزوج والصغار .

إن طبيعة الأنثى التي تجعلها ألطف من الرجل، وأرق عواطفاً ، وأغنى بالمشاعر، تجعل النمط الوجداني والأدبي هو المسيطر على تصرفاتها وسلوكها أكثر من الرجل ، وربما يكون ذلك لأنها هي المكلفة بتربية الصغار وإعدادهم في الفترة الأولى من العمر خاصة ، تلك السنوات التي لا يستطيع أي إنسان أن يتحرر من أثرها طول الحياة ، فلا غرو أن يطغى هذا الجانب من شخصيتها على حساب العقل والتفكير والتخطيط والتنفيذ .

إنها أنثى ! ، وليست ذكراً ! .

إن الإسلام راعى هذا في كل شأن من شؤون الحياة ، حتى في أصعب المواقف وأحلك الظروف ، إنها لا تُنسى أنها أنثى ، كما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يشفق على صفية ، رضي الله عنها - عمته صلى الله عليه وآله وسلم ، يوم أحد ، فلا يشغله الموقف رغم ثقله ووطأته وصعوبته ، عن أن يشفق على هذه المرأة من رؤية ذوبها قتلى ، فقد جاءت صفية رضي الله عنها «يوم أحد وقد انهزم الناس ويبيدها رمح تضرب في وجههم فقال النبي ﷺ «يا زبير المرأة» لقد أشفق رسول الله ﷺ على صفية رضي الله عنها من صدمة نفسه من رؤية أخيها حمزة - رضي الله عنه مقتولاً (شهيداً) يوم أحد ، وقد مثل به ، لا لشيء ، إلا لأنها امرأة : «يا زبير المرأة»^(٢) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م ، ١ ، ج ، ١ ، كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ، ص ٩٠ ، ح (٣٠٤) .

(٢) انظر : ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ ، ص ٣٤٩ .

الفصل الثاني عشر

وظائف فسيولوجية خاصة بالمرأة

إن الرجل له وظيفته في الحياة بما يتناسب مع طبيعته البدنية والنفسية ولن يستطيع يوماً ما أن يقوم بوظيفة الأنثى على الإطلاق ! والمرأة كذلك لها دورها في الحياة ، بما يحقق لها إشباع فطرتها التي لن تسعد أبداً إذا حولت عنها في يوم من الأيام ، فهي الزوجة والأم والحانية والراعية والمربية ، وهي السكن والمحضن لأسرتها وذويها ، إنها نسمة الأمان والحنان والطمأنينة والسكينة في هذه الدنيا ، إنها الحامل والمرضع ، والوالدة ، فإذا ما ركبت رأسها - أو أكرهت - لتكون رجلاً فخرجت لتعمل وتناطح الحياة خارج البيت، فسوف تصل في النهاية إلى لاشيء لأنها خرجت عن السنن الفطرية . . ماذا تفعل إذا حدَّ قوتها وسلب نشاطها ألم الحيض وتقلباته ، ماذا تفعل إذا حملت ! وإذا نفست ! ثم الطفل الذي وُهِبَتْه من يقوم بشأنه، كل هذا لامناص لها منه إذا أرادت أن تعيش في الحياة كأنتى كما خلقت . . هل تستطيع أن تتخلص من الحيض والحمل ثم الولادة والنفاس والرضاع . . وإن استطاعت واحدة، فلن تستطيع أخرى هذه فطرتها ، وخلقتها، وهذا دورها ، فإذا تنكرت لكل ذلك فمن يمد المجتمع بالأفراد في دورة الحياة بين الولادة والموت .

أيطلب من الرجل أن يصبح أنثى؟ ، أم يتقاسمان الإنجاب ! . . بل حتى لو اتفقا على ذلك ووقعا العقود والمواثيق ، فلن يتحول الرجل إلى (أم) لأنه طبيعياً لم يهيا لهذه الوظيفة .

إن الأنثى وحدها هي التي ميزت بوظائف طبيعية لا تستطيع الفكاك منها ، وهي التي جعلتها أنثى وأماً إنها . . الحيض ، والحمل ، والولادة والنفاس ، والرضاع . . وظائف ليس للرجل فيها أدنى مشاركة ، سوى أن يرعى هذه الأم ويقوم بشأنها وشأن وليدها . . فماذا عن هذه الوظائف الطبيعية (الفيسيولوجية) ؟

١- الحيض

الحيض لغةً : حَاضَ السَّيْلُ إِذَا فَاضَ ، حَاضَتِ الْمَرْأَةُ تَحِيضُ حَيْضًا ، وَمَحِيضًا ، وَيُقَالُ : حَاضَتْ وَنَفَسَتْ وَدَرَسَتْ وَطَمِثَتْ وَضَحَكَتْ .

تَحِيضَتِ الْمَرْأَةُ تَرَكَّتِ الصَّلَاةَ أَيَّامَ حَيْضِهَا ، وَاسْتُحِيضَتِ الْمَرْأَةُ اسْتَمَرَّ بِهَا الدَّمُ

بعد أيامها ، ويقع المَحِيضُ على المصدر والزمان والدم^(١) .

وفي القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ (سورة البقرة آية ٢٢٢ - ٢٢٣)

لقد نص القرآن الكريم على أن الحيض أذى يصيب المرأة منه الكثير من المتاعب والآلام ، عدا عما يرافقه من جراثيم وقذر . فهو أذى . . لم يستثن الله سبحانه وتعالى من المحيض شيئاً إنه كله أذى ، والأذى يطلق في اللغة على النجاسة والشعر والشوك والحجر ، والأذى كل ما تأذيت به ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قول تعالى : ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفُتِيَةٌ ﴾ (سورة البقرة - آية ١٩٦) وذلك في أحكام الحج ؛ وفسر الإمام الزمخشري الأذى في هذه الآية بأنه (القمل أو الجراحة)^(٢) .

وعلى ذلك فإن الحيض يشبه الجرح الذي ينزف منه الدم فيتأذى صاحبه من ألم وغير ذلك مما يحدثه هذا الجرح .

وهل أدل وأبلغ من صعوبة الحيض وشدته من قوله تعالى ﴿هُوَ أَذًى﴾ كل ما فيه أذى فلا تقربوه واجتنبوا الجماع في هذه المدة حتى ينقطع هذا الدم وأثره، ويستطب الجرح ، ويلتئم ، فيزول منه الأذى والضرر للزوجين كليهما .

إن إتيان النساء لا يكون إلا في موضع الحرث والإنجاب ، فإذا كان الحيض أذى فغيره أشد وأقذر منه أذى - ويكفي ما أثبتته العلم اليوم أنكم أسباب انتشار الإيدز، هي مخالفة أمر الله سبحانه في ذلك والتي هي السبب الأول في حصوله ، وما أشبه حامله يقوم لوط حين طهر الله سبحانه وتعالى الأرض منهم بالمطر الذي أتى على كل أثر لهم ، كما يفعل اليوم بموتى الإيدز بالحرق والتطهير ، فالإتيان من

(١) ابن منظور لسان العرب ، ج ٣ ، مادة (حيض) ص ٤١٩ .

(٢) الكشف ج ١ ، ص ٣٤٤ .

حيث أمر الله سبحانه وتعالى ، في موضع الحرث ، وفي الظهر . . فالحيض ما هو إلا مرض يصيب الأنثى ، وهي بحاجة إلى الراحة حتى تعود الأمور إلى طبيعتها ، فتغتسل وتتطهر استعداداً لبدء دورة جديدة في الحياة، قد يكون منها حمل إذا كان لهذه الأنثى زوج، وقد رتب القرآن الكريم من ثم الحديث عن الحرث مباشرة وهو السعي للذرية فوصله بما سبق من الكلام عن الحيض، الذي هو السبب الرئيس في حصول الحمل ، ونادراً ما يتم الحمل بلا حيض ذلك أن الحيض هو أول مؤشر لبدء الحياة التناسلية عند الفتاة^(١).

وهو شطر مما أطلق عليه القرآن الكريم ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ (سورة النساء-آية ٦) .

«كما أن أهم علامات انتهاء هذه الحياة التناسلية هو توقف الحيض عند سن اليأس . .

كذلك يعتبر توقف الحيض أثناء الحياة التناسلية للمرأة أول علامات الحمل . . كما أن اضطرابات الحيض بزيادة أو نقصان أحد الأسباب المؤدية إلى العقم أو إلى الإجهاض عند حصول الحمل^(٢) .

فالحيض يرتبط ارتباطاً كبيراً بالحمل والإنجاب ومد الحياة بالذرية التي عبر عنها القرآن الكريم بالحرث .

وورد ذكر الحيض في الحديث الشريف، فحين حاضت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الحج ، وأصابها الهم والحزن واساها الرسول ﷺ قائلاً صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ»^(٣) .

إنها الطبيعة والجبلة التي خلقت عليها النساء .

فلا مناص منها والله سبحانه وتعالى ، الذي خلق الخلق -وهو أعلم سبحانه بمن خلق - خفف عن النساء في الحيض ، فأسقط عنهن الصلاة فيه ولا قضاء عليهن ، وكذلك أخر عليهن الصوم ، فلا تصوم المرأة حتى تطهر من الحيض .

(١) انظر : د / محمد علي البار ، دورة الأرحام ، ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) البخاري ، الصحيح ، ١ م ، ١ ج ، كتاب الحيض ، باب الأمر بالنفساء إذا نفسن ، ص ٨٨ ، ح (٢٩٤) ، الصحيح ، ٢ ج ، كتاب الحج ، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران وجواز إدخال الحج على عمره ومتى يحل القارن من نسكه ، ص ٨٧٣ ، ج (١٢١٢) .

قال صلى الله عليه وسلم مجيباً على سؤال إحدى الصحابييات رضي الله عنهن «أليس إذ حاضت لم تصل ولم تصم» قلن : بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها»^(١) .
وهكذا فإنه يترتب على هذا الأمر من شؤون النساء أحوال وأحكام في الدين والدنيا ، بل وإن الفقه الإسلامي يزخر بالأحكام التي تنبت عن هذه الوظيفة الطبيعية عندهن . قال الله تعالى :

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ * عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ (سورة الرعد- آية ٨-٩) .

ذكر الإمام الطبري في تفسيره أن معنى قوله تعالى : «ما تغيض الأرحام» أي الدم الذي تراه المرأة في الحمل حيث قيل : هو حيض المرأة على ولدها وقيل هو الإهراق التي تأخذ النساء على الحمل^(٢) وقال الزمخشري رحمه الله في الكشف : «ويعلم ما تغيضه الأرحام : أي تنقصه يقال غاض الماء وغضته أنا ومنه قوله تعالى ﴿وغيض الماء﴾ (سورة هود- آية ٤٤) وما تزداده ، أي تأخذه زائداً»^(٣) والغيض من غاض يغيض أي نقص أو غار، وغيضت الدمع نقضته وحبسته ، والغيضة : مغيض ماءٍ يجتمع فينبئ فيه الشجر والغيض : الطلع^(٤) .

كانت تلك المعاني اللغوية للكلمة وكأنها من ألفاظ الأضداد في معناها . وهي تنطبق على الحالة التي تصيب الأرحام ، من الزيادة والنقص والنمو والحمل إلى آخره فالرحم في تغير مستمر لا تهدأ على حال، والآية الكريمة بألفاظها وتعابيرها وجرسها وبلاغتها تصور الحال التي عليها الأرحام . . إنها في تغير مستمر على الدوام نقص وزيادة ونمو .

إن للرحم دورة مستمرة متواصلة متعاقبة ، فهي تبدأ من حيث تنتهي وهي

(١) البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ١ ، كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ، ج ١ ، ص ٩٠ ، ح (٣٠٤) .

(٢) انظر : م ٨ ، ج ١٣ ، ص ١١٢ .

(٣) ج ٢ ، ص ٣٥١ .

(٤) ابن منظور لسان العرب ، ج ١٠ ، مادة (غيض) ص ١٥٧ .

في كل ذلك تنتهياً لمحصول الحمل حتى إذا يئست منه نزلت دم الحيض ، وإذا طال بها العمر توقفت عن ذلك إلا في حالات مرضية لا تذكر .

وقد ذكر كتاب «دورة الأرحام» مراحل دورة الرحم في الحيض وما يصيبه ويطرأ عليه خلال هذه الفترة حيث جاء فيه : «إن رحم المرأة ومبيضها وأثداءها بل وجهازها التناسلي يمر بدورة شهرية كاملة حسب تغير الهرمونات في جسمها - وللرحم غشاء يبطنه من الداخل - فان هذه الدورة لا تبدأ إلا بعد انتهاء الطمث مباشرة فيكون الغشاء المبطن للرحم بسيطاً ولا تزيد ثخانتة عن نصف مليمتر وتكون أوعيته الدموية وغدده بسيطة وعندما تبدأ الدورة فإن الرحم يمر بثلاث مراحل :-

١- مرحلة النمو : في هذه الفترة ينمو الغشاء المبطن للرحم ويتضاعف حجمه أكثر من خمس مرات كما يزداد عدد الغدد وتصبح بشكل أنابيب طويلة لها خلايا عمودية وكما يزداد نمو الأوعية الدموية المغذية للرحم ويزداد طولها وتصبح لولبية الشكل .

٢- مرحلة الإفراز : في تلك المرحلة يزداد نمو الرحم بشكل ملحوظ فيزداد سمك الغشاء المبطن للرحم وتزداد حلزونية الشرايين المغذية للرحم بسبب ازدياد طولها في حيز ضيق كما يزداد عددها ، وتنمو أيضاً الغدد الرحمية نمواً كبيراً ، وكذلك تنمو الخلايا فيما بين الغدد ويكثر عددها ، فلهذا ينقلب جسم المرأة بأكمله نتيجة إفراز هرمون الحمل ويستعد الرحم والجهاز التناسلي للحمل ، ولكن إذا قدر الله ولم يحصل عندها حمل تبدأ المرحلة الثالثة .

٣- المرحلة الثالثة : عندما يعلم المبيض أن لاهمل هناك يتوقف عن إفراز هرمون الحمل وتنقبض الأوعية الدموية المغذية للرحم انقباضاً شديداً لتمنع عنه التغذية منعاً باتاً فعندها يزوي الغشاء ويتفتت ما تحته من أوعية دموية فيخرج الدم أسوداً محتويّاً على قطع الغشاء المبطن للرحم^(١) .

ويصاحب الحيض آلام تختلف في الشدة من امرأة إلى أخرى ، وأكثر النساء يصبن بآلام في أسفل الظهر والبطن ، وكذلك بالصداع النصفي (الشقيقة) وكذلك

(١) د . محمد علي السبار ، دورة الأرحام ، ص ٥١ - ٥٥ بتصرف .

بزغللة في الرؤية وقيء ، كما أنه قد يسبب فقر الدم وخاصة إذا كان الحيض شديداً غزيراً ، كما تنخفض درجة حرارة الجسم لأن العمليات الحيوية لا تتوقف في أدنى مستوى لها أثناء الحيض، ونتيجة لذلك يقل إنتاج الطاقة من الجسم ، وأيضاً تتأثر الغدد الصماء فتقل افرازاتها الحيوية الهامة للجسم ، وكذلك يبطئ النبض وينخفض ضغط الدم فيسبب الشعور بالدوخة والفتور والكسل ، وبالإضافة إلى ذلك كله تصاب الكثير من النساء بحالة من الكآبة والضيق أثناء الحيض، وبالأخص في بدايته وتصبح متقلبة المزاج سريعة الاحتياج، قليلة الاحتمال، وتصبح حالتها العقلية والفكرية في أدنى مستوى لها^(١) وإن كل هذه التغيرات التي تطرأ على الرحم ولا تتوقف تصيب الأنثى بحالة من التقلبات ، والتي تجعل حالتها الصحية بين نشاط وفتور ، فإذا حصل الحمل كان الأمر أشد وأدهى فكيف بالحيض وحده، وكيف لها أن تتحمل أكثر مما نيط بها من مهام، ولا سيما إذا غادرت البيت إلى الحقل والمصنع والشارع، فـ «الأعمال المجهدة والخروج خارج المنزل ومواجهة صعاب الحياة تحتاج إلى أعلى قدر من القوة والنشاط والطاقة .. فكيف يتأتى للمرأة ذلك وهي تواجه كل شهر هذه التغيرات الفيسيولوجية الطبيعية التي تجعلها شبه مريضة وفي أدنى حالاتها الجسدية والفكرية ، ولو أصيب رجل بنزف يفقد فيه ربع ليتر من دمه لولول ودعا بالويل والثبور وعظائم الأمور وطلب إجازة من عمله .. فكيف بالمسكينة التي تنزف كل شهر ولا يلتفت إليها أحد ..»^(٢) .

هذه هي المرأة وهذا حالها فإذا حملت ازدادت ضعفاً ، وصارت وهناً على

وهن .

٢- الحمل

قال الله تعالى في كتابه الكريم ..

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُ فِي عَامَيْنِ﴾

(سورة لقمان - آية ١٤)

إنه الوهن والضعف والتعب الذي لامندوحة عنه ولا مناص منه أي

(١) انظر د / محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٩١-٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(حملته) في حال وهنها وضعفها وهي كذلك في هذا الحمل تهن^(١) (وهناً على وهن)
 «فهي تضعف ضعفاً فوق ضعف : أي يتزايد ضعفها ويتضاعف لأن الحمل
 كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلاً وضعفاً^(٢)» وقيل (ضعفاً متتابعاً : وهو ضعف الحمل
 وضعف الطلق وضعف النفاس)^(٣) .

وقال تعالى :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا
 وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (سورة الأحقاف - آية ١٥)

إنها المشقة الجبرية والقهرية ، لكنها غاية السعادة للأُنثى .

فرغم أنها لا تستطيع الخلاص من هذا التعب وهذا الحمل لكنها تفدي هذا
 الجنين بروحها ، فهي سعيدة به بطفولية عليها ، فهي تعد للحياة نبتة جديدة
 تغذيها من لحمها ودمها وعظمها ، وهل ثمة شيء يفصح عما تعانيه الأم في الحمل
 أكثر من قول الحكيم العليم سبحانه وتعالى : (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا)
 ومع ذلك فهي تستمر في تربيته وتغذيته ﴿وفصله في عامين﴾ . يقول الأستاذ سيد
 في معنى هذه الآية الكريمة إن «تركيب الألفاظ وجرسها (في الآية الكريمة) يكاد
 يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾
 وكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ويلهث الأنفاس ! إنها صورة
 الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه ، وآلامه ،
 ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة .

ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد بينما هي تذوي
 وتموت»^(٤) .

إن الحمل حالة انقلاب تام في حياة المرأة بكل ما فيها ، بدءاً بتغير إفراز

(١) الزمخشري ، للكشاف ج ٣ ، ص ٢٣٢ ، والتقدير على أن (وهناً) في موضع الحال .

(٢) المرجع السابق

(٣) الألويسي ، روح المعاني ، م ١١ ، ج ٢١ ، ص ٨٥ .

(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج ٦ ، ٣٢٦٢ .

الهرمونات^(١) التي تنبه الأجهزة للاستعداد لهذا الجنين الضعيف فيزيد حجم الرحم ووزنه ، وتتضخم أليافه ، وتتمدد باستمرار طيلة الحمل ، فسعته التي كانت لا تزيد عن ١٠سم قبل الحمل تزداد ، فإنه بعد الحمل يتوسع ، ليستوعب الجنين والسائل «والمشيمة»، فسعته تتضاعف أكثر من (١٠٠٠ - ٢٠٠٠) مرة ، ويكون وزن الرحم قبل الحمل من خمسين إلى سبعين جراماً بينما يصبح بعد الوضع مباشرة ألفاً ومئتين^(٢) .

بل والأشد من ذلك والأعجب تلك السرعة الهائلة التي ينمو فيها الرحم «أثناء الحمل وهو أعظم وأسرع نمو في جسم الإنسان حتى أخطر السرطانات لا تنمو مثل نموه»^(٣) .

فلا غرابة أن يتبدل كيان المرأة أثناء الحمل وينقلب تماماً ، ويبدأ الحمل بالغثيان والقيء خاصة في الأشهر الأولى، فالأم تعطي جنينها كل ما يحتاج إليه من مواد غذائية مهضومة جاهزة حتى ولو كانت هي في أشد الحاجة إليها، والأكثر من ذلك ، هو أن الجنين يحصل على حاجاته من دم الأم حتى ولو اضطرت أن تعطيه ما يحتاج إليه من عظامها ، مما يسبب لها الإصابة بلين العظام ، وتسوس الأسنان بسبب سحب الجنين للكالسيوم وفيتامين (د) من جسم الأم ، كما أنها تصاب بفقر الدم أثناء الحمل بانتقال المواد الهامة لصنع الدم من الأم إلى الجنين . وفي الحمل يتحمل القلب أضعاف ما يتحمله قبل الحمل فإن القلب عليه أن يقوم بدورتي دمويتين كاملتين ، دورة للأم ودورة للجنين وتزداد كمية الدم التي يضخها قلب الأم ضعفي ما يضخه من ٦٥٠٠ لتر إلى ١٥٠٠٠ لتر يومياً ، وتزداد سرعة نبضات القلب ويكبر حجمه بسبب امتداد البطن ونمو الجنين فيضغط الحجاب الحاجز على القلب والرئتين، فيصبح التنفس أكثر صعوبة وتشكو الحامل من ضيق التنفس ، وأيضاً يضغط الرحم على الأوردة العائدة من الساقين فتمتلئ هذه الأوردة

(١) انظر : د/ باسل عبد الرحمن الشيخ ، (التغيرات الهرمونية في المرأة) ، مجلة الفيصل الطبية ، جامعة الملك فيصل، الدمام ، السعودية ، العدد الثالث عشر (ربيع الثاني ١٤٠٦هـ) ، ص ٤٨ .

(٢) انظر : د/ مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ٩٣ .

(٣) انظر : د/ محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٧٩ .

بالدماء وتنتفخ مسببة دوالي الساقين وتتورم القدمان^(١) .

ولا يقتصر الأمر على التغذية بل إن الأم تأخذ كل ما يطرحه الجنين في دمها من غاز ثاني أكسيد الكربون والمواد الضارة والفضلات ، عبر دمها ، لتعيده إليه ثانية نظيفاً منعشاً سائغاً فراتاً ، محملاً بالأوكسجين ومواد المناعة^(٢) .

ومن هنا فقد رخص الدين الإسلامي للمرأة الحامل أن تفطر في رمضان ثم تقضي بعد ذلك قياساً على المريض قال تعالى : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (سورة البقرة - آية ١٨٤) .

إن الحمل يتطلب من الجسم تغذية جيدة وخاصة في الأشهر الأولى من الحمل، حيث يستعد الجسم كله لهذا القادم الجديد ، فضعف الحامل لا يقتصر على الأشهر التي يزداد فيها ثقل الحمل وحجمه بل إن الأشهر الأولى من الحمل هي أشد وطأً وثقلًا وتتطلب منها تغذية عالية ، حيث يهاجر السكر^(٣) المخزون من عضلات الجسم إلى الرحم ، الذي تزود دمويته ليغمر هذا الجنين بحنانه ويرويه بخلاصة دمه .

إنه مما لا شك فيه ، وحال كل حامل ينطق به ، وهو أن الحالة النفسية بل والفكرية التي تعيشها الحامل ليست طبيعية ، وإنما هي أشبه بالمرض ، فهي قلقة في الغالب ، خائفة ، رغم السعادة التي تعيشها مع الحمل ، لذلك فإنها محتاجة للرعاية من قبل المحيطين بها نفسياً ومادياً ، ولذا فقد أوجب الإسلام على الزوج أو ورثته النفقة عليها ورعايتها راحة لها، وتقديراً لما تعانيه ، وإكباراً لما تقدمه ، بل إن على المحيطين بها أن يحسنوا رعايتها ومواساتها وإبعاد أسباب الهم والحزن والكآبة عنها فإله سبحانه وتعالى قد أمر مريم عليها السلام وهي حامل بالهدوء والراحة والطمأنينة بل وبالتغذية الجيدة، بعد أن هيأ لها سبحانه وتعالى كل هذا من شجرة النخيل إلى جدول الماء في أرض لأماء فيها ولانخيل وورزق في غير أوانه، لتعلم أن ما

(١) انظر د/ محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٤٥ - ٤٥٠ ؛ وكتاب عمل المرأة في الميزان ، ص ٩٣ - ٩٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، خلق الإنسان ، ص ٢٢٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

بها من حمل هو من أمر الله سبحانه، كما أن الرزق الذي يأتيها من عند الله، فتوفرت لها كل أسباب الرعاية والطمأنينة حين أرسل إليها جبريل عليه السلام مطمئناً ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (سورة آل عمران - آية ١٩٠) وكذلك في كفالة زكريا عليه السلام لها في قوله تعالى ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (سورة آل عمران - آية ٣٧)

وهذا ما قال به العلم اليوم بعد أربعمئة سنة من الوحي : «تحتاج الحامل إلى عناية شديدة من المحيطين بها في هذه الفترة بالذات ٠٠٠ إذ تكون أكثر حساسية من أي فترة مضت ٠٠٠ سريعة التأثير والانفعال ٠٠٠ والميل إلى الهموم والأحزان لأتفه الأسباب ، وذلك بسبب التغير الفسيولوجي في كل أجزاء الجسم لذا يجب أن تحاط بجو من الحنان ٠٠٠ والبعد عن الأسباب التي تؤدي إلى تأثرها وانفعالها ، وخاصة من ناحية الزوج ، أو الذين يعيشون ويتعاملون معها»^(١) .

وباختصار فإن «الحمل ليس مرضاً ، ومهما كانت آلامه فهو حالة فسيولوجية غير مريحة أكثر منها مرضية ، وإنه ثورة في جسم المرأة ، وحالة جديدة يجب ألا تسبب قلقاً متزايداً ، كما يجب ألا تقابل باستخفاف . ونحن عندما نعلم ما يجري أثناء الحمل والولادة وما سيتأتى وكيف ستتم الولادة ، يصبح انتظار المولود الجديد مغامرة شيقة»^(٢) .

وبعد هذا الحديث عن الحمل وآلامه وأحلامه، هل تفكر المرأة بتقليد الرجال ، فتأبى إلا حمل الأثقال ، والجلوس وراء المكاتب ووراء الجدران بعيداً عن رعاية الإنسان ، لتكسب دريهمات وتتعامل مع الجمادات ؟!

٣- الولادة

يقال : وَلَدَتْهُ أُمُّهُ وَلَادَةٌ ، فهي والدة على الفعل ، ووالد على النسب وولدت المرأة ولاداً وولادة ، وأولدت ، حانَ وقتُ ولادِها والوليد : المولود حين يولدُ والجمع وَلَدَانِ^(٣) .

(١) د/ محمد علي البار ، عمل المرأة في الميزان ، ص ٩٧ نقلاً عن كتاب الحمل والولادة والعقم عند الجنسين .

(٢) س . ب بلوان ، من تقديمه لكتاب إيف دوبراي ، ايلين مونتين ، الحمل والولادة - ترجمة : محمد عبدالرحمن المرعشلي ، الطبعة الأولى ، (بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٥ .

(٣) ابن منظور لسان العرب ، ج ١٥ ، مادة (ولد) ، ص ٣٩٣ .

وقد عبر القرآن الكريم عن الولادة بالوضع قال تعالى :

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (سورة الأحقاف آية ١٥)

إنها وضعت في مشقة^(١) وصعوبة ، تكاد أن تذهب بحياتها ، فالأم الولادة ليست بحاجة للوصف، يكفي أنها تسمى مخاضاً ، ويكفي تعبير القرآن الكريم عنها بالكره ، إنها لشدتها أخذت اسم المصدر فكانها صارت هي الكره نفسه ، بكل معانيه على تعددها .

بل إن القرآن الكريم يجعل عملية الوضع آية من آيات الله سبحانه وتعالى في خلق الإنسان قال تعالى : ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ* مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ* مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ* ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ (سورة عبس - آية ١٧-٢١) .

« يقول تعالى ذكره : من أي شيء خلق الإنسان الكافر ربّه حتى يتكبر ويتعظم عن طاعته والإقرار بتوحيده ، ثم بين جل ثناؤه الذي منه خلقه ، فقال ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾ أحوالاً : تارة نطفة ، ثم علقه أخرى ، ثم مضغة إلى أن أتت عليه أحواله ، وهو في رحم أمه (ثم السبيل يسره) يقول يسره للسبيل يعني الطريق^(٢) وقد ورد في تفسير «ثم السبيل يسره» بأنه سبيل الرحم وقيل خروجه من بطن أمه ، وسبيل الشقاء والسعادة^(٣) .

قال الإمام الطبري بعد أن ذكر ما قيل في تفسير هذه الآية : (وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب . قول من قال ثم الطريق، وهو الخروج من بطن أمه يسره . وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب ، لأنه أشبههما بظاهر الآية ، وذلك أن الخبر من الله قبلها ويعدّها عن صفته خلقه ، وتدييره جسمه ، وتصريفه إياه في الأحوال ، فالأولى أن يكون ذلك نظير ما قبله وبعده^(٤) .

إنه السبيل الذي يسره رب العالمين يقول الإمام ابن القيم : فإن قيل كيف يخرج من الرحم - مع ضيقه - ما هو أكبر منه بأضعاف مضاعفة ؟

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ج ٣ ، ص ٥٢٠ .
(٢) ابن جرير الطبري ، ج م ١٥ ، ج ٣٠ ، ص ٥٤ .
(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

«قيل هذا من أعظم الأدلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيتته ، فإن الرحم لابد أن ينفتح الانفتاح العظيم جداً . قال غير واحد من العقلاء ولا بد من انفصال يعرض للمفاصل العظيمة ثم تلتئم بسرعة أسرع من لمح البصر ، وقد اعترف فضلاء الأطباء وحذاقهم بذلك ، وقالوا لا يكون ذلك الا بعناية إلهية وتدبير تعجز العقول عن إدراكه وتقر للخلاق العظيم بكمال الربوبية والقدرة»^(١) . فهل سمعتم بعظام تلين مفاصلها خلال ساعات ثم تعود لوضعها الصحيح ؟! «إن مفاصل الحامل تتلين بفعل الهرمونات ، وخاصة مفاصل الحوض وتتلين أكثر كل الأنسجة الضامة في عنق الرحم وحول المهبل وهكذا فإذا آن أوان الولادة كان الحوض مؤلفاً من عظام تربطها مفاصل ليننة فتسمح لها بالابتعاد عن بعضها وتعطي الحوض سعة إضافية ، وتلين عنق الرحم هو الذي سمح له بالاتساع»^(٢) . بل إن جلسة الجنين في الرحم والكيفية التي يخرج بها فهي آية أخرى تستدعي التفكير في قدرة الله سبحانه وتعالى . . . وقد أحسن الإمام ابن القيم في لفت الانتباه إلى تيسير خروج الجنين سالماً من بطن أمه فقال رحمه الله في وصف الجنين : «وهو معتمد بوجهه على رجليه، وبراحتيه على ركبتيه ، ورجلاه مضمومتان إلى قدميه، ووجهه إلى ظهر أمه ، وهذا من العناية الإلهية أن أجلسه هذه الجلسة في المكان الضيق في الرحم على هذا الشكل فإنه إذا خرج أول ما يخرج منه رأسه لأن الرأس إذا خرج أولاً كان خروج سائر أعضائه سهلاً . . . ولو خرج على غير هذا الوجه لكان فيه تعويق وعسر . . .

فإن الرجلين لو خرجتا أولاً انعاق خروج الباقي . . . وإن خرجت الرجل الواحدة أولاً انعاق عند الثانية . . . وإن خرجتا معاً انعاق عند اليدين ، وإن خرجت الرجلان واليدان انعاق عند الرأس فكان يلتوي إلى خلف ، وتلتوي السرة إلى العنق فيألم الرحم، ويصعب خروج الجنين ويؤدي الى مرضه وتلفه»^(٣) .

سبحان الله القادر القائل في الذكر الحكيم : ﴿وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ (سورة الحج - آية ٥) .

أجل يخرج الجنين طِفْلاً كاملاً عندما يحين الأجل ، كما يحين بعد أجل الموت ، البداية واحدة ، والنهاية واحدة .

(١) التبيان في أقسام القرآن ، ص ٢٢٤ .

(٢) د / مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ٨٥ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن ، ص ٢٢٣ .

وقد تنبه العلم الحديث إلى أن أجل الولادة ووقتها لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى وهذه شهادة الطب .

يقول الدكتور مأمون شقفة وهو يتحدث عن الأجل المسمى ووقت الولادة ذاكراً ما قد يكون من الرحم حتى يبلغ الجنين أجله . . «أذكر قصة صارت معي حديثاً، فقد قررنا تحريض المخاض لحامل قبل موعد ولادتها لوجود استطباب طبي معين وقد أظهرت دراساتنا ومراقباتنا بالوسائل الحديثة أن الجنين قد بدأ «ينزعج» من استمرار الحمل . . . وحرصنا المخاض وفشلنا وأعدنا التحريض بأسلوب آخر وفشلنا، وأعدنا التحريض بأسلوب آخر وفشلنا . . . فقررنا الانتظار بضعة أيام مادامت حالة الجنين تسمح بذلك . . . وهو تحت مراقبتنا على أية حال . . . وحين حضرت إلى المستشفى في اليوم التالي فوجئت بأن المرأة المذكورة قد ولدت فقد بدأ المخاض عندها من تلقاء نفسه وتطور تطوراً طبيعياً وولدت بسلام خلال ساعات ، فهذا يدل على أن الجنين مصر على بقاءه في مكانه حتى يبلغ أجله المسمى وقدره المعلوم ف سبحانه القدرة الإلهية»^(١) .

«إنه في الحالات التي يستطب فيها تحريض المخاض (الطلق الصناعي) لوجود خطر على الأم أو على الجنين فإن الرحم يتجاوب معنا ويتقلص بسهولة إذا كان الاستطباب صحيحاً ، وكان هنالك خطر على حياة أحدهما أو كليهما ويمكن أن يحدث العكس بحيث لا يتجاوب الرحم مع التحريض ويتعبنا كثيراً حتى يلد ، وأحياناً يرفض الولادة مما يجعلنا نلجأ إلى إجراء عملية قيصرية»^(٢) .

ولكن ما آلية الرحم في خروج الجنين ؟ (لماذا يتقلص الرحم ولماذا يرتخي ؟ أثناء التقلص ينقبض الرحم على محتواه من كل الاتجاهات، ينتج عن ذلك قوة تتجه نحو عنق الرحم ومحور الحوض ، فكيف حسب هذا الاتجاه أثناء ترتيب ألياف الطبقة الشبكية في جدار الرحم وهي تتخلق وتتشبك، وكيف تتوزع هذه التقلصات على جدران الرحم بحيث يتجه الجنين إلى الصحيح ؟ هندسة . . . وتصميم بديع . . .

(١) القرار المكين ص ٨٠ ،

(٢) القرار المكين ص ٨٣ بتصرف ،

وإن الرحم يتبع كل تقلص بارتخاء ولو استمر على التقلص لمات الجنين على الفور بسبب انقطاع الأكسجين عنه، لأنه عند التقلص يغلق العروق التي بدم الحامل إلى المشيمة وتعود به منها والجنين لا يتحمل نقص الأوكسجين أكثر من بضعة دقائق، وهكذا نرى أن الرحم يتصرف بشكل يحافظ على سلامة الأم والجنين وعلى مستقبله أيضاً ، فالرحم الذي يستمر على اتباع كل تقلص بارتخاء ينقبض فور انتهاء الولادة فلا يرتخي أبداً ولو ارتخي في هذا الوقت كعادته لماتت كل النساء من النزف، فهذا الانقباض الفوري ضروري جداً لمنع النزف، فإن جدار الرحم يكون كالإسفنجة الممتلئة بالدم ولا بد من الضغط الشديد على العروق المفتوحة على جوفه لإغلاقها^(١) سبحان الله العظيم ﴿قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدّره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره ﴿ (سورة عبس - آيه ١٧-٢١)

ثم ماذا يحصل بعد خروج هذا الجنين من ذلك الرحم الذي عشنش فيه منشبة المشيمة أظفارها في جداره ، حتى إذا ما غادرته خلفت جروحاً تنزف دماً؟! يقول كتاب «الطب محراب الإيمان» في ذلك : (وعندما يصل المولود إلى هذه الحياة تحصل قضية أيضاً هي معجزة في حد ذاتها وهي في . .

«حجم الرحم الكبير والفراغ الكبير بعد خروج الجنين، وليس هذا المهم بقدر أهمية انسلاخ المشيمة ، وانفتاح برك الدم التي كانت تغذي الجنين ، لولا إرادة الله العجيبة التي حفظت هذا الكائن في كل مراحله لكانت كل ولادة معناها الموت الحقيقي للأم ، لأن الدم سيخرج كالسيل الدافق من أفواه تلك البرك التي تنضح به، ولكن ما إن تنزل المشيمة حتى ينقبض الرحم بشكل عجيب حيث يصبح بقساوة الحجر وسميت الرحم في هذه الحالة بكرة الأمان تطمئن الطبيب إلى أن الوضع على مايرام ولا خوف على الأم التي وضعت فتبارك الله أحسن الخالقين»^(٢) .

لقد قدم القرآن الكريم نموذجاً في ولادة مريم للمسيح عليهما السلام

(١) د . مأمون شقفة، القرار المكين ص ٨٥ - ٨٧ بتصرف .

(٢) د / خالص جليبي ، ص ٨٦- ٨٧ .

قال الله تعالى ﴿فَاجْأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَذْعِ النَخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ فنادى لها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً* وهزى إليك بجذع النخلة تسقط عليك رطباً جنياً* فكلي واشربي وقري عينا فإما تترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ (سورة مريم - آية ٢٣-٢٦)

إن البشير جاءها من رب العالمين بولادة عيسى عليه السلام ، ومع ذلك فإنه يتكرر التأكيد على مريم عليها السلام بالأتحزن وعليها أن تطرح الهم جانباً في وضعها ومخاضها ، إنه أمر من الله عز وجل ألا تحزن وأن تسعد نفساً ، لقد جاءها النداء (ألا تحزني) (كلي واشربي وقري عينا) أي «طبيبي نفساً ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك»^(١) وفي الآية الكريمة أيضاً تسليتها عليها السلام بما تضمنته الآية من إجراء الماء، ﴿سَرِيًّا﴾ أي نهراً وإخراج الرطب من حيث إنهما أمران خارقان للعادة ، فكأنه قيل لا تحزني فإن الله تعالى ينزه ساحتك عما يختلج في صدورهم ، وفرع على التسلية الأمر بالأكل والشرب لأن الحزين قد لا يتفرغ لمثل ذلك وأكد ذلك بالأمر الأخير^(٢) وهو (وقري عينا) واليوم وبعد مرور أربعمئة سنة على الوحي ، يكشف العلم هذه الحقيقة وهي ضرورة راحة الماخض النفسية ، وضرورة تغذيتها بصورة جيدة وسليمة فماذا قال الطب في حال مريم عليها السلام :

«كل هذه المعجزات جعلت العذراء مريم ألا تحزن وأن تقر عينها، وفي ذلك إعجاز طبي بليغ فإنه من المعروف طبياً في وقتنا الحاضر أن الاضطرابات والقلق والتوتر العصبي والحزن تسبب الكثير من المتاعب ، وذلك لأنها تؤثر على أعصاب الجسم وعلى الإفرازات الهرمونية فيه وكيمائياته الأخرى ، فتتأثر بذلك العمليات الحيوية في الجسم من عمليات هضم واستقلاب وتنفس ، إن الحزن والاضطرابات النفسية لها الأثر الفعال والكبير في إحداث الاضطرابات العقلية وعلى حيوية الجسم وكيمائياته ومقاومته للأمراض ، فتقل مقاومة الجسم وتحدث تشنجات وتقلصات للعضلات بغير انتظام مما يؤثر على عضلة الرحم الضخمة التي لها الأهمية الكبرى في عملية الولادة»^(٣) .

(١) الزمخشري ، الكشاف ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

(٢) انظر : الألوسي ، روح المعاني ، م ٨ ، ج ١٦ ، ص ٨٦ .

(٣) د . السعيد ، الرطب والنخلة ، ص ١٧٠-١٧٠ .

إن الأم الوالدة ينبغي أن تحاط بجو من الرعاية والهدوء والطمأنينة لأن أي انفعال يمكن أن يتسبب في مضاعفات خطيرة على الأم والمولود .

وهذه شهادة طبيب آخر إذ يقول « إن التعقيدات التي تعاني منها الأم في أثناء ولادة الطفل قد يكون منشؤها قائماً عن الظروف الانفعالية ، السيئة التي تعاني منها مما يؤدي إلى عسر الولادة ، أو اختناق الوليد أثناء الولادة ، أو وفاته بسبب الصعوبات التي تعاني منها أثناء ولادته أو إلى نشوء ما يسمى بالأمراض الولادية والعاهات التي يكون مصدرها البيئة الجنينية في رحم الأم ، لا العوامل الوراثية»^(١) .

« إن الضغوط الانتقالية التي تنشأ عن الخوف والقلق لها آثارها البعيدة في طرز الفعالية الرحمية وإن هذين الانفعاليين وغيرهما قد يؤديان إلى حدوث ارتباك في إفراز الغدد الصماء في دم الأم ، والتي تنشأ عنها اضطرابات سيئة الأثر في حياة الجنين نفسه»^(٢) وقد تتسبب مثل هذه الضغوط في ولادة إنسان يعيش معوقاً مدى الحياة، فلا بد من السعي لإيجاد الجو المناسب للأم الماخض ، يقول الدكتور عبدالغني تبارة «لقد أفادت التجارب والملاحظات المتكررة الأكيدة أن وجود إنسان قريب ودود ومؤنس إلى جانب الحامل يلعب دوراً رئيسياً في نفسياتها، وبالتالي في تسهيل الولادة وانعدام المشكلات والأذيات التي تلحق بالجنين وخاصة الأذيات الناجمة عن نقص الأكسجين، وقد ثبت لدى العلماء أن وجود ذلك القريب المؤنس معها يقلل من إفراز بعض المستقلبات الكيماوية (الكالكاتي كولامين) وهي نتاج هرمون (الأدرينالين)*

هذا الهرمون الذي يفرزه الجسم حين يضطرب الإنسان أو يصاب بالذعر ولكن حين تختفي نسبة (الأدرينالين) أو تتلاشى فإن عضلات بطن الأم وأوعيتها الدموية وأحشائها تنشط في وظائفها فيزداد صبيب الدم مغذياً الرحم والجنين ، فتنتعش حالة الجنين أثناء المخاض وتتضاءل عقايبيل نقص الأكسجين ، هذا النقص الذي إذا لم يؤدي إلى وفاة المولود فإنه سوف يخلف فيه آثاراً خطيرة قد تجعل حياته مفعمة

(١)، (٢) د/ السعيد ، الرطب والنخلة ، ص ٧ نقلاً عن كتاب (الطفل هذا الكائن العجيب، ص ١٦ د/ ضياء الدين أبو الحب).

(*) الأدرينالين : هرمون يفرز عند الانفعال الشعور بالخطر ، يحفز سرعة خفقان القلب والتنفس وتضييق الأوعية الدموية . (معجم البيولوجيا ، ستوكلي ، ص ١٦٠).

بالمآسي ، تبدأ بالتأخر العقلي أو تؤدي إلى الاضطراب العاطفي أو الانحراف المزاجي أو النفسي»^(١) .

فما أتى به القرآن هو الحق إنه وحي رب العالمين !

ولقد ثبت حديثاً أنه من الممكن اتباع بعض الطرق التي تجعل الولادة تحدث دون خوف ودون ألم وتستند أهم هذه الطرق الى الارتكاس الإشرطي (البافلوفي) فمنذ مئات السنين ترتبط كلمة ولادة بكلمة ألم، فالمرأة التي تشعر بالتقلصات الأولى يقال بأنها تشعر ببداية الألم مما يؤدي إلى فعل منعكس شرطي متعلم ، فالخوف من الألم والمعاناة يخلق لدى الحامل ردة فعل من الاحتراس والريبة وهذا ما يبعث على التوتر بدلاً من الاسترخاء ، مما يؤدي إلى عرقلة التطور الطبيعي لعملية الولادة ، وبالتالي إلى مضاعفة الآلام وتضخمها وجعل الولادة صعبة ومعقدة إذاً يجب العمل على إلقاء الخوف وحذفه ولا بد من تحضير جسدي ونفسي لتحقيق ذلك^(٢) سبحانه الله هل ثمة خوف أكثر من خوف مريم عليها السلام حين ولادتها بعبسى ولذا فقد جاءها النداء مطمئناً . فحملها معجزة، وتطمينها معجزة أخرى .

وقد هيا الله عز وجل لمريم عليها السلام كل أسباب الرعاية والراحة ، ومن ذلك وجود الرطب حين أمرها الله عز وجل بالأكل منه ﴿وَهْزَى إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تُسَلِّطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (سورة مريم-آية ٢٥-٢٦) ذلك أن الرطب مهدئ للأعصاب وباعث على الراحة النفسية للإنسان ولا سيما للماخض ذلك أن الرطب والتمر يساعدان على عملية الولادة وتسهيلها ، وتوقف النزف الناتج عن الولادة ، ويعطي الطاقة لعضلة الرحم لتقوم بعملها على أكمل وجه ، بالإضافة إلى تغذية الوالدة وجنينها ، مع تنظيف القولون بتليين الأمعاء ، مما يؤمن سلامة ونظافة سبيل الولادة^(٣) .

لقد أمر القرآن الكريم مريم عليها السلام بالأكل والشرب أثناء الولادة ، وهذا ما يقوم به الأطباء اليوم فعلماء التوليد يقدمون للحامل وهي بحالة المخاض الماء

(١) «نحن وكتاب سيكولوجية الأمومة» ، مقدمة كتاب سيكولوجية الأمومة ، د . عدنان السبيعي، ص / ن ، ص

(٢) انظر : د . فائز قنطار ، الأمومة ، ص ٧٠-٧١ .

(٣) انظر : د . السعيد ، الرطب والنخلة ، ص ١٥٥

والسكر بشكل سوائل سكرية^(١) ، ولقد نصت الآية الكريمة على إعطاء السوائل أيضاً مع السكاكر بقوله تعالى ﴿فَكُلْ وَاشْرَبْ﴾ .

يقول مؤلف كتاب الرطب والنخلة : «إن جريان النهر ووجود الماء فيه في هذا الوقت بالذات عند مخاض العذراء وتعبها وانقطاع الماء عنها ، لوجودها في مكان بعيد وحاجتها الماسة للماء فيه بلاغة علمية وطبية ناصعة الوضوح ، وخصوصاً فإن السيدة في وقت مخاضها تنصح بأخذ كمية مناسبة من الماء مع الجلوكوز لتساعد الخلايا في القيام بالعمليات الحيوية الضرورية للجسم ، ولتغذي الجسم بالمصاحب للحوامل ، لتغذي جسمها ويهدأ بالها ويدر حليب ثديها بعد الولادة لوجود الماء الذي يكون نسبة عالية من الحليب حوالي ٨٧% ، ولوجود الكثير من الأملاح .. في الرطب الجني والتي تدخل في تركيب الحليب مثل الكالسيوم ، وكذلك لوجود فيتامين (ب) (الريبوفلافين) التي جميعها تساعد على تكوين الحليب في ثدي الأم»^(٢) .

«ومن حكمة إعطاء المرأة الماء مع الجلوكوز وقت المخاض أن تحصل على الطاقة اللازمة للنسجة ، ومنع الجفاف خلال فترة الولادة الناتج عن الإجهاد والجهد المبذول أثناء المخاض ، وأيضاً قلة الماء تسبب تقليل حجم السوائل التي في الجسم وخصوصاً الموجودة في الأوعية الدموية مما يزيد من خفقان القلب ودقاته فيزيد الإجهاد لعضلات القلب ، وإعطاء الماء بكمية مناسبة يقلل من فقدان الشوارد والكيماويات (المواد) الموجودة في الدم أثناء فقدان ونزيف الدم في وقت الولادة، ونزول الخلاص ، لأنه يخفف من تركيز الدم مؤقتاً ، وكذلك شرب الماء يخفف العصارة الحامضية للمعدة فيمنع من ضررها على الجهاز الرئوي والأسنان والفم في حالة القيء إذا حدث ، من كل ذلك نرى أن هناك حكمة بالغة في أكل الرطب

(١) انظر : د/أحمد قرقوز وعبد الحميد دياب ، مع الطب في القرآن الكريم ، الطبعة الثانية، ص ١٦٠.

(٢) د/السعيد ، الرطب والنخلة ، ص ١٦٢.

وشرب الماء أثناء الولادة»^(١) .

إن الماء ضروري جداً للحياة والجسم الحي وأنسجته لإقيامه بوظائف عديدة ويدونه لا يقدر الجسم على القيام بالعمليات والوظائف الحيوية ، ويكفي القول هنا بأن الماء يكون نسبة عالية من جسم الانسان فالماء يكون حوالي ٩١% من جسم الجنين وهو في بطن أمه وعمره خمسة أشهر ، و ٨٠% من جسم المولود حديثاً^(٢) .

وأخيراً .. فينبغي أن تحف الماخض بجو من العناية والحنان وتوفير كل مايهيء لها سبل الراحة الجسمية والنفسية ، والصحابة -رضي الله عنهم- بفطرتهم قد تنبهوا إلى أهمية ذلك .

يقول أنس بن مالك ، -رضي الله عنه- إن أم سليم وزوجها -رضي الله عنهما- كانا في سفر مع رسول الله ﷺ (وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة في سفر لا يطرُقها طُرُقاً فدنا من المدينة فضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة* وانطلق رسول الله ﷺ قال : يقول أبو طلحة : إِنَّكَ لتَعْلَمُ يَا رَبِّ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرَجَ مع رسولك إذا خرجَ وأدخلَ معه إذا دخلَ وقد احتبست بما ترى قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ما أجْدُ الذي كنتُ أجْدُ ، انطلقْ فانطلقنا . قال وضربها المخاض حين قدماً ، فولدت غلاماً فقالت لي أمي : يا أنس ! لا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حتى تَعْدُوَ به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبح اختمَلْتُهُ فانطلقتُ به إلى رسول الله ﷺ فلما رأيته قال : «لعل أم سليم وُلدت» قلت نعم قال وجئت به فوضعتُه في حَجْرِهِ . ودعا رسول الله ﷺ بعجوةٍ من عجوة المدينة فلاكها في فيه

(١) د/ السعيد ، الرطب والنخلة ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(*) أبو طلحة الأنصاري زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن النجار ، مشهور بكنيته وهو زوج أم سليم ، من فضلاء الصحابة ، تَرَسَّسَ لرسول الله ﷺ يوم أحد ب صدره وقال هكذا ألا يصيبك بعض سهامهم ، نحري دون نحرك ، أعطاه رسول الله يوم حلق بمنى شقَّةً الأيسر كله وأعطى الصحابة الشقَّ الأيمن الشعرة والشعرتين ، شهد بدرًا ، كان كثير الغزو ، مات غازياً في البحر فما وجدوا جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام ولم يتغير ، توفي سنة خميس أو إحدى وخمسين . (الإصابة ١/ ٥٦٦) .

حتى ذابت ، ثم قذفها في ربي الصبي فجعل الصبي يتكلمها* . قال فقال رسول الله ﷺ : «انظروا إلى حبِّ الأنصارِ التَّمَرِّ» قال فمسح وجهه وسماه عبد الله^(١)

لقد أبى عبد الله رضي الله عنه المولود إلا أن يولد في المدينة وبجوار رسول الله ﷺ ، فيحنكه ﷺ ويباركه ويسميه ﷺ ، ولا عجب فمن هو هذا المولود إنه صاحب دعوة رسول الله ﷺ حين أتى أبو طلحة رضي الله عنه شاكياً أم سليم إلى رسول الله ﷺ وما فعلته من تجلد وصبر حين مات ابنها . قال أنس رضي الله عنه ما كان في الأنصار ناشئ أفضل من هذا المولود، ولد لعبد الله بن أبي طلحة عشرة ذكور كلهم يقرؤون القرآن وروى أكثرهم العلم وكان أحدهم شيخ الإمام مالك رحمه الله^(٢) ، فكانت دعوة رسول الله ﷺ لهم جميعاً بالبركة ، إنها أم سليم رضي الله عنها وأرضاها ، وحري بالولودات والوالدات أن يكن مثلها فهي نبراس يقتدى بها رضي الله عنها .

٤- النفاس .

النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، فهي نفساء ، والنفس : الدم ونفست المرأة ونفست بالكسر نفساً ونفاسة ونفاساً ، وهي نفساء ونفساء ونفساء .

والنفساء : الوالدة والحامل والحائض .

والنفوس : المولود^(٣) .

والنفاس في الطب : الفترة التي تلي الولادة والتي تؤدي إلى عودة الرحم وجهاز المرأة التناسلي إلى حالته الطبيعية قبل الولادة، ورغم أن الولود (أي التي أنجبت)، لا يمكن أن تعود كما كانت عليه قبل الولادة بصورة كاملة إلا أنها تعود بصورة عامة إلى حالتها الطبيعية قبل الولادة^(٤) .

ويعرف دم النفاس وما يتبعه من إفرازات في الطب : بأنه الدم والإفرازات

(١) مسلم ، الصحيح ج ٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، من فضائل أبي طلحة الأنصاري، ص ١٩٠٩ ، ح (٢١٤٤) .

(*) (يتكلمها) يُدِير لِسَانَهُ فِيهِ وَيُحَرِّكُهُ يَتَّبِعُ أَثَرَ التَّمَرِّ . (ابن الأثير ، ج ٤ (المظ) ص ٢٧١ .

(٢) انظر : الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ٣١٣ .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٤ ، مادة (نفس) ، ص ٢٣٧ .

(٤) د/ محمد علي البار ، دورة الأرحام ، ص ٧١ ، نقلاً من كتاب الولادة العملي

التي تخرج من الدم بعد الولادة مباشرة وتستمر لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع وقد تطول إلى أربعين يوماً^(١) .

إن النفاس يشكل حالة مرضية ، وقد تكون شديدة في بعض الأحيان على الوالدة ، ولذا فإن هذه الفترة تؤثر تأثيراً كبيراً على صحة المرأة إذا لم تتوفر لها العناية المطلوبة «فهي مجهدة إجهاداً كاملاً ، ومع ذلك فهي مطالبة بإرضاع الجنين وتأمين الغذاء اللازم له ، وتبقى الوالدة في حالة إعياء وإنهاك مدة طويلة ، لكن أشدها في فترة النفاس، أي في الأربعين يوماً التي تلي الولادة حتى تعود الأمور إلى سابق عهدها ، لأنه يحتاج الرحم والجهاز التناسلي للمرأة ليعود إلى ما كان عليه قبل الحمل إلى مدة تتراوح بين ستة وثمانية أسابيع وفي نهايتها يعود الرحم أدراجه إلى حجمه الطبيعي فبعد الولادة مباشرة ينزل الرحم إلى مستوى السرة بعد أن كان يملأ تجويف البطن من القص إلى العانة ، ويكون قبل الولادة يزن كيلو جراماً واحداً وينخفض تدريجياً حتى يعود في نهاية فترة النفاس إلى وزنه الطبيعي وهو خمسون جراماً فقط ... أما الفراغ الذي كان بداخل الرحم ، حيث كان الجنين وأغشيته ... والذي كان يتسع لسبعة آلاف ملليمتر فإنه يعود بعدما تنقضي فترة النفاس إلى شق صغير لا يتسع لأكثر من ٢ ملليمتر فقط^(٢) .

وفترة النفاس ينبغي أن تكون فترة راحة للأم بعد الجهد الشاق ... كما أن عليها أن تواجه أعباء إرضاع الطفل المولود ... ولكن ليس معنى ذلك أن لا تتحرك الأم وتظل حبيسة الفراش ... ولكن عليها طوال فترة النفاس أن تبقى بعيدة عن الإجهاد وعن أي عمل عضلي أو فكري يتطلب جهداً ... فإن كثيراً من حالات سقوط الرحم وأمراض الجهاز التناسلي تحدث نتيجة الاستعجال في الحركة والنشاط قبل عودة الرحم إلى حجمه ووضعه الطبيعي ... كما أنه تكثر حالات هبوط القلب نتيجة النشاط المفاجيء بعد الولادة ... ولذا يجب التروي في العودة إلى الحياة الطبيعية والنشاط العادي^(٣) .

(١) انظر: المرجع السابق ص ٧٢ .

(٢) د/محمد علي البار، دور الأرحام ، ص ٧١-٧٢ ، بتصرف .

(٣) د/محمد علي البار ، دور الأرحام ، ص ٧٣ ، بتصرف ..

ولذا فإنه ينبغي أن تهيأ سبل الراحة للنفساء ، حتى تستعيد نشاطها وقوتها ، وهي في هذه الفترة محتاجة إلى رعاية نفسية شديدة لما يعتريها من ضعف نفسي وقلق واكتئاب أحياناً ، وهي محتاجة إلى من يمد لها يد الحنان والمعونة حيث إن الغالبية العظمى من النساء يظهرن بعد الولادة بحاجة إلى التعاضد والمساندة والحب ، ويمكن أن يلعب الزوج والأقرباء دوراً هاماً في هذه المرحلة مما يساعد الأم في توفير الأمن والحنان للمولود الجديد ، ويساهم في بداية سعيدة في العلاقة بين الأم طفلها^(١).

وباختصار ... فالنفاس حالة ضعف ومرض ووهن وتعب ، بل هي أحياناً تصل بالنفساء إلى التعب النفسي والقلق الذي لا سبب له سوى ما عانتها هذه النفساء من حمل وتعب ونزف للدماء ، وتغير في كيميائية جسمها .

وقد اعتبر الإسلام النفاس مرضاً ، فأسقط عن النفساء الصلاة ، والصوم وأمرها بقضاء الصوم بعد انقطاع دم النفاس .

إن النفاس في الإسلام حالة مرضية ، وغير طبيعية فلا يقام الحد على من وجب عليها ذلك حتى ينقضي وقت النفاس . ففي الصحيح أن علياً رضي الله عنه خطب الناس يوماً فقال : (يا أيُّها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحسن منهم ومن لم يحصن ، فإن أمةً لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجليدها ، فإذا هي حديث عهد بنفاس فخشيت أن أنا جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال «أحسن» . وفي رواية : «أتركها حتى تماثل»^(٢) .

وورد في الحديث الشريف أن «المرأة في حملها إلى وضعها إلى قضائها كالمرباط في سبيل الله فإن ماتت فيما بين ذلك فلها أجر شهيد»^(٣) .

وفي حديث آخر نص رسول الله ﷺ على أن المرأة التي تموت بالحمل بأنها شهيدة ، فقد قال ﷺ : «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله» ،

(١) د / فايز قنطار ، عالم المعرفة ، ص ٦٩ .

(٢) مسلم ، الصحيح ج ٣ ، كتاب الحدود ، باب تأخير الحد عن النفساء ، ص ١٣٣٠ ، ح (١٧٠٥)

(٣) الهيثمي ، نور الدين علي بن أبي بكر ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

والمرأة تموت بِجُمُعٍ شهيد [ة]»^(١) .

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد ، قال ﷺ : «وفي النفساء يُقْتَلُها وَلَدُها جمعا شهادة»^(٢) .

ومعنى قوله ﷺ «تموت بِجُمُعٍ» «يُقْتَلُها وَلَدُها جُمُعاً» أي تموت وولدها في بطنها ، أو تموت وهي نفساء^(٣) .

فالنفساء حالة مرضية ، فإن ماتت النفساء فلها ثواب الشهيد ، أما بقية أحكامه . فلا . فقد صلى رسول الله ﷺ على النفساء ففي صحيح الإمام البخاري رحمه الله - «أن امرأة ماتت في بطن فصلى عليها النبي ﷺ فقام وسطها»^(٤) .

فالنفساء لها أجر الشهيد ، «وهي إن ورد أنها من الشهداء فهي ممن يصلى عليها كغير الشهداء»^(٥) .

٥- الرضاعة

يقال : امرأة مُرْضِعٌ ، أي ذات رضيع أو لبن رضيع ، والمرضعة التي تُرْضِعُ إن كان لها ولد ، أو لم يكن لها ولد ، والمرضعة التي ليس معها ولد ، وقد يكون معها ولد^(٦) .

وقال تعالى في كتابه الكريم ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ سورة البقرة - آية ٢٣٣ وقال تعالى .. ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (سورة القصص آية ٧)

إن الله سبحانه وتعالى أمر الأم الوالدة بإرضاع ابنها ، وهي التي ينبغي عليها أن تقوم بهذه المهمة والوظيفة ، وألا تسلمها إلى غيرها .

(١) أبو داود ، السنن ج ٣ ، كتاب الجنائز ، باب فضل من مات في الطاعون ، ص ١٨٨ ح (٣١١١) ؛ وصححه الألباني ، في صحيح أبي داود ، ج ٢ ، ص ٦٠١ ، ح (٢٦٦٨) .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل

(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٦ ، ص ٤٣ . وجاء في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير في معنى : (تموت بجمع) أي ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها ، من حَمَلٍ أو بَكَارَةٍ . (ج ١) ، (جمع) ، ص ٢٩٦ .

(٤) م (ج ١) ، كتاب الحيض ، باب الصلاة على النفساء وسنتها ، ص ٩٨ ، ح (٣٣٢) .

(٥) ابن حجر ، فتح الباري ، ج ١ ، ص ٤٣٠ .

(٦) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ، «رضع» ، ص ٤٣٠ .

فالرضاع من الأم والوالدة أمر إلهي ، والله عز وجل أعلم بمن خلق ، فقد يكون وراء هذا الأمر حكم كثيرة لم يعرف بعد كنهها وأثرها حتى الآن .

لذا فقد أمر الله سبحانه وتعالى الأمهات بإرضاع أطفالهن ، وجعل الله سبحانه وتعالى هذه القضية قرآناً يتلى حتى قيام الساعة، حين أوحى إلى أم موسى عليه السلام بإرضاعه ، - وحرّم الله عز وجل على موسى عليه السلام المراضع ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ سورة القصص -آية ١٢. إنها الأم فقط هي التي سترضعه ولا أحد غيرها ..

لقد أتاها الوحي بالأمر بالإرضاع قبل ولادة هذا الصغير كما ذكر المفسرون يوم أحست بحمل هذا الجنين ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : «حملت أم موسى بموسى فوق في قلبها الهم والحزن مما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به . وأمرها إذا ولدته أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم ، فلما ولدت فعلت به ذلك»^(١). قال الله عز وجل :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص -آية ٧)

إنه أمر من الله سبحانه وتعالى إلى أم موسى بالإرضاع على الفور دون تباطؤ، بل إنه أول أمر يوجه إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ حتى ليظن السامع للآية الكريمة أن الأمر كله مصبوب في هذه القضية ، قضية الإرضاع .

ولادة للجنين ثم ماذا ... عليها أن ترضعه دون أن تفكر بشيء ، حتى إذا اطمأن الصغير إلى صدر أمه عليها بعد ذلك أن تدبر الأمر الذي كلفت به .

لقد جهز الله سبحانه وتعالى الأم بمصنعين لإعداد الحليب جاهزين على الفور كلما أحس الرضيع بألم الجوع ، إنه الغذاء الذي أعده الله عز وجل ليناسب هذا الضعيف والذي لايمكن للبشر أن يأتوا بمثله ولو اجتمع جميع علماء التغذية لإعداد حليب الصغار .

(١) ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن الرازي ، تفسير السورة التي يذكر فيها القصص من تفسير القرآن العظيم مسنداً عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، تحقيق إبراهيم بكر علي (رسالة ماجستير) فرع الكتاب والسنة ، كلية الشريعة ، جامعه أم القرى ، ١٤٠٦ هـ ص ٤٦.

قال المحقق : الأثر حسن بهذا الإسناد إلى ابن عباس رضي الله عنهما .

فلمْ تعرض الأم عن هذا الخير؟ ، ولم تتنكر لنعمة من نعم الله سبحانه وتعالى؟! إن الذي يقرأ عما يقوم به الثدي وما يفعله لإعداد هذا الحليب ، وما يحدث في جسم الأم من تغيرات ليقف مذهولاً أمام قدرة الله سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه، لو هذه نبذة مختصرة عن إعداد حليب الأم مما جاء في كتاب «الرضاعة من لبن الأم» للدكتور حسان شمسي باشا :

«يحدث في غدد الثديين خلال الحمل - تغيرات جذرية من حيث البنية التشريحية والوظيفية الفيزيولوجية . فدور الثديين هو تأمين الغذاء للوليد ونقل مضادات الأجسام من الأم إلى الرضيع .

خلال النصف الأول من الحمل تتكاثر الخلايا الحويصلية في الثدي وتتشكل قنوات جديدة . وحينما يحل النصف الثاني منه تنتهي عملية البناء والتكوين وتبدأ عملية جديدة هي الإعداد لإفراز الحليب» .

«ويقال عن غدة الثدي إنها مرآة للجهاز الغدي في الجسم لأن عملية الإرضاع تعتمد على توازن دقيق جداً بين العديد من الهرمونات وتنقسم عملية الإرضاع إلى ثلاث مراحل :

الأولى : تطور نمو الثديين .

الثانية : تكوين الحليب .

الثالثة : الاستمرار في إفراز الحليب » .

« ويقوم هرمون الأستروجين* بدور هام في نمو أنسجة القنوات في الثدي في حين يقوم البروجسترون* بدوره الأساسي في بناء الغدد الحويصلية فتتمايز الخلايا الغدية في الثدي إلى خلايا مفرزة للحليب بتأثير هرمون البرولاكتين* وهرمون النمو والأنسولين* والكورتيزول* » .

(*) (الأستروجين) (البروجسترون) هرمونان أنثويان ، يعمل الاثنان معاً على تحضير الغدتين الثدييتين كي تنتجا الحليب ، (معجم البيولوجيا المصورة ص ١٠٦) .

(*) البرولاكتين : هرمون في الفص الأمامي من الغدة النخامية ، ينظم إفراز الحليب في الثدييات (منير البعلبكي ، المورد، الطبعة الخامسة والعشرون ، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٩١ ، ص ٧٢٨) .

(*) (الأنسولين) هرمون يحفز الكبد على تحويل الغليكوز إلى غليكوجين للتخزين كما يسرع نقل الكلوكوز إلى الخلايا (ليحول السكر إلى كربوهيدرات مركب للتخزين في الكبد ، ويسرع في نقل السكر إلى الخلايا (معجم البيولوجيا ص ١٠٦) .

(*) (الكورتيزون) هرمون يحفز زيادة سرعة تحلل الغذاء تحصيلاً للطاقة ، وبذلك يزيد من القدرة على مقاومة التوتر ، ويخفض الالتهابات (معجم البيولوجيا ، ص ١٠٦) .

«فهرمون البرولاكتين له أهميته القصوى إذ إنه يقوم بعملية تشكيل الحليب، وبالإضافة إلى هذا الهرمون فإن تلك العملية تحتاج أيضاً إلى كميات قليلة من هرمون الأستروجين ، ولكي يستمر إفراز الحليب عند الموضع يحتاج إلى مص متقطع لحلمة الثدي وإفراغ لمحتوى القنوات والحويصلات في الثدي من الحليب المتشكل ولا تتم هذه العملية إلا بسماع من عدة هرمونات هي هرمون الكورتيزول ، والثيروتوكسين* والأنسولين .»

«تحتاج عملية استمرار إفراز الحليب أيضاً إلى هرمون البرولاكتين الذي ينخفض مستواه تدريجياً خلال أو أواخر فترة النفاس حتى يصل مستواه في الدم إلى ما هو عند غير الحامل . إلا إنه إذا لم ترضع الأم وليدها فإن مستوى هذا الهرمون يعود إلى معدله عند غير الحامل خلال أسبوعين أو ثلاثة ، ومن عجائب الله في خلقه أن المرأة إذا أرضعت توأماً في نفس الوقت فإن مستوى هرمون البرولاكتين يتضاعف فوراً في حين يبقى مستواه عادياً فيما لو أرضعت الأم كل رضيع على حدة . فسبحان الله الذي جعل لكل مولود رزقاً ، فحتى لو بكأ التوأمين جوعاً ، قالت لهما العناية الإلهية فليأخذ كل منكما ثدياً فنحن نتولى الشأن ونضاعف كمية البرولاكتين ، ونزيد إفراز الحليب فليشبع كل منكما وليهنأ» .

«حين يمص الرضيع حلمة ثدي أمه يتشكل منعكس عصبي يذهب عن طريق الأعصاب الصدرية الرابع والخامس والسادس (التي تغذي منطقة الثدي ومن هناك تذهب هذه الرسالة إلى النخاع الشوكي ومن ثم إلى الدماغ المتوسط ، ومن هناك تنتقل الرسالة إلى منطقة ماتحت السرير البصري التي تبعث برسالة تحرض إفراز هرمون الأوكسيتوسين* من الغدة النخامية ، وحين يفرز هذا الهرمون فإنه يعطي أوامره إلى الثدي أن أفرغ محتواك من الحليب وكن لهذا الرضيع الضعيف عوناً وغذاءً هنيئاً .»

« يشكل سكر اللاكتوز العنصر الأساسي للسكريات في الحليب ويتشكل سكر اللاكتوز من نوعين من السكر هما الغلوكوز وسكر الغالاكتوز وتحتاج عملية تركيب

(*) (الثيروتوكسين) هرمون يزيد من سرعة تحليل الغذاء ، كما يزيد الطاقة ويرفع درجة حرارة الجسم يحتوي على اليود . (معجم البيولوجيا ، كورين ستوكلي، ص ١٠٦).

(*) (الأوكسيتوسين) هرمون يحفز إدرار اللبن بعد الوضع (المرجع السابق) .

اللاكتوز إلى أنزيم يدعى 'الفالاكتابومين* . فلماذا إذن لايتشكل هذا السكر أثناء الحمل ؟ تقوم الهرمونات التناسلية أثناء الحمل بكبح نشاط هذا الأنزيم فلايتركب اللاكتوز ولايتشكل الحليب ، أما كيفية الحصول على سكر الجلوكوز من الدم فإن خلايا الثدي تقتنص سكر الغلوكوز من الدم بمساعدة هرمونين اثنين هما هرمون البرولاكتين والأنسولين ويقوم هذان الهرمونان أيضاً بالمساعدة على تشكيل الغليسريدات الثلاثة في الحليب ، أما الدسم فتتركب في شبكة الهيولى الباطنية في الثدي وتتشكل البروتينات في الخلايا المفردة من الأحماض الأمينية)).

«ويخرج المشيمة من الرحم ينتهي دور هرمون المشيمة الذي سيعود إلى مستواه خلال يومين أو ثلاثة ، وأما الأستروجين فيعود خلال خمسة أو ستة أيام . أما هرمون البرولاكتين فإن مستواه في الدم يعتمد أساساً على مقدار (الرضاعة) وإذا لم ترضع الأم طفلها عاد إلى مستواه الطبيعي خلال أربعة عشر يوماً».

«ومن الحقائق الثابتة أن حليب الأم يحتوي على كميات غذائية كافية من كل أنواع الفيتامينات باستثناء فيتامين واحد هو الفيتامين «ك» (Vitamin (K) ومن المؤكد علمياً أن تركيب حليب الأم لايتأثر تأثراً كبيراً بسن الأم أو عدد الحمل . ولا يختلف تركيب الحليب بين الثديين إلا إذا كان أحدهما ملتهباً . وهذا ما يثير دهشة المرء واستغرابه ، فسبحان خالق الأكوان ، مصنعان للحليب منفردان كل منهما يصنع حليبه ، والإنتاج واحد متطابق لافرق بين هذا أو ذاك من الثديين فهما يعملان ليل نهار ليكون كل منهما الغذاء الطازج اللذيذ لهذا المخلوق الضعيف» ﴿هذا خَلَقَ اللهُ فَأَرْوِنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (سورة لقمان آية ١١).

«ويفرز ثدي الأم في الأيام الأولى بعد الولادة مباشرة سائلاً أصفر قلوياً يسمى اللبأ ، وهو ما قبل الحليب ، ويمكن لهذا الإفراز أن يوجد في الأشهر الأخيرة من الحمل والأيام الثلاثة الأولى بعد الولادة ويمتاز اللبأ بارتفاع كثافته التي تبلغ ٠.٤٠ ر ١ - ١.٦٠ وأيضاً يكون غنياً بالبروتينات والفيتامين (أ) والغلوبولين المناعي (Immonoglobulin) والصوديوم والكلور فهو ملين طبيعي مثالي» ^(١).

(١) مقتطفات من كتاب الرضاعة من لبن الأم للدكتور حسان شمسي باشا ، من ص ٥٥ إلى ص ٦٧ بتصرف يسير بالنصوص ، وتظهر هناك المراجع التي رجع إليها المؤلف .

إن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بغذاء المولود ، فقد أودع سبحانه وتعالى الأم معملين لصنع الحليب وتهيئته لهذا الكائن الضعيف الذي لا يصلح له إلا هذا الحليب من الأم ، إنه صنع الله سبحانه وتعالى ، لقد أخرجه عز وجل من بين ﴿فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالصًا سَائِغًا لِلشُّرَبِينَ﴾ سورة النحل-آية ٦٦).

لقد هيا الله عز وجل إعداد الغذاء منذ كان الطفل جنيناً في بطن أمه ، على مراحل عدة .

- وقد نبه الإمام الرازي إلى بعض الحكم والأسرار في لبن الأم فقال رحمه الله : (اعلم أن حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقاً لتغذية الصبي ، مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة ، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم ، وبيانه من وجوه :

١- إنه في الوقت الذي يكون فيه الجنين في رحم الأم ينصب من الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء الجنين وازدياد وزنه فإذا ماتم انفصال الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب الى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون بدوره غذاءً للجنين ، فإذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى رحم الأم ولا إلى الثدي ولكنه ينصب على كل بدن المتغذي .

٢- إنه لتولد اللبن في الضرع، أحدث الله تعالى في حلمه الثدي ثقباً صغيرة ومسام ضيقة ولما كانت هذه المسامات ضيقة جداً فإنه لا يخرج منها إلا ما كان في غاية اللطافة والصفاء ، أما الأجزاء الكثيفة فإنها لا تتمكن من الخروج من تلك المنافذ الضيقة حيث تبقى في الداخل ، والحكمة في إحداث تلك الثقوب الصغيرة والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدي أن يكون ذلك كالمصفاة فما كان لطيفاً خرج وما كان كثيفاً احتبس .

٣- إن الله تعالى خلق اللبن من فضلة الدم وخلق الدم من الغذاء الذي يتناوله الحيوان (أو الإنسان) فالشاة تناولت العشب والماء والله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الأجزاء ، ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم ، فسبحان الذي تشهد جميع ذرات العالم بكمال قدرته ونهاية حكمته ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين^(١) .

إن الأم مطالبة بتأمين الغذاء اللازم والمناسب لهذا الصغير وذلك من خلال ما تتناوله من طعام تتوفر فيه الشروط الصحية ، ومن خلال ما تعيشه من ظروف نفسية وبيئية .

ولذا فقد كفل الإسلام الأم المرضع في أية حالة كانت رعاية لهذا المولود قال الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ وَلاَ بَوْلِدٌ لَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ (سورة البقرة- آية ٢٣٣) .

إن الله تعالى كما «وصى الأم برعاية جانب الطفل في قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ وصى الأب برعاية جانب الأم حتى تكون قادرة على رعاية مصلحة الطفل فأمره برزقها وكسوتها بالمعروف»^(١) . «إنه تعالى وصى الأم برعاية الطفل أولاً ، ثم وصى الأب برعايته ثانياً ، وهذا يدل على احتياج الطفل إلى رعاية الأم أشد من احتياجه إلى رعاية الأب ، لأنه ليس بين الطفل وبين رعاية الأم واسطة البتة ، أما رعاية الأب فإنما تصل إلى الطفل بواسطة ، فإنه يستأجر المرأة على إرضاعه وحضائته بالنفقة والكسوة ، وذلك يدل على أن حق الأم أكثر من حق الأب»^(٢) .

وتنطلق اليوم التوصيات في أرجاء العالم توصي الأم برعاية طفلها ورضاعه من لبنها ، وتوصي الأزواج برعاية هؤلاء الأمهات! ما أحوج الناس لاختصار الجهد والزمن بتطبيق أوامر الوحي الإلهي دون سؤال عن الحكمة أو الغاية .

لقد رخص الإسلام الحنيف للمرأة الفطر في رمضان عند الخوف على نفسها أو جنينها أو رضيعها ، ثم تقضي ما أفطرت بعد ذلك .

واليوم توصي وزارة الصحة البريطانية الأم بتناول ما يعادل ٦٠٠ حريرة يومياً - إضافة إلى حاجتها اليومية - أثناء فترة الرضاعة^(٣) .

بل إنهم لم يكتفوا بذلك ، فقد تنبهوا إلى أن حليب الأم تنخفض «كميته في وقت المساء إذا لم تأكل المرضع أي شيء فيما بين وقتي الغداء والعشاء ... وبعض

(١) ، (٢) الرازي ، التفسير الكبير ، م ٣ ، ج ٦ ، ص ١٢٩ .

(٣) انظر : د/حسان شمي باشا ، الرضاعة من لبن الأم ، ص ١١٠ .

الأمهات ترضع أطفالها عدة مرات في اليوم دون أن تفكر بإطعام أنفسهن (فأوصوها):
حاوي أن تأكلي شيئاً من الطعام فيما بين وجبات الرضاعة»^(١).

إنه القرآن تنزيل العزيز الحكيم !

وكذلك فإن الأم المرضعة بحاجة إلى قدر كبير من الراحة والنوم وهدوء البال

-عدا عن الغذاء اللازم - وتجنب عوامل القلق النفسي^(٢) .

والقرآن الكريم أشار إلى ذلك في قصة مريم وابنها عيسى عليها السلام ، حين أمرها الله سبحانه وتعالى أن تطرح الحزن والخوف جانباً ، وتقر عينها وتفرح بهذا المولود وبهذه المعجزة الإلهية ﴿فَكَلِمَ وَاشْرِبِي وَكَرَّمِي عَيْنًا﴾ (سورة مريم-آية ٢٦ بعد أن خاطبها) ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (سورة مريم - آية ٢٤) .

وفي قصة موسى عليه السلام ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

(سورة القصص- آية ٧)

إنه أمر الله سبحانه وتعالى بالآلا تخاف ولا تحزن حتى لو أَلْقَتْ هذا الرضيع في النهر فالله سبحانه وتعالى سيرده إليها .

والكلام في الآية الكريمة متصل بعضه مع بعض أرضعي الطفل يا أم موسى عليه السلام - فإنه سيعود إليك وهذا أمر الله ، وإياك والخوف والحزن .

قال الزمخشري رحمه الله في هذه الآية الكريمة : «فإن قلت ما الفرق بين الخوف والحزن ؟ قلت : الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع ، والحزن غمٌ يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به ، فنهيت عنها جميعاً وأوَّمنت بالوحي إليها ، ووعدت ما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤها غبطة وسرورا ، وهو رده إليها وجعله من المرسلين»^(٣) .

ذاك وحي الله سبحانه وتعالى .

واليوم يثبت العلم أن الخوف والانفعال النفسي يؤثر في نضوب الحليب فماذا

قالوا ؟!

«إن هرمون الأوكسيتوسين يتشبث إذا تعرضت الأم للخوف أو الجهد النفسي..

كالهجوم والانفعالات النفسية»^(٤).

(١) المرجع السابق ص ١١١ نقلاً عن د/ ستانوي ، لبن الأم هو الأفضل .

(٢) انظر : حسان شمسي باشا ، الرضاعة من لبن الأم ، ص ١٠٠ .

(٣) الكشف ، ج ٣ ، ص ١٦٥-١٦٦ .

(٤) د . حسان شمسي باشا ، الرضاعة من لبن الأم ، ص ٥٧-٥٨ .

إن هذا الهرمون هو الذي ينشط الثدي لإدرار اللبن ، فإذا توقف هذا الهرمون عن العطاء نضب معه الحليب وجف الثدي .

والواقع الذي تعرفه كل مرضع أن الخوف والحزن والانفعال والاكتئاب ، عوامل أساسية وقوية لنقص الحليب ، وكثيراً ما تذهب مثل هذه الحالات بالحليب كلية فيغيض ولا يعود إفراز الحليب على الإطلاق عند التعرض لانفعال قوي أو مفاجيء . وكذلك فإن التعب الشديد وعدم الراحة وعدم الكفاية من النوم والغذاء كلها تؤثر في إدرار الحليب، فتقل كميته .

فكيف بالأم العاملة التي تترك اليوم رضيعها وبيتها لتسعى بعيداً عنهما .. إنها لن تستطيع أن تقوم بواجب الرضاعة من لبنها بأي حال ، هذا عدا عن البعد الذي تعيشه هي والرضيع .

إن الله سبحانه وتعالى فطر المرأة على هذه الحال وهيأها لتأدية دورها في الحياة في بناء الأجيال ، فإذا أبت إلا أن تعيش حياة الرجال فتكدح وتكدّ وقد كفاها الله سبحانه مؤونة ذلك ، وأناط بها أعمالاً أجل وأعظم وأسمى من ذلك ، فإنها ستدفع الثمن غالياً جداً ، من صحتها ، وعمرها .

إن كل نكول عن فطرة الخالق سبحانه ، لا بد له من عقوبة ، والأم التي تتنكر لواجب الحمل والإنجاب ومن ثم الرضاعة -خاصة- فإنها تعرض نفسها لابتلاء رب العباد في تنفيذ سننه في هذا الكون حين يأبى الإنسان إلا أن يشذ عن الدوران في محور الإيمان الذي يسير وفقه الكون بصغيره وكبيره . فماذا يحصل ؟!

لقد انتشرت الأمراض بين النساء بشكل مرعب ومخيف . !!

فقد (جاء في «كتاب لبن الأم هو الأفضل» Breast is Best «مما لاشك فيه أن سرطان الثدي (وهو أكثر أنواع السرطانات التي تقتل النساء) قد أصبح أكثر شيوعاً خلال القرنين السابقين وأن أمراض الثدي غير السرطانية شائعة جداً» ويقدر العلماء أن امرأة من أصل عشرين امرأة في الغرب تموت بسرطان الثدي وأن واحدة من أصل ٤ نساء تشكو من مرض من أمراض الثدي في وقت ما .

فلم هذه الكثرة ولماذا تتعرض الأثداء لهذه الأمراض ؟

«والجواب على هذا أنه من المحتمل أن النساء يعاملن هذا العضو معاملة

غير طبيعية ويخالفن الوظيفة الطبيعية للثدي ألا وهي الرضاعة . فإن النساء بحرمان أثنائهن من وظيفتها الأساسية (وهي الرضاعة) إنما يدفعن ثمناً باهظاً بالأمراض التي اكتسبناها من وراء هذا» .

«وإن الإرضاع الطبيعي هو أهم وسيلة لتنظيم النسل حول العالم كله ، حيث ينقطع الطمث عند معظم النساء اللواتي يرضعن أطفالهن ومن المعروف أن سرطان باطن الرحم له ارتباط وثيق بحدوث سرطان الثدي . وربما كانت دورات الطمث التي تراها المرأة في حياتها (وتبلغ حوالي ٤٥٠ دورة) تلعب دوراً يؤثر في الرحم ، ففي كل شهر يتعرض الثديان والرحم والمبايض لتغيرات فيزيولوجية وتشريحية وتكون هذه الأجهزة جاهزة لحدوث تلقيح للبيضة وتشكل الجنين» .

«إلا أننا في حياتنا العصرية فإن بيضة واحدة أو اثنتين تلقح فقط (حيث تنجب المرأة ولداً أو ولدين) خلال كل فترة العمر التي ترى فيها المرأة ٤٥٠ دورة طمثية ، وكل الدورات الطمثية الأخرى تصدر عبثاً بالمعنى البيولوجي ، وتشعر هذه التغيرات الجسمية بالخيبة سنة بعد سنة حينما لاتحمل المرأة في عمرها سوى مرة أو مرتين وربما كان هذا سبباً لانتشار أمراض الجهاز التناسلي»^(١).

وباختصار - فإن الرضاعة واجب مفروض على الأم نفسها ، وليس لها أن تفكر يوماً بالتقاعس عنه مادام قلبها ينبض بالإيمان بالله سبحانه .. استجابة وطاعة لرب العالمين فيما اراده سبحانه وفرضه على الأمهات .

ومما يدل على أهمية الرضاعة وأنها حق للصغير لايحوز التفریط فيه ، ما يشير إليه هذا الحديث الشريف الذي رواه أنس رضي الله . حيث قال رضي الله عنه:

«ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ قال : كان إبراهيمُ مُسْتَرْضِعاً له في عَوَالِي المدينة فكان يَنْطَلِقُ ونحنُ معهُ فَيَدْخُلُ البيتَ وإنَّهُ لَيَدْخُنُ وكان ظَرْهُ قَيْناً ، فيأخذه فيقبِّله ثم يرجع . . فلما توفي إبراهيمُ قال رسولُ الله ﷺ إِنَّ إبراهيمَ ابني وإنه مات في الثدي وإنَّ له لَظْئَرَيْنِ تَكْمَلانِ رُضَاعَهُ في الجنة»^(٢) .

(١) مقتطفات من كتاب «الرضاعة من لبن الأم ، دحسان شمي باشا ، ص ٢٣-٢٤ ، نقلاً عن، إجابات الدكتور (ستانوي) صاحب كتاب لبن الأم هو الأفضل .

(٢) مسلم، الصحيح، ج ٤ ، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالعيال، ص ١٨٠٨ ح (٢٣١٦) .

قال الإمام النووي : «معناه أنه مات وهو في سن رضاع الثدي أو في حال تغذية بلبن الثدي) ، (تكملة رضاعه) : تتمانه سنتين فإنه توفي وله ستة عشر شهراً أو سبعة عشر ، فترضاعه بقية السنتين فإنه تمام الرضاعة بنص القرآن»^(١) .

وما دام الحال كذلك . . فالرضاع من لبن الأم حق للصغير لايجوز التهاون أو التفريط فيه .

(١) شرح صحيح مسلم ، ج ١٥ ، ص ٧٦ .

الفصل الثالث عشر

نتيجة دعوى التماثل بين الذكر والأنثى

إن الفطرة قد تسلك خطأ مغايراً لسيرها الطبيعي وعند ذلك لابد من العقوبة التي يدفعها دائماً كل من سولت له نفسه الخروج عن نظام الكون الشامل .

إن الفطرة قد تنحرف انحرافاً قاسياً عن خط سيرها الأصيل وعند ذلك تحدث المأساة ولاسيما إذا كان هذا الانحراف في قضية المرأة وطبيعتها ، وحياتها ، وسلوكها في المجتمع .

إن الجناية عند ذلك تقع على المرأة نفسها أولاً ثم تصيب من حولها.

يقول الدكتور / الكسيس كاريل «الأمومة رسالة المرأة الطبيعية وهي رسالة لا تستطيع التخلي عنها دون الوقوع في خطر ، إذ إن الخلل العصبي والعقلي هو الثمن الذي يتحتم عليها دفعه إذا حالت ظروف الحياة أو إرادتها الخاصة بينها وبين أدائها لوظيفة الأمومة»^(١) .

إن الأمومة تأبى إلا أن تظهر في وقت ما ، وما يسمع اليوم من صيحات اللاتي أضنين أعمارهن بعيداً عن البيت في سقطات الفن مطالبات النساء بأن يقصرن اهتمامهن على أولادهن ولا يشغلن عن ذلك شاغل .. لدليل حي ناطق بالحقيقة وهذه إحداهن تقول نلم أعد أريد شيئاً لنفسي كل ما يهمني الآن هو أن أرى ابتسامة الفرح على شفاة أطفال العالم والأمان والطمأنينة في عيونهم^(٢) . وتلك تتوجه لتصرف أمومتها المكبوتة نحو الحيوانات وخاصة الكلاب والقطط، حيث وجهت نداء عاجلاً إلى أصحاب القلوب الرحيمة من أبناء الشعب الفرنسي بالتقدم لإيواء دفعة جديدة من الكلاب والقطط المشردين في الشوارع حيث لا يجدون مأوى ملائماً لهم ، مكرسة السنوات الأخيرة من حياتها للدفاع عن الحيوانات^(٣) .

ذلك أن نداء الفطرة قد استيقظ في نفوس أمثال هؤلاء ، بعد أن دفنه الهوى والطمع للشهرة وحب الظهور . ذلك إنه من الممكن والسهل أن تضرر الأنوثة تدريجياً، بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما يسمى «عالم الرجال» .

(١) تأملات في سلوك الإنسان ، ص ٥٩.

(٢) الشرق الأوسط ، العدد ٤٢٢٧ ، ص ١٩ .

(٣) مجلة الهدف ، العدد ٢٥٦ ، السنة الثانية ، (١٩-٢٥ ذوالحجّة عام ١٤١٢ هـ / ٢٠-٢٦ .

وهذه شهادة طبيبة تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» بعنوان «جنس ثالث في طريقه إلى الظهور» من مشاهداتها في فيينا :

« ٠٠ شاءت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد لزيارة صديقة لي طبيبة بإحدى ضواحي «فيينا» بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب - فتحت لي صديقتي باب بيتها معجلة وفي يدها «بطاطس» تقشره ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لناخذ مجلسنا هناك .

« ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة فابتدرتني قائلة :

« ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة في المطبخ يوم الأحد !

«قلت ضاحكة» :

« أما العمل يوم الأحد فريما فهمته ، وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك فهذا مالم أنتظره .

«فردت» :

« لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب : فالعمل في عطلة الأحد هو المستغرب عندنا لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين، وأما اشتغالي بالمطبخ فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي، إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معي سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة».

« ولما سألتها عن سر هذا القلق - مع استقرار الوضع الاجتماعي للمرأة الغربية - أجابت بأن ذلك القلق لاصلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسولوجيا والبيولوجيا في المرأة العاملة وذلك لما لحظوا من تغير بطيء في كيانها لم يُشِرْ الانتباه أول الأمر لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع تحت ضغط الحاجة والاستقرار في العمل، ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات لم يكن أكثره عن اختيار بل عن عقم استعصى علاجه وبفحص نماذج شتى

منوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لا يرجع إلى عيب عضوي ظاهر مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارئ على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي - عن قصد أو غير قصد - عن مشاغل الأمومة ودنيا حواء وتشبثها بمساواة الرجل ومشاركته في ميدان عمله .

واستند علماء الأحياء في هذا الغرض - نظرياً إلى قانون طبيعي معروف وهو أن « الوظيفة تخلق العضو » ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة .

« ثم تابع العلماء هذا الغرض فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً وإذا بهم يعلنون في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ - عن قرب ظهور «جنس ثالث» تضر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها عدم الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

«وشارت اعتراضات ... منها أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمل ويتيح لها بحكم القانون فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل، ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها مالا يحصى من دهور وأحقاب .

« وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهااء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائماً الخوف من أعبائه والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل، ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة وتحت ضغط القانون، وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات، وأما قصر عهد المرأة بالخروج فيرد عليه بأن هذا الخروج - على قرب العهد به - قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل وإصرار عنيد على التشبه به، مما عجل بيوادر التغير لعمق تأثير الفكرة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها في ضميرها » .

« وما يزال المهتمون لهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة»^(١)

وهذه هي الحقيقة ، لا بد للمرأة من أن تعيش أنثى ، إن التمايز بين الذكر

والأنثى أمر فطري ، لذا فإنه لا يمكن تبادل الأدوار بينهما في مسيرة الحياة .

وهذا التمايز بين الجنسين منشؤه ما ميز الله سبحانه وتعالى - به مخ الجنين الذكر عن مخ الجنين الأنثى مما يؤدي إلى الاختلاف بين غدد كل منهما ، ولا سيما الغدة التناسلية ، بل إن استئصال المبيض من الأنثى ، يغير من نشاطها وشخصيتها يقول الدكتور الكسيس كاريل في كتابه الإنسان ذلك المجهول : «إن للخصية أكثر من أي غدة أخرى تأثيراً عميقاً على العقل ،... ، ويؤدي استئصال الغدد الجنسية في البالغين إلى حدوث بعض التعديلات في الحالة العقلية ، وتصبح النساء متبلدات الشعور بعد استئصال المبيضين ، ويفقدن قسماً من نشاطهن العقلي أو إحساسهن الأدبي ، كذلك تتعدل شخصية الرجال الذين تجرى لهم جراحة التعقيم (الخصي) بشكل ملحوظ ، إن كثيراً أو قليلاً»^(١) .

فالاختلافات الموجودة بين الذكر والأنثى في جميع مراحل العمر «لاتأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، أو من وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم ، إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك ، إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ، ومن تلقيح الجسم كله ، بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض»^(٢)

ولقد أدى الجهل بهذه الطريقة الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً ، وأن يمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة ، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها - والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها ، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي ، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبي ، فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي ، فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجل فيجب ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة^(٣) .

(٢) ترجمة شفيق أسعد فريد ، (بيروت : دار المعارف ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م) ، ص ١٦٦

(٢) ، (٣) المرجع السابق ص ١٠٨-١٠٩ .

بل لقد جر خروج المرأة عن فطرتها وتنكرها لأنوثتها ، الويل والفساد ، والهلاك للمجتمعات، إن الأستاذ محمد قطب علل المشاكل المعاصرة في أوروبا وأمريكا، المتعلقة بالشذوذ الجنسي ، بانحراف فطرة المرأة ، وخروجها عن هذا الطبع الأصيل في كتابه «دراسات في النفس الإنسانية» : «العلاقة دقيقة ومتشابكة بين خروج المرأة هكذا وانتشار الشذوذ الجنسي في الأجيال الحديثة في أوروبا وأمريكا .. فالطفل الذكر يتلبس لاشعورياً بشخصية أبيه بوصفه الجنس الغالب . وذلك جزء من الفطرة ! فلما تحررت المرأة (خرجت من بيتها لتعمل وتتكشف وتختلط بالرجال)، وخلعت - فيما خلعت - حياءها ، وصارت تشبه الرجل أو تريد أن تشبهه في كل شيء ، تشوش الأمر في نفس الطفل الذكر ، وصار يتلبس لاشعورياً - بشخصية أمه بوصفها الجنس الغالب على الوضع الجديد ! فينشأ من الوجهة النفسية - خليطاً شاذاً من شخصيته المذكرة الأصلية وشخصية أمه المؤنثة ، فيصبح شديد الاستهداف للشذوذ الجنسي»^(١) .

إن المرأة في صورتها الطبيعية كتلة فياضة من المشاعر والعواطف والأحاسيس التي تنعكس على أسرتها ولا سيما الأطفال ، والصغار .

إن الإسلام قد دعا كلاً من الرجل والمرأة إلى القيام بدورهما في الحياة وفق السنن الشرعية التي هي عين الفطرة ، ولذا فقد حرم التشبه بينهما أي أن يتشبه الرجل بالأنثى ، أو العكس ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»^(٢) . وفي رواية أخرى قال رضي الله عنه : «لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء وقال «أُخْرِجُوهُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ»^(٣) .

فقد جعل الإسلام لكل من الذكر والأنثى حدوده التي لاينبغي أن يتجاوزها وإلا حلت عليه لعنة الله سبحانه .

(١) الطبعة السادسة (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ص ٣٥١.

(٢) البخاري ، الصحيح ، ٤م، ج ١ كتاب اللباس ، باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات ، ص ٧١، ح (٥٨٨٥).

(٣) البخاري المرجع السابق ، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، ص ٧٢، ح (٥٨٨٦).

ولأساليب وطرق التخنت والترجل في هذا الزمان فنون وعلوم ، تبدأ من التصنع والتكلف ، حيث ينعكس ذلك على وظائف الأعضاء ، وتنتهي بالعمليات والإجراءات الجراحية .

وقد حذر رسول الله ﷺ من هذه الأمور، بل وإنه ﷺ قد حرم على الصحابة رضوان الله عليهم (الاختصاء) منذ أربعمئة قرن -ولما تعرف بعد نتائج الاختصاء- فقد روى الصحابة رضي الله عنهم عدة أحاديث في هذا المعنى منها أنه «ردَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون* التَّبْتُلُ ، ولو أُذِنَ لَهُ لاختَصَيْنَا*»^(١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (كنا نَغزو مع رسول الله وليس لنا شيء ، فقلنا : أَلَا نَسْتَخْصِي* ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم قرأ علينا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢) (سورة المائدة آية ٨٧) .

فقضية التفريق بين الجنسين ليست بهذه البساطة التي قد تتصور، إنها أعمق

(*) (عثمان بن مظعون) : بالطاء المعجمة ابن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحي ، صحابي أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، هاجر الهجرتين ، وهو أول من مات بالمدينة ، وأول من دفن بالبقيع ، ومات بعد أن شهد بدرًا ، قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ميت وبكى صلى الله عليه وسلم ، ولما توفي إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ، وقالت امرأة ترثيه ياعين جودي بدمع غير ممنون على رزية عثمان بن مظعون (الإصابة ، ٤٦٤٩/٢) .

(١) البخاري ، الصحيح ، ٣، ج٦ ، كتاب النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخصاء ، ص١٤٥، ح(٥٠٧٣)؛

مسلم الصحيح ، ج٢ ، كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه ، ص١٠٢، ح(١٤٠٢) .

(*) (التَّبْتُلُ) : من التَّبْتُل : القطع (ابن الأثير ن ج١ ، (بتل) ، ص٩٤ .

(*) (الاختِصَاءُ) : خَصَى الفحل خِصَاءً ، سَلَّ خُصْيَيْهِ . (اللسان ، ج٤ ، (خصا) ، ص١١٦)؛

(*) (الخصاء) : هو الشق على الأنثيين وانتزاعهما، (ابن حجر ، الفتح، ج١٠ ، ص١١٨، ابن منظور ١١٦/٤) .

(٢) المرجع السابق ؛ البخاري نفسه ؛ مسلم باب زواج المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ واستقر تحريمه إلى يوم القيامة ، ص ١٠٢٢ ، ح(١٤٠٤) .

أعمق من ذلك فهي تتغلغل لتصل إلى المورثات التي يحملها الإنسان ، لينقلها إلى من بعده ، فإذا ما حصل مثل هذا الزرع لغدتي التناسل أدى ذلك إلى اختلاط الأنساب بين بني البشر ، فلا يبين الاختلاف بينهم ولا يتعارفون ولا يتمايزون ، عدا عما يترتب على ذلك من الأمراض والعاهات والمصائب .

إن الأمر على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية ، فأساس المجتمع وجود الجنسين فيه الذكر والأنثى ، ولو اختلفت الموازين وتدخل الإنسان ليغير في خلق الله سبحانه كما يريد ويشاء ، فإن مخالفة نظام الكون ستكون دماراً للناس أجمعين لأنه يخضع لناмос واحد وخالق واحد سبحانه وتعالى .

إن خلق الذكر والأنثى آية من آيات الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الذاريات آية ٢١) ، صحيح بأن الأصل لهما واحد ، والمرجع والمآل واحد ، لكن خط الحياة الدنيا ومسارها يختلف من حيث الدور والوظيفة التي أنيطت بكل واحد منهما على حدة ، وأي خلل يحدث في سنن الله سبحانه وتعالى وآياته ، يكون تمرداً على هذه السنن ، وعاقبة التمرد الخزي والخسران والهلاك .

شهادة الرجل في وظيفة المرأة الفطرية : الأمومة

هذه بعض أقوال العلماء شهادة منهم بأن المرأة ليست كالرجل ولها دورها الذي لا يقل أهمية في الحياة عن دوره ..

يقول الأستاذ سيد قطب : «وهو إنسان من ذكر وأنثى من نفس واحدة ، نعم ، ولكنهما جنسان ، ومنهجنا يعرف هذه الحقيقة بشطريها ، ويكفل لشطري النفس الواحدة حقوقاً واحدة فيما يتعلق بالأصل الإنساني العام . ولكنه في الوقت ذاته يفرض على كل منهما واجبات مختلفة وفق الوظيفة الخاصة في العمران ، ووفق طاقة كل منهما ومجموعة تكاليفه ، فلا يكلف المرأة المسكينة مثلاً أن تحمل وترضع وتربي ، وفي الوقت ذاته تعمل وتكدح وتشقى ، بينما الرجل لا يشاركها الحمل والرضاع والتربية ، ثم يزعم بعد ذلك أنه ينصف المرأة ويحترمها ويرقيها ، ولا يكلف المرأة أن تهمل «صناعة» الإنسان لتشتغل المرأة المثقفة الماهرة الحكيمة بصناعة الأشياء فالإنسان في منهجنا أعلى من الأشياء ولا يجوز فيه أن تشتغل المرأة المثقفة الحكيمة بصناعة الأشياء وإنتاجها ، وأن تستجلب لأبنائها امرأة أخرى أقل ثقافة ومهارة

وحكمة وأرخص أجراً بالطبخ ، لتشرف لها على الأبناء بينما هي تشرف على الأشياء»^(١) .

يقول الأستاذ البهي الخولي : « إن المرأة امرأة لاتستغني عن أن تكون زوجة وأماً ، بالمفهوم الروحي لذلك ، بهذا تهتف فطرتها ، وإن نفسها فيما تبلغ من مناصب ، لاتفتأ تهفو في حنان بالغ إلى نعيم البيت والأمومة . والناس بخير ما داموا يستوحون منطق الطبيعة في كل ما يأتون من أمر أو يدعون .. والشر كل الشر في منابذة الطبيعة ومجافة سننها»^(٢) .

ويقول الشيخ محمود شلتوت في كتابه «الإسلام عقيدته وشريعته» : (إن التشريع الإسلامي في كل ناحية من نواحي الحياة ، ليس إلا تنظيماً لما تقتضيه الفطرة والطبيعة ، فتنظيمه في الأسرة وأن الأم هي المربية الأولى ، وهي المرضعة ، وهي الساهرة ، والرجل هو المربي الثاني ، وهو العامل الكادح ، وهو المنفق والمهيمن ، تنظيم لمقتضى الفطرة).^(٣)

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ سورة النساء - آية ٣٤.

يقول الدكتور محمد حسين . «تشير الآية إلى ناموس من نواميس الله الثابتة وهي قوامه الرجال على النساء وقد ناط سبحانه وتعالى حكمته في ذلك بسببين ظاهرين : أولهما أن فطرة الرجل تخالف فطرة المرأة، فهي تفضل في تدبير شؤون البيت وتربية الولد والقيام عليه بما جبلت عليه من الحنان والرقه، ومن التركيب العضوي الذي يعينها على وظيفتها، مثل ضعف جهازها العصبي الذي يقلل من إحساسها بآلام الحمل والوضع وإن كان يجعلها في الوقت نفسه أكثر استهدافاً لأنواع الأمراض، وأسرع تهيجاً، وأقوى انفعالاً، مما يؤثر في سلامة التقدير وصحة الإدراك، ويجعلها أقل قدرة من الرجل على مجابهة الأزمات، والتماسل أمام الشدائد، والمللمات» .

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، الطبعة التاسعة ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) الإسلام والمرأة المعاصرة ، ص ٢١٦ .

(٣) الإسلام عقيدة وشرعية ص ٢٢٢ .

(أما الرجل فهو يفضلها - لما سلف من الأسباب - في القوة البدنية وفي قوة التفكير وصحة التقدير ورباطة الجأش مما يعده للكفاح ومعالجة المشاق والكدح وراء معاش الأسرة وفي سبيل الحفاظ على كيانه ودفن ما يتهده من أخطار والسبب الثاني الذي انبنت عليه هذه القوامة هو أن الرجل يتولى الإنفاق لأنه هو الذي يكسب المال حسب ماجبل عليه»^(١) .

يقول الأستاذ / محمد قطب :

«إن الأمومة بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة ، وأعمال رفيعة ، وصبر على الجهد المتواصل ، ودقة متناهية في الملاحظة في الأداء . هي التكييف النفسي والعصبي والفكري ، الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والإرضاع ، كلاهما متمم للآخر ، متناسق معه بحيث يكون شذوذاً عجيباً أن يوجد أحدهما في غيبة من الآخر، وهذه الرقة اللطيفة في العاطفة ، والانفعال السريع في الوجدان والثورة القوية في المشاعر التي تجعل الجانب العاطفي ، لالفكري ، هو النبع المستعد أبداً بالفيض المستجاش أبداً بأول لمسة ، كل ذلك من مستلزمات الأمومة لأن مطالب الطفولة لا تحتاج إلى التفكير ، الذي قد يسرع أو يبطئ، وقد يستجيب أو لا يستجيب ، وإنما تحتاج إلى عاطفة مشبوبة لاتفكر ، بل تلبي الداعي ، بلا تراخٍ ولا إبطاء ، فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حين تلبي وظيفتها الأصلية وهدفها (المرسوم)»^(٢) .

يقول الدكتور محمد علي البار :

«إن أعظم العباقرة يتصاغر أمام أبسط الأمهات .. ولا يستطيع أعظم قادة الدنيا من الرجال أن يفعل ما تفعله أبسط النساء وأجهلهن .. إنه لا يستطيع أن ينجب طفلاً ويحمله في بطنه تسعة أشهر كما أنه لا يمكنه إرضاعه وتربيته مهما كان له من العبقرية والنبوغ !!

فوظيفة الأمومة لا يستطيع أن يقوم بها أي رجل مهما كان حظه عظيماً من النبوغ ووظيفة الأمومة تتصاغر أمامها كل الوظائف الأخرى حتى يجعل الرسول الكريم ﷺ الجنة تحت أقدام الأمهات»^(٣) .

(١) د / محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من داخلها ، ص ١١٥-١١٦ .

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ١٧٠ .

(٣) عمل المرأة في الميزان ص ٨٥ ، ٨٦ .

وأخيراً .. فإن هذا التمايز بين الذكر والأنثى ، لايعني أن كلاً منهما ،
لايحوي صفات من الآخر ، بل هما خليط ، فقد تصبح المرأة رجلاً ، إذا طلبت
الظروف منها ذلك كأن تتعرض لاعتداء ، أو تقع في خطر ، أو حين يصبح الجهاد
فرضاً عليها عند مداهمة العدو البلاد .

وقد يبكي الرجل أحياناً ، وقد يرق ويضعف خشية من الله ، عند النوائب
والملمات ، أو أمام الضعفاء والمساكين .

إن هذا ليس هو الأصل ، فتداخل المواقف أحياناً لايعني أنهما واحد في
الصفات والسلوك .

ولكن الأصل أن الذكر رجل في قوته وصلابته والمرأة أنثى في رقتها ومرونتها ،
وحنانها وعطفها ، وغنى مشاعرهما ، وفيض عطائهما وتفاني إخلاصها ، وعظيم
تضحياتها .

الباب الرابع

حرمة الأمومة في الإسلام وتكريمها

للأمومة في الإسلام مكانتها الفريدة سواء في الآداب أو في الأحكام أو في التكاليف والمسؤوليات وهذا تفصيل لبعضها من خلال :

- تكريم المرأة ورفع شأن الأمهات .
- حرمة الأمهات وقديسية رباط الأمومة .
- كفالة الأم ورعايتها في فترات الحمل والتنشئة .
- الاهتمام بتنمية فقه الأمومة وأحكامها : الحيض - الحمل - النفاس - الرضاع .
- رعاية الجنين خلال الحمل وحمايته من أضرار التدخين والمخدرات والمهلكات المختلفة .
- الأم بين المسؤولية والحقوق .

الفصل الرابع عشر تكریم المرأة ورفع شأن الأمهات

١- تكریم المرأة :

لقد كرم الإسلام المرأة عامة ، ورفع من شأنها ، واعتبرها إنسانه مساوية للرجل، فهي الأم والأخت والبنت والزوجة ، ولذا فقد نزل القرآن الكريم مشنعاً على الجاهلية فعلتها في وأد البنات وإماتتهن قال تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِذًا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة النحل- الآية ٥٨-٥٩)، ولم يكتفِ القرآن الكريم بذلك ، بل عرض للسؤال والحساب عن هذه المؤودة التي دفنت في التراب ظلماً قال تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُةَ سئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (سورة التكاوير -الآية ٨-٩) .

لقد أكرم الإسلام الأنثى ورد إليها حقوقها وإنسانيتها، واعتبرها مساوية للرجل في كل شيء إلا في الوظائف والأعمال التي لا تليق بها أو لا تتناسب مع فطرتها وطبيعتها . فأي كرامة أفضل للمرأة من هذا ؟! أي حقوق يمكن أن تحصل عليها إلا في ظل الإسلام، إنها لو نصبت كل محامي الأرض ليحصلوا لها حقوقها ما كانوا يستطيعوا أن يصلوا إلى ما أعطاها الإسلام من كرامة وعزة وحماية وصيانة .

لقد عالج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، قضايا المرأة صغيرها وكبيرها ، فاحتلت شؤون المرأة حيزاً كبيراً من الشريعة ، والقرآن الكريم حافل بالآيات الكريمة التي تتحدث عنها ، بل وفيه سورتان تسميان بسورتي النساء : الطولى وهي سورة النساء ، والقصرى وهي سورة الطلاق ، بل وتسمى سورة كاملة باسم (مريم) عليها السلام ، وكذلك سورة المجادلة، وسورة الممتحنة، ولا تكاد تخلو سورة في القرآن الكريم من الحديث عن قضايا المرأة .

أما السنة الشريفة ، فهي زاخرة غنية ، بأحكامهن وشؤونهن ، بل ما أكثر الأحاديث والسنن التي نقلتها النساء، وتكفي شهادة القرآن الكريم لنساء الرسول بأمرهن تبليغ الذكر الحكيم قال تعالى ﴿وَإِذْ كُنَّا مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (سورة الأحزاب -آية ٣٤).

إنها ليست فقط صاحبة حقوق، بل عليها واجبات وتكاليف ومسؤوليات مما يجعلها أهلاً للكرامة والاحترام والتقدير .

ويكفي المرأة المسلمة فخراً أن كثيراً من أحكام الدين ، قد روتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ووقفت تدلي رضي الله عنها برأيها وتجادل الصحابة ، بل ويرجعون إليها رضي الله عنهم فيما استشكل من أمور السنة والوحي ، فهل بعد هذا من مكانة ومن رفعة ومن عزة ومن احترام وتكريم ؟!

وحين شعرت أم سلمة رضي الله عنها أن الوحي يخاطب الرجال ، هبت مسرعة إلى رسول الله ﷺ تقول : يا رسول الله تذكر الرجال في الهجرة ولا تذكر ؟ فنزل^(١) قول الله عز وجل مطمئناً .. قال الله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (سورة آل عمران - آية ١٩٥).

بل إن المرأة مسؤولة عن نفسها ، وحسابها مستقل عند الله سبحانه وتعالى عن الرجل قال تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة التحريم - آية ١١).

بل كلفها الإسلام مسؤولية الإصلاح في المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة - آية ٧١).

فالمرأة مسؤولة عن نفسها ومسؤولة عن مجتمعها أيضاً ، ولا شك أن المسؤولية كرامة للإنسان لا يعدلها كرامة ، فما أحرأها أن تؤديها كما ينبغي .

أما فيما يتعلق بحقوق المرأة، فقد أعطاها الإسلام كما أعطى الرجل في كل

أمر .

فهي تتعلم، العلم الشرعي والدنيوي، وتجاهد مع الرجال وتخوض المعارك

والغزوات .

(١) انظر : تفسير الطبري ، تحقيق محمود وأحمد شاکر ، ج ٧، ص ٤٨٦، قال المحقق في هذه الرواية : هذا إسناد صحيح، رواه الحاكم في المستدرک فقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

وتباشر العقود بنفسها ، وتشهد إذا احتاج الأمر ، بل وشهادتها وحدها واجبة في بعض الأمور ولا تقبل فيها شهادة الرجل أحياناً .

ولها أن تمتلك من الأموال ما تشاء ، وتنفقها ، وليس لأحد أن يجبرها على الإنفاق من مالها سواء الزوج أو غيره من ذويها .

ولها أن ترد زواج الولي إذا لم يستأذنها في نفسها قال رسول الله ﷺ «الأيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا ، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا ، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا»^(١) .

أما في القصاص فقد جعلها الإسلام مساوية للرجل في الحكم حيث اعتبر الإسلام حرمة النفس واحدة للرجل والمرأة ، وبالتالي قدم المرأة ، مساوٍ لدم الرجل في القصاص قال تعالى ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (سورة المائدة-آية ٤٥) .

لقد ساواها الإسلام بالرجل ، فيقتل الرجل بالمرأة ، كما ثبت في السنة الشريفة حين حكم رسول الله ﷺ بذلك ، فعن أنس رضي الله عنه «أن يهودياً رضَّ رأسَ جاريةٍ بين حَجَرَيْنِ ، فَقِيلَ لَهَا: مَنْ فَعَلَ بِكَ ؟ أَفْلَانٌ أَوْ فُلَانٌ ؟ حَتَّى سُمِّيَ الْيَهُودِيُّ فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا ، فَجِيءَ بِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى اعْتَرَفَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَرَضَّ رَأْسَهُ بِالْحِجَارَةِ»^(٢) .

أما الميراث .. فالإسلام قد أعطى الأنثى أقل من الذكر في أكثر صورهِ إلا الأم قال الله تعالى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (سورة النساء -آية ١١) .

فميراثها على النصف من ميراث الرجل ، وذلك لأنها لم تكلف بالإنفاق حتى على نفسها ، فالولي هو القيم والمكلف بالإنفاق سواء أكان أباً أو أخاً أو زوجاً ، أو ابناً ، فإن عدم الولي فبيت المال في الدولة المسلمة مكلف بهذا .

والرجل مكلف أيضاً بالإنفاق على من يعول في أسرته من نساء وأطفال وضعفة، وتأمين ما يلزم لهم من مسكن، وما يحتاجونه من متطلبات الحياة .

وبذلك فالمرأة قد غنمت النصف بالنسبة لميراث الرجل ، دون أن تغرم شيئاً .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب انكاح ، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت ص ١٠٣٧ ، ح (٤١٢١) .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ٢ ، ج ٣ ، كتاب الوصايا ، باب إذا أوماً المريض برأسه ، ص ٢٤٧ ، ح (٢٧٤٦) ، مسلم الصحيح ، ج ٣ ، كتاب القسامة ، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر ، ص ١٣٠٠ ، ح ١٦٦٣ .

ورحم الله الإمام الرازي فقد التفت إلى ما في نظم القرآن الكريم وترتيبه في سورة النساء من الحكمة بتخصيص الرجال بضعف ميراث النساء حيث قال : (إنما فضل الرجال على النساء في الميراث ، لأن الرجال قوامون على النساء (و) أمر الله أن يدفعوا إليهن المهر ويدروا عليهن النفقة فصارت الزيادة من أحد الجانبين مقابلة بالزيادة من الجانب الآخر ، فكأنه لافضل البتة فهذا هو بيان كيفية النظم^(١) في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ بعد قوله تعالى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مَثَلٍ هَٰذَا الْآنْثَىٰ﴾ والحديث عن الميراث ، فكان للنظم القرآني بهذه الصورة من ترتيب القوامة على الميراث ، دلالة على أن السبب هو الإنفاق ، والذكر هو المكلف بذلك .

والمرأة في الإسلام مكفية النفقة والمؤونة ، وهي في كل أوضاعها وقرباتها ومراحل عمرها ، مكرمة ، محترمة ، مصونة ، مكفولة .

فهي حين تكون زوجة أو أختاً أو بنتاً أو أمّاً هكذا حالها دائماً ، وهل تخرج المرأة عن هذه الأحوال الأربعة من القرابة .

لقد أعطى الإسلام المرأة مكانة مرموقة في الحياة ، فجعل النساء شقائق الرجال قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (سورة النساء - آية ١).

لقد أحترم الإسلام إنسانية المرأة ، واعتبرها على درجة واحدة في المساواة مع الرجل إن لم تكن فاقتة في بعض الأمور : فهي المخدومة لا الخادمة وهي المكفولة من قبل الرجل في كل شؤون حياتها ، أياً كان حالها وموقعها .. قال تعالى ﴿الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (سورة النساء - آية ٣٤).

وقال تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٨).

(١) التفسير الكبير ، م ٥ ، ج ١٠ ، ص ٩٠ ، وانظر نظم الآيات الكريمة في سورة النساء - الآية ٣٢-٣٤ من قوله تعالى : «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» ... إلى «إن الله كان علياً كبيراً».

قال الإمام الطبري في معنى هذه الآية الكريمة «معنى (الدرجة) ، الرتبة والمنزلة، وهذا القول من الله تعالى ذكره ، وإن كان ظاهره ظاهر الخير ، فمعناه معنى ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل ليكون لهم عليهن فضل درجة»^(١).

وقد استقى الإمام الطبري - رحمه الله هذا المعنى من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما- في تفسير هذه الآية الكريمة حيث قال رضي الله عنه : «ما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها (زوجته) لأن الله تعالى ذكره يقول (وللرجال عليهن درجة)^(٢)» .

وعلق الأستاذ محمود شاکر - على ما قاله الإمام الطبري فقال : (استخرج (أبو جعفر الطبري) ذلك من سياق الآيات المتتابعة من أول آية الإيلاء .. وما تبعها من بيان طلاق المولي ، وكيف يفعل الرجل المطلق ، وكيف تفعل المرأة المطلقة ، وما أمرت به من ترك كتمان ما خلق الله في رحمها - وائتمانها هذا السر المضر في أحشائها وما للرجال من الحق في ردهن مصلحين غير مضارين ، وتعادل حقوق الرجل على المرأة^(٣) ثم أتبع ذلك بنذب الرجال إلى فضيلة من فضائل الرجولة لاينال المرء نبلها إلا بالعزم والتسامي ، وهو أن يتغاضى عن بعض حقوقه لامراته ، فإذا فعل ذلك فقد بلغ من مكارم الأخلاق منزلة تجعل له درجة على امرأته)^(٤) .

فليحسن هذا الرجل للمرأة وليكرمها في تعامله معها ، لأنه هو المسؤول الأول عن الأسرة في الدنيا والآخرة ، هذا ما أشارت إليه الآية الكريمة بعد الحديث عن العلاقة بين الرجال والنساء - لاسيما عند التنازع والخصام - فالإسلام يطلب من الرجل أن يحتوي هذه الضعيفة فيحسن إليها ويكون بذلك صاحب فضل عليها بكرمه وحسن معاملته ، وتسامحه ، ومواساته ..

(١) جامع البيان ، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية (القاهرة - دار المعارف المصرية) ج٤ ، ص٥٣٦.

(٢) المرجع السابق ، ص٥٣٥.

(٣) تراجع الآيات الكريمة في سورة البقرة من قوله تعالى (للذين يؤلون) إلى قوله تعالى (وللرجال عليهن درجة) الآيات ٢٢٦-٢٢٨.

(٤) الطبري ، جامع البيان ، تحقيق محمود وأحمد شاكر ، ج٤ ، هامش ص٥٣٦-٥٣٧.

فهذا رسول الله ﷺ يتفضل على نسائه الكريمات رضي الله عنهن فيحسن إليهن ما استطاع ﷺ ، بل يصل الأمر به ﷺ إلى إكرام من فارقت الحياة منهن ، كما كان شأنه ﷺ من خديجة رضي الله عنها - تقول عائشة رضي الله عنها - «ما غُرْتُ على امرأةٍ ما غُرْتُ على خديجةٍ ولقد هَلَكْتُ قبل أن يتزوجني بثلاث سنين لما كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا ، ولقد أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ لِيَذْبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِيَ فِي خُلَّتْهَا مِنْهَا»^(١) .

وسيرة رسول الله ﷺ عامرة حافلة بتكريم النساء ولا سيما زوجاته ﷺ - رضي الله عنها .

وهذه صورة أخرى من إكرامه ورعايته ﷺ لهن - رضي الله عنهن . قال أنس رضي الله عنه «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَوِّي لَهَا (الصفية- رضي الله عنها-*) وراءَ بَعَاءَةٍ ثُمَّ - يجلس عند بَعِيرِهِ ، فيضع رُكْبَتَهُ فَتَضَعُ صَفِيَّةٌ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرُكِبَ»^(٢) .

وتروي عائشة رضي الله عنها عن نفسها فتقول : «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبْشَةِ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَسَامُ ، فَأَقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ الْحَرِيصَةِ عَلَى اللّٰهُ»^(٣) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م٤ ، ج٧ ، كتاب الأدب ، باب حسن العهد من الإيمان ، ص١٠١ ، ح (٦٠٠٤) .

خُلَّتْهَا : فِي أَهْلِ وَدَّهَا . (اللسان، ج٤ ، «خلل» ، ص٢٠٣) .

(*) صفية بنت حيي بن أخطب بن سعدة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب، أم المؤمنين من أولاد هارون عليه السلام سبها الرسول في غزوة خيبر، ثم أعتقها وتزوجها، وكانت قبل إسلامها عند سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل يوم خيبر فصارت صفية مع السبي، فأخذها دحية ثم استعادها النبي ﷺ وكانت رضي الله عنها، شريفة عاقلة ذات حسب وجمال ودين توفيت سنة خمسين للهجرة .

(الإصابة ٥٣٤٦/٤؛ الاستيعاب ٣٤٦/٤؛ سير ٢٣١/٢؛ ط/بن سعد ١٢٠/٨؛ أسد الغابة ١٦٩/٧ ؛ تهذيب ٤٢٩/١٢) .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م٢ ، ج٣ ، كتاب الجهاد والسير ، باب من غزا بصبي للخدمة ، ص٢٩٦ ، ح (٢٨٩٣) .

يُحَوِّي : التَّحْوِيَةُ أَنْ يُدِيرَ كِسَاءً حَوْلَ سَنَامِ الْبَعِيرِ ثُمَّ يَرْكُبُهُ ، وَالْأَسْمُ الْحَوِيَّةُ وَالْجَمْعُ الْحَوَايَا (ابن الأثير ، ج١ ، «حوا» ، ص٤٦٥) .

(٣) البخاري، الصحيح، م٣ ، ج٦ ، كتاب النكاح ، باب نظر المرأة إلى الحبش، ص١٩٥ ، ح (٥٢٣٦) .

ويوصي رسول الله ﷺ الأزواج بحسن الرعاية لنسائهم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه وإن ذهبت تقيمته كسرته وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»^(١) .

ويرعى الإسلام الأخت ، فيكرمها فيجعل منها الرجل تاجاً على رأسه ، ويحرص عليها، ويخدمها ويفديها بأعلى ماله ، وهذه صورة من نماذج الرعاية للأخت في الإسلام ، وقد أعطانا جابر رضي الله عنه* ، مثلاً يحتذى في ذلك فيما يرويه حيث قال رضي الله عنه لما حضر أخذُ دعائي أبي من الليل فقال : (ما أراني إلا مقتولاً في أول من يُقتل من أصحاب النبي ﷺ ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير نفس رسول الله ﷺ - فإن علي ديناً فاقض ، واستوص بأخواتك خيراً)^(٢) .

ويحفظ جابر وصية والده -رضي الله عنهما- فيتزوج امرأة ثيباً ، تقوم برعاية أخواته -رضي الله عنهم- مؤثراً مصلحة أخواته ، وأداء الواجب نحوهن على حظ نفسه ، وهو الشاب في مقتبل العمر .

فعن جابر رضي الله عنه قال : (تزوجت امرأة في عهد رسول الله ﷺ فلقيت النبي ﷺ فقال : «يا جابر! تزوجت» قلت : نعم ، قال : «بكر أم ثيب؟» قلت : ثيب . قال : «فهلأ بكرأ تلاعبها؟» قلت : يا رسول الله ! إن لي أخوات فخشيت أن تدخل بيني وبينهن . قال «فذاك إذن . إن المرأة تُنكح على دينها ، ومالها ، وجَمالها . فعليك بذات الدين تربت يداك»^(٣) .

وفي رواية أخرى قال جابر رضي الله عنه : «إنَّ عبد الله* هلك وترك تسع

(١) البخاري ، الصحيح ، م ، ٢ ، ج ، ٤ ، كتاب بدء الخلق ، باب خلق آدم وذريته ، ص ١٢٤ ، ح (٣٣٣١) .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ، ١ ، ج ، ٢ ، كتاب الجنائز ، باب هل يخرج الميت من القبر ، ص ١١٧ ، ح (١٣٥١) .

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج ، ٢ ، كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدين ، ص ١٠٨٧ ، ح (٥٧٥) .

(*) عبدالله عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي ، والد جابر بن عبدالله الصحابي المشهور . معدود في أهل العقبة وبدر ، وكان من النقباء واستشهد في أحد ، قال رسول الله ﷺ لجابر رضي الله عنه ما كلم الله أحداً إلا من وراء الحجاب وكلم أباك كفاحاً . وفي الموطأ أن السيل حفر عن عبدالله بن عمرو وعمرو بن الجموح حيث كانا في قبر واحد ، فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس .

وكان ذلك بعد ست وأربعين سنة من أحد . (الإصابة ٣٥٠/٤ ؛ الاستيعاب ٣٣٩/٤) .

بناتٍ (أو سبع) وإنِّي كرهْتُ أن آتيهنَّ أو أجيئنَّ بمثلهنَّ فأحبَّبتُ أن أجيءَ بامرأةٍ تقومُ عليهنَّ وتصلحهنَّ . قال «فبارك الله لك» أو قال «لي خيراً»^(١) .

وفي رواية عند الإمام البخاري أجاب جابر -رضي الله عنه- رسول الله ﷺ حين قال له ﷺ : «فهلَّا جاريةً تُلاعبك» قال جابر رضي الله عنه «إن أبي قَتَلَ يومَ أحدٍ وترك تسعَ بناتٍ كُنَّ لي تسعَ أخواتٍ فكرهْتُ أن أجمعَ إليهنَّ جاريةً حَرَقَاءَ مثلهنَّ ولكن امرأةً تَمْشُطُهُنَّ وتقومُ عليهنَّ قال رسول الله ﷺ «أصَبْتُ»^(٢) .

وحين مرض رضي الله عنه ، ذكر وصية الوالد الشهيد رضي الله عنه في أخواته فماذا فعل جابر رضي الله عنه ، قال جابر رضي الله عنه : اشتكيت وعندي سبعُ أخواتٍ فدخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فنَضَخَ* في وجهي فأفَقْتُ ، فقلت يارسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين ، قال: أَحْسِن ، قلت: بالشَّطْر ، قال: أَحْسِن ، ثم خرج وتركني وقال: يا جابر لا أراك مَيِّتاً من وَجَعِكَ هذا، وإنَّ الله تعالى قد أنزَلَ فَبَيَّنَ الذي لأخواتكِ فجعلَ لهنَّ الثُّلُثَيْنِ فكان جابر رضي الله عنه يقول : أنزلت هذه الآية في (٣). «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ*» إِنِ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ

(١) مسلم ، المرجع السابق ، باب استحباب نكاح البكر .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٥ ، كتاب المغازي ، باب «إذ همت طائفتان ٠٠٠» ص ٣٨ ، ح (٤٠٥٢) ؛ انظر : مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ .

(*) جابر بن عبد الله بن عمرو : بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي يكنى أبا عبد الله، وقيل أبو عبد الرحمن وأبو محمد ثبتت له الصحبة هو وأبوه، لم يشهد بدرأ ولا أحداً، وقد غزا مع الرسول تسعة عشر غزوة، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير، وكان أصغر الحاضرين سنأ، ولم يشهد الأولى، واستغفر له الرسول ﷺ ليلة الجمل يوم أبطأ جمل جابر وأعياء في إحدى الغزوات خمساً وعشرين مرة، توفي سنة سبع وسبعين ويقال ثلاث وسبعين ويقال أربع وسبعين .

(الإصابة ٢١٣/١ ؛ الاستيعاب ٢٢١ ؛ سير ١٨٩/٣ ، تهذيب ٤٢/٢ أسد الغابة ٣٠٧/١).

(*) نَضَخَ : النَّضْخُ قَرِيبٌ مِنَ النَّضْحِ وَهُوَ الْأَثَرُ يَبْقَى فِي الثَّوبِ وَالْجَسَدِ ، وَنَضَحَ عَلَيْهِ الْمَاءُ ، وَنَضَحَهُ ، إِذَا رَشَّهُ عَلَيْهِ (انظر : بن الأثير ، ج ٥ «نضخ» ص ٧ ، «نضح» ص ٣٩)

(٣) أبو داود ، السنن ، ج ٢ كتاب الفرائض ، باب في الكلاله ، ص ١١٧ ، ح (٢٨٨٧).

قال الألباني: صحيح . (صحيح سنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ٥٥٩ ، ح (٢٥١٠) .)

(*) الْكَلَالَةُ : وَرَثَةُ الْمُتَوَفَّى مَاعِداً الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ ، أَي: مَنْ لَمْ يَرِثْهُ أَبٌ أَوْ ابْنٌ ، (انظر : تفسير الطبري ، ٤٠/٦ ، ٤٠/٦ ، وصحيح البخاري ، ٢٢٠/٥/٣).

وَلَهُ أَخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتْ
اِثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَكَرِ مِثْلُ
حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ (سورة النساء-آية ١٧٦) .

ويكرم الإسلام البنت فقد مرض سعد بن أبي وقاص* رضي الله عنه فزاره
رسول الله ﷺ .

«كان رسول الله ﷺ يَعودُني عام حجة الوداع من وَجَعٍ اشتد بي ، فقلت :
إني قد بلغ بي من الوجع ، وأنا ذومال ، ولا يرثني إلا ابنةٌ ، أفأتصدق بثلثي مالي
؟ قال : «لا» ، فقلت : بالشطر ؟ فقال : «لا» ثم قال : «الثلثُ والثلثُ كبيرٌ - أو
كثيرٌ - إنك أن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكفئون الناس ، وإنك لم
تَنفِقْ نفقةً تبتغي بها وجهُ الله إلا أُجِرْتَ بها ، حتى ما تَجْعَلُ في في امرأتك»^(١) .

وهذه أمامة رضي الله عنها ، يحملها جدها رسول الله ﷺ على عاتقه وهو
في الصلاة «فإذا ركعَ وضَعها ، وإذا رفعَ من السجود أعادها»^(٢) .

بل تمتد رعايته ﷺ للبنات الصغيرات من ذرية الصحابة رضي الله عنهم .

فهذه أم خالد رضي الله عنها يكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ويلطفها بما تعرف من الكلام - مطيباً خاطرها، فحين أتى ﷺ «بشباب فيها

(١) البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ٢ ، كتاب الجنائز ، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة ،
ص ١٠٢ ، ح (١٢٩٥) .

مسلم الصحيح ، ج ٣ ، كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث ، ص ١٢٥٠ ، ح (١٦٢٨) .

(*) سعد بن أبي وقاص هو سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري ، أبو
اسحاق ، أحد العشرة وآخرهم موتاً ، وأمه حمزة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبي
سفيان ، كان أحد الفرسان وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وهو أحد الستة أهل
الشورى ، قال عنه رسول الله ﷺ هذا خالي فليرني امرؤ خاله ، وكان مستجاب الدعوة ،
وقد أسلم قديماً ، وشهد بدرًا والمشاهد كلها ، وكان رأس من فتح العراق ، وولي الكوفة
لعمري رضي الله عنه . مات سنة خمس وخمسين (الإصابة ٣٣/٢ ؛ الاستيعاب
١٩/٢ ؛ سير ٩٢/١ ؛ ط ابن سعد ١٣٧/٣ ؛ أسد الغابة ٣٦٦/٢ ؛ تهذيب ٤٨٣/٣) .

(٢) انظر تخريجه ص ٤٣ من هذا البحث .

خَمِيصَةٌ* سوداءُ صغيرة فقال ﷺ: «(من تَرَوْنَ نَكْسُو هذه) فسكتَ القوم ، قال ﷺ اثْنُونِي بِأُم خَالِدٍ* ، فَأَتَيْتُ بِهَا تُحْمَلُ ، «فَأَخَذَ الْخَمِيصَةَ بِيَدِهِ فَأَلْبَسَهَا وَقَالَ: «أَبْلِي وَأَخْلَقِي» ، وكان فيها عِلْمٌ أَخْضَرُ أَوْ أَصْفَرُ ، فقال «يا أُم خَالِدٍ هذا سَنَاهُ» ، وَسَنَاهُ بِالْحَبَشِيَّةِ حَسَنٌ^(١) .

أي إكرام وأي رعاية وأي تقدير لهذه البنت الصغيرة التي لم تنزل تحمل على الأيدي : سماها ﷺ بكنيتها ، ثم ألبسها بيديه الشريفتين ، ثم دعا لها ، ثم طيب خاطرها ﷺ !.

بل وخاطبها ﷺ باللغة التي تفهمها ، ميزة لها منه ﷺ ، لأنها رضي الله عنها ولدت بأرض الحبشة .

ومرة أخرى ، تنال أم خالد رضي الله عنها شرف تكريم رسول الله ﷺ ، فيما روت عن نفسها . قالت : (أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَبِي وَعَلَيَّ قَمِيصٌ أَصْفَرُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «سَنَهُ ، سَنَهُ» ، .. ، قالت : فذهبتُ أَلْعَبُ بِخَاتَمِ النَّبُوَّةِ ، فَزَيَّرَنِي* أَبِي ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «دَعُهَا» ، ثم قال رسول ﷺ: «أَبْلِي وَأَخْلَقِي ، ثم أَبْلِي وَأَخْلَقِي ثم أَبْلِي وَأَخْلَقِي»^(٢) .

(*) خَمِيصَةٌ : وهي ثوب خَزٌ أَوْ صُوفٌ مُعْلَمٌ ، وقيل لا تسمى خَمِيصَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ سَوْدَاءَ مُعْلَمَةً (ابن الأثير ، ج ٢ ، «خمس» ص ٨٠) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب اللباس ، باب الخميصة السوداء ، ص ٥٤ ، ح (٥٨٢٣) .

(*) أم خالد بنت خالد هي أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس تكنى أم خالد وهي مشهورة بكنيتها ، ولدت بأرض الحبشة مع أخيها سعيد ، أمها أميمة ويقال همينة بنت خلف بن أسعد ، تزوج أمة بنت خالد الزبير بن العوام ، وقالت أمة سمعت النجاشي يقول لأصحاب السفينتين أقرئوا رسول الله مني السلام ، قالت فكنت ممن أقرأه ﷺ السلام من النجاشي ، وقد قدمت من الحبشة في السفينتين مع أمها وأبيها ، وروت عن الرسول ﷺ ، وقال لها «أبلي وأخلقي» حتى ذكر ، أي ذكر دهرًا طويلًا ، وفي بعض طرقه عند البخاري في الجهاد قال أبو عبد الله لم تعش امرأة ، ما عاشت هذه .

(الإصابة ٢٣٨/٤ ؛ الاستيعاب ٢٤١/٤) .

(*) زَيَّرَنِي : زَيَّرَهُ أَي نَهَرَهُ وَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْقَوْلِ وَالزَّاد (ابن الأثير ، ج ٢ ، «زبر» ، ص ٢٩٣) .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب الأدب - باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به ، ص ٩٨ ، ح (٥٩٩٣) .

لقد كرم الإسلام الأنثى ، ورعاها ، وحث على رعايتها ، والقيام بشأنها ، والإحسان إليها ، وتطبيب خاطرها ، وجبر كسرهما ، واحترامها وتقديرها أياً كانت -أماً أو أختاً أو بنتاً صغيرة أو كبيرة ، عمّة أو خالة .

وقد قدر الصحابة رضي الله عنهم هذه الجوانب في حياتهم ، فنظروا إلى المرأة نظرة الاحترام والتقدير ، بل امتد هذا التقدير إلى قرابتها من أجلها ، فعن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه سئل -رضي الله عنه - أتريد أن تقاتل ابن الزبير فتحل حرم الله ؟ فقال معاذ الله قال ، قال الناس : بايع لابن الزبير فقلت : وأين بهذا الأمر عنه ، أما أبوه فحواري النبي ﷺ ، يريد الزبير رضي الله عنه ، وأما جده فصاحب الغار ، يريد أبا بكر رضي الله عنه ، وأما خالته فأم المؤمنين - يريد عائشة رضي الله عنها - وأما عمته فزوج النبي ﷺ ، يريد خديجة رضي الله عنها - ثم عفيف في الإسلام ، قاريء للقرآن ، والله إن وصلوني وصلوني من قريب ، وإن ربوني ربني أكفاء كرام»^(١) .

هذه هي المرأة في الإسلام ، وهذه مكانتها ، ولن تصل المرأة إلى الرفعة والعزة والاحترام والتقدير والإنسانية إلا في ظل الإسلام .

٢- رفع شأن الأمهات

إن الإسلام قد رفع من شأن الوالدين عامة ، والأم خاصة ، وجعل طاعة الوالدين وبرهما في الدرجة الثانية بعد فريضة الصلاة ، واعتبر الإحسان إلى الوالدين عبادة وقربى إلى الله سبحانه وتعالى : قال الله تعالى ذكره ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفًّا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ واخفِضْ لهما جناح الذلِّ من الرحمةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (سورة الإسراء-آية ٢٣-٢٤).

يقول الإمام الطبري في معنى هذه الآية الكريمة :

إن الله سبحانه وتعالى أمر ألا تعبدوا إلا إياه وأمركم أن تحسنوا إلى الوالدين فتبروهما ، فإذا وصلا إلى مرحلة الكبر والضعف فزد الإحسان إليهما والتذلل بين أيديهما ولا تقل لهما أف ، فلا تأفف من شيء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ، ولكن اصبر على ذلك عنهما ، واحتسب في الأجر عليه منهما كما

صبرا عليك في صغرك وقل لهما القول الحسن اللين الجميل وإياك أن تزجرهما ، بل قل لها أحسن ما تجد من القول ، وكن لهما ذليلاً رحمة منك بهما تطيعهما فيما أمراك به ، مما لم يكن لله معصية ، ولا تخالفهما فيما أحبا بوادع لهما بالرحمة ، ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ وتعطف عليهما . بمغفرتك ورحمتك ، كما تعطفنا علي في صغري ، فرحماني وربياني صغيراً حتى استقلت بنفسي ، واستغنيت عنهما^(١)

وقال الله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ وإن جُهداك على أن تُشرك بي ماليس لك به علم فلا تُطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة لقمان - آية ١٤ - ١٥).

فالله سبحانه وتعالى يوصي الإنسان بالإحسان إلى والديه ولا سيما الأم التي حملته وأرضعته هذه المدة الطويلة ، فلا بد من الشكر لله سبحانه وتعالى ، ثم للوالدين اللذين كانا سبباً في وجود هذا الإنسان بمشيئة الله عز وجل ، فالمصير والمآل إلى الله وهو سبحانه وتعالى يجازي عباده المحسن والمسيء ، يقول الإمام الزمخشري في الكشف : «وإذا رأى الإنسان من والديه ما يكره في دين أو خلق فما عليه إلا أن يصبر ، ويدعوهما إلى الإيمان ويحسن صحبتهما ، فالله سبحانه وتعالى يقول للعبد اتبع سبيل المؤمنين ، ولا تتبع سبيلهما فيه ، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهم في الدنيا ، ثم إلي مرجعك ، ومرجعهم فأجازيك على إيمانك وأجازيهم على كفرهما»^(٢) .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَفِصْلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (سورة الأحقاف آية ١٥).

تتكرر الوصية في القرآن الكريم بالوالدين وخصوصاً الأم يقول الإمام الطبري في هذه الآية الكريمة ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ براً بها

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٩م ، ج ١٥ ، ص ٦٢ ، ٦٧ .

(٢) الزمخشري ، الكشف ج ٣ ، ص ٢٣٢ .

لما كان منهما إليه حملاً ووليداً وناشئاً ، ثم وصف جل ثناؤه مآلديه من نعمة أمه وما لاقت منه في حال حملها ووضعها ، ونبهه على الواجب لها عليه من البر واستحقاقها عليه من الكرامة ، وجميل الصحبة ، فقال حملته أمه يعني في بطنها كرهاً يعني مشقة ﴿ووضعتْهُ كُرهاً﴾ يقول : وولدتها كرهاً يعني مشقة^(١).

وخص الله سبحانه وتعالى الأم في هذه الآية كما خصها في سورة لقمان تأكيداً لحقها على الابن أكثر من حق الأب عليه يقول الزمخشري -رحمه الله- (ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن حق الأم أكبر من حق الأب ، لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك)^(٢).

ومن خلال الآيات الكريمة السابقة ، يلاحظ أن الإسلام قد رفع من مقام الوالدين فجعله في الدرجة الثانية بعد العبادة ، فالله سبحانه وتعالى أوجد الأولاد من هذين الوالدين وجعلهما الله عز وجل سبباً في ظهوره على هذه الدنيا ، فينبغي شكرهما والإحسان إليهما ، وخص الأم بمزيد من العناية والطاعة والبر والإحسان . فالإسلام كما يقول الأستاذ البهي الخولي «دين الحب والبر ورعاية الجميل ، وهو إلى ذلك دين الحق في كل ما يقرر فإذا أثنى على شيء خيراً ، أو أوصى بحقه ، فإنه يبني ذلك على حقائق جليلة ... فإذا جاء تعظيم الأم مفردة أو مدرجة فيما أوصى به من حق الوالدين ... فإنما يرشد إلى مقامات عظيمة قدرت للوالدين لتأديتهما أجل الأعمال للحياة والإنسانية عامة ، ولولدهما خاصة ، إذ كانا سبباً لمجيء إنسان لينعم بما في هذا الكون من مغنم معرفة الله تعالى وعبادته ، ولا نقصد ما احتمل الأب من تضحية والأم من مشقة، فإن ذلك لاحق لوجوده في هذه الحياة، وإنما نقصد أنهما أقيما مقاماً كان سبباً ظاهراً لوجود كائن أراد الله وجوده ... فشرف مقام الوالدين هو شرف السببية التي قامت في تنفيذ إرادة الله تعالى في أجل نعمة أنعمها على الإنسان وهي نعمة الوجود»^(٣).

ورسول الله ﷺ يعجب ويشنع على من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يسع في برهما، فخر الدنيا والآخرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند

(١) جامع البيان ، ٣م ، ج ٢٦ ، ص ١٥ .
(٢) الزمخشري ، الكشاف ، ج ٥ ، ص ١٧ .
(٣) الإسلام والمرأة المعاصرة ، ص ١٥٢-١٥٣ .

الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة»^(١) .

وفي حديث آخر يقول ﷺ : «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»^(٢) .

كذلك جعل الإسلام عقوقهما من الكبائر فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (سئل النبي ﷺ عن الكبائر قال «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس، وشهادة الزور»^(٣)).

وقال ﷺ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ قُلْنَا بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ ﷺ : «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان مُتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وشهادة الزور ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وشهادة الزور ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وشهادة الزور، فما زال يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لَا يَسْكُتُ»^(٤) .

وقال ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَمَنْعَ وَهَاتِ وَوَادَ الْبَنَاتِ وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»^(٥) .

وقد نهى الرسول ﷺ عن سب الوالدين ويين أنه من الكبائر : قال رسول الله ﷺ : إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه قال يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ويسب أمه^(٦) .

فليس للإنسان أن يسيء إلى أبويه أو أحدهما بأدنى إساءة حتى بكلمة (أف) كما في الآية الكريمة ، حتى لا يحل عليه مقت الله سبحانه وغضبه والطرده من رحمته عز وجل ، بل ويرفع الإسلام من مقام الأبوين كليهما فيقدم رعايتهما والإحسان إليهما على الجهاد في سبيل الله، فقد (جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال : «أَحْيِيَّ وَالِدَاكَ» قال نعم ، قال : «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»^(٧) .

(١) مسلم، الصحيح، ج٤، كتاب البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك أبويه، ص١٩٧٨، ح(٢٥٥١).

(٢) مسلم، الصحيح، ج٣، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله، ص١٥٦٧، ح(١٩٧٨).

(٣) البخاري، الصحيح، م٢، ج٣، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ص٢٠٤، ح(٢٦٥٣)؛

مسلم، الصحيح، ج١، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ص٩١، ح(٨٨)، بنحوه .

(٤) البخاري، الصحيح، م٤، ج٧، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ص٩٣، ح(٥٩٧٦)؛ مسلم، المرجع السابق، ح(٨٧).

(٥) البخاري، المرجع السابق، ح(٥٩٧٥).

(٦) البخاري، المرجع السابق، باب لا يسب الرجل ولديه، ص٩٢، ح(٥٩٧٣)؛ مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر، ص٩٢، ح(٩٠).

(٧) البخاري، الصحيح، م٢، ج٤، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الوالدين، ص٢٢، ح(٣٠٠٤)؛

مسلم، الصحيح، ج٤، كتاب البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق بالولد، ص١٩٧٥، ح(٢٥٤٩).

ويمتد البر إلى ذوي الوالدين وأصحابهما فعن عبدالله بن دينار* عن عبد الله ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار ، كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، فقال ابن دينار: فقلنا له : أصلحك الله ، إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وُداً* لعمر بن الخطاب ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إِنَّ أَبْرَ البرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلُ وُودٍ أَبِيهِ))^(١) .

قال الإمام النووي رحمه الله : «وفي هذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم وهو متضمن لبر الأب وإكرامه لكونه بسببه ، ويلتحق به أصدقاء الأم والأجداد»^(٢) .

ويسأل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال وأحسنها كما روى رضي الله عنه فقال : (سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟: «قال الصلاة على وقتها» ، قال: ثم أي ؟ قال : «برُّ الوالدين» ، قال: ثم أي ؟ قال : «الجهادُ في سبيل الله»^(٣) .

وهذه قصة أولئك الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله سبحانه بأفضل عمل عملوه فكان بر الوالدين والإحسان إليهما طريقاً إلى رضا الله سبحانه وإجابة الدعاء ﷻ «فقال أحدهم : اللهم إنه كان لي والدانِ شَيْخَانِ كبيرانِ ولي صَبِيَّةٌ صغارٌ كنتُ أرعى عليهما ، فإذا رُحْتُ عليهما فَحَلَبْتُ بدأتُ بوالديَّ أَشْقِيَهُمَا قبلَ ولدي، وإنه نأى بي الشجر فما أتيتُ حتى أمسيْتُ ، فوجدتُهما قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كما كنتُ أَحَلَبُ فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عند رُؤُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا ، وَأَكْرَهُ

(*) عبد الله بن دينار العدوي أبو عبد الرحمن المدني مولى ابن عمر رضي الله عنه قيل مات سنة سبع وعشرين ومائة . (تهذيب ، ٢٠١/٥).

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب البر والصلة ، باب فضل صلة أصدقاء الأب ، ص ١٩٧٩ ، ح (٢٥٥٢).

(*) وُداً : أي صديقاً على حذف المضاف ، تقديره ، كان ذاوُداً* لعمر : أي صديقاً ، وإن كانت الواو مكسورة فلا يُحتاج إلى حذف ، فإن الودَّ بالكسر : الصديق . (ابن الأثير ، ج ٥ ، «ودد» ، ص ١٦٥) .

(٢) شرح صحيح مسلم ، ج ١٦ ، ص ١١٠.

(٣) البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب الأدب ، باب البر والصلة ، ص ٩١ ، ح (٥٩٧٠).

أن أبدأ بالصبيّة قبلهما ، والصبيّة يتضاغون عند قدومي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجرُ فإن كنت تعلمُ أني فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرجْ لنا فرجةً نرى منها السماء ، ففرجَ اللهُ لهم فرجةً حتى يروُن منها السماء ^(١) .»

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال من أحق الناس بحسن صحابتي قال «أُمُّك» ، قال : ثم من ، قال «أُمُّك» قال ثم من قال «أُمُّك» قال ثم من قال «أبوك» ^(٢) .

بل وتقدم طاعة الأم وبرها على صلاة النافلة كما في قصة جريج ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «كان رجل في بني إسرائيل يقال له جريجٌ يصلي فجاءته أمّه فدعته فأبى أن يجيبها فقال أجيبها أو أصلي ، ثم أتته فقالت اللهم لا تُمِتْهُ حتى تُريه وجوه المومسات . وكان جريجٌ في صومعته فقالت امرأةٌ لأقننَ جريجاً فتعرضت له فكلّمته فأبى ، فأثت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقالت : هو من جريج . فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبّوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلامُ فقال : من أبوك يا غلامُ ؟ قال : الراعي ، قالوا نبني صومعتك من ذهبٍ قال : لا ، إلا من طين» ^(٣) فقد ابتلي جريج بتلك المرأة بسبب دعاء أمه عليه ، حيث استجاب الله عز وجل دعاءها .

ويأتي أحد الصحابة رضي الله عنهم - إلى رسول الله ﷺ فيقول : (إني أردت أن أغزو وجئت أستشيرك فقال : «ألك والدة» قال نعم ، قال ﷺ «اذهب فالزمها فإن الجنة عند رجليها» ^(٤) .

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : يا رسول الله ، أذنبت ذنباً كبيراً ، فهل لي من توبة ؟ فقال له ﷺ ألك والدان ؟ قال لا ، قال : فلك خالة ؟ قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ : «فبرها إذن» ^(٥) .

(١) البخاري ، الصحيح م ٤ ، ج ٧ ، كتاب الأدب ، باب إجابة دعاء من بروالديه ، ص ٩٢ ، ح (٥٩٧٤) .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب الأدب ، باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، ص ٩١ ، ح (٥٩٧١) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب البر والصلة ، باب بر الوالدين ، ص ١٩٧٤ ، ح (٢٥٤٨) .

(٣) البخاري ، الصحيح ، م ٢ ، ج ٣ ، كتاب المظالم ، باب إذا هدم حائطاً فليبن مثله ، ص ١٤٨ ، ح (٢٤٨٢) .

مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب البر والصلة ، باب تقديم بر الوالدين ، ص ١٩٧٦ ، ح (٢٥٥٠) بنحوه .

(٤) الحاكم ، المستدرک على الصحيحين ، ج ٤ ، ص ١٥١ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

* عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي يكنى أبا عبد الرحمن ، عرض على النبي ﷺ يوم أحد فاستصغره ثم عرض يوم الخندق فأجازه ، قال ابن مسعود : إن من أملاك شباب قريش لنفسه عن الدنيا عبدالله بن عمر ، وكان رضي الله عنه يتبع آثار النبي ﷺ كل مكان صلى فيه ، حتى إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة ، فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء لكيلا تيبس ، قال عنه رسول الله ﷺ «إن عبدالله رجل صالح» ، فضائله كثيرة توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وسبعين وله من العمر سبع وثمانون سنة .

(الإصابة ٣٤٧/٢ ؛ الاستيعاب ٣٤١/٢ ، سير ٢٠٣/٣ ؛ تهذيب ٣٢٨/٥) .

(٥) مسند الإمام أحمد ، ج ٦ ، ص ٢٨٤ ، ح (٤٦٢٤) وقال الأستاذ أحمد شاکر : إسناده صحيح .

وتأتي أسماء رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ تستشيريه، فقالت، رضي الله عنها : (قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ : إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قَالَ ﷺ : «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ»^(١) .

فبالرغم من أن أم أسماء مشركة ، فقد أمرت رضي الله عنها بصلتها والإحسان إليها ولم يحل كفر الأم دون إكرامها .

ويستفتي الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ فيما كان على أمهاتهم من نذر أو صوم أو غيره عند الموت فقد سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ (في نذر كان على أمه وتوفيت قبل أن تقضيه؟ فقال رسول الله ﷺ «فأقضه عنها» (٢) .

وأتى رجل آخر النبي صلى الله عليه وسلم فقال (يا رسول الله : إِنْ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا* ، وَلَمْ تَوْصِ ، وَأَظْنَهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتُ ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا ؟ قَالَ ﷺ «نَعَمْ»^(٣) .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت : إِنْ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمٌ شَهْرٌ ، فَقَالَ «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دِينَ» أَكُنْتُ تَقْضِيهِ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ ﷺ : «فدينُ الله أحقُّ بالقضاء»^(٤) .

وامرأة أخرى تسأل رسول الله ﷺ عن أمها التي ماتت ولم تحج ، قالت : إنها لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال ﷺ : «أحجِّي عنها»^(٥) .

لقد نالت الأم حظاً كبيراً في الشرع الإسلامي من الطاعة والبر والصلة والإحسان والإكرام ، لم ينله أحد ولم يصل إلى درجته أحد في أية قرابة كانت، ولا شك

(١) البخاري ، الصحيح ٢، ج ٣، كتاب الهبة وفضلها ، باب الهدية للمشركين ، ص ١٩٢، ح (٢٩٢٠).

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ٣، كتاب النذر ، باب قضاء النذر عن الوالدين ، ص ١٢٦٠، ح (١٦٣٨).

(*) افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا : مَاتَتْ فَجْأَةً ، وَيُرْوَى بِنَصْبِ النَّفْسِ وَرَفْعِهَا ٠ (ابن الأثير ، ج ٣ ، (فلت) ، ص ٤٦٧) .

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج ٢، كتاب الزكاة ، باب وصول الصدقة عن الميت ، ص ٦٩٦، ح (١٠٠٤).

(٤) مسلم ، الصحيح ج ٢، كتاب الصوم ، باب قضاء الصوم عن الميت ، ص ٨٠٤، ح (١١٤٨).

(٥) المرجع السابق ، ص ٨٠٥، ح (١١٤٩).

أن سبب ذلك ماتعانيه وتلاقيه في سبيل أولادها فهي سبب وجود هذا الإنسان على هذه الأرض بأمر الله سبحانه وتعالى، الذي أوجد هذه الأم لتكون السبب في خروج الذرية إلى الحياة وإعمارها .

ويعطينا رسول الله ﷺ ، الصورة النموذجية للبر بالأم ، فيصل الأمر به ﷺ أن يوصي بنسب أمنا هاجر عليها السلام ، قال رسول الله ﷺ : «إنكم ستفتحون مِصْرَ... فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمَّةً وَرَحِمًا» أو قال «ذمَّةً وَصِهْرًا»^(١) .

ويستأذن رسول الله ﷺ ربه في زيارة قبر أمه حيث توفيت قبل الإسلام ، قال ﷺ «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»^(٢) .

فهذا بره ﷺ بأمه التي وضعتة . ، وقد ماتت وهو صغير السن .
وكان ﷺ أيضاً كثير البر بمرضعاته ومربياته ، والسنة الشريفة حافلة بذلك، فقد جاءت حليلة بنت عبد الله* أم النبي ﷺ من الرضاعة إلى رسول الله ﷺ، فقام إليها ، وبَسَطَ لها رداءه ، فجلست عليه^(٣) .
وكان ﷺ يكرم ثويبة* مرضعته ، فكان يبعث إليها بصلة وكسوة حتى جاءه الخبر بموتها^(٤) .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب الفضائل ، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، ص١٩٧٠، ح(٢٥٤٣).

(٢) مسلم الصحيح ، ج٢ ، كتاب الجنائز ، باب استئذان النبي ربه عز وجل في زيارة قبر أمه ، ص٦٧١، ح(٩٧٦).

(*) حليلة السعدية بنت أبي ذؤيب : هي مرضعة الرسول ﷺ بنت أبي ذؤيب واسمه عبد الله بن الحارث بن شجنة ... وروي أنها جاءت إلى الرسول فقام إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه وهي أمه من الرضاعة (الإصابة ٤/٢٧٤).

(٣) ابن حجر ، الإصابة ، ج٤ ، ص٢٧٤.

(*) ثويبة مولاة أبي لهب هي ثويبة التي أرضعت النبي ﷺ واختلف في اسمها وأخرج ابن سعد أن أول من أرضع الرسول ﷺ ثويبة بابن لها يقال له مسروح، قبل أن تقدم حليلة وكان الرسول ﷺ يصلها وهو بمكة، وكانت خديجة تكرمها وهي على ملك أبي لهب وسألته أن يبيعهها لها فامتنع فلما هاجر رسول الله ﷺ أعتقها أبو لهب وتوفيت سنة سبع مرجعه من خيبر . (الإصابة ٤/٢٥٨).

(٤) المرجع السابق ، ج٤ ، ص ٢٥٧.

أما أم أيمن رضي الله عنها حاضنة رسول الله ﷺ، فقد كان لها شأن آخر مع رسول الله ﷺ، حيث شرفت بتكريم رسول الله ﷺ أيما تكريم، بل امتد الأمر إلى أبنائها وأحفادها، وكان رسول الله ﷺ يزورها، يقول أنس رضي الله عنه: «انطلق رسول ﷺ إلى أم أيمن فانطلقت معه، فناولته إناء فيه شراب، قال: فلا أدري أصادفته صائماً أو لم يرده، فجعلت تصخب عليه وتذمر عليه»^(١).

قال الإمام النووي: «وكانت تدل عليه لكونها حاضنته وربته»^(٢).

وعندما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر أمر المهاجرين أن يردوا إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم فرد النبي ﷺ إلى أم أنس عذاقها* وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه^(٣)، لأن أم سليم رضي الله عنها كانت قد أعطت أم أيمن رضي الله عنهما نخلات لها، يوم قسم رسول الله ﷺ أموال الأنصار بينهم وبين المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين.

ولم يقف الأمر عند رد رسول الله ﷺ لأم أيمن رضي الله عنها ما أخذ منها بل أعطاها عشرة أمثاله^(٤)، وأراد ﷺ بذلك استطابة قلبها، فما زال يزيدها ﷺ في العوض حتى رضيت، وكل هذا تبرع منه ﷺ إكراماً لها رضي الله عنها، لما لها من حق الحضانة والتربية^(٥).

ولا يقتصر إكرام رسول الله ﷺ لأمه من الرضاع فقط، وإنما يصل ذلك إلى ذرية هذه الأم المرضع في إخوته ﷺ من الرضاع، فإنه حين سيق إليه ﷺ السبي من هوازن، كانت بنت حليمة السعدية، الشيماء* رضي الله عنهما فيهم، فلما انتهت

(١) مسلم، الصحيح، ج ٤، كتاب الفضائل، باب فضائل أم أيمن رضي الله عنها، ص ١٩٠٧، ح (٢٤٥٣).

(٢) شرح صحيح مسلم، م ٨، ج ١٦، ص ٩.

عذاقها: فخلاتها (ابن الأثير، ج ٣، (عزق)، ص ١٩٩.

(٣) انظر صحيح البخاري، م ٢، ج ٣، كتاب الهبة وفضلها، باب فضل المنيحة، ص ١٩٤، ح (٢٦٣٠).

صحيح مسلم، ج ٣، كتاب الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم، ص ١٣٩١، ح (١٧٧١).

(٤) انظر: مسلم، المرجع السابق، ص ١٣٩٣.

(٥) انظر: النووي، شرح صحيح مسلم، م ٦، ج ١٢، ص ١٠١.

(*) الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى بن رفاعة، ذكر أن أخوة النبي ﷺ من الرضاعة، عبد الله وأنيسة وحذيفة بنو الحارث وحذافة هي الشيماء غلب عليها ذلك، وقيل إنها كانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمها. (الإصابة، ٤/٣٤٤).

إلى رسول الله ﷺ قالت : يا رسول الله إني لأختك من الرضاعة ، وعرفته بعلامة عرفها ﷺ ، فبسط لها رداءه ودمعت عيناه ، وقال لها: ههنا ، فأجلسها على رداءه ، وخيّرهما بين أن تقيم معه مكرمةً محبةً ، أو أن ترجع إلى قومها ، فأسلمت ورجعت إلى قومها ، وأعطاه رسول الله ﷺ نعماً وشاء وثلاثة أعبد وجارية^(١) .

وحين هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ، نزل في بني النجار ، أخواله ، فقد أحب ﷺ أن يكرم أهل أمه بنزوله عندهم ، فكان من توفيق الله سبحانه للناقة أن بركت في موضع مسجده^(٢) الذي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه في بني النجار^(٣) ، والذي فيه بيته ﷺ .

واحتذى الصحابة سنة رسول الله ﷺ ، فحفلت سيرهم رضي الله عنهم ، بصور كثيرة من إكرام الأم ورعايتها وبرها .

بل إنهم عندما دخلوا في الإسلام كانت الأم في مقدمة من يدعونه للدخول في الدين الجديد ونبذ الشرك ، حرصاً منهم على الخير والإحسان لأمهاتهم رضي الله عنهم .

ويتقدمهم أبو بكر- رضي الله عنه- الصديق، الذي وقف في وجه قريش متحدياً يخطب فيهم ، يدعو إلى الله ورسوله، فثارت ثائرة المشركين فضربوه رضي الله عنه، ولم ينسَ أبو بكر رضي الله عنه أمه أم الخير* من الدعوة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ وحين تعذر عليه ذلك ، طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو لأمه أن تسلم فأسلمت رضي الله عنها^(٤) .

أما أبو هريرة رضي الله عنه ، فقد نال بركة دعاء رسول الله ﷺ ، بدعوته

(١) انظر : الاستيعاب ، ابن عبد البر، ج٤، ص٣٤٤-٣٤٥، وابن حجر، الإصابة، ج٤، ص٣٤٤.

(٢) انظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج١، ص٣٠.

(٣) انظر : صحيح البخاري ، م٢، ج٤، كتاب مناقب الأنصار ، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ، ص٣٢٠، ح(٣٩٣٢).

(*) أم الخير بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وقيل بنت صخر بن عمرو بن عامر القرشية التميمية والدة أبي بكر الصديق، أسلمت قديماً وقال ابن الزبير كانت من المبايعات بايعت رسول الله ﷺ وماتت قبل أبي قحافة زوجها وقد أسلما.

(الاستيعاب ٤/٤٤٦ ؛ الإصابة ٤/٤٤٧).

(٤) انظر ابن حجر ، الإصابة ، ج٤، ص٤٤٧.

أمه إلى الإسلام ، قال أبو هريرة (كنت أدعو أُمِّي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره فأُتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت : يا رسول الله إني كنت أدعو أُمِّي إلى الإسلام فتأبى عليّ فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره فادع الله أن يهدي أُمَّ أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ «اللهم اهدِ أُمَّ أبي هريرة» فخرجت مستبشرة بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مُجَافٌ فسمعت أُمِّي خَشَفَ قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خَضَخَضَ الماء ، قال فاغتسلت ولبستُ درعها وَعَجِلْتُ عن خمارها ، ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأُتيته وأنا أبكي من الفرح قال : قلت يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أُمَّ أبي هريرة فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً ، قال قلت يا رسول الله ادع الله أن يُحببني أنا وأُمِّي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا قال رسول الله ﷺ : «اللهم حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا-يعني أبا هريرة- وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» ، فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني^(١) .

وأبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، يقدم مكة مع أخيه ووالدتهما ، يسألون عن رسول الله ﷺ ، فحين رأى رسول الله ﷺ وأسلم هو وأخوه ، عاد إلى أمه لتسلم ، قال رضي الله عنه (فأتينا أُمَّنا ، فقالت ما بي رغبةٌ عن دينكما ، فأني قد أسلمت وصدّقت)^(٢) .

ومع كل هذا الاحترام والتقدير للأُم من صحابة رسول الله ﷺ ، ما كانت رابطة الأمومة لتصدهم عن رسول الله ﷺ ، وعن دعوة الحق ..

كان هذا حال سعد بن أبي وقاص-رضي الله عنه- مع أمه وقد أنزل الله فيه آيات من القرآن ، فقد روى مصعب بن سعد رحمه الله * قصة سعد رضي الله عنه فقال : (حلفت أُم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب . قالت : زعمت أن الله وصّاك بوالديك ، وأنا أملك ، وأنا آمرُك بهذا .

قال : مكثت ثلاثاً حتى غُشيَ عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أبي هريرة ، ص١٩٣٨ ، ح(٢٤٩١) .

(٢) المرجع السابق ، باب في فضائل أبي ذر رضي الله عنه ، ص١٩١٩ ، ح(٢٤٧٣) .
(*) مصعب بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، أبو زرارَةَ المدني تابعي ثقة ، روى عن أبيه وعلي وطلحة وعكرمة وعلي وغيرهم رضي الله عنهم ، وكان ثقة كثير الحديث .
(تهذيب ١٠/١٦٠) .

فسقاها فجعلت تدعو على سعد^(١) فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلْتَهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَيَّ الْمَصِيرَ* وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة لقمان آية ١٤-١٥) .

هكذا كانت صحبة صحابة رسول الله ﷺ مع أمهاتهم برًا وطاعة أو صحبة بالمعروف إذا حال الإيمان والكفر بينهما .

ويؤكد رسول الله ﷺ الأمر بالبر والطاعة للأُم ، وأنها مما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى ، فيخبر ﷺ أصحابه رضي الله عنهم ، عن رجل من التابعين ، يأتي بعد رسول الله ﷺ ، يقال له أويس هو بر بأمه ، ويره بأمه جعله مستجاب الدعوة ، فيأمر رسول الله ﷺ صحابته أن يطلبوا الدعاء منه .

ولا ينسى عمر بن الخطاب الخليفة وأمير المؤمنين - رضي الله عنه - أن يسأل عن هذا الرجل لينال الخير بدعوته - فعن أسير بن جابر* رضي الله عنه قال : (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر*؟ حتى أتى على أويس فقال : أنت أويس بن عامر؟ قال : نعم : قال : من مرادٍ ثم من قرن؟ قال : نعم قال: فكان بك برصٌ فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم قال: لك والدّة؟ قال: نعم قال سمعت رسول الله ﷺ ، يقول: لا يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مرادٍ ثم من قرن؛ كان به برص فبرأ منه، إلا موضع درهمٍ ، له والدّة هو بها بر ، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل))، فاستغفر لي فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد قال: الكوفة ، قال: ألا أكتبُ لك إلى عاملها قال: أكون في غبراء الناس أحبّ إلى قال: فلما كان من العام المقبل حجّ رجلٌ من أشرافهم فوافق عمر ، فسأله عن أويس قال:

(١) مسلم ، الصحيح ، ج٤ ، كتاب ، فضائل الصحابة ، باب في فضائل سعد بن أبي وقاص ، ص ١٨٧٧ ، ج (١٧٤٨) .

(*) أويس بن عامر بن جزء بن مالك بن عمرو بن قرن بن رومان بن ناجية بن مراد المراري القرني، وروى عن النبي ﷺ أنه قال : (خير التابعين رجل يقال له أويس بن عامر) وفي رواية (فمن لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم) (وروي في هذا عدة روايات وقيل أسلم في عهد الرسول ولكن منعه من القنوم بره بوالدته وقيل قتل بصفين مع علي وقيل غير ذلك . (الإصابة ١١٧/١؛ سير ١٩/٤٥ ؛ ط ابن سعد ٦/١٦١؛ أسد الغابة ١٧٩/١) .

(*) أسير بن جابر بن عمرو ، ويقال ابن جابر الكوفي ، ويقال يُسَير بن عمرو ، أدرك زمن النبي ﷺ ، ويقال أن له رؤية ، قيل ولد في مهاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ومات سنة خمس وثمانين ((الاستيعاب ١/٦٦) .

تركته رث البيت قليل المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»، فأتى أويساً فقال استغفر لي قال: أنت أحدث عهداً بسفرٍ صالحٍ فاستغفر لي، قال لقيت عمر ؟ قال: نعم فاستغفر له ففطن له الناس فانطلق على وجهه، قال أسير* : وكسوته بُردةً، فكان كلما رآه انسانٌ قال : من أين لأويس هذه البردة؟^(١).

ولقد راعى الإسلام عاطفة الأمومة بين الأم وأولادها فحرم التفريق بين الوالدة وولدها، وحين كان يؤتى بالسبي، كان يعطى أهل البيت جميعاً كراهية أن يفرق بينهم^(٢)، لحديث رسول الله ﷺ: «(من فرّق بين والدته وولدها فرّق الله بينه وبين أحبّته يوم القيامة)»^(٣).

وعندما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صوت صائحة، فتقصى الخبر كعادته رضي الله عنه في النصرة والعدالة، فعرف أنها جارية من قريش تُباع أمها، فقال عمر لحاجبه (ادع لي أو قال: عليّ بالمهاجرين والأنصار، فلم يمكث إلا ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة، قال فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد هل تعلمون أنه كان مما جاء به محمد ﷺ القطيعة؟ قالوا: لا، قال: فإنها قد أصبحت فيكم فاشيةً، ثم قرأ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (سورة محمد- ٢٢)، ثم قال: وأي قطيعة أعظم من أن تُباع أم امرئٍ فيكم وقد أوسع الله عليكم؟ قالوا فاصنع ما بدالك. قال فكتب في الآفاق ألا تباع أم حرٍّ فإنها قطيعة رحم وإنه لا يحل^(٤)).

ومن تكريم الأمومة أن الرجل إذا ملك أبويه أو أحدهما أو جداته لأبيه، أو جداته لأمه فإنهم يعتقدون عليه بالإجماع^(٥).

(١) مسلم، الصحيح، ج ٤، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني، ص ١٩٦٩، ح (٢٥٤٢).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣، ص ١١٤.

(٣) الترمذي، السنن، ج ٤، كتاب السير، باب ما جاء في كراهة التفريق بين السبي، ص ١٣٤، ح (١٥٦٦)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ قلت: وهو يوافق أصولاً في صلة الرحم وعدم قطيعتها.

(٤) الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ج ٢، كتاب التفسير، تفسير سورة محمد ﷺ، ص ٤٥٨.

(٥) انظر: ابن المنذر، أبو بكر محمد بن إبراهيم، النيسابوري، الإجماع، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، الطبعة الثالثة، الإسكندرية: دار الدعوة، ١٤٠٢هـ، ص ١٢٣.

وأمر آخر في حال رق الأمومة ، فصحيح أن الإسلام فتح باب الرق للسيد على مصراعيه ، دون قيد ، ولكن في ذلك مطلباً إنسانياً عظيماً وكرامة للأمومة ، فالأمومة إذا أولدها سيدها ، فإنها ترتفع بذلك الحمل إلى مرتبة سيدها ، فتصبح حرة بعد موته مباشرة ، حتى ولو كان الولد ميتاً ، أو نزل سقطاً ، فتصير بذلك السقط أم ولد ، بل وأصبحت حرة بمجرد حملها منه .

وإن ولدها الذي صارت أم ولد بسببه يكون مثلها في الرق ، فلا ينال حريته إلا بعد وفاة أبيه - رغم أن أباه سيد - ولكن احتراماً للأمومة ، وحتى لا يتطاول الولد (حراً) على أمه (الأمومة) ^(١) .

وكذلك أولاد أم الولد من غير أبيه (أي السيد الذي أولدها) ينالون حريتهم ، بموت السيد مع أمهم ، ولو كان أبوهم عبداً فهم تبع لأمهم في الحرية والرق ^(٢) .
 فقد أجمع العلماء على أن أولاد أم الولد من غير سيدها يعتقون بعقبتها ويرقون برقها ^(٣) .

كيف لا يكون للأم هذه المكانة الرفيعة العظيمة ، وهي التي جعلها الله عز وجل سبباً في خروج هذا المخلوق الضعيف من الظلمات إلى النور ، ليكسب العلم ومعرفة الله سبحانه وتعالى . بما -جهاز من أدوات ذلك - من السمع ، والبصر ، والفؤاد ، قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة النحل - آية ٧٨)

إن ترتيب العلم والمعرفة بخلق السمع والبصر على خروج الجنين من بطن الأم ، لفيه أكبر دلالة على أن الأم نالت هذه المكانة والرفعة لما ترتب على ولادتها للأبناء من معرفة الله سبحانه ، والإيمان به عز وجل عن طريق أدوات هذه المعرفة التي تشكلت في داخل رحم الأم ، حيث كانت الرحم أرضاً ووعاء لهذا الجنين حتى كمل خلقه ، « فخرج الجنين من ظلمات الرحم إلى نور الدنيا بعملية المخاض يرفع من مقام الأم على الأب ويزيد في الدرجة ، درجة برها ، ذلك أنها السبب الذي أوجده الله

(١) انظر : ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ٣٢ ، ص ٥٥ .

(٢) انظر : ابن تيمية ، المرجع السابق .

(٣) انظر : ابن المنذر ، الإجماع ، ص ١٠٧ .

لخروجه إلى الحياة ، فضلاً عن أنها تشترك مع الأب في السبب الأول الظاهر في وجود هذا الكائن»^(١) .

وهكذا فقد رفع الإسلام من مكانة الأم وأعلى شأنها وأعزها ، وأعطاهما أكثر مما أعطي إنسان على وجه الأرض .

الأمومة والإرث

ويظهر هذا العطاء في ميراث الأم حيث أعطاهما الإسلام فرض ميراثها بالتساوي مع الأب ، وقد تأخذ أكثر منه أحياناً ، وقد يتفوق فرضها على ميراث الابن الذكر أيضاً في بعض الحالات ، ، فلا تنطبق على ميراث الأم «للكر مثل حظ الأنثيين»

قال الله عز وجل ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ فَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءِآبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ الْإِلَهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً* وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (سورة النساء آية ١١-١٢).

إن الله سبحانه وتعالى قد جعل ميراث الأولاد : للذكر ضعف حصة الأنثى ، وقد راعى الإسلام هذا الجانب لأن الولد مسؤول عن الإنفاق في مستقبل حياته ، وجعل الله سبحانه وتعالى للبنات من يكفيها النفقة سواء في ذلك الزوج أو الأخ أو أي عصابة لها .

أما حين ذكر الله عز وجل الميراث للأم والأب ، فجعل سبحانه وتعالى نصيبهما واحداً في كل حال .

ومن هنا فقد احترم الإسلام الأمومة وأعطاهما حقها كاملاً ، مساوياً لنصيب

الأب .

(١) أحسب أن هذا الكلام للأستاذ البهي الخولي ، لكنني لم أعثر على موضعه ، وقد يكون من كتابه "الإسلام والمرأة المعاصرة".

قال الله عز وجل

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ .

فللأم في الميراث ثلاثة أحوال أو صورتان :

١- لها السدس وذلك في حالتين .

أ- أن تأخذ السدس مع وجود الابن كما يأخذ الأب السدس أيضاً .

ب- أن تأخذ السدس عندما يكون للوارث جمع من الإخوة (اثنين فأكثر) لأب أو لأم، أو أشقاء .

٢- لها الثلث .

فقد نص القرآن الكريم على أن للأم الثلث مع عدم وجود الفرع الوارث أو جمع من الإخوة .

والأب في هذه الحالة يصبح عصبة للميت فيأخذ المال الباقي .

ولكن الصحابة رضي الله عنهم ذهبوا مذهبين في قضية ميراث الأم للثلث مع وجود أحد الزوجين فتكون الصورة كما يلي ..

أ- أب وأم وزوج .

ب- أب وأم وزوجة ،

ففي الحالة الأولى إذا أعطيت الأم الثلث وأعطى الزوج النصف فإن المتبقي للأب أقل من نصيب الأم وهو السدس .

وفي الحالة الثانية إذا أعطيت الأم الثلث والزوجة الربع فإن المتبقي للأب أكثر من الأم أي أكثر من الثلث بل من النصف .

وعلى هذه الصورة فإن الأب في الحالة الأولى أي مع وجود الزوج سوف يأخذ أقل من الأم بل يكون نصيبه على النصف منها .

ومن هنا فقد نشأ الاختلاف :

وقد قضى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(١) ، ووافقه عليه

(١) انظر : ابن قدامة ، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد ، المغني ، مع الشرح الكبير ، (بيروت دار الكتب العلمية) ، ج ٧ ، ص ٣٠ .

جمع من الصحابة رضي الله عنهم بأن أعطى الأم ثلث الباقي من المال بعد فرض نصيب أحد الزوجين على النحو التالي :

أم وأب وزوج

فللزوجة النصف ، ثم تأخذ الأم ثلث النصف الباقي ، والباقي منه للأب فيكون نصيب الأب على الضعف من نصيب الأم .

وأم وأب وزوجة

فللزوجة الربع وللأم ثلث المال الباقي أي ثلث ثلاثة أرباع المال ، وللأب الباقي ويكون بالتالي نصيبه على الضعف من نصيبها .

والحقيقة أن الأم مع الزوج أخذت السدس ، ومع الزوجة أخذت الربع .

وهذا ما ذهب إليه جمهور العلماء ، وحجتهم أن المعهود في الشريعة الإسلامية أنه حيث تتساوى درجة الرجل والمرأة يكون نصيبها غالباً على النصف من نصيبه .

فإن أعطيت الأم الثلث من كل المال لاختلفت هذه القاعدة .

واحتجوا أيضاً بقوله تعالى ﴿فَلِأَمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي ثلث ماورثه الأبوان ﴿وَوَرِثَهُ

أَبَوَاهُ﴾.

أي إذا لم يرثه إلا الأم والأب ، أو عصبه غير الأب سوى الابن فلأمه الثلث، وفي الجد نزاع أيضاً هل تحجب عن شيء من حقها ؟ أم لها الثلث مطلقاً^(١).

وهنا رأيان آخران يخالفان رأي الجمهور :

١- إن الأم لها ثلث التركة كلها ، ولو أدى ذلك إلى أن يأخذ الأب في إحدى صورتين نصفها. وروي هذا عن عبد الله بن عباس ، وعن علي رضي الله عنهما^(٢) وعن معاذ رضي الله عنه^(٣) . وحجتهم أن نص القرآن الكريم .

(١) انظر ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ٣١ ، ص ٣٤٣-٣٤٤ .

(٢) ابن قدامة ، المغني ، ج ٧ ، ص ٢٠ .

(*) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عابد بن عدي بن كعب بن عمرو ، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي ، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام ، شهد المشاهد كلها ، وأمره النبي ﷺ على اليمن ، وكان من أفضل شباب الأنصار حليماً وحياءً وسخاءً وكان جميلاً وسيماً ، قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ ، لهلك عمر . قدم من اليمن في خلافة أبي بكر وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة للهجرة وعاش أربعاً وثلاثين سنة . (الإصابة ٤٢٧/٣ ؛ الاستيعاب ٣/٣٥٥) .

(٣) محمد أبو زهرة ، أحكام الزكاة والمواثيق ، (القاهرة : دار الفكر العربي) ص ١٥١ .

ظاهر ، بأنه إذا لم يكن فرع وارث ولا جمع من الأخوة والأخوات ، فلأمه الثلث ، ولا قياس مع النص ، والرسول ﷺ ، أعطى الفرائض أولاً ثم ما تبقى لأول رجل ذكر .

٢- أن تأخذ الأم ثلث المال كله ، إذا كان أحد الزوجين هو الزوجة ، وتأخذ ثلث الباقي إذا كان أحدهما هو الزوج ، وقد اختار هذا الرأي ابن سيرين^(١) رحمه الله .

والأساس في هذا الرأي هو منع أن تأخذ الأم ضعف الأب ، فحيث أدى أخذها ثلث التركة كلها إلى أن تأخذ ضعف الأب أنزلت من ثلث الكل إلى ثلث الباقي ، حتى لا يعارض قوله الله تعالى ﴿لِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ، وحيث تعارض مع الآية الكريمة أنزلت حصتها إلى ثلث الباقي .

مناقشة الأقوال

قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق عليه : ((أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلأُولَى رَجُلٍ ذَكَرًا))^(٢) .

وفي رواية الإمام مسلم «فهو لأولى رجل ذكر»^(٣) .

والأب في تلك الحالة هو العصبية وأولى رجل ذكر .

وقد احتج ابن عباس رضي الله عنه ، بحديث رسول الله ﷺ مستنداً إلى قوله تعالى في الآية الكريمة : ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلَأُمُّهُ الثُّلُثُ﴾ والأب ههنا عصبية، فيكون له ما فضل عن ذوي الفروض ، كما لو كان مكانه جد^(٤) .

(١) ابن قدامة ، المغني ، ج٧ ، ص٢١ .

(٢) البخاري ، م٤ ، ج٨ ، كتاب الفرائض ، باب ميراث ابن الابن إذا لم يكن ابن ، ص٧ ، ح(٦٧٣٥) .

(٣) ج٣ ، كتاب الفرائض ، باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر ، ص١٢٣٣ ، ح(١٦١٥) .

(٤) انظر ابن قدامة ، المغني ، ج٧ ، ص٢١ .

قال الإمام ابن قدامة: «والحجة معه لولا انعقاد الإجماع من الصحابة على مخالفته ، ولأن الفريضة إذا جمعت أبوين وذا فرض كان للأُم ثلث الباقي كما لو معهم بنت ، ويخالف الأب الجد لأن الأب في درجتها والجد أعلى منها»^(١) .

إن ماروي عن الصحابة رضي الله عنهم ، لا يدل على انعقاد الإجماع لمخالفة ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد روي ذلك عن غيره أيضاً رضي الله عنهم. والإجماع لا ينعقد بمخالفة الواحد ولا سيما إذا كان المخالف ممن دعا له رسول الله ﷺ : «اللهم علّمهُ الكتاب» «اللهم علّمهُ الحكمة»^(٢) .

ثم أن تتنزل الأم منزلة البنت هذا مخالف لصريح القرآن الكريم ، فالأم لا تقوم مقام البنت . بحال ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ والنص هنا في الأولاد فقط .

فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال بأن للأم الثلث كاملاً .
ففي رواية عن عكرمة* مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال
(ارسل ابن عباس إلى زيد بن ثابت* أتجد في كتاب الله للأم ثلث ما بقي ؟).
فقال زيد : (إنما أنت رجل تقول برأيك وأنا رجل أقول برأيي)^(٣) .

(١) المرجع السابق .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٤ ، كتاب الفضائل ، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما ، ص ٢٦٢ ، ح (٣٧٥٦) .

(*) عكرمة البربري أبو عبد الله المدني مولى ابن عباس ، أصله من البربر ، كان مولى لحصين بن أبي الحر العنبري فوهبه لابن عباس لما ولي البصرة لعلي ، كان من علماء التفسير ، ولم تثبت عنه بدعة ، وكان من أعلم الناس ، ثقة ثبت من التابعين ، توفي سنة ١٠٠هـ (تهذيب التهذيب ٧/٥٢٦٣؛ التقريب، ٣٩٧).

(*) زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن النجار الأنصاري، الخزرجي، أبو سعيد وقيل أبو ثابت، استصغر يوم بدر ، يقال إنه شهد أحداً، ويقال أول مشاهده الخندق، وكان من علماء الصحابة وهو الذي تولى تقسيم الغنائم يوم تبوك، وكان من كتاب الوحي، وأمره الرسول ﷺ بتعلم لغة اليهود، وكانت معه راية بني النجار يوم تبوك، وكان عمر بن الخطاب يستخلفه على المدينة إذا سافر، توفي سنة خمس وأربعين وقيل غير ذلك . (الإصابة ٥٦١/٢؛ الاستيعاب ٥٥١/٢) .

(٣) الدارمي ، السنن ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ . قال محمد ناصر الدين الألباني : وسنده صحيح ورجاله رجال الصحيح ، (إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، الطبعة الأولى ، بيروت : المكتب الإسلامي، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ج ٦، ص ١٢٣).

وفي رواية قال عكرمة رحمه الله : «أرسلني ابنُ عباس إلى زيد بن ثابت أسأله عن زوج وأبوين فقال زيد : للزوج النصفُ ، وللأم ثلثُ ما بقي ، وللأب بقيةُ المال فقال ابن عباس : «للأم الثلثُ كاملاً».

وفيها «فارسل إليه ابن عباس : أفي كتاب الله تجد هذا؟ قال : لا، ولكن أكره أن أفضل. أما على أب، قال وكان ابن عباس يعطي الأم الثلث من جميع المال»^(١) .
مما سبق يلاحظ :

- ١- أن الوصية للذكر مثل حظ الأنثيين وردت في الأولاد نصاً .
 - ٢- حديث رسول الله «فما تبقى فلأولئ رجل ذكر» هو نص في القضية ولا اجتهد مع النص .
 - ٣- قوله تعالى ﴿فَلِأُمَّهَ الْثُلْثُ﴾ الثلث معرف بأل العهد التي تفيد الاستغراق .
 - ٤- لاغضاضة ولا انتقاص للأب إذا قل نصيبه عن الأم فإن العصة قد لايبقى له شيء من المال في بعض الصور من مسائل الفرائض .
 - ٥- الأب مع الزوجة والأم، أخذ أكثر من الأم ، في حين أنهما تساويا مع الأولاد .
 - ٦- قوله تعالى ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ لاتفيد حصر الإرث في الأبوين وذلك لأن :
- أ- الآيات الكريمة لم تذكر ميراث الزوجين مشتركاً مع أي حالة في مسائل الإرث مع الأبوين وإنما ذكر إرثهما مع الولد ، وفي جميع صور هذه المسألة في الميراث احتمال إرث الزوجين قائم بالفرض .
- ب- إن الأم في المسألة صاحبة فرض ، والأب عصة فيها .
- ج- كما أن الأبوين أخذا السدس مع الأولاد وأحد الزوجين ، كذلك للأم الثلث مع أحدهما ، والباقي للعصة وهو الأب ، قل المال أو كثر ، ولا تنزل الأم عما فرضه الله سبحانه وتعالى لها .
- د- إن القرآن الكريم حين نزلت الفرائض عن نصيبها نص عليها كما في حال الزوجين مع الولد.

(١) البيهقي ، السنن الكبرى ، ج ٦ ، ص ٢٨٨ ؛ قال الألباني : هذا صحيح على شرط البخاري ، إرواء الغليل ، ج ٦ ، ص ١٢٤ .

هـ- لو أن الآية الكريمة اقتضت على قوله تعالى ﴿فَلَأُمُّهُ الثَّلَاثُ﴾ ولم تذكر ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ لظن السامع أن للأم الثلث والأب يأخذ السدس كما أخذ مع الولد ، وما دام الزوج لم يذكر في النص مطلقاً ، فالآية الكريمة لاتفيد الحصر .

و- حين تغير فرض الأم مع الإخوة من الثلث إلى السدس نص عليه القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى لم يذكر في ذلك فرض الزوجين أيضاً .

قال سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ (سورة النساء آية ١٢)

قال الإمام الطبري رحمه الله في ذلك :

«كل مستحق حقاً بقضاء الله ذلك له ، لا ينتقل حقه الذي قضى به له ربه جل ثناؤه ، عما قضى به له إلى غيره ، إلا بنقل الله ذلك عنه إلى من نقله إليه من خلقه ، فكان في فرضه تعالى ذكره للأم ما فرض ، وإذا لم يكن لولدها الميث وارث غيرها وغير والده ، لوائح الدلالة الواضحة للخلق أن ذلك المفروض هو ثلث مال ولدها الميث حق لها واجب ، حتى يغير ذلك الفرض من فرض لها ، فلما غير تعالى ذكره ما فرض لها من ذلك مع الإخوة الجماعة وترك تغييره مع الأخ الواحد ، علم بذلك أن فرضها غير متغير ، عما فرض لها إلا في الحال التي غيره فيها من لزوم العباد طاعته دون غيرها من الأحوال»^(١) .

ز- إن الأم مع الإخوة تأخذ فرضها وكذلك مع الأولاد مهما كان عددهم ، وبذلك قد يكون نصيب الأم أكثر من واحد من الإخوة أو من الأولاد .

فإذا كان للميت عدد من الأخوة أكثر من الستة مثلاً أو من الأولاد فإن الأم في هذه الحالة يتفوق نصيبها على نصيب الأخ أو نصيب الابن .

وبذلك يسقط اعتبار للذكر مثل ضعف الأنثى في مسألة ميراث الأم .

بل إن الإخوة لأم يرثون من بعضهم ، كما يرث الأخوة الأشقاء ، وأحياناً يرث الإخوة لأم لأنهم أصحاب فرض ولا يرث الإخوة الأشقاء أو لأب ، حين يكونوا عصبية .

وما ذاك إلا دليل على اعتبار الإسلام لأخوة الأمومة وجعلها مساوية لقربة

الأبوة إن لم تفقها ، في الشفقة والحنو . وإن تساوت معها في الإرث .

والإمام أبو زهرة يعلل الحكمة من ميراث الأخوة لأم ، والعبرة المستفادة من ذلك فيقول رحمه الله :

«وليس إعطاء أولاد الأم لتوزيع المال وعدم تجميعه فقط ، بل إن ذلك لنصرة الأمومة ، وإعلان قوة علاقتها ، وأنها تربط الأولاد بقوة نسب لا تقل عن قوة الرابطة التي تنشئها الأبوة .

وهذا رد صريح قوي لما كان يجري في عرف العرب من عدم اعتبارهم قرابة الأم ، ثم هو فوق ذلك من شأنه أن يشعر الأخوة لأم بقوة العلاقة فيتناصروا ، ويتعاونوا كما يتعاون الأشقاء ، وأولاد الأب .

ثم هو فوق هذا وذاك يجعل الأولاد لا ينفرون من زوج أمهاتهم ، ولا يعضلونهن لتوهم عار أو نحوه ، لأنهم يعلمون أنهم بهذا الزواج يصلون بقرابتهم ، ويزيدون الأنصار والأولياء»^(١) .

بل ويرفع الإسلام الإخوة لأم إلى أن يرثوا مع وجود الأم من بعضهم ، كما يرث الإخوة الأشقاء مع وجود الأم «ومن المقرر شرعاً أن أولاد الأم يرثون مع وجود الأم ، بينما الأشقاء لا يرثون مع وجود الأب ، والسبب في ميراثهم مع وجود الأم هو أن الشارع قصد إلى أن يتوافر لهم في مرتبة الأخوة قدر غير ضئيل ، لأنهم إن لم يأخذوا مع وجودها ، لم يأخذوا إلا قدراً ضئيلاً وهو ما يخصهم من ميراثها ، وسيشاركهم فيه الأشقاء ، ويضاف إلى ما أخذه هم ، ولأن الشارع جعلهم من حيث الدرجة في مرتبة مساوية لأولاد الأب فإذا كان الأب يحجب أولاده فهو أيضاً يحجب أولاد الأم ، وإذا كانت الأم لا تحجب الأشقاء فهي أيضاً لا تحجب الأخوة لأم»^(٢) .

كانت تلك مكانة المرأة «الأم» في الإسلام .

أما اليوم .. فإنه يلاحظ أن المسلمين قد بدأوا يحذون حذو الغربيين في تخصيص يوم للأم للاحتفال بها ، في حين أن الإسلام جعل الأمومة عيداً متجدداً كل لحظة يقول الدكتور / يوسف القرضاوي « أعطى القرآن والسنة عناية للأم خاصة لأن حقها أوكد ، وحاجتها إلى الرعاية أكثر وعناؤها في سبيل ولدها أكبر

(١) أبو زهرة ، تنظيم الإسلام للمجتمع ، ص ١٣٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق .

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (سورة

الأحقاق-آية ١٥) . ولا يكتفي الإسلام ولا يرضيه أن يكون للأم يوم خاص من السنة يسميه الناس «عيد الأم» وإنما يريد الإسلام أن تكون أيام الأم كلها أعياداً (١) خلافاً على ما عليه الناس في هذه الأيام يعق الإنسان أمه طول أيام السنة ثم يأتي في يوم عيد الأم كما يسمونه ليبرها .

أين هي الأمومة في غير الإسلام ؟!

هذه هي مكانة الأم في الإسلام فأى شيء أعظم من هذا ! إننا حين نقارن وضع المرأة عند المسلمين وعند الغربيين نجد البون الشاسع في ذلك ، لقد تحدث الدكتور محمد الشويعر عن وضع المرأة في الغرب وتعرض لإحدى القصص ، فقال قالت السيدة ماري آرمسترونج : عشت في أمريكا ٦٥ عاماً ثم اكتشفت أنني لا أحب هذا البلد لقد هاجرت إليها من بريطانيا عندما كنت شابة في مقتبل العمر ، وأصبحت أمّاً وجدة لأكثر من ثلاثين ابناً وحفيداً ، أبنائي تزوجوا جميعاً ورحلوا جميعاً عني ، وبدأت أعاني من الوحدة التي تركني فيها زوجي بعد رحيله ، ثم جاء اليوم الذي كان لابد أن أرحل فيه بدوري ولكن إلى بيت العجائز الذي قرر أبنائي أن يحملوني إليه إن أحداً منهم لم يتذكر أن يأتي لزيارتي ، ولم أعد أرهم ، عندئذ قررت أن أعود إلى بلدي فأنا لست عجوزاً^(٢) .

ويقول أيضاً في قصة أخرى : «دام الخلاف بين الشقيق وشقيقته سنوات طويلة وقاطع كل منهما الآخر إلى أن اكتشفا أن أمهما ماتت قبل عام دون أن يعلم بحالتها أحد، حدث هذا في ولاية منيسونا الأميركية حيث يقيم روبرت هانسون وشقيقته كارول في بلدة دولوث، كان روبرت يتصور أن الأم عند كارول، وكانت كارول تتصور أن الأم عند شقيقها روبرت لكن الأم التي توفيت عن عمر يناهز الثمانين عاماً كانت قد ماتت داخل شقتها هي، وبقيت جثتها هناك تتحلل وتتعفن مدة عام كامل»^(٣) .

(١) الوقت في حياة المسلم ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الصحوة ، ص ٣٤ .

(٢) د . محمد بن سعد الشويعر ، المرأة بين نور الإسلام وظلام الجاهلية ، الطبعة الأولى (القاهرة) : دار الصحوة ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م) ص ١٢٤ .

(٣) المرأة بين نور الإسلام وظلام الجاهلية ص ١١٣ .

ويقول الشيخ علي الطنطاوي - حفظه الله - وهو يخاطب فتيات المسلمين .. «فكيف بكن إذا صرتن عجائز محنيات الظهور، مجعدات الوجوه، من يهتم يومئذ بكن، ومن يسأل عنكن، أتعرفن من يهتم بالعجوز ويكرمها ويوقرها ؟ أولادها وبناتها وحفدتها، هنالك تكون العجوز ملكة في رعايتها ومتوجة على عرشها على حين تكون الأخرى ... انتن أعرف بما تكون عليه» ، ثم يقول في الحاشية : رأيت في بروكسل عند ملتقى طريقين وقد فتح الطريق للمارة عجوزاً لاتحملها ساقاها تضطرب من الكبر أعضاؤها، تريد أن تجتاز والسيارات من حولها تكاد تدعسها ولا يمسك أحد بيدها فقلت لمن كان معي من الشباب ليذهب أحكم فليساعدها وكان معنا الصديق نديم ظبيان، وهو مقيم في بروكسل من أكثر من أربعين سنة، فقال لي أتدري أن هذه العجوز كانت يوماً جميلة البلدة، وفتنة الناس، كان الرجال يلقون بقلوبهم وما في جيوبهم على قدمها، ليفوزوا بنظرة أو لمسة منها، فلما ذهب شبابها وزوى جمالها لم تعد تجد من يمسك يدها»^(١).

ويقول الأستاذ علي جريشة : «إن النظرة الحزينة تجدها في عين المرأة إذا اقتربت من الخمسين لأنها عادة تعيش بلا رجل ولا ابن ولا بنت حتى ولو كانت قد أنجبت فإذا ما وصلت الى سن أكبر من ذلك فأفضل أماكنها (مأوى العجزة وملاجئهم)^(٢)» وقد انتشرت هناك مؤسسات العجزة التي لاتختلف الحياة بداخلها عن حياة السجون، بل ربما كانت السجون أكثر حيوية وبهجة، لأن فيها مختلف الأعمار، وفيها الأمل بالعودة إلى الحياة الطبيعية يوماً ما^(٣) .

ويعصف أحد الشباب من رواد المركز الإسلامي بميونخ عمله ، فيقول : أعمل في أسوأ مكان على وجه الأرض ، ... أعمل في مستعمرة للعجزة، فيها كل مرافق الحياة من أسواق وملاعب ومسارح .. ومع هذا تحس دائماً بالتعاسة، فالهم والحزن والصمت لغة الجميع، وعربة الموتى السوداء تخرج كل صباح بنصيبها من الموتى

(١) علي الطنطاوي ، يا ابني ويا بنتي ص ١٨.

(٢) د . علي جريشة ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، الطبعة الثانية ، المنصورة دار الوفاء ١٣٠٩هـ - ١٩٨٨ ، ص ٨٠ .

(٣) انظر : عبد الحليم خفاجي ، كواكب حول الرسول ﷺ ، الطبعة الرابعة ، (الكويت : مكتبة السندي ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، ص ٨١ .

وقلما يزورهم أحد^(١) .

ويوجد في فيينا شقق سكنية ، كل شقة فيها سيدة عجوز ومعها كلبها عوضاً عن الأخ والابن والزوج ، وهن يتشبثن بالحياة ويشعرن في هذه الحياة ببعض السلوى وهناك مؤسسات تتولى الاطمئنان عليهم تلفونياً كل عدة ساعات حتى يمكن إسعافهم إذا أصابتهم حالة مرضية ، وحتى لا يموتون دون أن يحس بهم^(٢) .

وختاماً فإنني لا أجد أبلغ تعبيراً في حق الأم من حديث رسول الله ﷺ حين أوصى بالأم ثلاثاً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحقُّ الناس بحسن صحابتي ؟ قال: «أمك» ، قال: ثم من ؟ قال: «أمك» ، قال: ثم من ؟ قال: «أمك» ، قال: ثم من ؟ قال: «أبوك»^(٣) .

رحم الله الشاعر الأميري حيث قال :-

هي الأمُّ ، رُكْنٌ قَدَّسَ اللهُ شَأْوهَ * وأرْسَى به في الكَوْنِ رَحْمَتَه حَقًّا
وشادَ على أقدامِهِ جَنَّةَ الرضا * وَكَرَّمَهُ في الخُلُقِ مَذْ بَرًّا الخَلَقُ (٣)

(١) المرجع السابق .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٥٥ من هذا البحث .

(٣) عمر بهاء الدين الأميري ، ديوان أمي ، (بيروت : دار الفتح) ص ٢٢١ .

الفصل الخامس عشر

تحريم الأمهات و قدسية رباط الأمومة

لقد جعل الدين الإسلامي رابطة الأمومة أعظم وأقدس وأسمى علاقة في الوجود ، إنها الأمومة ، أنقى وأنظف رابطة بين بني البشر ، الأمومة التي جعلها الله سبحانه وتعالى آية من آياته ، في عطف الأم على ابنها ، وحبها الذي لا تقف أمامه أقوى السدود ، وفي احترام الولد وتعظيمه وتقديسه لهذه الأم .

فلا عجب والحال هكذا أن يندد القرآن الكريم بالذين مساوا الأمومة ولو بألفاظهم حين شبهوا الأزواج بالأمهات قال تعالى ﴿ وما جعل أزواجكم اللاتي تظهرون منهن أمهاتكم ﴾ (سورة الأحزاب- آية ٤).

وقال تعالى في سورة المجادلة حين ظاهر الزوج من زوجته وشبهها بالأم في الحرمة ﴿الذين يظهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزواً وإن الله لعفوٌ غفورٌ*والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقية من قبل أن يتمأسا ذلكم ثوعظون به والله بما تعملون خبيرٌ*فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتمأسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً﴾ (المجادلة - آية ٢-٤).

وهكذا فقد اعتبر الإسلام هذه المقولة في تشبيه الزوجات بالأمهات في الحرمة جريمة ومنكراً وكذباً ، يجب على قائلها أن يكفر عما ارتكب من معصية وإثم ، فالزوجة لا يمكن أن تصبح أماً لأن للأم حرمتها التي لا يمكن أن تمس بأي حال أو ينال منها قال الإمام الرازي «الزوجة ليست بأماً ، حتى تحصل الحرمة بسبب الأمومة ، ولم يرد الشرع أن يجعل هذا اللفظ سبباً لوقوع الحرمة حتى تحصل الحرمة ، فإذاً لا تحصل الحرمة هناك البتة ، فكان وصفهم لها بالحرمة كذباً وزوراً»^(١).

(١) التفسير الكبير ، م ١٥ ، ج ٢٩ ، ص ٢٥٦.

ويستدل من الآيات الكريمة أنه كان للأمومة حرمتها وقداستها في جاهلية العرب، فما كانوا لينالوا من هذه العلاقة الفطرية بين الولد وأمه بأدنى شيء حتى إن أحدهم إذا أراد تحريم زوجه على التأييد شبهها بأمه فلا يعود إلى نكاحها البتة . وبذلك فالأم محرمة في الجاهلية على التأييد .

بل والذي يتبين أن الأم في جميع الشرائع والأديان والمجتمعات كانت محترمة ومقدسة ومنزهة عن أي علاقة أخرى سوى حبل الأمومة ، وكفى به من رابطة بينهما يقول الرازي رحمه الله : «اعلم أن حرمة الأمهات والبنات كانت ثابتة من زمن آدم عليه السلام إلى هذا الزمان ، ولم يثبت حل نكاحهن في شيء من الأديان الإلهية»^(١).

«وذكر العلماء أن السبب لهذا التحريم : أن الوطاء إذلال وإهانة فإن الإنسان يستحي من ذكره ، ولا يقدم عليه إلا في الموضع الخالي ، وأكثر أنواع الشتم لا يكون إلا بذكره ، وإذا كان الأمر كذلك وجب صون الأمهات عنه ، لأن إنعام الأم على الولد أعظم وجوه الإنعام ، فوجب صونها عن هذا الإذلال»^(٢).

فالأم محرمة في كل الشرائع والمجتمعات، بل إن من يقول لزوجه أنت علي كظهر أمي فقد أتى ما حرمه الله سبحانه وتعالى، واعتبرت هذه المقولة إثماً وذنبا، وعلى من قالها الكفارة والتوبة والاستغفار لما كان منه من المنكر والكذب الشنيع المزور .

فمن هن المحرمات بالأمومة ؟ :

١- زوجات الرسول ﷺ فهن رضي الله عنهن أمهات المؤمنين جميعاً .

٢- الأم الوالدة .

٣- الأم المرضع .

٤- أم الزوجة .

٥- الأخت ، والخالة والعمة ، وبنت الأخت وبنت الأخ .

وهذا تفصيل لهؤلاء المحرمات :

١- زوجات الرسول ﷺ هن أمهات المؤمنين جميعاً قال الله تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (سورة الأحزاب آية ٦).

(١) المرجع السابق ، م٥ ، ج ١٠ ، ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق .

وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب آية - ٥٣).

فقوله تعالى ﴿النَّبِيِّ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ذكر فيها قراءة أخرى قال الإمام الحسن البصري رحمه الله النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم في القراءة الأولى^(١).

قال الزمخشري رحمه الله في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ تشبيه لهن بالأمهات في بعض الأحكام وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا﴾ وهن فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنيات^(٢).

فنساء الرسول ﷺ هن أمهات للمؤمنين في الاحترام والتعظيم والتبجيل وحرمة النكاح ، فليس لأحد الزواج منهن رضي الله عنهن ، وهذه الحرمة في النكاح لا تتعداهن ولا تنتشر إلى أولادهن ، ولا أخواتهن ولا أمهاتهن ، وإنما هي حرمة محصورة فيهن رضي الله عنهن . وهذه الحرمة فيهن لا يكون منها المحرمة كما في الحرمة بين الأم وأولادها ، بالولادة أو بالرضاع .

فرجال المؤمنين ليسوا محارم لزوجات رسول الله ﷺ ، فلا يجوز لهن الظهور أمامهم على الإطلاق قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَلَعًا ف_Sئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (سورة الأحزاب آية ٥٣).

قال الإمام الطبري: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (يقول : وحرمة أزواجه حرمة أمهاتهم عليهم - في أنهن يحرم عليهن نكاحهن من بعد وفاته ، كما يحرم عليهم نكاح أمهاتهم^(٣)).

فزوجات رسول الله ﷺ أمهات للمؤمنين لأن رسول الله ﷺ أب لهم جميعاً فهل يتنافى أو يتعارض قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ مع قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (سورة الأحزاب آية ٤٠)؟!!

(١) تفسير الحسن البصري ، جمع ودراسة د. محمد عبد الرحيم ، (القاهرة - دار الحديث) ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ، الطبري ، جامع البيان ، م ١١ ، ج ١٢ ، ص ١٢٢ .

(٢) الكشف ج ٣ ، ص ٢٥١ .

(٣) جامع البيان ، م ١١ ، ج ٢١ ، ص ١٢٢ .

لاتعارض ، فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً .

إن هذه الآية الكريمة قد نصت على حرمة أبوة التبني التي كانت في الجاهلية

فأبطلها الإسلام بالتحريم .

أما هذه الأبوة المذكورة في القراءة الشاذة (وهو أب لهم) فهي أبوة روحية لاغير.

وقد بين التوافق بين الآيتين الكريمتين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله - حيث قال في ذلك : ﴿وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ هذه الآية الكريمة تدل بدلالة الالتزام على انه ﷺ أب لهم ، لأن أمومة أزواجه لهم تستلزم أبوته ﷺ لهم .

وهذا المدلول عليه بدلالة الالتزام مصرح به في قراءة^(١) أبي بن كعب رضي الله عنه ، لأنه يقرؤها وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم ، وهذه القراءة مروية أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقد جاءت آية أخرى تصرح بخلاف هذا المدلول عليه بدلالة الالتزام والقراءة الشاذة . وهي قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية .

والجواب ظاهر ، وهو أن الأبوة المثبتة دينية ، والأبوة المنفية طينية ، وبهذا يرتفع الإشكال في قوله تعالى : ﴿وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ، مع قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِّنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (سورة الأحزاب آية ٥٣) .

إذ يقال كيف يلزم الإنسان أن يسأل أمه من وراء حجاب .

والجواب ما ذكرناه الآن ، فهن أمهات في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام ، لافي الخلوة بهن ، ولا في حرمة بناتهن ونحو ذلك . والعلم عند الله تعالى^(٢) .

فحرمة زوجات الرسول ﷺ حرمة في النكاح ، ووجوب الاحترام والتعظيم لمقام رسول الله ﷺ ، لكن هذه الحرمة ليس فيها محرمية كالتي بين الأم وأبنائها فلا يجوز الخلوة بهن ولا السفر معهم كمحارم لهن، ولا ظهور لهن أمام المؤمنين .

(١) انظر : تفسير أبي حيان الأندلسي البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٤٥٣ .

(٢) أضواء البيان ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، ج ١٠ ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في معنى قوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿هو أب لهم﴾: «ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادة أخرى غير ولادة الأمهات ، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغي ، إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد ، فشاهدت حقائق آخر ، وأموراً لم يكن لها بها شعور قبله ، قال تعالى ﴿الر . كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾» (١) (سورة إبراهيم آية ١) .

فالرسول ﷺ أب للمؤمنين ، وزوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أمهات لهم ، وهذه الأبوة والأمومة ، أبوة روحية بحتة ، أي أبوة دينية تعظيماً لرسول الله ﷺ ، ومكانته الدينية والشرعية ، فينبغي ألا تمس هذه الرابطة ، وألا ينال منها ، وأن تتقدس وتتزه عن أي أمر يؤذي رسول الله ﷺ .

٢- الأم الوالدة : قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ (سورة المجادلة آية-٢) ولما كانت الزوجة ليست مثل الأم في الحرمة كان هذا القول محرماً وشنيعاً ، فالأم هي الوالدة ، وهذه هي الأمومة الحقيقية التي يكون لها جميع أحكام الأمومة كاملة من حرمة ، ومحرمية ، وإرث ، ووجوب البر ، وغير ذلك من الأحكام التي تكون بين الأم وأولادها . والقرآن الكريم حرم الأمهات ، قال تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (سورة النساء آية ٢٣) .

قال الإمام الطبري في ذلك :

(يعني بذلك تعالى ذكره : حرم عليكم نكاح أمهاتكم ، فترك ذكر النكاح اكتفاءً بدلالة الكلام عليه) (٢) .

ويعرف الإمام الرازي الأم وهي :

«كل أنثى رجع نسبك إليها بالولادة من جهة أبيك أو من جهة أمك

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین ، الطبعة الأولى ، (الدمام : دار ابن القيم ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م) ص ٣٧ .

(٢) الطبري ، جامع البيان ، م ٣ ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ .

بدرجة أو بدرجات ، بإناث رجعت إليها أو بذكر فهي أمك» ^(١) فالأم المقصودة في الآية الكريمة هي الأم الأصلية الوالدة ، ويحرم لحرماتها أمهاتها ، وأمها الأب لولادتهن له (للأب) ، مهما علون .

فقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ «هو تحريم عام للأمهات وفي كل حال لايتخصص بوجه من الوجوه ، ولهذا يسميه أهل العلم المبهم ، أي لاباب له فيه، ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوته» ^(٢).

فالأم اسم لكل أنثى، تصلك بها ولادة، فهي الأم الأولى التي ولدتك وأمهااتها وجداتها ، وأم الأب وجداته، مهما علون .

٣- الأم المرضع : قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ (سورة النساء آية ٢٣).

فتحرم على الراضع الأم المرضع ، وأمهااتها وجداتها للأب والأم وإن علون . قال الإمام ابن القيم : (حرم الأم من الرضاعة ، فيدخل فيه أمهااتها من قبل الآباء والأمهات وإن علون) ^(٣).

وأُمومة الرضاعة ، توجب حرمة النكاح ، والمحرمية ، من الظهور وحدود كشف العورة أمام المحارم ، ولكن لايترتب عليها باقي أحكام الأمومة من الإرث والنفقة، وغير ذلك من أحكام توجبها أمومة الولادة .

وتنتشر حرمة الأمومة بالرضاعة إلى فروع الأم المرضع وأصولها وإخوتها تماماً كما تنتشر حرمة الأمومة بالولادة قال ﷺ (إن الرضاعة تُحَرِّمُ ما تُحَرِّمُ الولادة) ^(٤).

(١) الرازي ، التفسير الكبير ، ٥م ، ج ١٠ ، ص ٢٨.

(٢) القرطبي ، أحكام القرآن ، ج ٥ ، ص ١٠.

(٣) زاد المعاد ، ج ٥ ، ص ١٢٠.

(٤) البخاري ، الصحيح ، ٢م ، ج ٣ ، كتاب الشهادات ، باب الشهادة على الأنساب ، ص ٢٠١ ، ح (٢٦٤٦)؛

مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة ، ص ١٠٦٨ ، ح (١٤٤٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في أمومة الرضاع : (والله سبحانه وتعالى حرم من الرضاعة ما يحرم من النسب ، لكنه لا يثبت مع ذلك أي حق من أحكام النسب من الإرث والعقل والولاية والنفقة وغير ذلك ، إنما تثبت فقط حرمة النكاح والمحرمية)^(١).

يقول الإمام أبو زهرة : « والأمر الذي لاحظته الإسلام في التحريم بسبب الرضاعة ، أن الرضاعة يتكون منها جسم الطفل ، فكما أنه يتغذى من دم أمه وهو في بطنها ، يتغذى أيضاً من لبن أمه الرضاعية ، وهو في حبرها ، فهو جزء منها ، وكما أن أمه التي ولدته تحرم عليه ، وأخواتها خالاته ، وأولادها أخواته ، وكذلك أمه الرضاعية تحرم عليه وأخواتها خالاته ، وأولادها إخوانه وأخواته »^(٢).

٤- وتحرم بالولادة أيضاً: الأخت وبناتها، وبنات الأخ ، والخالة ، والعمة ، وذلك لأنهن يدلن إليك برحم الأم التي ولدتك أو ولدت أصليكَ : الأم والأب .

فالأخت ، تدلي إلى الرجل برحم الأم التي ولدته وبالتالي تحرم بنتها وكذلك بنت الأخ، لأنه يصلها بالرجل رحم الأم التي ولدت أباه يعني أخاه .

وكذلك الخالة بنص الرسول ﷺ «الخالة أم» وذلك لأنها تصل الرجل برحم الأم التي ولدت أمه التي ولدته دنية ، وكذلك العمة ، لأنه يصلها بالرجل رحم الأم التي ولدت أباه يعني أخاه . لكن الخالة مرتبتها أقوى في البر والصلة عن العمة لأنها تصل بولادتين وبرحمين ، الأم والوالدة وأمهـا.

فكل هؤلاء يحرمون على الرجل بسبب الولادة التي تصل بينهما مباشرة . وقد يكون هؤلاء لا يدلن إلى الرجل إلا من جهة الأم أو من جهة الأب فقط، أي أحدهما، ويكون لهن نفس الدرجة من الحرمة ، لإدلائها بالأم أو الأب ، فتثبت لهن أحكام الحرمة والمحرمية والإرث ، وغيرها مما يتعلق بأحكام النسب .

٥- أم الزوجة : قال الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ (سورة النساء آية ٢٣).

(١) الفتاوى ، ج ٣٢ ، ص ١٣٩.

(٢) تنظيم الإسلام للمجتمع ، ص ٧٣.

فتحرم أم الزوجة بمجرد العقد على ابنتها بالولادة أو بالرضاع ، وتحرم أمها وجدتها وإن علون .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : «وحرّم أمهات النساء ، فدخل في ذلك أم المرأة وإن علت من نسب أو رضاع ، دخل بالمرأة أو لم يدخل بها ، لصدق الاسم على هؤلاء كلهن»^(١).

ولا يشترط في تحريم أم الزوجة الدخول بالبنت ، لأن الآية الكريمة لم تقيد التحريم بل أطلقت ، قال الإمام الطبري : «الأم من المبهمات لأن الله تعالى لم يشترط معهن الدخول بيناتهن ، كما شرط ذلك مع أمهات الرائب»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «قال الصحابة والتابعون ، وسائر أئمة الدين الشروط في الرائب خاصة .

وقالوا أبهموا ما أبهم الله ، والمبهم هو المطلق ، والمشروط فيه هو المؤقت المقيد ، فأمهات النساء ، وحلائل الآباء والأبناء ، يحرمون بالعقد ، والربائب لا يحرمون إلا إذا دخل بأمهاتهن»^(٣).

تحريم بنت الزوجة لقوله تعالى : ﴿وَرَبَائِبُكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ وتحرم على زوج الأم ابنتها إذا دخل بالأم ، أما بمجرد العقد فإن البنت لا تحرم ، قال تعالى : ﴿وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة النساء - آية ٢٣).

فإذا لم يحصل الدخول بأمهاتهن لم يثبت تحريم البنت .

أما قوله تعالى : ﴿وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ . فليس قيداً في التحريم وإنما هو الغالب ، أي أن بنت الزوجة غالباً ما تتربى في حجر الزوج عند أمها ، وليس المقصود أنها لا تحرم إذا لم تكن في حجره على الإطلاق .

وهو ما قال به جمهور العلماء .

وقد أغرب الإمام ابن حزم حين جعل ﴿اللّٰتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ قيداً وشرطاً في

(١) زاد المعاد ، ج ٥ ، ص ١٢١.

(٢) جامع البيان ، م ٣ ، ج ٤ ، ص ٣٢١.

(٣) الفتاوى ، ج ١٥ ، ص ٣٠٣-٣٠٤.

التحريم فإذا لم تكن الربيبة في حجره ، ويانت منه الأم بموت أو طلاق ، جاز . . . لأنها ليست في حجره .

بل إن الإمام ابن حزم اعتبر من حرم الربيبة بشرط الدخول بالأم فقط دون ماذكر هو من الشرط الثاني ، قدأتى بحماقات ، وساق روايات وقصصاً عن أن الربيبة لا تحرم إلا إذا كانت في الحجر^(١).

صحيح بأن القيد قد ذكر في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة في قوله ﷺ «لو أنها لم تكن ربيبتني في حجرتي ما حلت لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة»^(٢)، وذلك حين عرضت عليه ﷺ ابنة أم سلمة بنت أبي سلمة رضي الله عنهم .

لكن هذا الحديث الشريف ، تفسره رواية أخرى له وتدل على أن مجرد الدخول بالأم يحرم البنت على التأييد .

فعن زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنهما قالت : إن أم حبيبة رضي الله عنها* قالت لرسول الله ﷺ : (إنا قد تحدثنا أنك ناكح درة بنت أبي سلمة* ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أعلى أم سلمة ؟ لو لم أنكح أم سلمة ما حلت لي ، إن أباها أخي من الرضاعة»^(٣).

(١) انظر : المحلى ، (بيروت : دار الفكر) ج ٦ ، ص ٥٢٧ - ٥٣١.

(٢) مسلم ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب تحريم الربيبة وأخت المرأة ، ص ١٠٧٢ ، ح (١٤٤٩)؛ واللفظ له

وانظر البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب «وربائبكم اللاتي في حجوركم» ، ص ١٥٥ ، ح (٥١٠٧) بنحوه .

(*) أم حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ، الأموية ، زوج النبي ﷺ ، تزوجها رسول الله ﷺ ، وهي في الحبشة على أربعمئة دينار ، لما تنصر زوجها عبيد الله ابن جحش وارتد عن الإسلام ، وهي التي طوت فراش رسول الله حتى لا يجلس عليه أبوها ، قبل إسلامه .

ماتت رضي الله عنها - بالمدينة سنة أربع وأربعين (الإصابة ٤/٣٠٥؛ الاستيعاب ٤/٣٠٣).

(*) درة بنت أبي سلمة بن عبد الأسد بن عبد الله بن مخزوم المخزومية ، وهي معروفة عند أهل العلم بالسير والخبر والحديث ، ربيبة النبي ﷺ من أم سلمة رضي الله عنها (الإصابة ٤/٢٩٧؛ الاستيعاب ٤/٢٩٨).

(٣) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير ، ص ١٥٩ ، ح (٥١٢٣).

وهذا يعني أن هذا القيد ليس المقصود في التحريم وإنما مدلول الآية أبعد من هذا ، لأن العرب كانت تأنف من زواج الثيب لاسيما ذات الأولاد ، وكانوا يأنفون من أن يتربى الأولاد في بيت الزوج مع أمهم ، ولا سيما البنت ، وأتت هذه الآية الكريمة لتشير إلى أنه لاحرج في ذلك، بل وتلفت النظر إلى أن هذه الربيبة هي بمثابة البنت، بالنسب فهي تتربى في حجره كابنته التي يربّيها لذا لايجوز له النكاح منها أبداً ، وهو في الشناعة والفحش أكثر حين تكون في حجره يربّيها وينميها ويرعاها ، كما يربّي ابنته .

والغريب أن يحسّن استدلال الإمام ابن حزم هذا الإمام الرازي^(١) والحافظ ابن حجر^(٢) مستشهداً بما روي من ذلك بالحديث الموقوف .
ولكن كتاب الله سبحانه وتعالى يدل على أن الربيبة تحرم حتى لو لم تكن في الحجر وذلك :

- ١- قال تعالى ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ فالأم تحرم على التأييد ، وما دامت الأم قد حرمت على التأييد فالبنت من باب أولى .
- ٢- تقاس بنت الزوجة على زوجة الابن ، ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ (سورة النساء - آية ٢٣) فتحرم زوجة الابن على التأييد ، وكذلك تحرم ابنة الزوجة على التأييد ، لأن أمها وأباه في درجة واحدة .
- وتقاس أيضاً على زوجة الأب قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (سورة النساء - آية ٢٢).

فيعني ذلك أن البنت لاينكحها من تزوج أمها ، كما أن الابن لاينكح من تزوجها أبوه ، فابن الزوج وبنت الزوجة في درجة واحدة . وزوجة الأب ، وزوج الأم في درجة واحدة ، وكلاهما حرمتها على التأييد .

- ٣- جميع المحرمات المذكورات هن على التأييد في الآية الكريمة وحرمة الجمع بين الأختين نص القرآن الكريم عليها في نفس الآية الكريمة فلم تُستثنى البنت التي ليست في الحجر من التحريم؟! في عدم دلالة النصوص على ذلك؟؟

(١) انظر : التفسير الكبير ، م ٥ ، ج ١٠ ، ص ٣٤ .

(٢) انظر: فتح الباري ، ج ٩ ، ص ١٥٨ .

ثم إن العطف يدل على التحريم المؤبد في قوله تعالى ﴿وَأَمَّهَلْتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبْتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي كما حرمت الأمهات حرمت أيضاً بناتهن حرمة واحدة على التأيد .

٤- لو تزوج البنت قبل الأم تحرم الأم على التأيد وهذا يوجب أن يكون عكسه مثله حتى يصح الحكم وإلا تناقض الدليل، وحكم الله سبحانه وتعالى منزله عن التناقض ، فما العلة في التحريم إذن لو تزوج الأم قبل البنت التي ليست في حجره ثم تزوج البنت ، أين ذهب حرمة الأم المؤبدة عليه «وأمهات نساكنكم» إذا سقط هذا الحكم وهو حكم رب العالمين بالنص ﴿وَأَمَّهَلْتُ نِسَائِكُمْ﴾ ، وكيف له أن ينكح البنت ، ثم يرى الأم مطلقة وقد بانت منه ، وأحكام الله عز وجل منزلة عن الاضطراب ، ولا يخفى أن في هذا تضييعاً للروابط الأسرية وبتراً لها .

أما القيد في قوله تعالى ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ لأنه الغالب، قال ابن القيم رحمه الله ... « وأما كونها في حجره ، فلما كان الغالب ذكره ، لاتقييداً للتحريم بل هو بمنزلة قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ (سورة الإسراء آية ٣١) .

ولما كان من شأن بنت المرأة أن تكون عند أمها فهي في حجر الزوج وقوعاً وجوازاً ، فكأنه قال : اللاتي من شأنهن أن يكن في حجوركم ، ففي ذكر هذا فائدة شريفة وهي جواز جعلها في حجره ، وأنه لا يجب عليه إبعادها عنه ، وتجنب مؤاكلتها، والسفر، والخلوة بها، فأفاد هذا الوصف عدم الامتناع من ذلك»^(١) .

وتسري هذه الحرمة إلى جميع بنات الزوجة وبناتهن وبنات بناتهن وبنات أبنائهن، مهما نزلن سواء في ذلك بنات الولادة وبنات الرضاع .

قال الشيخ محمد عبده معللاً وموضحاً لمعنى هذا القيد في تحريم الریائب : «ذكر هذا الوصف لإشعار الرجل بالمعنى الذي يوضح له علة التحريم ، ويقررها في نفسه ، وهو كون بنت زوجته في مكان بنته ، لأن زوجته كنفسه ، ففرعها كفرعه ، فهو وصف يحرك عاطفة الأبوة في الرجل ، وهو كون الريبة في حجره يحنو عليها حنو على بنته»^(٢) .

(١) زاد المعاد ، ج ٥ ، ص ١٢١-١٢٢ .

(٢) انظر : محمد رشيد رضا ، تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم ، الطبعة الثانية دار الفكر) ج ٤ ، ص ٤٧٧ .

ولا يقتصر حكم الرائب من الزوجة الحرة ، بل إن الأمة تصير إلى نفس الحكم هي وابنتها فإن استمتع السيد بالأم فليس له أن يستمتع بالبنت، أو استمتع بالبنت فليس له أن يستمتع بأمها . قال شيخ الإسلام ..(ومن كان مالكا للأم ملك أولادها ، وكان له أن يتسرى بالبنت من أولاد إماءه ، إذا لم يكن يستمتع بالأم ، فإنه يستمتع ..(بينتها) ، فإن استمتع بالأم فلا يجوز أن يستمتع ..(بينتها))^(١) .
وأخيراً فما هو السبب في هذا التحريم ! ؟

١- حرمة للأُمومة وتعظيماً لشأنها فلا يفضي ذلك إلى القطيعة بين الأم وابنتها أو العكس .

٢- حتى تبقى هناك رابطة وصلة بين الأسر ، مراعاة للأطفال ، عند البينونة بين الزوجين بموت أو طلاق .

وهذا لا يتحقق إذا جعل قوله تعالى ﴿وَرَبِّكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ قيداً في التحريم).

٣- حتى لا يكون هناك تناسل من درجة واحدة ، فالشريعة الإسلامية ليس فيها تزواج في الدرجة الواحدة من القرابة والأم والبنت (أصل وفرع) فلا يمكن أن يتزوج الرجل من الاثنين ، لأن النسل القادم ستكون قرابته متداخلة ومتصلة في الحرمة .

والخلاصة فللأُمومة قداستها التي لا يمكن لأي علاقة في الوجود أن تمسها أو تشاركها أو تنال منها إنها الأمومة فقط .

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ٣٢ ، ص ٥٥ .

الفصل السادس عشر

كفالة الأم ورعايتها في فترات الحمل والتنشئة

لقد رعى الإسلام المرأة وكفلها في شتى مراحل عمرها .. قال الله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (سورة النساء آية ٣٤).

فالرجل أياً كانت قرابته للمرأة ، فهو مسؤول عن الإنفاق عليها من ماله ، كل بحسب درجة هذه القرابة وترتيبها .

ولم يكلف الإسلام المرأة بالإنفاق على أحد مهما كانت تملك من المال إلا أن يكون ذلك عن تطوع وإحسان منها .

فهي مكفولة بنتاً ومكفولة زوجة ، ومكفولة أختاً ، وإذا صارت أمّاً فإنها مكفولة في جميع مراحل هذه الأمومة حتى لو كان لديها المال الكثير الذي يغنيها عن هذه النفقة من قبل الرجل ، زوجاً ، أو وارثاً للزوج ، ثم ابناً عند كبرها ، وهذه مراحل كفالتها .

١- في الحمل والرضاع وسائر العمر .

فإن الزوجة إذا ما حملت ، فرض السلام على الزوج أن يكفي هذه المرأة حاجاتها من غذاء وملبس ومسكن ، وغير ذلك من ضرورات وحاجات كالمداواة والطبابة. سواء كانت الزوجة في عصمته أو كان قد حصل طلاق بينهما فبانت منه بينونة صغرى أو كبرى ، فهو مكلف بالإنفاق عليها كلية ، فهي زوجة وأم للجنين الذي هو ابنه ، وهي مطلقة لكنها أم لولده الذي في بطنها ، لذا كان عليه أن يعطيها كفايتها بالمعروف .. قال الله تعالى ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ ، وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حُمِّلَ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق - آية ٦).

إن الله سبحانه وتعالى فرض على الزوج المطلق أن ينفق على هذه الزوجة التي طلقها حتى تنقضي عدتها .

فإن كانت حاملاً فعدتها لاتنتهي حتى تضع حملها ، وعلى الزوج أن ينفق عليها حتى تضع حملها .

فإذا ولدت ، وأرضعت الطفل ، كان على والد هذا الطفل أن ينفق عليها أيضاً قال الله تعالى ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتَوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتِمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (سورة الطلاق آية ٦) .

فيجب على هذا الأب الذي ولد له أن ينفق على الأم المرضع طيلة مدة الرضاع كما بين سبحانه وتعالى ذلك في سورة البقرة قال الله تعالى ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا لَا تَضَارُّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ (سورة البقرة آية ٢٣٣) .

فعلى «المولود له» أي الأب، لأنه لم يلد هو الطفل وإنما ولد له ، وكونه يولد له ، يعني أن الطفل ينسب إليه، وبالتالي هو المكلف بنفقته ولا سيما في مدة الرضاع التي يكون فيها أحوج ما يكون إلى أمه ، وعلى هذه الأم أن ترضع الطفل وألا تضر الأب بالزيادة بطلب النفقة أو غير ذلك من المضايقات .

إن على والد الطفل أن ينفق على هذه الأم المرضع وأن يرزقها ، والرزق يشمل جميع النفقات ، التي يتطلبها الإرضاع ، من مسكن وغذاء وكسوة ، وذلك حسب استطاعة الأب .

والله سبحانه وتعالى لم يجعل ، أمر نفقة رضاع الطفل واجباً على الأم إذا مات أبوه ، بل كلف ورثة هذا الأب المتوفى ، أن ينفقوا على هذه الأم المرضعة حتى تتم مدة الرضاع للطفل قال تعالى ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ أي على الوارث الذي يرث الأب أن ينفق كما وجب من الإنفاق على هذا الأب وذلك من رزق وكسوة، ومسكن وغذاء ولباس ، ويقدر ذلك وفق المتعارف عليه بين الناس فلكل زمان حده في الإنفاق ، وبالتالي وفق استطاعة الزوج أو الورثة قال تعالى ﴿ لَا تَكُلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا ﴾ وقال تعالى في سورة الطلاق بعد ذكر الحمل والرضاع ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُلِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُلَّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (سورة الطلاق آية ٧) .

إن على كافل الصغير سواء كان أباً أو غيره أن ينفق من المال على حسب ما يملك ، فإن كان غنياً فليتوسع بالنفقة على الأم المرضعة ، ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ إنه تعبير يدل دلالة بينة على أن الإنفاق على الأم المرضعة لا يحده حد إلا

التقوى فليس للمحكمة ولا للقاضي أن يحدد أجرة الرضاع بنسبة ما ، وإنما الذي يحكم القضية هو ما يملك هذا الأب ، أو ورثته من المال .

﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفَقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ بالمقابل فالله سبحانه وتعالى لا يكلف النفوس إلا ما تطيقه ، وعلى الأم المرضعة أن ترضى باليسير من المال الذي يستطيع دفعه إليها .

والله سبحانه وتعالى هو الضامن لكل هذه الأحوال ويعدُّ عز وجل من يتقيه سبحانه بالتيسير والغنى من فضله .

فإذا انتهت مدة الرضاع ، وحضنت الأم الولد ، كان على الأب أيضاً أن ينفق على أولاده وعلى هذه الأم الحاضنة قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة البقرة آية ٢٣٣) .

فعلى الأب إذا أراد أن يلحق ولده بالرضاع فيجعله في حضن الأم حتى يكمل مدة حضنته فعليه أن يدفع إلى هذه الأم الحاضنة الأجر وفق طاقته ومقدرته من المال، وكذلك الوارث ، لكن ذلك مشروط بالتقوى وحسن المعاملة وأن يقدم هذا المال بطيب نفس دون مضارة لها ، فيعطيها المال أو أي نوع من الإنفاق على أساس من التقوى والاستقامة ، والخوف من الله سبحانه وتعالى وفق معايير ومقاييس كل زمان ومكان مما هو متعارف بين الناس فلا ينكره ذوو الفطر السليمة ، ولا يتناقض مع ما أتت به الشريعة الإسلامية ، من إجمال وإحسان وترك البخس والظلم^(١) للجميع .

وقد ذيلت الآية الكريمة السابقة بقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ . فيا أيها الأب ويا أيتها الأم اتقيا الله سبحانه وتعالى في هذا المال فكل منكما مسؤول عن نفقة هذا الصغير ، فالأب أو الوارث يدفع إليها ما يجب عليه من النفقة حسب ما يملك من المال، وهي مؤتمنة على هذا المال في إنفاقه على الصغير بما يصلحه ويغذيه ويعلمه ويعده للحياة فرداً صالحاً ، فالله سبحانه وتعالى وحده المطلع على أعمالكما .

وهكذا ضمن الإسلام أمر الأم الحامل والمرضع والحاضن ، سواء كانت في بيت الزوجية أو أنها خرجت منه ببيئونة ما .

(١) عرف الإمام الطبري (المعروف) بأنه (الإجمال والإحسان وترك البخس والظلم فيما وجب للمراضع) . (التفسير ، ج ٢ ، ٥١٠) .

وقد سهل الإسلام للأمم الوصول إلى مال الزوج :

أما أثناء قيام الزوجية وقد امتنع الزوج من الإنفاق عليها وعلى ولدها: فإن وصلت إلى ماله فلها أن تأخذ ما يكفيها من النفقة هي وأولادها بالمعروف الذي يقيم لهم سبل الحياة فقد أتت هند بنت عتبة رضي الله عنهما* - إلى رسول الله ﷺ تشكو بخل زوجها أبي سفيان رضي الله عنه* فأمرها رسول الله ﷺ بالأخذ من ماله دون علمه - وذلك ما يكفيها ويكفي ولدها من النفقة بالمعروف .

روت عائشة رضي الله عنها فقالت : (دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني من النَّفَقَةِ ما يكفيني ويكفي بنيَّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه ، فهل علي في ذلك من جناح* فقال رسول الله ﷺ : « خُذِي من ماله بالمعروف* ما يكفيكِ ويكفي بنيكِ»^(١)

(*) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشية والددة معاوية بن أبي سفيان شهدت أحداً وفعلت ما فعلت بحمزة بن عبد المطلب ثم كانت تؤلب على المسلمين إلى أن جاء الفتح، فأسلم زوجها ثم أسلمت هي يوم الفتح وقصتها في قولها عندبيعة النساء وأن لا يسرقن ولا يزينن فقالت: وهل تزني الحرة وتوفيت في خلافة عثمان بن عفان . (الإصابة ٤٢٧/٤).

(*) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو سفيان القرشي الأموي، كان يكنى أبا حنظلة، وأمه صفية بنت حرب الهلالية ، أسلم عام الفتح وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، وكان قبل ذلك رأس المشركين في أحد والخندق وقيل وجهه الرسول إلى مناة فهدمها وتزوج الرسول ابنته أم حبيبة قبل أن يسلم وقد قال الرسول يوم الفتح من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . واختلف في تاريخ وفاته . (الإصابة ١٧٨/٢ ؛ الاستيعاب ١٩٠/٢ ؛ سير أعلام النبلاء ١٠٥/٢ ؛ أسد الغابة ١٤٨/٣-١٤٩ ؛ تهذيب ٤١١/٤-٤٢١).

(*) جُنَاح : إثم ، وقد تكرر لفظ الجُنَاح في الحديث وأين ورد فمعناه الإثم والمِثْل ، (ابن الأثير، ج ١، (جنع) ، ص ٣٠٥).

(*) بالمعروف : قد تكرر ذكر المَعْرُوف في الحديث وهو اسمٌ جامعٌ لكل ما عُرف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع ، ونهى عنه من المَحْسَنَات والمُقْبَحَات ، وهو من الصفات الغالبة : أي أمرٌ معروفٌ بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه . والمعروف : النِّصْفَةُ وحُسْنُ الصُّحْبَةِ مع الأهل وغيرهم من الناس . والمُنْكَر : ضد ذلك جميعه. (ابن الأثير، ج ٣ ، (عرف) ، ص ٢١٦).

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٣ ، كتاب الأقضية ، باب قضية هند ، ص ١٣٣٨ ، ح (١٧١٤) ، البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النفقات ، باب نفقة المرأة إذا غاب عنها زوجها ونفقة الولد ، ص ٢٣٥ ، ح (٥٣٥٩) ، بنحوه .

ولم يترك الإسلام أمر الأم المرضعة هملاً ، بل هي مكفولة في كل حال ، فإن
عدم المال من الزوج أو الوارث فعلى بيت المال في الدولة المسلمة ، أن يضمن لهذه الأم
نفقتها ، ونفقة الصغير .

إن الأم في الإسلام هي التي تقدم خير إنتاج للمجتمع بحملها وولادتها
وإرضاعها وتربيتها ، ولذا فهي عاملة وتستحق على هذا النفقة في كل حال . وإذا
كبر الولد ، صار واجباً عليه، أن ينفق على هذه الأم أكثر مما ينفق على نفسه ، بل
يقدم الوالدان في الإنفاق على النفس ذاتها و الولد في الإسلام هو وماله ملك لوالديه .

الفصل السابع عشر

الاهتمام بتنمية فقه الأمومة وأحكامها

يتعلق بالأمومة أحكام كثيرة ، متنوعة ومتشعبة ، تترتب عليها وتنتج عن تغيراتها الفسيولوجية . من الحيض ، والحمل، والنفاس، والرضاع . وكثير من تلك الأحوال وصورها وتغيراتها وتطوراتها لم تحددها نصوص الوحي ، فلا يوجد في بعض ، بل وفي كثير من هذه الأحكام الناتجة عن تغيرات الأمومة الجسدية، نص قطعي الدلالة أو خاص الدلالة . حيث جاءت هذه الأحكام في نصوص الوحي عامة ، أو غير واضحة الدلالة ، وبعضها لم يرد فيه نص قطعي ولا ظني في نصوص الكتاب والسنة العامة الدلالة .

وقد تطرق البحث إلى بعض أحكام الأمومة ، الثابتة والقطعية في نصوصها ، وكذلك بعض تغيرات الأمومة الأخرى التي تنتظر المجتهدين لتحديد ما يترتب على هذه الأحوال من أحكام ومنها - الحيض - الحمل - النفاس - الرضاع .

الحيض^(١)

لقد ذكر القرآن الكريم الحيض فعرفه بأنه أذى كله قال الله عز وجل ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٢) .

وقد ابتليت به بنات آدم خلقة وجبلة . وعندما بكت عائشة - رضي الله عنها - حين نفست في الحج قال لها رسول الله ﷺ : «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ (١٠٠٠٠)»^(٢) الحديث .

وما دام الحيض أمراً حتماً على بنات آدم ، كان لابد من الاهتمام فيما ينتج عن هذا الحال من أحكام ، ومن الواجب ألا يخلو الزمان من البحث فيها حسب المستجدات العلمية والتغيرات البيئية يقول إمام الحرمين - رحمه الله * - في تعريف الحيض وأهمية أحكامه : «الحيض حالة تبلى بها بنات آدم من حيث الفطرة والجبلة، ابتلاءً معتاداً على تكرار الأدوار، وما كان كذلك فالدواعي تتوفر على نقل الأصول

(١) انظر تعريفه ص ١٦٦ من هذا البحث

(٢) سبق تخريجه ، ص ١٨٦ من هذا البحث

* إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله ابن يوسف الجويني الشافعي ولد في أول سنة تسع عشرة وأربع مئة بنيسابور تفقه على والده، ولما توفي أبوه أقعد مكانه للتدريس، قال في آخر حياته الآن رجعت إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز توفي سنة ثمان وسبعين وأربع مئة (سير ٤٦٨/١٨)

التي تمس الحاجة فيه إليها ، وهذا حكم اطراد الاعتیاد ، فلا يجوز أن يخلو الزمان عن العلم بأقل الحيض وأكثره مادام الناس مهتمين بإقامة الصلوات»^(١).

ويتجاوز العلامة ابن قدامة - رحمه الله * - المعنى العام للحيض ليفصل في أحواله والحكمة منه فيقول فيه : «الحيض دم يرقيه الرحم إذا بلغت المرأة ، ثم يعتادها في أوقات معلومة ، لحكمة تربية الولد ، فإذا حملت انصرف ذلك الدم بإذن الله إلى تغذيته ، ولذلك لا تحيض الحامل فإذا وضعت الولد ، قلبه الله تعالى بحكمته لبناً يتغذى به الطفل ولذلك قلما تحيض المرضع . فإذا خلت المرأة من حمل ورضاع بقي ذلك الدم لا مصرف له ، فيستقر في مكان ، ثم يخرج في الغالب في كل شهر ستة أيام أو سبعة أيام ، وقد يزيد على ذلك ويقل ويطول شهر المرأة ويقصر على حسب ماركبه الله تعالى في الطباع وقد علق الشارع على الحيض أحكاماً»^(٢).

فالمرأة الحائض يحرم عليها أن تصلي وأن تصوم وأن تطوف بالبيت، أما ترك الصلاة فمن قوله ﷺ: لإحدى الصحابيات «فإذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة»^(٣) وقوله ﷺ: «أليس إذا حاضت لم تُصل ولم تَصُمْ»^(٤) والنهي عن الطواف ورد في قوله ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - : «افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري»^(٥).

ويحرم على الحائض المكث في المسجد لأمره ﷺ النساء عندما يخرجن في العيدين باعتزال المصلي قال ﷺ «ويعتزل الحائض المصلي»^(٦) وكذلك لا يجوز لها مس

(١) الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم ، أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني ، تحقيق د . عبد العظيم الديب ، الطبعة الأولى : (قطر : مكتبة إمام الحرمين ، ١٤٠٠هـ ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩).

* موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي صاحب «المغني» ولد بجماعيل من عمل نابلس سنة إحدى وأربعين وخمس مئة في شعبان كان من بحور العلم وأذكياء العالم وكان أهل الشام في زمانه وإمام الحنابلة بجامع دمشق صنف العديد من الكتب وتوفي يوم الفطر سنة عشرين وست مئة ١١٦٥/٢٢

(٢) المغني ، ج ١ ، ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٣) البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ١ ، كتاب الحيض ، باب إقبال المحيض إدباره ، ص ٩٥ ، ح (٣٢٠) .

(٤) سبق تخريجه ص ١٦٧ من هذا البحث .

(٥) البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ١ ، كتاب الحيض ، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، ص ٩١ ، ح (٣٠٥) .

(٦) المرجع السابق ، باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ، ص ٩٦ ، ح (٣٢٤)

المصحف لقوله سبحانه وتعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (سورة الواقعة - آية ٧٩)

ويحرم الجماع في الحيض ودليله في القرآن الكريم ، قال الله عز وجل . .
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٢) .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال « إن اليهود كانوا ، إذا حاضت المرأة فيهم ، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت . فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى . «ويسئلونك عن المحيض» فقال رسول الله ﷺ «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ^(١) .

وقال الإمام الطبري - رحمه الله - في معنى الآية الكريمة : «نهاهم الله - تعالى - عن أن يقربوهن في أيام حيضهن ، حتى يطهرن ، ثم أذن لهم إذا تطهرن من حيضهن في إتيانهن من حيث أمرهم باعتزالهن ، وحرّم إتيانهن في أدبارهن بكل حال» ^(٢) . ذلك أن المحيض أذى ، والدبر أشد أذى وقذارة وبلاء ^(٣) . فالوطء في الدبر أعظم حرمة وأكبر ضرراً وأكثر نجاسة ^(٤) .

وقال الإمام أبو جعفر - رحمه الله - في معنى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ الأذى هو ما يؤذى به من مكروه فيه وهو فيه في هذا الموضع يسمى أذى لنتن ريحه وقذره ونجاسته ، وهو جامع لمعانٍ شتى من خلال الأذى غير واحدة ^(٥) .

وقال تعالى ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي في موضع الدم ^(٦) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : (كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تتزّر* في فور حيضتها ، ثم يباشرها .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ١ ، كتاب الحيض ، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها ، ص ٢٤٦ ، ح (٣٠٢) .

(٢) جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .

(٣) إراجع : د . محمد علي البار ود . محمد أيمن صافي ، الإيدز وباء العصر ، الطبعة الأولى (جدة : دار المنارة ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ص ٤٤ ، ٦٨ ، ٩١ ، ١٠٠ .

(٤) انظر : معنى أذى ص من هذا البحث .

(٥) جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

(٦) انظر : المرجع السابق ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

* تتزّر : أي تشدّ عليها الإزار (انظر ابن الأثير ، ج ١ ، (أزر) ص ٤٤) .

قالت وأيكم يملك إِرْبَهُ* كما كان النبي ﷺ يملك إِرْبَهُ»^(١) .

وعن ميمومة - رضي الله عنها - قالت : «كان رسول الله ﷺ يباشرُ نساءه فوق الإزار وهن حيضٌ»^(٢) .

وعنها - رضي الله عنها - أنها قالت «كان رسول الله ﷺ يضطجع معي وأنا حائض ، وبينني وبينه ثوب»^(٣) .

أما قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي ولا تقربوهن حتى يطهرن من الدم بانقطاعه ويتطهرن بالماء الطهر الذي يجزيهن به الصلاة^(٤) ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي (فأتوهن في فروجهن من الوجه الذي أذن الله لكم بإتيانهن ، وذلك حال طهرهن ، وتطهرهن دون حال حيضهن)^(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فالله عز وجل «يحب المتطهرين من الجنابة والأحداث للصلاة ، والمتطهرات بالماء من الحيض والنفاس والجنابة من النساء ، وذكر (المتطهرين) يجمع الرجال والنساء فشمّل هذا الذكر العام جميع المكلفين»^(٦) .

فإذا طهرت الحائض من الدم بانقطاعه ، وجب عليها الغسل بنص الآية الكريمة ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ وقوله ﷺ للمستفتية - رضي الله عنها - عن الدم : «وَإِذَا أَذْبَرَتْ (الحيضة) فَاغْتَسِلِي وَصَلِّي»^(٧) .

* إِرْبَهُ : حاجته ، تعني أنه كان صلى الله عليه وسلم غالباً لهواه ، وأرادت به العضو، وعنت به من الأعضاء الذكر خاصة . (ابن الأثير ، (أرب) ١/٣٦) .

(١) البخاري ، الصحيح ، م ، ١ ، ج ، ١ ، كتاب الحيض ، باب مباشرة الحائض ، ص ٩٠ ، ح (٣٠٢) ؛ مسلم ، الصحيح ، ج ، ١ ، كتاب الحيض ، باب مباشرة الحائض فوق الإزار ، ص ٢٤٢ ، ح (٢٩٣) .

(٢) مسلم ، الصحيح ، ج ، ١ ، كتاب الحيض ، باب مباشرة الحائض فوق الإزار ، ص ٢٤٣ ، ح (٢٩٤) .

(٣) المرجع السابق ، ح (٢٩٥) .

(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ - ٣٨٧ .

(٥) المرجع السابق ، ، ص ٣٩٠ .

(٦) انظر : المرجع السابق ، ص ٣٩١ .

(٧) انظر البخاري ، الصحيح ، م ، ١ ، ج ، ١ ، كتاب ، الحيض ، باب إقبال المحيض وإدباره ، ص ٩٥ ، ح (٣٢٠) .

عن عائشة - رضي الله عنها : « أن أسماء رضي الله عنها * سألت رسول الله ﷺ عن غسل المحيض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تأخذُ إحداكُنَّ ماءها وسِدْرَتَها * فتطهرُ فتُحَسِّنُ الطُّهُورَ ، ثم تصبُّ على رأسِها فتدلكُها ذلكاً شديداً . حتى تبلغَ شُؤنَ * رأسِها . ثم تصبُّ عليها الماءَ ، ثم تأخذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً * فتطهرُ بها » فقالت أسماءُ : وكيف تطهرُ بها ؟ فقال « سبحان الله ! تطهرينَ بها »

فقالت عائشة (كانها تخفي ذلك) تتبَّعينَ أثرَ الدَّمِ . وسألتُهُ عَنْ غُسلِ الجَنَابَةِ ؟ فقال ﷺ « تأخذُ ماءً فتطهرُ فتُحَسِّنُ الطُّهُورَ . أو تبلغُ الطُّهُورَ . ثم تصبُّ على رأسِها فتدلكُها . حتى تبلغَ شُؤنَ رأسِها ثم تُفِيضُ عليها الماءَ » . فقالت عائشة - رضي الله عنها - نعم النساءُ نساءَ الأنصارِ ! لم يكنْ يمنعُهن الحياءُ أن يتفقهن في الدين^(١) .

فإذا تطهرت الحائض وجبت عليها الصلاة وقضاء الصوم دون الصلاة كما روت عائشة - رضي الله عنها - : « كان يصيبنا ذلك (الحيض) فكنا نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة »^(٢) . وأبيح لها ما حرم عليها في الحيض .

أما ما تراه المرأة من الدم في غير أيام الحيض فهو استحاضة لا يلزمها فيها شيء من أحكام الحيض . وسمى رسولُ ﷺ هذا الدم بالعرق فعن عائشة - رضي الله عنها - أن فاطمة بنت أبي حبيش * - رضي الله عنها - سألت النبي ﷺ قالت إني أستحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة ؟ فقال ﷺ « لا إنَّ ذلك عِرْقٌ . ولكن دَعي الصلاةَ قَدْرَ الأيامِ التي كُنْتَ تَحِيضِينَ فيها ، ثم اغتسلي وصلي »^(٣) .

* أسماء بنت شكل بمعجمة وفتحيتين وآخرها لام ثبت ذكرها في صحيح مسلم في كتاب الحيض (الإصابة ٢٢٩/٤) .

* شؤون رأسها : هي عظامه وطرائقه ومواصل قبائله ، وهي أربعة بعضها فوق بعض . (النهاية ، شأن ، ٤٣٧/٢) . أي أصول الشعر .

* فرصة ممسكة : الفرصة بكسر الفاء قطعة من صوف أو قطن أو خرقة والممسكة : المطيبة بالكسك . (النهاية «فرص» ، ٤٣١/٢) . وقد يكون في المسك ما يدفع عن الحائض أذى المحيض بالإضافة إلى ما يطهره من رائحة الدم .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ١ ، كتاب الحيض ، باب استحباب استعمال المغتسلة فرصة من مسك ص ٢٦١ ، ح (٣٣٢) .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة ، ص ٢٦٥ ، ح (٣٣٥) .

* فاطمة بنت أبي حبيش بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية ثبت ذكرها في الصحيحين (الإصابة ٣٨٠/٤) .

(٣) البخاري ، الصحيح ، ج ١ ، كتاب الحيض ، باب إذا حاضت في شهر ثلاث حيض ، ص ٩٧ ، ح (٣٢٥) .

ورسول الله ﷺ لم يحدد أقل الحيض ، ولا أكثره ، وما ورد في ذلك من الأحاديث لا يصح الاحتجاج بها^(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «اسم الحيض علق الله به أحكاماً متعددة في الكتاب والسنة ، ولم يقدر أقله ولا أكثره ، ولا الطهر بين الحيضتين مع عموم بلوى الأمة بذلك ، واحتياجهن إليه ، واللغة لا تفرق بين قدر وقدر ، فمن قدر في ذلك حداً فقد خالف الكتاب والسنة ، والعلماء منهم من يحد أكثره وأقله^(٢) ، ثم يختلفون في التحديد . ومنهم من يحد أكثره دون أقله^(٣) ، والقول الثالث أصح : أنه لا حد لا لأقله ولا لأكثره^(٤) ، بل ما رأته المرأة عادة مستمرة فهو حيض ؛ وإن قدر أنه أقل من يوم استمر بها على ذلك فهو حيض . وإن قدر أن أكثره سبعة عشر^(٥) استمر بها على ذلك فهو حيض . وأما إذا استمر الدم بها دائماً فهذا قد علم أنه ليس بحيض ، لأنه قد علم من الشرع واللغة أن المرأة تارة تكون طاهراً وتارة تكون حائضاً ، ولطهرها أحكام ، ولحيضها أحكام»^(٦) .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - العلامات التي يمكن فيها تمييز دم الحيض عن دم الاستحاضة ومنها : العادة فإن العادة أقوى العلامات ؛ لأن الأصل مقام الحيض دون غيره . والتمييز ، لأن الدم الأسود والثخين المنتن أولى أن يكون حيضاً من الأحمر . واعتبار عادة النساء ، لأن الأصل إلحاق الفرد بالأعم الأغلب ، وهذه العلامات تدل عليها السنة والاعتبار^(٧) .

(١) انظر : ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، تحقيق إرشاد الحق الأثري ، (لاهور : دار نشر الكتب الإسلامي ، ج ١ ، ص ٢ ، ٣٨٢ - ٣٨٥ ؛ الزيلعي ، جمال الدين عبدالله بن يوسف ، نصب الراية لأحاديث الهداية ، الطبعة الثانية ، ج ١ ، ص ١٩١ - ١٩٢ ؛ ابن حجر ، التلخيص الحبير ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) انظر : الشافعي : محمد بن ادريس ، الأم ، (بيروت : دار المعرفة) ، ج ١ ، ص ٦٧ ؛ الكاساني : علاء الدين أبو بكر بن مسعود الحنفي ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، (بيروت : المكتبة العلمية ، ج ١ ، ص ٣٩ - ٤١ ؛ ابن قدامة ، المغني ، ج ١ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٣) الدسوقي ، شمس الدين محمد عرفة ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، (القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ج ١ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٤) ابن حزم ، المحلى ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

(٥) هذا علي أن أكثر ما سمع عن أكثر مدة الحيض وهو سبعة عشر يوماً كما روي عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه قال «أكثر ما سمعناه سبعة عشر يوماً وعن نساء آل الماجشون أنهن كن يحضن سبعة عشر يوماً» (ابن حزم ، المحلى ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٩٩) .

(٦) الفتاوى ، ج ١٩ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٧) المرجع السابق ، المجلد ٢١ ، كتاب الفقه ، ج ١ ، ص ٦٣٠ - ٦٣١ .

وقد يكون ما استنبطه شيخ الإسلام - رحمه الله - من السنة النبوية في المحيض هو الحق في هذه المسألة باعتبار العلامات الثلاثة السابق ذكرها .

ويتوافق رأي الأطباء مع ذلك فقد جاء في كتاب «المرجع في أمراض النساء والولادة» ، للدكتور دوجالديرد في وصف الحيض ما يلي :

« إن مدة الحيض ودورته لا تختلف من امرأة إلى أخرى فحسب . . وإنما قد يختلف ذلك في المرأة ذاتها من حين لآخر في حياتها التناسلية . . إذ تختلف كمية الدم ومدته عند بداية البلوغ عما هو عليه عند تمام البلوغ . . كما يقل دم الحيض ومدته قبل سن اليأس . . وما بين البلوغ وسن اليأس تكون العادة في أغلب النساء منتظمة وهن يعرفن موعد حيضهن ومدته ومقداره . . فإذا اختلف ذلك عرفته بسرعة . . وتستطيع معرفة ذلك أغلب النساء دون صعوبة ومدة الحيض في الغالب ستة أيام . . وتحسب الدورة من بداية الحيض إلى بداية الحيضة التي تليها ومدتها في أغلب النساء ٢٨ يوماً . . قد تزيد أو تنقص يوماً أو يومين»

«وكمية دم الحيض : تختلف من امرأة إلى أخرى . . وما هو طبيعي بالنسبة لامرأة يعتبر غير طبيعي بالنسبة لامرأة أخرى فلكل امرأة وما اعتادته . .» .

«أما لون دم الحيض فهو اسود . . أما الدم الأحمر المشرق فإنه دم غير طبيعي . . ودم الحيض لا يتجلط (يتجمد) . . ويمكن إبقاؤه سنين طويلة على تلك الحالة دون أن يتجلط . . فإذا ظهر دم متجلط (متجمد) أثناء الحيض فإن الحائض سرعان ما تعرف ذلك ويعتبر ذلك غير طبيعي» .

« وعند فحص دم الحيض بالمجهر فإننا نرى كرات الدم الحمراء والبيضاء وقطعاً من الغشاء المخاطي المبطن للرحم»^(١) .

ويضيف الدكتور محمد علي البار إلى ما قاله الدكتور دوجالديرد في الحيض ومدته ما يلي : « لا يوجد تحديد طبي لأقصى مدة الحيض . . وأغلب الحيض الطبيعي ما بين ثلاثة إلى سبعة أيام . . وإذا زاد عن عشرة أيام اعتبره غالب الأطباء مرضاً يحتاج إلى علاج وإلى بحث عن السبب قبل ذلك . . وتعتبر الدورة الشهرية بما فيها الحيض والظهر ٢٨ يوماً قد تزيد أو تنقص يوماً أو يومين ، فإذا قلت عن ٢٤ يوماً اعتبرت حالة مرضية تستدعي البحث عن سببها وعلاجها .

(١) د . محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٨٩ - ٩٠ ، نقلاً عن الكتاب المذكور «المرجع للنساء والولادة» للدكتور دوجالديرد .
لأمراض

وينظر الأطباء بقلق بالغ إلى خروج الدم في غير وقت الحيض لأنه يدل على وجود مرض إما بجسم المرأة وغدها أو بجهازها التناسلي مما يسدعي إجراء الفحوصات الدقيقة^(١) .

وقد ورد في كتب الفقه ، أنه من الممكن أن تحيض المرأة في الشهر الواحد ثلاث حيض ، فتتقضي بذلك عدتها . جاء في كتاب الحيض عند الإمام البخاري باب بعنوان « إذا حاضت في شهر ثلاث حيض ، وما يصدق النساء في الحيض والحمل فيما يمكن من الحيض لقول الله تعالى ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٨) ويذكر عن علي - رضي الله عنه - وشريح القاضي رحمه الله * القول: «إن امرأة جاءت ببينة من بطانة أهلها ممن يرضى دينه أنها حاضت ثلاثاً في شهر صدقت»^(٢) .

وقد ذهب كثير من الأئمة في الفقه إلى الأخذ بهذه الرواية ومنهم : الإمام ابن حزم* فقد قال - رحمه الله - في المحلى بعد ذكره لهذه الرواية عن علي - رضي الله عنه - : «وهذا نص قولنا»^(٣) .

وعلق الإمام ابن قدامة في المغني على ما روي عن الإمام علي - رضي الله عنه - فقال : «وهذا لا يقوله إلا توقيفاً ، ولأنه قول صحابي انتشر ولم نعلم خلافه رواه الإمام أحمد بإسناده . ولا يجيء إلا على قولنا ، أقله (الطهر) ثلاثة عشر وأقل الحيض يوم وليلة وهذا في الطهر بين الحيضتين ، فأما الطهر في أثناء الحيضة فلا توقيت فيه»^(٤) .

(١) د. محمد علي البار، خلق الانسان بين الطب والقرآن ، هامش ص ١٥ .

(٢) الصحيح ، ١ ، ج ١ ، ص ٩٦ .

* شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي قاضي الكوفة يكنى أبا أمية ، وولاه عمر رضي الله عنه قضاء الكوفة - وتوفي سنة ثمانين وسبعين وعاش مئة وعشر سنين (١٠٠/٤ ؛ الطبقات ١٣١/٦ ؛ أسد الغابة ٣٩٤/٢ ؛ تهذيب ٣٢٨/٤) .

* علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي القرطبي يكنى أبا محمد فارسي الأصل ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاث مئة نشأ في تنعم ورفاهية وكان والده من كبراء آل قرطبة ، تفقه أولاً على مذهب الشافعية ، ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليه وخفيه والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث ، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل وعني بعلم المنطق وبرع فيه ثم أعرض عنه وأقبل على علوم الإسلام حتى نال من ذلك ما لم ينله أحد بالأندلس قبله وله مصنفات جليلة وكثيرة وتوفي سنة ست وخمسين وأربع مئة لليلتين بقيتا من شعبان وعمره إحدى وسبعين سنة . (سير ١٨٤/١٨ ؛ البداية والنهاية ٩١/١٢) .

(٣) م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٤) ج ١ ، ص ٣٢٣ .

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - : «والطهر بين الحيضتين لاجد لأكثره باتفاقهم ، إذ من النسوة من لا تحيض بحال ، وهذه إذا تباعد ما بين أقرائها ، فهل يعتد بثلاث حيض أو تكون كالمرتابة تحيض سنة ، ؟ فيه قولان للفقهاء ، وكذلك أقله على الصحيح لاجد له ، بل قد تحيض المرأة في شهر ثلاث حيض ، وإن قدر أنها حاضت ثلاث حيض في أقل من ذلك أمكن ، لكن إذا ادعت انقضاء عدتها فيما يخالف العادة المعروفة فلا بد أن يشهد لها بطنانة من أهلها ، كما روي عن علي - رضي الله عنه - فيمن ادعت ثلاث حيض في شهر»^(١).

فهل يكون الحيض في الشهر الواحد أو أقل من شهر، ثلاث مرات ؟ وهل يتفق هذا مع العلم ؟!

واخيراً .. فهذه بعض الأسئلة .. يطرحها مبحث المحيض ..

- ١- هل يمكن التمييز بين دم الحيض ودم الاستحاضة دائماً ؟
 - ٢- هل الصفرة والكدر من الحيض أم من الاستحاضة ؟
 - ٣- ما هي العادة التي ترجع إليها المرأة في تحديد حيضها ؟
 - ٤- هل يمكن للمرأة أن تحيض في شهر ثلاث حيض ؟
 - ٥- هل ما تراه الحامل من الدم حيض ! أم استحاضة ؟
 - ٦- ما هي أقل مدة ممكنة للطهر للحائض ؟
- والمفروض في العلم وتطوراته اليوم أن يحدد ولو نسبياً هذه الأمور ! ! .

الحمل وأطواره :

قال الله عز وجل .. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْعِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن ثَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَّكُمْ وَنُقَرِّئَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنْكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذلك بأنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الحج - آية ٥-٦).

وقال تعالى في سورة «المؤمنون» ٠٠ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (آية ١٢-١٤) .

وقال سبحانه في سورة القيامة :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۚ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى ۖ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۖ * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقدرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (آية ٣٦-٤٠)

وقال عز وجل في سورة الإنسان ٠٠ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ۚ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (آية ١-٢) .

وقال عز من قائل في سورة العلق ٠٠ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (آية ١-٢) .

وقال سبحانه في سورة الانفطار ٠٠ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۚ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ ۚ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (آية ٦-٨) .

وقال عز وجل في سورة السجدة ٠٠ ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۚ ثُمَّ جَعَلْهُ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۚ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (آية ٨-٩) .

وقال سبحانه وتعالى في سورة الحجر في خلق آدم عليه السلام ٠٠ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۚ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (آية ٢٨-٢٩) .

وقال عز وجل عن الروح في سورة الإسراء ٠٠ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (آية ٨٥)

وقال سبحانه وتعالى ٠٠ ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ (سورة الأحقاف - آية ١٥) .

وقال سبحانه وتعالى في سورة لقمان .. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (آية ١٤) .

وقال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه (واللفظ) للإمام مسلم رحمه الله . عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال : (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق) «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجَمَّعُ خَلْقُهُ فِي بطنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا . ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عُلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ . ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ . ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلِكُ فَيَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحَ . وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكُتْبِ رِزْقِهِ ، وَأَجَلِهِ ، وَعَمَلِهِ ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ . فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ » (١) الحديث .

وفي الحديث الآخر المتفق عليه الذي رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ قال .. «وَكُلُّ اللَّهِ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ : أَي رَبِّ نُطْفَةٍ ؟ أَي رَبِّ عُلَقَةٍ ؟ أَي رَبِّ مُضْغَةٍ ؟ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ : أَي رَبِّ ذَكَرٍ أَمْ أَنْثَى أَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ ، فَمَا الرِّزْقُ فَمَا الْأَجَلُ ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بطنِ أُمِّهِ» (٢) .

وعن حذيفة بن أسيد* - رضي الله عنه - عند الإمام مسلم - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ قال .. «يَدْخُلُ الْمَلِكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقَرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ ، أَوْ خَمْسَةِ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ! أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فَيُكْتَبَانِ . فَيَقُولُ : أَي رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أَنْثَى ؟ فَيُكْتَبَانِ . وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ . ثُمَّ تُطَوَّى الصَّحْفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ» (٣) .

(١) مسلم ، ج ٤ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ٠٠٠ ، ص ٢٠٣٦ ، ح (٢٦٤٣) ، البخاري ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب القدر ، باب (١) ، ص ٢٦٧ ، ح (٦٥٩٤) .

(٢) البخاري ، المرجع السابق ؛ مسلم ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣٨ ، ح (٢٦٤٦) .

(٣) الصحيح ، ج ٤ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي ٠٠٠ ، ص ٢٠٣٧ ، ح (٢٦٤٤) .

(*) حذيفة بن أسيد بالفتح يقال أمية بن أسيد بن خالد بن الأعور بن حرام الغفاري، أبو سريحة، مشهور بكنيته، شهد الحديبية، وذكر فيمن بايع تحت الشجرة، ثم نزل الكوفة، صلى عليه زيد بن أرقم، حيث مات سنة اثنين وأربعين رضي الله عنه. (الإصابة ٣١٧/١).

وفي رواية أخرى عن حذيفة بن أسيد - رضي الله - عنه قال : « إذا مرَّ بالنطفةِ رشتان وأربعون ليلة ، بعثَ اللهُ إليها ملكاً . فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجَلَدَهَا وَلَحَمَهَا وَعَظَامَهَا . ثم قال : يارب ! أذكرُ أم أنثى ؟ فيقضي ربُّك ما شاء . ويكتبُ الملكُ . ثم يقول يارب ! أجله . فيقول ربُّك ما شاء ويكتبُ الملكُ . ثم يقول : يارب ! رزقه فيقضي ربُّك ما شاء . ويكتبُ الملكُ . ثم يخرجُ الملكُ بالصحيفة في يده . فلا يزيدُ على ما أمرُ ولا ينقصُ »^(١) .

وفي رواية أخرى عند الإمام مسلم - رحمه الله - ، عن حذيفة بن أسيد - رضي الله - عنه قال . (سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين ، يقول :

« إن النطفة تَقَعُ في الرحمِ أربعين ليلة . ثم يتصوَّرُ عليها الملكُ » قال زهير* (أحد رواة الحديث) : حسبته قال الذي يخلقها « فيقول : يارب ! أذكرُ أم أنثى ؟ فيجعله الله ذكراً أو أنثى . ثم يقول : يا رب ! أسوي أو غيرُ سوي فيجعله الله سوياً أو غيرُ سوي . ثم يقول : يارب ! ما رزقه ؟ ما أجله ؟ ما خلقه ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً »^(١) .

وفي رواية أخرى عن حذيفة - رضي الله - عنه عند الإمام مسلم - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ قال « إن ملكاً موثقاً بالرحم . إذا أرادُ الله أن يخلق شيئاً بإذنِ الله ، لبضعِ وأربعين ليلة »^(٢) ثم ذكر نحو الحديث السابق^(٣) .

وهذه وقفات عند تلك النصوص من الكتاب الكريم والسنة والشريفة . . . قال الله عز وجل ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدىً ، أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يَمْنَى ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾

(١) مسلم ، المرجع السابق ، ح (٢٦٤٥) .

* يتصور : قال الإمام النووي : هكذا هو جميع نسخ بلادنا (يتصور) بالصاد وذكر القاضي يتصور بالسين قال والمراد بيتصور ينزل وهو استعارة من تسورت الدار إذا نزلت فيها من أعلاها ولا يكون التسور إلا من فوق فيحتمل أن تكون الصاد الواقعة في نسخ بلادنا مبدلة من السين والله أعلم (شرح صحيح مسلم ، ١٩٥/١٦/٨) .

* زهير بن معاوية بن حُذَيْج - بضم المهملة وفتح الدال - بن الرحيل بن خيثمة الجعفي ، أبو خيثمة الكوفي ، كان ثقة ثباتاً مأموناً ، كثير الحديث ، توفي سنة ثلاث أو أربع أو سبع وسبعين ومائة (تهذيب : ٣٥١/٣) .

(٢) ، (٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٣٨ .

جاء في لسان العرب في معنى كلمة « مني » ما يلي: المنى بالياء : القدر. مناهُ الله يَمْنِيهِ ، قَدَرَهُ ، وَمَنَى الله الشيءَ قَدَرَهُ وَاَمْتَنَيْتُ الشيءَ : اخْتَلَقْتَهُ. وَالْمَنِيُّ ماءُ الرجل وجمعه مَنِيٌّ. وَمَنِيَّةُ الناقة: الأيام التي يُتَعَرَفُ فيها أَلَاقِحُ هي أم لا وهي ما بين ضرابِ الفحلِ إياها وبين خمس عشرة ليلة، وهي الأيام التي يُسْتَبْرَأُ فيها لِقَاحُها من حيالها .

والمنية اضطراب الماء وَاَمَّا خاضه في الرحم قبل أن يتغير فيصير مَشِيحاً^(١).

والآية الكريمة هنا ذكرت العلقه بعد ذكر المنى الذي يمنى ، وفي هذا دلالة على أن هذه المرحلة تسبق النطفة الأمشاج بعد الاختلاط الكامل بين النطفة والبويضة الملقحة وذلك مأخوذ من المعنى اللغوي لكلمة «المنية» والسياق القرآني يدل على أن النطفة من المنى التي تراق ، هي غير التي تمنى . وعلى ذلك فهنا ثلاثة مراحل وهي البويضة الملقحة المضطربة في الرحم وهي مرحلة الانقسام والانشطار، ثم النطفة الأمشاج الناتجة عن هذه البويضة الملقحة حيث تتكاثر بالانقسام حتى تصل إلى النطفة الأمشاج ، باختلاط نطفة الرجل ونطفة المرأة اختلاطاً تاماً .

قال الله عز وجل في سورة الدهر ٠٠ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ٠ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (آية ١-٢)

ورد في الكشف في معنى هذه الآية الكريمة ما يلي : «أي أتى على الإنسان قبل زمان قريب ﴿حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ﴾ فيه ﴿شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ أي كان شيئاً منسياً نطفة في الأصلاب . والمراد بالإنسان جنس بني آدم»^(٢) .

ثم صار من هذه النطفة التي في الأصلاب نطفة أمشاجاً فصار بذلك خلقاً إنسانياً تاماً من تلك النطفة الأمشاج التي تكونت من اختلاط ماء الرجل وماء المرأة . وجاء في لسان العرب أن الأمشاج هي الأَخْلَاطُ ، والمَشْجُ والمَشِيحُ : كل لونين اختلطا وقيل هو ما اختلط من حمرة وبياض ، وقيل هو كل شَيْئَيْنِ مختلطين ، والجمع أمشاجٌ :

(١) ابن منظور ، لسان العرب، ج١٣، مادة (مني) ص ٢٠٢.

(٢) الزمخشري ، ج٤، ص ١٩٤.

أي أخلاط ، لأن النطفة ممتزجة من أنواع لذلك يولد الإنسان من طبائع مختلفة ، وتطلق النطفة الأمشاج على ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها ، ويطلق الأمشاج على الدم والعلقه^(١) .

وقال الإمام الزمخشري : أي خلق من نطفة قد امتزج فيها الماءان .
 ﴿نَبْتْلِيهِ﴾ : أي خلقناه مبتلين له بمعنى مريدين ابتلاء^(٢) . إن النطفة الأمشاج تنتج عن البويضة الملقحة، وهي أول خلية في الإنسان وهي التي سيتكون منها الجنين، وهذه الخلية الأولى من البويضة الملقحة لا تلبث أن تنشط : الخلية تصبح خليتين ، والخليتان أربعاً وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت وعندئذ تسمى التوتة ، ثم تكبر قليلاً ويصير ما بداخلها مجوفاً وبه سائل رقيق فتدعى عندئذ بالتكور الجرثومي أو الكرة الجرثومية . وخلال هذه الفترة تعتمد النطفة الأمشاج مدة أسبوع كامل على أن تستمد غذاءها من نفسها ، ذلك أن البويضة - الملقحة بالحيوان المنوي ، والتي نتجت عنها النطفة الأمشاج - قد زودت بحبيبات غذائية وأغشية تتغذى منها تلك النطفة الأمشاج حتى تصبح قادرة على العلق بالرحم لتمدص منه الدماء^(٣) .

أطوار الجنين : النطفة الأمشاج - العلقه - المضغة -

وتُشكّل البويضة الملقحة حياةً خلويةً . . تمتلك القدرة على التطور إلى كائن حي ؛ والنمو من طور إلى طور في ظروف الرحم المواتية، ولذا فالنطفة الأمشاج ليست بمستوى النطفة أو البويضة غير الملقحة ، فهما تمتلكان الأجهزة المكونة لكل خلية لكنهما عاجزتان عن الانقسام والتطور ، كما هو حال البويضة الملقحة^(٤) .

وتدخل النطفة الأمشاج طور العلقه في هذه المرحلة نتيجة تغيرها في الشكل واللون وتشابك^(٥) أجزائها مع بعضها البعض بعد تلك الانقسامات ليتحدد بالتالي الرسم والتقدير الذي سيكون عليه هذا المخلوق المنبثق منها بإذن الله سبحانه .

(١) انظر : ابن منظور ، ج ١٣ ، مادة (مشج) ، ص ١١١ .

(٢) انظر : الكشف ، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

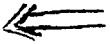
(٣) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ١٩٥٠ - ١٩٨ .

(٤) انظر : د . محمد سيف الدين السباعي ، الإجهاض ، ص ٢٣ .

(٥) انظر . لسان العرب لابن منظور ، ج ١٣ ، مادة (مشج) ص ١١١ .

ويغدو شكل النطفة الأمشاج كالتوتة ، وهنا تبدأ مرحلة العلقة قبل العلوق في الرحم ذلك أنه من المعاني اللغوية للنطفة الأمشاج أنها تطلق على الدم وعلى العلقة^(١) فما معنى العلقة وهل ثمة ما يمكن أن تسمى به علقة من غير أن تعلق بشيء ؟ حيث تتحول البويضة الملقحة إلى ما يشبه التوتة ، فتسمى بالتوتة ، فإذا ما كبرت قليلاً سميت بالكرة الجرثومية لأن ما بداخلها مجوف وفيه سائل رقيق^(٢) .

جاء في لسان العرب في معنى علق ما يلي : عَلِقَ بالشيءِ عَلَقًا وَعَلَقَهُ : نَشَبَ فِيهِ . وَالْعَلَقُ : النَّشُوبُ فِي الشَّيْءِ يَكُونُ فِي جَبَلٍ أَوْ أَرْضٍ . عَلِقَ الصَّيْدُ فِي جِبَالَتِهِ أَي نَشَبَ وَيُقَالُ لِلصَّائِدِ : أَعْلَقْتَ فَأَذْرِكُ ، أَي عَلِقَ الصَّيْدُ فِي جِبَالَتِكَ .



(١) انظر : المرجع السابق .

(٢) انظر : محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ١٩٨ .

وَالْعَلَقَةُ وَالْعَلَقُ : ما فيه بُلْغَةٌ من الطعام إلى وقت الغذاء ، والعَلَقَةُ من الطعام والمركب ما يُتَبَلَّغُ به وإن لم يكن تاماً . وَالْعَلَقُ كل ما عُلقَ . وَأَعْلَقَ أَظْفَارَهُ في الشيء : . أَنْشَبَهَا . وَالْعَلَقُ : الدم ما كان . وقيل هو الدم الجامد الغليظ ، عَلِقَتْ المرأة : أي حَبِلَتْ . وَالْعَلَقُ دودة في الماء تمصُّ الدم^(١) .

وعلى معنى أن العَلَقَةُ هي ما فيه بُلْغَةٌ من الطعام إلى وقت الغذاء ، فتكون النطفة الأَمْشَاجُ قد دخلت أيضاً في بداية مرحلة العَلَقَةُ لأنها تتغذى بذاتها ، دون استمداد من الرحم ، فهي تتبلغ بما تحويه من حبيبات غذائية حتى تنشب في الرحم وتمتص منه الدماء . وقد جازت تلك التسمية على النطفة الأَمْشَاجُ في تلك المرحلة قبل النشوب في جدار الرحم وإن كان الغالب عليها صفة النطفة الأَمْشَاجُ في تلك المرحلة فسميت باسمها في المرحلة التي قبلها والتي بعدها نظراً للصفة والمدة الغالبة ، وحين تنشب العَلَقَةُ في الرحم وتنغرز فيه ويكون ذلك كما ورد في كتاب «خلق الإنسان» في اليوم السابع من التلقيح . تقوم بقضم في جدار الرحم وتتعلق بالرحم بواسطة هذه الأظفار من الخلايا والتي تسمى بالخلايا الآكلة . ويستعد الغشاء الساقط (الذي يسقط عند الحيض والنفاس) لمقدم البلاستولا (الكرة الجرثومية) . أي النطفة الأَمْشَاجُ أو بداية العَلَقَةُ ، فيزيد الدم من أوعيته الدموية زيادة هائلة ، وتحاط هذه الكرة ببرك من الدماء لكنها دماء متجمدة ، وتبقى هذه الدماء في هذه البحيرات الدموية على هيئتها تلك حتى الأسبوع الثالث عندما يتم الاتصال فيما بينها وبين هذه البحيرات وبعض الأوعية الدموية الرحمية فتكون دورة دموية فيما بين هذه الدماء وتتحول عندئذ عن صفة الدم المتجمد^(٢) . لتختلط بدم الأم ودم الجنين* ، حيث يكون في هذه الفترة أي فترة العَلَقَةُ الاتصال بين دماء الأم وخلايا التغذية في الجنين اتصالاً مباشراً^(٣) .

(١) المرجع السابق ، ج٩ ، مادة (علق) ، ص ٣٥٦ .

(٢) انظر : د . محمد علي البار ، ص ٢١١ - ٢١٣ .

(*) الأولى أن يستنتج من هذه الحالة بأن الدم الذي تراه الحامل ليس بحيض وإنما هو عرق استحاضة ذلك أن هذا الدم لم يعد دماً متجمداً فيه ميزة دم الحيض ، وإنما غلب عليه دم العرق (أي الذي يجري) وهنا اتصال تام بالدورة الدموية بين الرحم وبين الجنين والأم ، فأين هو دم الحيض إذاً ! ؟ وهذا ما يوافق الآيات والأحاديث ، في عدة الحامل ، وفي استبراء الأمة .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

وتتكون العلقه في هذه المرحلة وهي في بداية تعلقها في الرحم مما يلي :

أ- الخلايا الآكلة التي تعلق بواسطتها بالرحم .

ب- خلايا داخلية يخلق الله سبحانه وتعالى منها الجنين تتمايز إلى طبقتين أو ورقتين : خارجية تسمى الطبقة الخارجية (الأكثودرم) وداخلية تسمى بالطبقة الداخلية (الأنثودرم) .

وفي حوالي اليوم الثاني عشر منذ التلقيح تقفل الفتحة التي دخلت منها الكرة الجرثومية في غشاء الرحم بجلطة دموية مكونة من الليفين والخلايا الدموية ثم تغطي بخلايا طلائية وهي التي تغطي جدار الرحم منذ البداية . وبذلك تنتهي مرحلة التعلق الأولى والتي استغرقت أسبوعاً ، لتبدأ مرحلة تعلق ثانٍ بواسطة الغشاء المشيمي والذي تكون في الخلايا الخارجية الآكلة ، هذه الخلايا التي تعطي فيما بعد الطبقة المتوسطة من الجنين نفسه ، وتعطي المشيمة وتوابعها وأهمها المعلق (بداية الحبل السري) الذي يربط ما بين الجنين والمشيمة ويظهر هذا المعلق البدائي في اليوم الثاني عشر منذ التلقيح ويبدو في هذه المرحلة (العلقه) ثلاثة تعلقات للجنين وهي: الانغراز للكرة الجرثومية، ثم التعلق الثاني بواسطة الغشاء المشيمي، ثم التعلق الثالث بواسطة المعلق بداية (الحبل السري) ، لتنتهي بذلك مرحلة العلقه (١) .

لكن أهم ما يميز مرحلة العلقه هو ظهور ما يسمى بالشريط الأولي للجنين وهو البداية الأولى للجهاز العصبي . ويظهر هذا الشريط الأولي في اليوم الخامس عشر منذ التلقيح ويظهر معه نتيجة لنشاطه الجم الغزير الآتي :

١- النوتوكورد (أو الحبل الظهري أو سلفة العمود الفقري) ويمتد إلى جهة الرأس من العقدة الأولى .

٢- يتحول القرص الجنيني المستدير بظهور الشريط الأولي إلى شكل كمثري . . بحيث يمكن تمييز طرفيه . . ويدعى الطرف العريض الجهة الرأسية والطرف الدقيق الجهة الذيلية أو الذنبية .

٣- تظهر بداية الجهاز العصبي من الطبقة الخارجية (الأكثودرم) في نهاية الأسبوع الثالث (٢٠-٢١ يوماً) مكونة الصفيحة العصبية والتي ينتج عنها الأنبوية

العصية المفتوحة الطرفين والتي ما تلبث أن تقفل الفتحة الأمامية منها في اليوم الخامس والعشرين بينما تقفل الفتحة الخلفية في اليوم السابع والعشرين . وبذلك يقفل الأنبوب العصبي لتشكل غالبية الدماغ ، بينما يشكل الجزء الأخير منه (الذنبى) النخاع الشوكي . وفي نفس الوقت تظهر الصفيحة السمعية والصفيحة العدسية^(١) . وإذا لم يقفل هذا الأنبوب العصبي فإن النتيجة تكون جنيناً بدون دماغ ، وقد يولد هذا الجنين حياً ثم يموت لبضعة أيام على الأكثر^(٢).

أما مصير هذا الشريط الأولي فهو الاندثار في منطقة العصعص من الجنين ، حيث إنه لا يكاد ينتهي من مهمته في الأسبوع الرابع حتى يبدأ في الاندثار ويبقى كامناً في المنطقة العجزية في هذا الجنين وهو ما أطلق عليه حديث الرسول ﷺ عجب الذنب .

قال رسول الله ﷺ «كلُّ ابنِ آدم يأكله التراب إلا عَجْبُ الذَّنْبِ منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ»^(٣) وفي رواية أخرى قال ﷺ « . . . » (إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يُرَكَّبُ يوم القيامة) قالوا : أي عظم هو ؟ يا رسول الله ! قال «عَجْبُ الذَّنْبِ»^(٤).

ولابد هنا من القول إنه من الصعب فصل مراحل تكون ونمو الجنين عن بعضها لأن كل مرحلة تتداخل مع التي قبلها والتي بعدها ، والجنين هنا في مرحلة العلقة والتي كان الحديث عنها والتي انتهت في اليوم الحادي والعشرين من التلقيح ، يدخل مرحلة جديدة هي مرحلة المضغة والتي تبدأ بظهور الكتل البدنية على جانبي محور الجنين حتى تبلغ عند اكتمالها ٤٢-٤٥ على كل جانب . وبظهور هذه الكتل ينمو الجهاز العصبي للجنين ، وتنمو انحناءات الرأس وتظهر فتحة الفم البدائية ويظهر الحبل السري (المعلق سابقاً) وتظهر الأوعية الدموية في الجنين بوضوح ويظهر القلب في الأسبوع الرابع كاملاً ، فتكون الدورة الدموية في الجنين كاملة ومتصلة بالأم بواسطة المشيمة ، وتتشكل القناة الهضمية ، ويظهر برعما البنكرياس والكبد ، وتظهر حويصلة الإبصار، وحويصلة السمع، وتظهر بداية الجهاز التنفسي، وبرعما الرئة

(١) انظر : د . محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٤٠١ - ٤٠٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٠٧ .

(٣) مسلم ، الصحيح ، ج ٤ ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ما بين النفختين ، ص ٢٢٧٠ ، ح (٢٩٥٥) .

(٤) مسلم المرجع السابق .

وتظهر كتلة أنابيب الكلى والتي تشكل بعد أسبوع الكلى الحقيقية ، وبذلك يمكن أن نعتبر أن فترة الكتل البدنية في الجنين تمتد من اليوم الحادي عشر إلى اليوم الخامس والثلاثين من عمر الجنين^(١) .

والكتل البدنية في الجنين تنقسم إلى قسمين وذلك في الأسبوع الرابع منذ التلقيح :

١- قسم أمامي أنسي وهذه تتحول إلى خلايا مغزلية وتكون النسيج العظمي . وهذه بدورها يكون منها خلايا مكونة للألياف ، وخلايا مكونة للغضاريف ، وخلايا مكونة للعظام ، وهذه الخلايا تنمو لتلتقي أمام القناة العصبية مكونة الفقرات . وتمتد هذه الكتل من جهة مؤخرة الرأس ، حيث تلتحم أربع كتل بدنية لتشكل جزءاً من قاع الجمجمة ومؤخرة الرأس وتمتد بعدها بقية الفقرات .

٢- قسم ظهري وحشي ، وهذه الكتلة من الخلايا تظهر بعد تكون الفقرات الأولية . ثم تتمايز إلى طبقتين خارجية وتكون الأدمة وطبقة ما تحت الجلد ، وداخلية وتكون مختلف عضلات الهيكل . . . وخاصة تلك المحيطة بالفقرات والأضلاع^(٢) . وتظهر هذه العضلات لتكسو العظم في الأسبوع السادس والسابع (منذ بدء التلقيح) بينما تظهر العظام ذاتها في الأسبوع الخامس والسادس^(٣) وهذا مصداق قول الله عز وجل ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ (سورة المؤمنون-آية ١٤) .

وقد أجاد الشيخ الألوسي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية الكريمة ، حيث قال في ذلك : ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي قطعة لحم بقدر ما يمضغ لا استبانة ولا تمايز فيها وهذا التعبير على ما قيل بحسب الذات كتصيير الماء حجراً وبالعكس، وحقيقتة إزالة الصورة الأولى عن المادة . . . و(حصول) صورة أخرى عليها وهو من باب الكون والفساد ولا يخلو ذلك من الحركة في الكيفية الاستعدادية فإن استعداد الماء مثلاً للصورة الأولى الفاسدة يأخذ في الانتقاص واستعداده للصورة الثانية الكائنة يأخذ

(١) انظر : المرجع السابق ، خلق الإنسان ، ص ١٤٧ - ٢٥٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٥-٢٥٦ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ نقلاً عن كتاب علم الأجنة الطبي : Medical Embryology ، ص ٦٨ ، ١٤٢ ، ١٥٧ .

في الاشتداد ولا يزال الأول ينقص والثاني يشتد إلى أن تنتهي المادة إلى حيث تزول عنها الصورة الأولى فتحدث فيها الثانية دفعة فتتوارد هذه الاستعدادات التي هي من مقولة الكيف على موضوع واحد ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ غالبها ومعظمها أو كلها «عظاماً» صغاراً وعظاماً حسبما تقتضيه الحكمة وذلك التعبير بالتصليب لما يراد جعله عظاماً من المضغة ؛ وهذا أيضاً تعبير بحسب الوصف»^(١) .

جاء في كتاب «خلق الإنسان» في تحول المضغة وتغيرها ما يلي : «ولاتكاد تظهر كتل جديدة (في الجنين من اليوم ٢١ حتى ٣٠) حتى تكون الكتل القديمة قد تمايزت . إلى قطاع عظمي وقطاع عضلي وقطاع جلدي»^(٢) .

لاشك بأنه من الواجب الشرعي أن ينظر في مراحل تكون الجنين للاعتماد عليها في تحديد ما يتعلق من أحكام الأمومة ؟ ! .

متى تنفخ الروح ؟

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء - آية ٨٥) .

ذكر البحث أن الأنبوب العصبي في الجنين يكون مفتوحاً من الجانبين ثم لا تلبث هاتان الفتحتان أن تقفلا في اليوم الخامس والعشرين للفتحة الأمامية واليوم السابع والعشرين للفتحة الخلفية . وبقفل الأنبوب العصبي تتكون القناة العصبية داخل الأنبوب والتي تتحول فيما بعد في الدماغ إلى بطينات الدماغ، وتظهر فيه ثلاثة انبعاجات مشكلة حويصلات ثلاثة : الأولى تكون الدماغ المقدمي، والثانية تكون الدماغ الأوسط ، والثالثة تكون الدماغ الخلفي ، وفي الأسبوع الخامس (٣٠ يوماً) تنمو الحويصلة الأولى (الدماغ المقدمي) بحيث تكون حويصليتين (ومنها يخلق الله سبحانه وتعالى فصي المخ) ويصل بينهما الدماغ البييني (الذي يتحول إلى المهاد وفوق المهاد وتحت المهاد) . في حين تبقى حويصلة الدماغ المتوسط دون انقسام ، بينما تنقسم حويصلة الدماغ الخلفي إلى ما يسمى بالدماغ التالي ومنه يخلق الله سبحانه القنطرة والمخيخ والدماغ النخاعي ويخلق الله سبحانه منه النخاع المستطيل .

(١) روح المعاني ، م ، ج ١٨ ، ص ١٤ .

(٢) د. محمد علي البار، ص ٢٥٦ .

ويكون داخل هذه الحويصلات مجوفاً مكوناً بطينيات الدماغ الأربعة . بطين وحشي في كل فص من فصي المخ والبطين الثالث في الدماغ المتوسط والبطين الرابع في الدماغ الخلفي .

وينمو الدماغ نمواً سريعاً ويؤدي ذلك إلى وجود انثناءات دماغية ، وأول هذه الانثناءات يظهر في الأسبوع الرابع من عمر الجنين . ويليه انثناء آخر في منطقة العنق في الأسبوع الخامس .

وتظهر الحويصلات الخمسة . . بل وتظهر بعض الأعصاب الدماغية (البصلة الشمية وعصب الإبصار) ويظهر أيضاً برعم الغدة النخامية لأن أصل تكونها من الجهاز العصبي . ويظهر من الدماغ الانتهائي (البعيد) بداية تكون فصي المخ^(١).

ويضيف الدكتور محمد علي البار بعد ذلك فيقول : «ومن الواضح أن الجنين بعد انتهاء ٤٢ يوماً ودخوله في الأسبوع السابع يكون قد نما نمواً كبيراً وأن جهازه العصبي وخاصة جذع الدماغ المكون من الدماغ الأوسط . . القنطرة . . المستطيل . . وهي المراكز الأساسية للحياة، والتي أصبح تعريف موت الدماغ يعتمد عليها «تكون جميعها قد تكونت، ومن الأسبوع السابع يبدأ النخاع المستطيل في التحكم في النخاع الشوكي» كتاب. Page Ville : Human Reproduction.P271 وبينما نرى الأجزاء المتعلقة بتنظيم الحركة والتوازن الموجودة في المخيخ تنمو في مرحلة متأخرة جداً ولا يكتمل نموها إلا بعد الولادة نجد أن المراكز الأساسية للحياة قد ظهرت في الأسبوع السادس . . وفي الأسبوع السابع يمكن تسجيل النشاط الكهربائي للدماغ^(٢) وكذلك يبدأ النخاع المستطيل في التحكم في النخاع الشوكي ، وتبدأ الأفعال المنعكسة نتيجة اكتمال نمو القوس المنعكس ، وذلك بالنسبة للإحساس حول منطقة الفم^(٣) ، ويبدأ ظهور فصي المخ من الدماغ الانتهائي (البعيد) .

وباختصار فإن جذع الدماغ يتكون بجميع أساسياته في الفترة ما بين الأسبوع الخامس والأسبوع السابع من عمر الجنين ، وهو يحتوي على المراكز الأساسية للحياة (الوعي، التنفس، الدورة الدموية، التحكم في القلب، .. إلخ) لذا فإن موت جذع الدماغ يعتبر دليلاً على موت الإنسان^(٤) .

(١) انظر : د . محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٤١٠ - ٤١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٤١٩ - ٤٢٣ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٩١-٤٢٣ .

يضاف إلى ذلك أنه في اليوم الأربعين تتباين طبقات النخاع الشوكي إلى ثلاث طبقات . يقول الدكتور شفيق عبد الملك : «وإذا ما بلغ الحمل من العمر أربعين يوماً ومن الطول عشرة ملليمترات (١ سنتمتر) تباينت طبقة الثالثة من الخلايا فتصبح القناة العصبية مكونة من ثلاثة أنواع من الخلايا تشغل ثلاث مناطق متتابة متتالية وهي من الداخل للخارج :

١- منطقة الخلايا السببية (البطانة)

٢- منطقة وسطى تسمى المنطقة السترية

٣- منطقة خارجية وتلامس الغشاء الخارجي وتسمى المنطقة الهامشية»^(١).

ومن ثم «تبدأ نواة فصي المخ في الظهور واحدة على كل جانب في الأسبوع السادس وتنمو كل منهما بسرعة أكثر من كل أجزاء المخ وتتجه إلى أعلى ثم للخلف حتى إذا بلغ الجنين منتصف حياته الرحمية يكون الفصان المخيان قد بلغا المنطقة المؤخرية من الجمجمة . وبذلك يغطيان كل أجزاء المخ (الدماغ) بما في ذلك المخ (الدماغ) البيني والمخ (الدماغ) الأوسط والمخيخ»^(٢) . وتبلغ حويصلات فصي المخ أوج نشاطها وتكاثرها في الفترة ما بين الأسبوع السادس عشر والعشرين ، حيث تبلغ الخلايا العصبية في الدماغ أوجها ، حتى إن الجنين لا يشهد فيما بعد أي تكاثر لهذه الخلايا العصبية إلا بصورة هامشية ، ويكون النمو بعد ذلك للخلايا الدبقية (الغرائية)^(٣) . وفصا المخ مسؤولان عن الملكات العليا في الإنسان : الفكر، الذاكرة، الكلام ، المعرفة ، ويتحكمان أيضاً في الحركة والإحساس والسمع والبصر والشم والعاطفة^(٤) .

ويبقى الإنسان حياً إذا فقد فصي المخ والمناطق الدماغية الأخرى ، بشرط أن يبقى جذع الدماغ عنده حياً ، لكنه يدخل في غيبوبة تامة ، وفقدان للإدراك والحياة الإنسانية^(٥) الراقية كما حدث لكارين آن كونيلا الفتاة الأمريكية التي فقدت الوعي

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ نقلاً عن د . شفيق عبد الملك ، تكوين الجنين ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : المطبعة الحديثة) ص ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ ، نقلاً عن المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٢٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

ودخلت في غيبوبة طويلة دامت عشر سنوات ، دون أجهزة إنعاش ، وبقيت على المغذيات بالوريد ، وبالعقاقير حتى وفاتها^(١) . وكذلك الطفلة سيسيليا بلاندي التي أصيبت وهي في سن العاشرة بحادثة سيارة مما أدى إلى تهشم الجمجمة وموت خلايا المخ ، وبقي جذع الدماغ حياً ، وبقيت على الحياة في غيبوبة كاملة حوالي اثني عشر عاماً^(٢) .

وقد أطلق الدكتور محمد علي البار على هذه الحياة المتعلقة بحياة جذع الدماغ حياة نباتية ثم قال فضيلته وربما جاز تسميتها بالحياة الحيوانية^(٣) . ولعله يمكن تسميتها بالحياة البشرية الحيوانية مادامت الروح لم تفارق هذا الجسد ، ذلك أن هناك فارقاً كبيراً بين حياة النبات وبين حياة هذا الإنسان الذي أصيب دماغه ولم يبق منه إلا جذع الدماغ وهو المسؤول عن مراكز الحياة فيه من تنفس ونبض قلب ودورة دموية^(٤) .

وإن الشخص الذي يصاب في جذع دماغه، يفقد الحياة ، وإن تحرك جسده بعد موت جذع الدماغ لدقائق قليلة ، كما يحدث للمذبوح والمشنوق من الحركة ، فالشنق أو الضرب بالسيف على أعلى العنق ، يمثل الصورة المقصودة من موت جذع الدماغ، والتي يموت معها صاحبه وإن ظهرت فيه الحركة لبعض الوقت . ذلك أن جذع الدماغ في الشنق أو الضرب هذا يموت أولاً ، بينما يبقى المخ أو بعض خلايا المخ حية ، وكذلك خلايا النخاع الشوكي ، ومن هنا تأتي حركة المذبوح أو المشنوق ، وهي لا تدل على الحياة ، كما قال بذلك الفقهاء رحمهم الله ، ففي الشنق يتوقف التنفس فوراً نتيجة انقسام وتهتك جذع الدماغ ، بينما تبقى في بعض الأحيان تروية الدماغ، وقد يستمر القلب في الضخ والنبض لمدة عشرين دقيقة كاملة بعد توقف التنفس والتنفس وموت جذع الدماغ ، وتستمر بعض خلايا الدماغ في الحياة لعدة دقائق ، ويمكن للقلب أن يستمر في ضخ الدم بواسطة أجهزة الإنعاش لبضعة أيام ، لكن خلايا

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٢٦ ؛ موت القلب أو موت الدماغ ، (جدة : الدار السعودية ، ١٩٨٥م) ، ص ٩٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، خلق الإنسان ، ص ٤٢٦ ؛ موت القلب أو موت الدماغ ، ص ٩٣ ، نقلاً عن جريدة الشرق الأوسط ، العدد ١٤٠١ ، ١٠/٨ - ١٤٠٥ هـ .

(٣) انظر : خلق الإنسان ، ص ٤٢٧ .

(٤) انظر : د . محمد علي البار ، موت القلب الدماغ ، ص ١٢٧ .

الدماغ المتبقية لا تبقى في الحياة أكثر من عدة دقائق^(١) . والقلب بعد ذلك مصيره أيضاً التوقف لا محالة بعد بضعة أيام ، إذن الوفاة للإنسان لا تتم إلا بموت جذع الدماغ المسؤول عن التنفس وحركة القلب ومن ثم الدورة الدموية ، وإن أهم علامة للموت لدى الأطباء هي توقف القلب وتوقف التنفس - وإذا كانت إصابة الشخص بهذا التوقف مؤقتة أمكن الشفاء - بإذن الله- وإذا استمرت فإن ذلك يعني إصابة جذع الدماغ وهو يعني الموت لهذا الإنسان^(٢) ، ولا يتوقف هذا الحال على الإنسان ، بل إن الحيوان أيضاً ينطبق عليه هذا التعريف للموت كما يشاهد حال الحيوانات بعد الذبح وهي تتحرك لبعض الوقت ثم تموت نتيجة إصابة جذع الدماغ بالذبح . وقد ورد في كتاب «موت القلب أو موت الدماغ» صورة لدجاجة ذبحت ، بحيث فصل رأسها ، لكن موضع الذبح كان عالياً ، بحيث بقي لها جزء من النخاع المستطيل (من جذع الدماغ) وهو يتحكم في التنفس ، وكانت تتغذى هذه الدجاجة من البلعوم المفتوح ، والغريب أن هذه الدجاجة لم تبق حية فقط ، وإنما ظلت تمشي وتتحرك لمدة أسبوع كامل^(٣) .

فهل يمكن إذن . . أن نطلق على هؤلاء الذين فقدوا جزءاً من الدماغ ولم يبق لهم إلا جذع الدماغ حياً ، أن نطلق على حياتهم بأنها حياة نباتية؟! لا شك أنها حياة بشرية حيوانية لها حرمتها وإن الاعتداء عليها اعتداء على روح لها حرمتها عند الله عز وجل . وهذا ما أقرته ندوة «الحياة الإنسانية، بدايتها ونهايتها» المنعقدة في ٢٤ ربيع الآخر ١٤٠٥هـ - ١٥ يناير ١٩٨٥م . بعد مناقشات بين الفقهاء والأطباء مع دراسة أقوال الفقهاء -رحمهم الله- واتفق الرأي في توصيات هذه الندوة على أن موت الإنسان لا يعتبر إلا بموت جذع دماغه ، وإذا تحقق موت جذع المخ بتقرير لجنة طبية مختصة جاز حينئذ إيقاف أجهزة الإنعاش الصناعية عن الشخص^(٤) .

وقد عنون الدكتور محمد علي البار في كتابه «موت القلب أو موت الدماغ» مبحثاً بعنوان : «وجوب الاعتراف بموت الدماغ» وجاء فيه بأن موت القلب ليس علامة على موت الشخص ، وتعلن وفاة الشخص عندما يتم تحديد موت الدماغ ،

(١) انظر : د . محمد علي البار، موت القلب أو موت الدماغ، ص ١٣٥-١٣٩ ، نقلاً عن Rallis C., A.B.C . Of Brain Stem Death .

(٢) انظر : د . المرجع السابق ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) انظر : د . محمد علي البار ص ٧٣-٧٤ نقلاً عن كتاب كريستوفر باليس «أبجديات موت الدماغ» .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ١٦٥ - ١٦٧ .

والاتفاق على ذلك من قبل مجموعة من الأطباء المختصين^(١) ففي بريطانيا اجتمعت لجنة من كبار الأطباء المختصين من الكليات الملكية للأطباء وكليات الطب في الجامعات البريطانية وأصدرت تعريفات لموت الدماغ ، وكان أن أمكن في بريطانيا إيقاف وسائل الإنعاش متى ما تم تشخيص موت الدماغ^(٢) .

وفي عام ١٩٨١م أصدر الرئيس ريغان أمره بتكوين لجنة من كبار الأطباء والقانونيين وعلماء الدين لدراسة موت الدماغ ، وأصدرت اللجنة قرارها في يولييه ١٩٨١م بالاعتراف بموت الدماغ^(٣) .

إن هناك فارقاً كبيراً بين حياة النبات وحياة هذا الإنسان أو هذا الحيوان ، الذي فقد كل منهما جزءاً من الدماغ ولم يبق منه إلا جذعه . إنه لا يمكن أن نطلق على حياتهما حياة نباتية على الإطلاق ذلك أن هذه الحياة ، حياة حيوانية والحياة الحيوانية لايجوز الاعتداء عليها بلا مبرر شرعي سواء في الإنسان أو الحيوان ولا شك أن الحرمة في حياة الإنسان أكبر منها في حياة الحيوان ، وهذا الإنسان الذي بقي له جذع الدماغ هو إنسان حي ، لكنه سلب ملكاته العليا ، بفقد المراكز التي ينتج عنها الفعل الإرادي والإحساس والتفكير والحركة ولكنه إنسان وليس حيواناً ؛ أما تلك التسمية (الحياة الحيوانية) فهي مجازية والمقصود فيها وجود الحياة في هذا الإنسان فهو يشترك مع الحيوان في الحياة بالروح ، وبالتالي بسقوط التكليف بسلب شرطة ، ومركزه .

وقد سميت حياة كارين الأمريكية التي ذكرت سابقاً ، حياة نباتية لاحياة إنسانية وكان الأولى أن تسمى حياة حيوانية إنسانية ، مادامت قد اعتبرت حياتها لها حرمة الحياة ، وأن المساس بهذه الحياة يعتبر قتلاً ، كما قالت المحكمة العليا في أمريكا، والتي لم تسمح بما يسمى قتل الرحمة ، واعتبرت من يفعل ذلك جانياً^(٤) . والحقيقة .. إن الذي أصيب في دماغه يمكن أن تعرف حياته بحياة جذع دماغه من بعض الفحوصات .. وذلك أن مقلة العين تتحرك ، ويسجل جذع الدماغ أفعالاً منعكسة من حركة بؤبؤ العين للضوء الشديد ، رمش العين عند وضع قطنه على قرنية العين ، حركة العين عند إدخال ماء بارد فيها ، تقطيب الجبين عند الضغط

(١) انظر : ص ١٠٢ .

(٢)، (٣) انظر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٤) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٤٢٥ .

على الجسم ، الكحة عند لمس الحنك ٠٠ ، ويستمر التنفس ونبض القلب .

وبعد هذا ٠٠ فلماذا لا تعتبر حياة الجنين بعد الأربعين هي حياة حيوانية إنسانية لها حرمتها الكاملة كما لهذا الإنسان الذي فقد دماغه إلا جذعه ، مادام هذا الجنين قد اكتمل عنده القلب ونبض ، ويمكن تسجيل النشاط الكهربائي لدماغه ، وكذلك تلاحظ الأفعال المنعكسة بالإحساس حول منطقة الفم . بل إن الأكثر من هذا ، أن هذا الجنين في هذه المرحلة قد ظهر فيه فضا المخ ، واللذان لا يلبدان بياشران النمو والتقدم - بإذن الله تعالى - ليتكون من هذا الجنين إنساناً كاملاً .

فأيهما إذن أشد حرمة وأكثر إثماً وأكبر جريمة . قتل إنسان يحيا بجذع دماغه وهو ماض إلى الموت لا محالة ، ولا عودة له على الإطلاق إلى الحياة الإنسانية الراقية لفقده مراكز الحياة العليا ، من المخ وغيرها ، أم قتل جنين يعيش مثل هذا الذي ذكر لكنه ينمو ويكبر وهو صائر إلى الملكات الإنسانية العليا ٠٠ في قول الله عز وجل ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون - آية ١٤) . يقول الشهيد سيد قطب في معنى هذه الآية الكريمة ٠٠ «هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة . فجنين الإنسان يشبه^(٢) جنين الحيوان في أطواره الجسدية . ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر ، ويتحول إلى الخليفة المتميزة ، المستعدة للارتقاء ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان ، مجرداً من خصائص الارتقاء والكمال ، التي يمتاز بها جنين الإنسان .

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد . وهو ينشأ «خلقاً آخر» في آخر أطواره الجنينية، بينما يبقى الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية ، فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً كما تقول النظريات المادية - فهما نوعان مختلفان» (٣) . ولكن هذا الجنين في كل مرحلة هو جنين إنسان، وليس حيواناً، وحرمة قتله هي من حرمة قتل الإنسان لا الحيوان .

(١) انظر : المرجع السابق ، موت القلب أو موت الدماغ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) قد ذكر الدكتور محمد علي البار هذه الحقيقة بالصور بأن المعالم الإنسانية غير موجودة في الجنين قبل الشهرين من عمره ، ثم لا تلبث أن تتضح شيئاً فشيئاً حتى الشهر الرابع .
يراجع : خلق الإنسان ، ص ٣١٣ - ٣٢٢ .

(٣) في ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤٥٩ .

«اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنساناً . واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الإنساني «خلقاً آخر» . إنما الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني ؛ ثم يبقى الحيوان حيواناً في مكانه لا يتعداه . وليتحول الإنسان خلقاً آخر قابلاً لما هو مهياً له من الكمال . بواسطة خصائص مميزة ، وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان»^(١) فتبارك الله سبحانه وتعالى أحسن الخالقين لا إله سواه عز وجل .

إن الذي فقد الحياة الإنسانية العليا هو أشبه بالحيوان ، وإن كان يحمل بين جنبه الملكات المسؤولة عن هذه الحياة ، وهو أيضاً حي من الأحياء وقد شبه القرآن الكريم هؤلاء بالأنعام ، وإن الذي ذهب عقله وجن ، وفقد التمييز هو إنسان أشبه بالحيوان من حيث أفعاله ، ومن حيث عدم التكليف والسؤال والمحاسبة . وكذلك النائم ، فقد توقفت عنده الحياة الإنسانية العليا وبقيت الحياة الحيوانية فيه ، فسقط عنه القلم لكنه حي من الأحياء ، وإنسان من بني آدم عليه السلام .

والأكثر من هذه الأدلة على تمايز الحياتين : الإنسانية العليا والإنسانية والحيوانية ، وهي أن يولد أجنة بدون دماغ إلا جزءاً يسيراً من جذع الدماغ من النخاع الشوكي ومع ذلك يولد مثل هذا الجنين حياً ، وإن كان لا يعيش إلا لبضع ساعات أو أيام^(٢) لكن . . . والمهم أنه ولد حياً واستطاع المختص أن يميز بين حياته وموته . إذن . . . المسؤول عن حياة الإنسان هو جذع الدماغ ، ومادام اعتبر الموت بموته ، والحياة بحياته ، فمن الواجب أن تعتبر حياة الجنين بتشكل وتكون جذع الدماغ عنده وهو في الأسبوع السادس وبعد انتهاء (٤٠ يوماً) من بدء التلقيح .

والجدير بالذكر أن العلماء المسلمين قد ميزوا بين نوعين من الحياة عند الإنسان ، ولعل في القرآن الكريم ، وفي قول الله عز وجل ما يدل على ذلك من مدلول الآية الكريمة في سورة الزمر من قوله سبحانه وتعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (آية ٤٢) .

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر : د . محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية الكريمة : «أي يقبضها عند فناء أجلها ، وانقضاء مدة حياتها ، ويتوفى أيضاً التي لم تمت في منامها ، كما التي ماتت عند مماتها»^(١) . رحم الله الإمام الطبري ، لقد كان ذا فهم ثاقب لآيات الله عز وجل ، وإنه - رحمه الله سبحانه - لم يتجاوز ألفاظ الآية الكريمة حتى إنه استعمل الألفاظ ذاتها . والملاحظ أن التوفي غير الموت فالنفس التي ماتت يتوفاها الله عز وجل ، والنفس النائمة ، التي لم تمت في منامها يتوفاها الله عز وجل فيمسك سبحانه وتعالى التي قضى عليها الموت ويرسل التي لم تمت إلى أجلها المضروب لها . . . إذن الموت والنوم هما توفٍ للأنفس ، لكنه لا يشك عاقل أن الموت ليس هو النوم ، وأن الموت يختلف عن النوم وأن الميت فقد التنفس ، وأن النائم يتنفس ، بل ويتحرك أحياناً ، وأن الأفعال المنعكسة موجودة عنده لأقل إحساس ومؤثر على العكس من الميت تماماً ، لكن الفارق بين الحالين في توفي الأنفس ، أن الحياة الحيوانية في الميت قد ماتت وقضى عليها الموت لكن الحياة الحيوانية في النائم لم تنزل موجودة وهي «لم تمت في منامها» ولم يقض عليها الموت . فهل يباح قتل النائم مثلاً ما دامت نفسه قد توفيت عنه وبقيت له الحياة الحيوانية فقط ؟ !

وقد نقل الزمخشري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ما يلي : «وقيل يتوفى الأنفس يستوفىها ويقبضها وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي أنفس التمييز لأنفس الحياة لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس . ورووا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والتحرك»^(٢) .

وقال الإمام الرازي - رحمه الله - «إن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه»^(٣) . وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - : «توفي الأنفس في حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة في محل الإدراك . وتوفيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية»^(٤) .

(١) جامع البيان ، م ١٢ ، ج ٤ ، ص ٨٠ .

(٢) الكشف ، ج ٣ ، ص ٤٠٠ .

(٣) مفاتيح الغيب ، م ١٣ ، ج ٢٦ ، ص ٢٨٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٥ ، ص ٢٦١ .

وقد أطلق الحافظ ابن كثير - رحمه الله - على حال الميت «الوفاة الكبرى» وعلى النائم «الوفاة الصغرى»^(١) .

وجاء في «روح المعاني» للعلامة الألوسي ما يلي : « النفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك ، فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وجدها عند الموت ، وهو قول بالفرق بين النفس والروح ، ونسبه بعضهم إلى الأكثرين ويعبر عن النفس بالنفس الناطقة وبالروح الأمرية وبالروح الإلهية ، وعن الروح الحيوانية وكذا بالنفس الحيوانية ، والثانية كالعرش للأولى» (٤) .

وجاء في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي - رحمه الله - في معاني الروح ما يلي : «وهو أيضاً يطلق (الروح) فيما يتعلق بجنس غرضنا بمعنيين أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينشر بواسطة العروق الضواري إلى سائر أجزاء البدن . . . وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت ، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان . والروح مثالها السراج . وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه . . . والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب . وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذا الروح أصلاً»^(٢) .

(المعنى الثاني) : هو «اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان . وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب . . . وهو الذي أراده الله سبحانه بقوله : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ . وهو أمر عجيب رباني تعجز . . . (كل) العقول والأفهام عن درك حقيقته»^(٣) .

قال الدكتور محمد علي البار معقّباً على كلام

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

(٢) م ١٢ ، ج ٢٤ ، ص ٨٧ .

(٣)، (٤) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، ت ٥٠٥ هـ ، إحياء علوم الدين ، (بيروت : دار المعرفة ، ج ٣ ، ص ٣-٤) .

الإمام الغزالي ٠٠ «وخلاصة الأمر أن ماذهب إليه الإمام الغزالي في المسألة هو الحق، فللروح كما للقلب معنيان : فالمعنى الأول يتعلق به غرض الأطباء وهو الذي تحدد به الحياة والموت ٠٠ والمعنى الثاني سر من الاسرار تحار ٠٠ العقول والأفهام عن درك حقيقته كما يقول الإمام الغزالي»^(١) وهي حقيقة الإنسان في أنها الجانب المدرك العالم العارف من الإنسان ، والتي يصير بها الإنسان مخاطباً ومعاقباً ومطالباً^(٢) بعد أن تكتمل تلك المدارك عنده في سن البلوغ .

إذاً ٠٠ فللحياة ، معنيان : حياة بها حياة البدن واستمراره وهي التي فيها نبض القلب والتنفس واستمرارهما ، ويقوم بإدارتها وتسييرها بأمر الله عز وجل جذع الدماغ وهو الذي يتم في الجنين في اليوم الأربعين ومابعده كما هو في اصطلاح الطب ، لأن القلب الحقيقي يتشكل عند الجنين في اليوم (٣٨)^(٣) . ويضرب ضربات عادية منذ ذلك الوقت حتى موت هذا المخلوق .

والأمر المستغرب ألا يعتبر الأطباء هذه المرحلة من عمر الجنين حياة حيوانية^(٤)، لها حرمتها في قتل النفس لأن لها مقومات الروح ، رغم أن الحقائق العلمية تدل على ذلك ولا يوجد من النصوص القرآنية أو الحديثية الصحيحة ما يعارض هذه الحقيقة ، بل على العكس من ذلك فحديث حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - يدل على ذلك كما في صحيح الإمام مسلم - رحمه الله - ٠٠ قال رسول ﷺ : «إذا مرَّ بالنُطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : ياربِّ أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربُّك ما شاء ، ويكتبُ الملك ، ثم يقولُ ياربِّ ! أجله . فيقول ربُّك ما شاء ويكتبُ الملك ، ثم يقول : ياربِّ رزقه ، فيقضي ربُّك ما شاء . ويكتبُ الملك . ثم يخرجُ الملكُ بالصَّحيفة في يده . فلا يزيدُ على ما أُمِرَ ولا ينقصُ»^(٥) .

وقد ذهب الدكتور محمد علي البار^(٦) ، والدكتور مأمون شقفة^(٧) ،

- (١) د . محمد علي البار، المرجع السابق ، ص ٤٥ .
- (٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٦٤ .
- (٣) انظر : د . مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ١٣٩ ؛ د . محمد سيف الدين السباعي الإجهاض ، ص ٣٧ ؛ د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٤٠٤ .
- (٤) المقصود بإطلاق الحياة الحيوانية على الجنين ، «الحيوان» أي الحياة من قوله تعالى «وان الدار الآخرة لهي الحيوان» وهي أينما وردت في البحث عن الجنين فهي تعني حياته: أي وجود الروح فيه ، وهي حياة إنسانية لاشك فيها .
- (٥) سبق تخريجه ، ص ٢٧٣ من هذا البحث .
- (٦) انظر : الجنين المشوه ، ص ٤٢٥ .
- (٧) انظر : القرار المكين ، ص ٢٥٧-٢٥٨ ، وقد اعتبر المؤلف المدة من أول يوم من آخر طمث رأتها المرأة .

والدكتور محمد سيف الدين السباعي^(١) إلى أن نفخ الروح في الجنين يكون بعد (١٢٠) يوماً من عمر الجنين .

وقد اعتمد الأطباء الأفاضل في حسابهم لنفخ الروح في الجنين على تأويل الحديث الشريف الذي رواه عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - حيث قال - رضي الله عنه «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق» «إِنْ خَلَقَ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَهُ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَيُؤَذِّنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ، فَإِنْ أَحَدُكُمْ لِيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ وَإِنْ أَحَدُكُمْ لِيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(٢) .

وقد ذهب العلماء في شرح الحديث الشريف إلى أن هذه المدد المذكورة هي ثلاثة أربعينات ، فالإنسان يكون أربعين يوماً نطفة ثم أربعين علقة ثم أربعين مضغة ثم ينفخ فيه الروح ، قال الإمام النووي - رحمه الله - في (ثم يرسل إليه الملك): «ظاهره أن إرساله يكون بعد مائة وعشرين يوماً»^(٣) .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله - على أن نفخ الروح في الجنين ، بعد تمام أربعة أشهر وذلك في مائة وعشرين يوماً ، لا اختلاف فيه بين العلماء^(٤) .

وقد ذهب العلماء رحمهم الله مذاهب شتى في الجمع بين حديث ابن مسعود رضي الله عنه وحديث حذيفة - رضي الله عنه - فما رواه رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أن الحديثين ظاهرهما التعارض، من حيث الوقت الذي يرسل فيه الملك إلى النطفة الأمشاج ، ومن ثم الكتابة وطى الصحف التي لايزاد فيها ولا ينقص ، مع ما تفرد به عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - في روايته من أن نفخ الروح في الجنين بعد طور المضغة .

(١) الإجهاض ، ص ٤٢ .

(٢) البخاري ، الصحيح ، م ٤ ، ج ٨ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين» ، ص ٢٣٧ ، ح (٧٤٥٤) .

(٣) شرح صحيح مسلم ، م ٨ ، ج ١٦ ، ص ١٩٠ .

(٤) انظر : فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٨٤ .

قال الحافظ ابن الصلاح - رحمه الله - في ذلك : «وجه الجمع بينهما (الحديثين) بأن يحمل إرسال الملك على التعدد ، فمرة في ابتداء الأربعين الثانية ، وأخرى في انتهاء الأربعين الثالثة لنفخ الروح ، وأما قوله في حديث حذيفة في ابتداء الأربعين الثانية (فصورها) فإن ظاهر حديث ابن مسعود أن التصوير إنما يقع بعد أن تصير مضغة فيحمل الأول على أن المراد أنه يصورها لفظاً وكتباً لا فعلاً ، أي يذكر كيفية تصويرها ويكتبها ، بدليل أن جعلها ذكراً أو أنثى إنما يكون عند المضغة»^(١) .

وقد أجاب الحافظ ابن حجر - رحمه الله - على ما رآه العلامة ابن الصلاح - رحمه الله - في التوفيق بين الحديثين فقال : «وقد نوزع في أن التصوير حقيقة إنما يقع في الأربعين الثالثة ، بأنه شوهده في كثير من الأجنة التصوير في الأربعين الثانية وتمييز الذكر على الأنثى ، فعلى هذا فيحتمل أن يقال أول ما يبتدىء به الملك تصوير ذلك لفظاً وكتباً ثم يشرع فيه فعلاً عند استكمال العلقة ، ففي بعض الأجنة يتقدم ذلك وفي بعضها يتأخر ، ولكن بقي في حديث حذيفة بن أسيد أنه ذكر العظم واللحم وذلك لا يكون إلا بعد أربعين العلقة»^(٢) .

وقد وجد البحث أن هذا الكلام يتعارض مع حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل قد وُكِّل بالرحم ملكاً فيقول : أي رب ! نُطفة • أي رب ! علقة • أي رب ! مُضْغَةٌ فإذا أراد الله أن يقضي خَلْقاً قال : قال الملك : أي رب ! ذكرٌ أو أنثى ؟ شقيٌّ أو سعيدٌ؟ فما الرزقُ فما الأجلُ ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»^(٣) .

والملاحظ أن هذا النص الشريف قد ذكر أطوار الجنين الثلاثة النطفة ، العلقة ، المضغة ، ثم قضاء خلقه ، ثم يكتب جنسه ، وشقاوته وسعادته ، ورازقه ، وأجله .

(١) وذلك مأخوذ من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - وسيذكره البحث بعد قليل .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٨٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٤) سبق تخريجه ، ص ٢٧٣ من هذا البحث .

وعلى هذا فالحديث يتفق مع رواية عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - ويعارضه الحديث الذي رواه الإمام مسلم - رحمه الله - عن حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - وقد ذكر الإمام النووي - رحمه الله - توفيق العلماء - رحمهم الله - بين هذه الروايات فقال : «قال العلماء طريق الجمع بين هذه الروايات أن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة وأنه يقول يارب هذه علقه وهذه مضغة في أوقاتها فكل وقت يقول فيها ما صارت إليه بأمر الله تعالى وهو أعلم سبحانه . ولكلام الملك وتصرفه أوقات أحدها حين يخلقها الله تعالى نطفة ثم ينقلها علقه وهو أول علم الملك بأنه ولد، لأنه ليس كل نطفة تصير ولداً، وذلك عقب الأربعين الأولى، وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته، ثم للملك فيه تصرف آخر في وقت آخر وهو تصويره وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظمه وكونه ذكراً أم أنثى، وذلك إنما يكون في الأربعين الثالثة، وهي مدة المضغة وقبل انقضاء هذه الأربعين فيه وقبل نفخ الروح فيه لأن نفخ الروح لا يكون إلا بعد تمام صورته»^(١) . ولما وجد الإمام النووي - رحمه الله - تناقض هذا الشرح للحديث مع رواية حذيفة - رضي الله عنه - في تحديد الكتاب في نهاية الأربعين الأولى وبداية الثانية «ثنتان وأربعون ليلة» ذكر - رحمه الله - توفيق العلماء في الجمع مع ما رواه عبدالله بن مسعود وأنس بن مالك - رضي الله عنهما - وساق رحمه الله أقوال العلماء - رحمهم الله - في ذلك فقال - رحمه الله - : «قال القاضي وغيره ليس هو على ظاهره ولا يصح حمله على ظاهره بل المراد بتصويرها وخلق سمعها إلى آخره، أنه يكتب ذلك ثم يفعل في وقت آخر لأن التصوير عقب الأربعين الأولى غير موجود في العادة وإنما يقع في الأربعين الثالثة وهي مدة المضغة كما قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ثم جعلناه نُطْفَةً في قرارٍ مكينٍ . ثم خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ ثم يكون للملك فيه تصوير آخر وهو وقت نفخ الروح عقب الأربعين الثالثة . واتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر»^(٢) وأضاف - رحمه الله - قائلاً : «وقع في رواية للبخاري : «إن خَلَقَ أحَدُكُمْ يُجْمَعُ في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلةً»، ثم يكون علقه مثله ، ثم

(١) شرح صحيح مسلم ، م ٨ ، ج ١٦ ، ص ١٩٠-١٩١ ؛ وانظر : ابن قيم الجوزية ، طريق الهجرتين ، وباب السعادتين ، ص ١٣٦ .

(٢) شرح صحيح مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٩١ .

يكون مضغة مثله ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح»^(١) فقوله «ثم يبعث» بحرف ثم يقتضي تأخير كتب الملك هذه الامور إلى ما بعد الأربعين الثالثة ، والأحاديث الباقية تقتضي الكتب بعد الأربعين الأولى وجوابه أن قوله «ثم يبعث إليه الملك فيؤذن فيكتب» معطوف على قوله «يجمع في بطن أمه» ومتعلق به لابما قبله ، وهو قوله «ثم يكون مضغة مثله» ، ويكون قوله «ثم يكون علقه مثله ثم يكون مضغة مثله» معترضاً بين المعطوف والمعطوف عليه وذلك جائز موجود في القرآن والحديث الصحيح وغيره من كلام العرب»^(٢) .

« قال القاضي * وغيره والمراد بإرسال الملك في هذه الأشياء أمره بها وبالتصرف فيها بهذه الأفعال وإلا فقد صرح في الحديث بأنه موكل بالرحم وأنه يقول «يارب نطفة، يارب علقه» قال القاضي وقوله في حديث أنس «وإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال يارب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد» لا يخالف ما قدمناه ، ولا يلزم منه أن يقول ذلك بعد المضغة بل ابتداءً للكلام وإخبار عن حالة أخرى ، فأخبر أولاً بحال الملك مع النطفة ثم أخبر أن الله تعالى إذا أراد إظهار خلق النطفة علقه كان كذا وكذا»^(٣) .

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- رداً على ما قاله العلماء في أن الكتابة تقع بعد الأربعين الأولى : «والحمل على ظاهر الأخبار أولى، وغالب ما نقل عن هؤلاء^(٤) دعاوى لادلة عليها»^(٥) . أي أن الحافظ ابن حجر أن الكتابة بعد الأطوار الثلاثة .

- (١) البخاري الصحيح م ٤ ، ج ٧ ؛ كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين» ، ص ٢٣٧ ، ح (٧٤٥٤) وانظر رواية الإمام مسلم ، ص ٢٧٢ من هذا البحث .
- (٢) النووي ، شرح صحيح مسلم ، م ٨ ، ج ١٦ ، ص ١٩٠-١٩١ ؛ وانظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٨٥ .
- * القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو الأندلسي أبو الفضل، ولد سنة ست وسبعين وأربع مائة رحل إلى الأندلس واستبحر من العلوم وجمع وألف العديد من الكتب وتوفي سنة أربع وأربعين وخمس مئة (سير ٢٠ / ٢١٢) .
- (٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ، م ٨ ، ج ١٦ ، ص ١٩١ .
- (٤) هم بعض الشراح المتأخرين للحديث - رحمهم الله - (انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٨٥) .
- (٥) فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٨٥ .

وقد رجح الحافظ ابن رجب الحنبلي* أن الكتابة لأقذار الجنين تكون مرة واحدة فقال - رحمه الله : «والأظهر - والله أعلم - أنها مرة واحدة ، ولعل ذلك يختلف باختلاف الأجنة ، فبعضهم يكتب له ذلك بعد الأربعين الأولى ، وبعضهم بعد الأربعين الثالثة»^(١) .

أما صفة تلك الكتابة ، فقد رجح الحافظ ابن حجر - رحمه الله - أنها الكتابة المعهودة في الصحيفة كما يدل عليه ظاهر الحديث ، كما وقع ذلك صريحاً في إحدى روايات حذيفة - رضي الله عنه - للحديث الشريف^(٢) .

وقد أولى الدكتور محمد علي البار ، أهمية خاصة للبحث في هذه القضية في كتابيه «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» ، و «الجنين المشوه» . وبعد دراسة لروايات الأحاديث الثلاثة وشواهداها ، مع ما شرحه العلماء وما تأولوه -رحمهم الله- لمعانيها وألفاظها وسياقها ، رأى فضيلته أن للجنين تصويرين :تصوير خفي عند بداية الأربعين الثانية ، وتصوير تام عند نهاية الأربعين الثالثة حيث يكون بعده نفخ الروح^(٣) ورأى فضيلته أن جمع الخلق للجنين كله يتم في الأربعين الأولى حيث جاء في كتابه «الجنين المشوه» مايلي : «ومن الواضح الجلي من هذه الأحاديث الشريفة أن الخلق كله يجمع في الأربعين وأن حديث حذيفة بن أسيد وغيره من الأحاديث التي سبق ذكرها تحدد دخول الملك وتشكيل الأعضاء في نهاية الأربعين كلها تؤكد ما جاء في حديث ابن مسعود ولا تعارضه . . وأن ما ذهب إليه بعض الشراح وما ذكره العلماء الأجلاء من أمثال ابن القيم وابن حجر يوافق مايقوله الطب الحديث . . . وهو أن التخليق والتصوير يقع حقيقة في آخر الأربعين الأولى وأن النطفة والعلاقة والمضغة وتشكل العظام واللحم . . كلها تقع في الأربعين . . .

* الإمام الحافظ زين الدين بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن الحسن البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب الحنبلي ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ وتعددت رحلاته في طلب العلم ثم استقر في دمشق وشرع ينشر العلم ويفقه الناس وصنف كتباً كثيرة في فنون مختلفة . وتوفي - رحمه الله - سنة ٧٩٢هـ (طبقات الحفاظ للسيوطي ٥٤٠) .

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، الطبعة الأولى ، (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢هـ) ، ص ٧١ .

(٢) انظر : فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٨٣ .

(٣) انظر : الجنين المشوه ، ص ٣٩٥ ؛ وقد رجح المؤلف إلى التبيان في أقسام القرآن لابن القيم رحمه الله ، ص ٢١٦ .

وأن تمايز الغدة التناسلية إلى خصية وإلى مبيض يقع حقيقة بعد اليوم الثاني والأربعين أي في الأسبوع السابع .

«وليس هناك من دليل قوي على أن النطفة أربعين يوماً والعلقة أربعين يوماً والمضغة أربعين يوماً إلا بعض روايات حديث ابن مسعود . والروايات الأخرى للحديث نفسه توضح أنها كلها في الأربعين . . كما يؤكد ذلك الأحاديث الكثيرة التي نقلناها ومنها حديث حذيفة بن أسيد . . وهي كلها تنص أن تكون الأعضاء يكون في الأربعين وعلم الأجنة الحديث يؤكد ذلك والصور والأفلام موجودة وقد نقلنا بعض هذه الصور في هذا المبحث وفي كتابنا « خلق الإنسان بين الطب والقرآن » وكتابنا « الوجيز في علم الأجنة القرآني » وكلها تؤكد الحقيقة العلمية التي نصت عليها الأحاديث الشريفة من أن الخلق كله يجمع في الأربعين».

«وإذا كان القلب البدائي ينبض في نهاية الأسبوع الثالث . . وبداية الفقرات والأطراف تظهر في الأسبوع الرابع والخامس . . وتظهر العضلات (اللحم) في الأسبوع السادس والسابع وتتمايز الغدة التناسلية في الأسبوع السابع فإن كل ذلك يوضح صدق أحاديث المصطفى ﷺ التي ذكرت تشكل الأعضاء في الأربعين وأن تحديد جنس الجنين يكون بعدها»^(١) .

وهنا لابد من أن يذكر البحث أن جميع العلماء الذين شرحوا حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قالوا بأن الجنين يمر بمراحل ثلاث محددة الوقت وهي أربعون يوماً نطفة ، ثم أربعون يوماً علقه ، ثم أربعون يوماً مضغة . ومن هنا فقد وجد في مآذهبوا إليه في طرق الجمع بين الروايات بعض اللبس وعدم التوافق بين ما قالوه - رحمهم الله -^(٢) .

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : «وحديث ابن مسعود بجميع طرقه يدل على أن الجنين يتقلب في مائة وعشرين يوماً في ثلاثة أطوار كل طور منها في أربعين ثم بعد تكملتها ينفخ فيه الروح ، وقد ذكر الله تعالى هذه الأطوار الثلاثة من غير تقييد بمدة في عدة سور، منها في الحج ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾

(١) مقتطفات من كتاب الجنين المشوه ، ص ٣٩٥-٣٩٦ .

(٢) انظر : ابن القيم ، طريق الهجرتين ، ص ١٣٨-١٤٠ .

ودلت الآية المذكورة على أن التخليق يكون للمضغة، وبين الحديث أن ذلك يكون فيها إذا تكاملت الأربعين (الثلاثة) وهي المدة التي إذا انتهت سميت مضغة ، وذكر الله سبحانه النطفة ثم العلقة ثم المضغة في سور أخرى وزاد في سورة قد أفلح بعد المضغة ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ الآية، ويؤخذ منها ومن حديث الباب أن تصير المضغة عظماً بعد نفخ الروح^(١) .

ويستنتج مما قاله الحافظ - رحمه الله - أن الجنين يسمى مضغة حتى ١٢٠ يوماً من البويضة الملقحة ، أي أربعة أشهر كاملة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم تتحول المضغة إلى عظام ثم تكسى هذه العظام باللحم ، والطب اليوم بل والواقع المشاهد في الأجنة الساقطة قبل هذه المدة ، لا يقول بأن الجنين لم يزل مضغة (قطعة لحم) حتى الأربعة أشهر من عمره ، على أن ما ذهب إليه الحافظ - رحمه الله - في تفسير الآية الكريمة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ والذي يفهم من كلامه أن هذه الآية الكريمة لا يقصد فيها نفخ الروح في الجنين وإنما فيها دلالة على تطور ونمو الجنين في بطن الأم وكذلك بعد خروجه إلى الدنيا^(٢) .

وكذلك فإن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في هذا تدل على أن نفخ الروح يكون بعد مرحلة المضغة ، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أتى بعد ذكر اللحم والعظم ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ مما يدل دلالة واضحة على أن معنى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ هو التمييز الإنساني والتكريم الرياني لبني آدم والأمانة التي حملها الإنسان، فكان ظلوماً وجهولاً ، إن هذا الإنشاء الآخر في خلقه هو المؤهلات والاستعدادات والتكاليف التي ميزته عن الحيوان وعن كل المخلوقات الأخرى، فإذا كان الحيوان يمر بكل المراحل التي يمر بها الجنين الإنساني من النطفة إلى العلقة ثم المضغة ثم العظام واللحم ، فإن جنين الإنسان بعد ذلك يتميز على كل المخلوقات فيكرمه الله عز وجل ويهبه من النعم ما ينفرد فيها الإنسان على كل ما في هذا الكون ، ولذا فقد أتى العطف هنا بـثم ليوحي ببعد الرتبة ، فالخلق الآخر أعظم من الأول وأعلى رتبة ، وهو مستبعد الحصول عما قبله من مرحلة عقلاً ورتبة^(٣) .

(١) فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٨٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٨٣-٤٨٤ .

(٣) انظر : الألويسي ، روح المعاني ، م ٩ ، ج ١٨ ، ص ١٥ .

إن الإنسان جعله الله عز وجل في حالة تتسامى على قبضة الطين التي هي أصله البشري ، ليسيرها ويسيطر عليها وفق هذا الإنشاء الآخر ، بينما يبقى الحيوان يتمرغ في هذا الطين ، ولا يستطيع الارتقاء عن عالم الأرض لأنه لم ينشأ ويخلق ذلك الخلق الآخر «خلقاً آخر» .

والنتيجة التي توصل إليها البحث بعد هذا العرض المطول لأقوال العلماء

- أثابهم الله سبحانه - فيما ورد من نصوص في خلق الإنسان ما يلي :

- ١- إن الأحاديث الشريفة - لاسيما حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - لم تنص على أن الجنين يكون أربعين نطفة، ثم يكون أربعين علقة ، ثم يكون أربعين مضغة ، بل كان نص الحديث «مثل ذلك» و «مثله» . ولا يشترط في اللغة أن يكون العائد هنا في الجار والمجرور أو في الضمير على الأربعين نفسها .
- ٢- إن رواية أنس بن مالك - رضي الله عنه - والتي ذكرت المراحل الثلاث ، ثم ذكرت أقدار الجنين ، وجنسه ، لتدل على أنه ليس المقصود في حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه «مثله» هو الأربعون ، بل قد تكون مدة غيرها ، وإن لم يكن كذلك ، فكيف يمكن الجمع بين حديث ابن مسعود وحديث أنس - رضي الله عنهما - إنه من غير الممكن إزالة هذا التعارض بين الحديثين ، إذا اعتبرت المدة في كل مرحلة هي أربعون ، وذلك قياساً على حديث حذيفة - رضي الله عنه الذي حدد المدة التي تكون فيها الكتابة للجنين وتحديد جنسه بعد الأربعين الأولى .

- ٣- إن الإمام البخاري لم يخرج حديث حذيفة - رضي الله عنه ، واكتفى بحديثي ابن مسعود وأنس - رضي الله عنهما - ، وقد يكون أحد أسباب ذلك التعارض الظاهر بينهما^(١) .

- ٤- إن العلم والواقع المشاهد لا يمكن أن يسلم بأن الجنين يبقى نطفة أربعين يوماً ثم علقة أربعين ثم مضغة أربعين ، في الوقت الذي يرى فيه الجنين الساقط بعد الأربعين الأولى قد ظهر فيه خلق الإنسان ، فإذا تجاوز الأربعين قليلاً بدا جنين إنسان كامل فهل نقول إنه لم يزل علقة (دودة) مثلاً .

(١) انظر : الصحيح ، م ٤ ، ج ٧ ، كتاب القدر ، باب (١) ، ص ٢٦٧ .

٥- إن الأطراف في الجنين تبدأ بالنمو مبكراً ففي الأسبوع الثالث تنشأ براعم من كل جانب من جوانب الحميل ٠٠ اثنان علويان واثنان سفليان، وفي الأسبوع السادس يتحدد مكان الكوع ومكان الرسغ، وفي الأسبوع السابع تظهر علامة مكان الركبة وموضع القدم^(١) . فهل هذه لم تنزل نقطة وقد دخلت طور العلقه منذ أيام ؟ ! كيف تكون نقطة أو علقه وهي محددة الأطراف ؟! .

٦- إن العظام تتشكل بعد مرحلة المضغة كما نصت الآية الكريمة في سورة «المؤمنون»، ويقول العلم اليوم إن مراكز التمعظم في جسم الفقرات الغضروفية تظهر في الأسبوع السابع، ثم تظهر في الأسبوع الثامن مراكز تمعظم في أقواس الفقرات وتبدأ الأضلاع في الظهور، ومن ثم تتكون العضلات حول العظام وتكسوها باللحم^(٢) .

٧- كيف يطلق على الجنين في الشهر الرابع مسمى المضغة ، وقد ظهر جنيناً كاملاً بأطرافه وأصابعه وكل ما فيه .

٨- بل إن الجنين لينبض قلبه ويرى على الشاشة بالأشعة فوق الصوتية منذ بداية الأسبوع السابع (اليوم ٤٣-٤٤) ، ويرى كذلك ظل الجنين في داخل الكيس الحميلي اعتباراً من أن الأسبوع السادس الى السابع ، ويمكن منذ ذلك الوقت قياس طوله من رأسه الى مقعده^(٣) .

٩- إن الجنين يتحرك في طور العلقه (كما حددها الشراح الأفاضل للحديث) أي ما قبل ٨٠ يوما من عمر الجنين(٤) ، كما تشاهد حركات الجنين على الشاشة في هذه المرحلة (العلقه)(٥) . وتتضح الحركات الإرادية عند الجنين ، حيث يمسك الحبل السري بيده ، ويمص إبهامه وذلك في الأسبوع الثاني عشر من الحمل^(٦) . وجاء في كتاب «خلق الإنسان» ما يلي :

(١) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٨١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

(٣) انظر : د . مأمون الشقفة ، القرار المكين ، ص ٢٢٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ، ٢١١ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٦) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٣٦٠ .

«تبدأ في الجنين حركات إرادية في نهاية الشهر الثالث : يمص أصابعه ،
يمسك الحبل السري ويصبح كثير الحركة ٠٠ ويتقلب في الرحم ٠٠ ينام ويصحو ٠٠
يسمع الأصوات ٠٠ تكتب على جبينه وترسم كتابة لانظير لها مطلقاً ٠٠ تتضح
معالم شخصيته المتفردة عن جميع البشر الذين سبقوه ٠٠ بصمات أصابعه المتفردة
تظهر في نهاية الشهر الثالث»^(١) .

«ويتخذ وجهه الشكل الإنساني المميز ٠٠ أما قبل ذلك فشكله يشبه جنين
السماك أو الطائر أو الأرنب أو القرد»^(٢) ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ .

وجاء في كتاب «الإجهاض» عن حركة الجنين ما يلي : «تتقلص بعض
العضلات في الشهر الثاني غير أن الجنين في الشهر الثالث يصبح كثير الحركة يحرك
ساقيه وقبضتي يديه وإبهامه ويلوي جسمه ، ولا تحس الأم الحامل البكر بتحرك
جنينها إلا في الأسبوع ١٨ ، بينما تدرك الولود بحكم خبرتها السابقة هذه التحركات
بأكرأ أي في الأسبوع ١٦ من الحمل»^(٣) .

قد لا تشعر الأم بحركة الجنين حتى يتمتعظم ويكسى باللحم والله سبحانه
وتعالى أعلم .

وبعد ٠٠ فهل يمكن مشاهدة وعقلاً وعلماً أن يسمى الجنين مضغة في الشهر
الثالث ، وهو كما ذكر الأطباء الأفاضل قد غدا في هذا الشهر جنيناً كاملاً بل
ويتحرك إرادياً أيضاً . ولاتعارض في ذلك مع حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم
من رواية ابن مسعود - رضي الله عنه - ذلك أن هذا الحديث الشريف لم يحدد
مدة هذه الأطوار النطفة والعلة والمضغة .

إن ما سبق ذكره من مراحل تطور الجنين في هذا المبحث يدل دلالة قاطعة
على أن نفخ الروح في الجنين لا يتأخر حتى الشهر الرابع (١٢٠) يوماً كما استنتج
الفقهاء وعلماء الحديث - رحمهم الله - وكما ذهب إلى ذلك الأطباء - حفظهم الله -
وإن ربط قضية نفخ الروح في الجنين باكتمال نمو الدماغ (فصي المخ) في الجنين لا ينص

(١) المرجع ، السابق ، ص ٣٥٢ .

(٢) المرجع : السابق ، ص ٣٥٢ .

(٣) د . محمد سيف الدين السباعي ، الإجهاض بين الفقه والطب والقانون ، ص ٤١ .

عليه دليل من الكتاب الكريم والسنة الشريفة ، وينقضه بالتالي العلم التجريبي ويعارضه ويثبت خطأه ، كما ذكر البحث عن مراحل تشكل الجنين واكتمال نموه إنساناً تاماً متحركاً شاعراً يقوم ببعض الأفعال الإرادية (كمص الإصبع ، وامسك الحبل السري) بل ويتحدد جنس الجنين ظاهرياً في الأسبوع الثاني عشر^(١) فكيف حصل كل هذا؟ وكيف يشاهد الجنين في الشهر الثالث وهو مخلوق إنساني كامل ؟، ولم يزل يسمى في مصطلح علماء الشرع مضغة ؟! مع تعريفهم -رحمهم الله- للمضغة بأنها قدر ما يمضغ من الطعام ؟!

وأمر آخر لابد من ذكره . . وهو ربط مسألة نفخ الروح بالحركات الإرادية في الجنين كما ذهب إلى ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله في التبيان في أقسام القرآن (٢) وكذلك الدكتور محمد علي البار في كتابه «خلق الإنسان» .

وقد جاء الفصل الرابع والعشرون من الكتاب بعنوان (حركات إرادية في الجنين ، نفخ الروح)^(٣) . وقد ذهب الدكتور محمد سيف الدين السباعي إلى إيهام أمر نفخ الروح وعلاقته بالحركات الإرادية كما أشار إلى ذلك في كتابه «الإجهاض» : «ورغم كل التقدم العلمي ، والمعرفة التي وصلنا إليها فيما يتعلق بتركيب الجسم الإنساني فإن أمر الروح لا يزال سراً يكتنفه الغموض، وقد استقرت التطورات الهامة التي تحدث في نهاية الشهر الرابع فوجدت بعض النقاط الأساسية التي ربما تعكس نفخ الروح أو تكون ثمرة من ثمار الروح الجديدة التي بعثت في الجسد الخامل»^(٤) .

ثم عدد المؤلف هذه النقاط من حركة الجنين ، وبروز بطن الحامل وسماع دقات قلب الجنين من قبل الطبيب بشكل واضح ، وممارسة الجنين للنوم والصحو ، وحساسيته للمضجيج بانتقاله من حالة النوم الى حالة الصحو التي تظهر بتحركه ، وقدرته على البلع ، وتشكل الحبال الصوتية . . إلخ^(٥) .

أما الدكتور مأمون شقفة ، فقد نفى أن يكون أي مظهر من هذه المظاهر على الجنين في الشهر الرابع دليلاً على نفخ الروح كما ورد في كتابه .

(١) انظر : د محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٣٠٢ .

(٢) انظر : ص ٢١٩ .

(٣) انظر : ص ٣٥١ ؛ مع أن القارئ في كتب الدكتور محمد علي البار عن تكون الجنين يلاحظ أن المؤلف قد أشار إلى نفخ الروح في الأربعين ولكن دون تصريح بذلك .

(٤) انظر : ص ٤٢ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص ٤٢ .

«القرآن المكين» : «إن ربط أي مظهر من مظاهر حياة الجنين بروحه تخمين لا يقوم عليه دليل» .

«فما هو الدليل على أن كل ما يتحرك له روح»

«فلننتبه عند الحديث عن الروح .. وعلمها غيب كله .. ولنمتنع عن ربط أي ظاهرة بها كالحركة الإرادية أو جريان الدم أو نبضات القلب فليس عندنا من دليل ..»

«الحياة موجودة في كل الأحياء .. أما الروح فهي أمر مختلف»

«كل ما نعلمه أنها تنفخ في الجنين في اليوم المائة والعشرين أو بعينه فالنص لا يفيد التحديد الدقيق تماماً» .

«كل ما نعلمه أنها نفخت في وقت محدد .. كان الجنين قبله حياً يتحرك

وينبض قلبه .. وكل ما نعلمه هو أنها ستنزع عند الموت .. ولكن ما هو تعريف

الموت؟ هل موت الدماغ Brain Death أم توقف القلب Chariac Arrest والتنفس» .

(هنا ينص الدكتور مأمون شقفة على حياة الجنين وحركته قبل نفخ الروح!!!)

وهل يمكن لمخلوق بلا روح أن يتحرك من نفسه (!؟)

«فمتى بالضبط حصل الموت ؟ حين مات الدماغ ؟ إذن هل يعتبر الإنسان

المستمر على الأجهزة بقلب ينبض حياً ؟ ... وهل يحق لورثته أن يرثوه منذ مات

دماغه فإن مات أحدهم قبل أن يتوقف قلبه فهل يرث ؟

أعتقد أنه يرث والله أعلم، لأنه لم يعد أحد إلى الحياة بعد موت دماغه حتى الآن ...

المسألة تشبه معادلة رياضية كل حل منها يوصل إلى الحل الآخر : تعريف

الموت : هو خروج الروح من البدن والإنسان لا يموت مرتين»^(١) .

الموت بموت جذع الدماغ

والحقيقة التي ذهب إليها علماء الشريعة وعلماء الطب - كما سبق ذكره في

أول هذا المبحث - أن موت الإنسان يتحقق بموت جذع دماغه ، كما جاء في «ندوة

الحياة الإنسانية» المنعقدة في الكويت حيث اعتمد فيها أن تشخيص موت الإنسان

يكون بخمود منطقة المخ المنوطة بها الوظائف الحياتية الأساسية وهو ما يعبر عنه

بموت جذع المخ^(٢) (الدماغ) .

(١) مقتطفات من الكتاب المذكور ص ١٤٩ - ٢٥٣ .

(٢) انظر : د. محمد علي البار ، موت القلب أو موت الدماغ ، (ملحق رقم ٢) ،

ص ١٦٦ وقد ذكر الدكتور محمد علي البار أن التسمية الصحيحة هي جذع الدماغ

وليست جذع المخ، لأن كلمة المخ المقصود بها جزء من الدماغ المقدمي. وكلمة الدماغ تشمل أجزاء الدماغ المختلفة بما في ذلك المخ . (انظر المرجع نفسه هامش ص ١٦٦).

ومن هنا فقد اعتبر مجمع الفقه الإسلامي المولود اللادماغي الذي ولد حياً أن له حرمة الحياة الإنسانية التي لايجوز التعرض لها بشيء (كأخذ عضو من أعضائه). حتى يتحقق موته بموت جذع دماغه ، وأنه لافرق بينه وبين غيره من الأسوياء في هذا الموضوع فإذا مات فإن الأخذ من أعضائه تراعى فيها الأحكام والشروط المعتبرة في نقل أعضاء الموتى من الإذن المعتبر . . . إلخ^(١) .

ومن هنا أيضاً يمكن أن يستنتج أن الحياة أو الروح لاعلاقة لها بوجود المراكز العليا في الدماغ (فصي المخ وتوابعها) وإنما هي مرتبطة بجذع الدماغ فقط الذي يتم تكونه في الجنين بعد الأربعين الأولى مباشرة - كما سبق ذكره- وأن الجنين في هذه المرحلة لم يعد مضغة فقط بل انتقلت لتتشكل فيها سياسات التمعضم وأصوله ومن ثم ليكسى باللحم .

هل يتوافق وجود جذع الدماغ مع أحاديث خلق أطوار الجنين

والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تدل على أن نفخ الروح حاصل بإذن الله -والله سبحانه وتعالى أعلم- قبل مرحلة العظام واللحم ، أي مع انتهاء مرحلة المضغة ، وبالتالي يتوافق هذا التحديد مع حديث حذيفة - رضي الله عنه - في ذكر الوقت الذي يبعث فيه الملك لكتابة أقدار الجنين وتحديد جنسه ، وبذلك يزول التعارض بين حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وحديث حذيفة - رضي الله عنه - ويتوافق بالتالي هذا مع حديث أنس - رضي الله عنه - المتفق عليه ، والذي جاء فيه ذكر المراحل الثلاثة متتابعة ثم السؤال بعدها عن جنس الجنين وشقائه وسعادته، ورزقه، وأجله، فيكتب كله في بطن أمه .

وهذا الحديث الشريف لأنس - رضي الله عنه - لم يحدد المدة التي يقول فيها الملك ذلك . لكنه ورد قوله ﷺ بعد ذكر تلك المراحل : «فإذا أراد الله أن يقضي خلقها» ؟ فما هو المراد من هذا اللفظ «خلقها» ما دام السؤال عن أقدار الجنين قد استوعب كل أطواره وأحواله^(٢) ؟؟ قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على حديث أنس - رضي الله عنه - «وَكَلَّ اللَّهُ بِالرَّحْمِ مَلَكًا فيقول : أي ربّ نطفة ، أي رب علقة . إلخ» أي يقول كل كلمة من ذلك في ذلك الوقت الذي تصير فيه كذلك . وقوله : «أن يقضي خلقها» أي يأذن فيه^(٣) .

(١) انظر : قرارات مجمع الفقه الإسلامي ، الدورة السادسة المنعقدة في جدة ، ١٧-٢٣ شعبان ١٤١٠ هـ - ١٤-٢٠ مارس ١٩٩٠ م ، منظمة المؤتمر الإسلامي ، ص ٩ .

(٢) انظر الحديث ص ٧٢ من هذا البحث .

(٣) انظر: فتح الباري ، ج ١١ ، ص ٤٩١ .

عن قضاء خلق هذا الجنين ، فهل يبقى الجنين غير مخلوق حتى الشهر الرابع حتى مرحلة المضغة وفق المدلول الذي ذهب إليه علماء الحديث - رحمهم الله - في شرح حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أم كيف يوفق بينهما على ما قال الحافظ - رحمه الله - في شرحه لسؤال الملك عن كل مرحلة عند صيرورتها وتحولها. وحديث أنس - رضي الله عنه - يفسر الآية الكريمة ﴿مُخَلَّقةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقةٍ﴾ فالمضغة تصل إلى تمامها وهي غير مخلقة ثم يقضي الله عز وجل خلقها ويؤذن للملك بذلك ويكتب كذلك أقدار هذا الجنين .

ومن يدري ! قد يكون المقصود من قوله ﷺ في الحديث «إذا أراد الله أن يقضي خلقها» كما عند الإمام البخاري ، و «ما خلقه» كما عند الإمام مسلم، هو نفخ الروح فيه الذي ذكره حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - حيث لم يرد ذكر نفخ الروح إلا في هذا الحديث الشريف .

ورواية الإمام مسلم لحديث عبدالله - رضي الله عنه - تختلف عن رواية الإمام البخاري له . فقد جاءت عند الإمام مسلم بزيادة لفظ «في ذلك» . والتي جاءت من ثلاثة طرق صريحة عن الأعمش* - رحمه الله - راوي الحديث ، وكذلك ذكرت أربعة طرق أخرى عنه ، لم يسق لها الإمام مسلم المتن واكتفى بذكر أسانيدها .

وأما رواية الإمام البخاري فوردت من طريق الأعمش - رحمه الله - واختلف عليه من ثلاثة طرق .

فرواه عنه شعبة* - رحمه الله - من طريق آدم* - رحمه الله - بلفظ « مثله » ، ومن طريق هشام - رحمه الله - بلفظ « مثل ذلك » .

* سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي الكوفي الأعمش كان شعبة إذا ذكر الأعمش قال : المصحف المصحف وذلك لصدقه كان صاحب قرآن وفرائض وعلم بالحديث توفي سنة ١٤٧هـ . (تهذيب ٣٣٨/٤ ؛ الطبقات ٢٨٠/٧) .

* شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي مولا هم أبو بسطام الواسطي أمير المؤمنين في الحديث وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين وذب عن السنة المطهرة توفي سنة ١٦٠هـ . (تهذيب ٣٣٨/٤) .

* آدم بن أبي إياس واسمه عبد الرحمن بن محمد، ويقال ناهية بن شعيب الخرساني، أبو الحسن العسقلاني نشأ ببغداد وارتحل في طلب الحديث واستوطن عسقلان إلى أن مات سنة ٢٢٠هـ (تهذيب ١٩٦/١) .

وروي عن الأعمش - رحمه الله - من طريقين آخرين بلفظ «مثل ذلك» وبذلك
تترجح رواية الإمام مسلم بكثرة الطرق واتفاق مخارجها ، والتي جاءت كلها بصيغة
«ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك» .

إن جميع روايات هذه الأحاديث على تعدد روايتها لم تصرح بأن المدة المحددة
لكل مرحلة من النطفة والعلقة والمضغة هي أربعون يوماً ، وبما أن رواية الإمام
مسلم هي الراجحة كان لابد من الوقوف عندها والنظر في ألفاظها ومعاني عباراتها .

وهذا نص الحديث من رواية الإمام مسلم . . قال رسول الله ﷺ . . «إن أحدكم
يُجمع خَلْقُهُ في بطن أمِّه أربعين يوماً . ثم يكون في ذلك علقهً مثل ذلك . ثم
يكون في ذلك مضغةً مثل ذلك . ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع
كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد»^(١) . وهذه بعض
الوقفات عند جوامع كلمه ﷺ لعلها تعطي شيئاً من معانيها . .

«إن أحدكم يُجمع خَلْقُهُ في بطن أمِّه أربعين يوماً»

قال الحافظ ابن حجر . . «المراد بالجمع ضم بعضه إلى بعض بعد الانتشار ،
وفي قوله «خلق» تعبير بالمصدر عن الجثة وحمل على أنه بمعنى المفعول . . . أو
على حذف مضاف أي ما يقوم به خلق أحدكم أو أطلق مبالغة»^(٢) .

وقد اعتمد الحافظ - رحمه الله - في هذا الشرح على الأصل اللغوي لمعنى
كلمة جمع فقد جاء في لسان العرب في معاني هذه الكلمة ما يلي : جَمَعَ الشيء عن
تَفْرِقَةٍ يَجْمَعُهُ جَمْعاً وَجَمَّعَهُ وَأَجْمَعَهُ فَاجْتَمَعَ وَاجْتَمَعَ ، وكذلك تَجَمَّعَ واستَجَمَعَ والمجموع
الذي جُمِعَ من ههنا وههنا وإن لم يُجْعَلْ كالشيء الواحد . وَجَمَعْتُ الشيء إذا جِئْتُ
به من ههنا وههنا . وَتَجَمَّعَ البَيِّدَاءُ : مُعْظَمُهَا وَمُحْتَفِلُهَا ، والمَجْمَعُ يكون اسماً
للناس وللوضع الذي يجتمعون فيه . مَجْمَعُ البحرين مُلتَقَاهما .

* هشام بن عبد الملك الباهلي مولاهم أبو الوليد الطيالسي البصري الحافظ قال عنه أبو
زرعة : أدرك نصف الإسلام وكان إمام زمانه جليلاً عند الناس توفي سنة ٢٢٧هـ . (تهذيب
٤٥/١١ ؛ ط ابن سعد ٣٠٠/٧) .

(١) سبق تخريجه ص ٢٧٢ من هذا البحث

(٢) فتح الباري ، ج ١١ ، ص ١٧٩ .

والرجل المجتمع الذي بلغ أشدّه ، ورجل جميع مُجْتَمَعِ الخَلْق ، وجماع كل شيء: مُجْتَمَعُ خَلْقِهِ . وَجَمَاعُ جَسَدِ الإنسان: رأسه . وَجَمَاعُ الشَّعْر : تَجَمُّعُ بَرَاغِيهِه في موضع واحد على حمله . وَالْجَمَاعُ بالضم والتشديد : مُجْتَمَعُ أَصْلِ كُلِّ شَيْءٍ أَي منشأ النّسب وأصل المؤلّد ، وكلُّ ما تَجَمَّعَ وانضمَّ بعضُه إلى بعض جَمَاعٌ وَجَمَعَ أمره : عزم عليه . وَأَجْمَعَ أمره أي جعله جميعاً بعدما كان مُتَفَرِّقاً ، ويوم الجُمُعة سمي كذلك لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهِ ، وقيل لأن الله - تعالى - جَمَعَ فِيهِ خَلْقَ آدَمَ ﷺ وَجَمَعَتِ الدَّجَاجَةُ جميعاً إذا جَمَعَتِ بِيضَهَا في بطنها . وَالْجَامِعُ : البطن ، وامرأةٌ جَامِعٌ في بطنها وَلَدٌ^(١) .

والمعنى اللغوي للكلمة مع ما ذكره الحافظ ابن حجر في معنى «يجمع»
ليعطي دلالة قوية على أن المقصود بالجمع في بطن الأم هو الفترة التي تستغرقها البويضة عند الأم حتى تصبح جاهزة للتخصيب يضاف إليها المدة التي تتحول فيها البويضة الملقحة إلى النطفة الأمشاج الناتجة عن اختلاط ذرات البويضة كلها مع ذرات الحيوان المنوي، عن طريق الانشطار والانقسام حتى تصبح مثل التوتة ومن ثم تتكور لتدعى بالكرة الجرثومية وحينئذ تدخل طور العلقة لتنشأ في جدار الرحم وتعلق فيه .

وتحسب هذه المدة من أول يوم من آخر طمث رأتها المرأة ، ذلك أن البويضة في بطن الأم تحتاج إلى فترة زمنية للتخصير والتهيئة حتى تصبح جاهزة للإخصاب ، وخلال ذلك ينشط الرحم ليهيئ المكان لاحتضان البويضة ورعايتها وتغذيتها ، وهذه العملية التحضيرية أو ما يسمى عملية التبويض تتم كلها في بطن الأم وهو ما أشار إليه الحديث الشريف « يجمع خلقه في بطن أمه » ولم يرد هنا ذكر الرحم وإنما البطن، لأن عملية التبويض هذه تتم خارج الرحم - كما ذكرت كتب الطب - في بطن المرأة حيث تنضج البويضة في المبيض ومن ثم تخرج البويضة الناضجة إلى القناة أو البوق لتلقح في الثلث الوحشي منه وتسير البويضة الملقحة في رحلة تستغرق

(١) انظر : ابن منظور ، ج ٢ ، مادة (جمع) ص ٣٥٥ - ٣٦٠ .

٣-٤ أيام لتصل إلى جوف الرحم^(١) . وهكذا تبقى هذه البويضة زمناً خارج الرحم (أي في بطن الأم) ولذا كان لابد من حساب هذه الفترة وقوفاً عند نص الحديث الشريف لتحديد مدة الجمع لخلق الإنسان، واستناداً إلى المعاني اللغوية السابقة لكلمة جمع .

أما المدة التي تحتاجها البويضة حتى تخرج من المبيض فهي تنحصر في الغالب بين يومي ١٢-١٥ من أول يوم من الطمث . أي في منتصف الفترة بين كل دورتين حيضيتين . (لأن الدورة الشهرية تستغرق قرابة ٢٨ يوماً) . وتتحكم منطقة في الدماغ عن طريق الغدة النخامية في تسيير الهرمونات التي تؤثر في عمل المبيض وعمل الرحم في علاقة متبادلة بين هذه الهرمونات المؤثرة في خروج البويضة وغيض الرحم وزيادته (كما سمي القرآن الكريم فيزيولوجية الرحم هذه) ، وذلك أن الرحم يكون قد أخذ أهبة الاستعداد لاحتضان هذه البويضة الملقحة قبل وصولها إليه لتمسك بها عند ذلك الشعيرات الدموية^(٢) التي امتلأت رياً من دماء هذه الأم ، أما إذا لم يحصل التهيؤ المطلوب في الرحم قبل وصول البويضة الملقحة إليه فإن مصير هذه البويضة الإسقاط وذلك لعجز الرحم عن حمايتها ورعايتها واحتضانها لتغذيتها ، ولذا كانت مرحلة التحضير الهرموني للرحم بالغة الأهمية، والتي تبدأ مع بداية الطمث السابق لخروج هذه البويضة، والتي تتزامن مع ترشيح هذه البويضة لتتحرر من المبيض والسير نحو الرحم ، لعله يحسن وفادتها واستقبالها ، حين يتوفر التوازن الهرموني (الثلاث) في الرحم ، والذي يدفع بدن المرأة إلى توازن جديد لبدء الحمل حتى تتشكل المشيمة^(٣) حصن الجنين وبيت الأمان والحنان والتي تصل الجنين بأمه .

ويستفاد أيضاً من الحديث الشريف أهمية دور الأم في خلق الإنسان ذلك أن الحديث الشريف هنا لم يذكر دور الأب على الإطلاق ، وإنما هو مادة متممة

(١) انظر : د . مأمون شقفة ، القرار ، المكين ، ص ٤٤ - ٥٣ ، ٢٦٢ ؛ د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ١٧٨-١٧٩ ؛ د . سيف الدين السباعي ، الإجهاض ، ص ٣٠ ، وانظر المراحل والحالات التي تمر فيها البويضة نفسها حتى تصبح جاهزة للتلقيح (د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ١٦٩ - ١٧٨ ؛ د . مأمون الشقفة ، المرجع نفسه) .

(٢) انظر : د . صالح بن عبدالعزيز كريم ، المدخل إلى علم الأجنة الوصفي والتجريبي ، ص ١٦٩-١٧١ .

(٣) انظر : د . محمد سيف الدين السباعي ، الإجهاض ، ص ٧٤-٧٥ .

لعملية الخلق وليس له تلك الأهمية التي تساهم فيها الأم من إعداد وتهيئة وتحضير واحتضان وتغذية ، وما نقطة الأب إلا كالأنفحة للبن كما قال الأقدمون^(١) ، وفي ولادة عيسى عليه الصلاة والسلام لدليل كبير على فعالية وأهمية دور الأم في خلق الإنسان ، وقد أثبتت التجارب ولادة ضفدعة بدون تدخل من الذكر ، وكذلك ولادة أرنب وذلك بالتأثير على البويضة^(٢) . ذلك أن الأم إلى جانب ما تساهم فيه من الكروموسومات (٢٣) مثل الأب تماماً (٢٣) كروموسوماً ، فإنها أي الأم تعطي المناخ والبيئة التي لا بد منها لنمو هذه البويضة الملقحة حيث يستعد لها الرحم ليكون قرارها المبكين حتى تنمو وتكبر وتقوى وتستطيع عندئذ الاستغناء عنه .

إذاً . . . تخرج البويضة الناضجة في منتصف الدورة الشهرية (١٢-١٥) ، لتقلح في البوق- وقبل أن تصل إلى الرحم- ، ومن ثم تباشر الانقسام ، وهنا تبدأ عملية جمع الخلق الفعلية بالتقاء النطفة بالبويضة لتشكل البويضة الملقحة ، والتي تبدأ بالانشطار على الفور إلى خليتين فأربع فثمان وهكذا دواليك حيث تشكل البيضة الملقحة ما يشبه التوتة^(٣) وهي مجموعة من الخلايا تشبه حبة التوت ، ألاست هذه عملية جمع لخلق هذا الجنين بالتقاء الجينات القادمة من الأبوين فهي تجمع وتخلط وتوزع ليتشكل منها مخلوق متفرد في شكله مع أنه يحمل طابع الإنسان العام ، لكنه له شكله المميز حتى عن إخوته لأبويه .

وسبب هذا الاختلاف هو هذا الجمع الحاصل في مرحلة النطفة الأمشاج وما تحمله هذه البويضة الملقحة من جينات^(٤) وبالطريقة التي تتوزع فيها هذه المورثات أو الجينات، حتى إذا اختلطت خلايا هذه التوتة التي تتجت عن انقسامات البويضة الملقحة، تشكل عندئذ ما يسمى بالبلاستولا أو الكرة الجرثومية^(٥) والتي تحوي في داخلها كتلة خلوية سيتشكل منها المخلوق الجديد، وتحيط بهذه الكتلة الخلوية (أو بداية خلق الجنين)

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ص ٤٨٠ .

(٢) انظر : الكسيس كاريل ، الإنسان ذلك المجهول ، ص ١١٠ ، د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٤٨٨ ، وانظر المرجع هناك .

(٣) انظر د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ١٩٨ ؛ د . مأمون شقفه ، القرار المبكين ، ص ٥١-٥٣ .

(٤) انظر : د . مأمون شقفه ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ ؛ د . محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٥) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ١٩٨ .

طبقة مغذية^(١) لهذا المخلوق الدقيق! ريثما يصل إلى مأواه الكريم فيجتاز المفاوز ليصل إليه ، وليجده وقد امتلأت جدرانه بالدماء فيعلق فيه ويتغذى منه ، ومن هو هذا المأوى الكريم ألا إنها الرحم . . . وصدق رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق فيما رواه مالك بن الحويرث* - رضي الله عنه - في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أراد الله جل ذكره أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار مأوه في كل عرق وعصب منها ، فإذا كان اليوم السابع (جمعه الله) أحضره الله كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(٢) (سورة الانفطار-آية ٨) .

وقد علق الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر حديث مالك - رضي الله عنه - بأن الحديث لا يتعارض مع الروايات الأخرى التي ذكرت الأربعين يوماً وما بعدها فقال - رحمه الله - : «وكل ذلك لا يدفع الزيادة التي في حديث مالك بن الحويرث في إحضار الشبه في اليوم السابع ، وأن فيه يبتدئ الجمع بعد الانتشار»^(٣) واستدل الحافظ - رحمه الله - بذلك على أن الشبه يحصل في اليوم السابع^(٤) .

والجدير بالذكر هنا ، والواجب ذكره أيضاً أن جمع شبه الجنين واختلاطه بالانقسام والانشطار حتى يتكون داخل الكرة الجرثومية فيعلق في الرحم يستغرق ذلك سبعة أيام من تلقيح البويضة^(٥) . ومن ثم تتحول إلى حالة جديدة وهي العلقه ، حيث تظهر أغشية الجنين والدورة الدموية ، وتتمايز طبقات اللوح الجنيني (الجنين وله شكل الكمثرى) ويكون ذلك في اليوم الثامن عشر (حتى إذا وصل الجنين إلى اليوم الحادي والعشرين من عمره دخل طوراً جديداً وهو مرحلة المضغة^(٦)).

(١) انظر : د . مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ٥٣ .

* مالك بن الحويرث بن أشيم بن زياد بن ثابت الليثي - رضي الله عنه - حديثه في الصحيحين ، وفي الصحيحين عن أبي قلابة - رضي الله عنه - قال جاء مالك بن الحويرث فقال إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة ولكني أريد أن أريكم كيف صلاة رسول الله . سكن البصرة ، ومات بها سنة أربع وسبعين . (الإصابة ٣/٣٤٢) .

(٢) الطبراني ، المعجم الكبير ٢٩٠/١٩ (٦٤٤)؛ الصغير ٤١/١؛ ابن منده ، ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» ونقل عن ابن منده قوله : «وقال ابن منده إسناده متصل مشهور على رسم أبي عيسى والنسائي وغيرهما ، ص ٦٣ .

(٣)، (٤) فتح الباري ، ص ٤٨١ .

(٥) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٠٠، ٢٠٥ ؛ د . مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ٢٦٢ .

(٦) انظر : د . محمد علي البار ، المرجع السابق ، ص ٣٧٧

وهذه الطبقات الثلاث التي تشكلت مباشرة قبل مرحلة المضغة وهي التي تشكل جمع خلق أعضاء الجنين كلها تسمى بالوريقات الثلاث وهذه الوريقات هي :

١- الوريقة الخارجية ، الظاهرة ، وهي طبقة الأكتودرم وينشأ منها أنسجة الجلد والخلايا المبطنة للغدد والشعر والأظافر وكذلك الجهاز العصبي ، وغير ذلك من الأعضاء الظاهرة وشبه الظاهرة في جسم الإنسان .

٢- الوريقة الجرثومية المتوسطة وهي الميزودرم ، ويتكون منها (الأنسجة الليفية الضامة بما فيها الصفائح والعظام والغضاريف وسائل الدم ، والعضلات ، والجهاز البولي .

٣- الوريقة الباطنة وتسمى الأندودرم : وتكون البطانة المخاطية للقناة الهاضمة ، والخلايا المبطنة لكل الغدد التي في جهاز الهضم والبطانة المخاطية للقناة البلعومية السمعية والتجويف السمعي وبطانة الغدة الدرقية . . والبطانة المخاطية للحنجرة والقصبه الهوائية والشعب^(١) .

وبانتهاء تشكل هذه الوريقات ، تبدأ الكتل البدنية في الظهور في اللوح الجنيني على كل جانب منه ، ليدخل هذا المخلوق البشري مرحلة المضغة في اليوم الحادي والعشرين من البويضة الملقحة ، وبذلك تنتهي مرحلة جمع خلقه التي ستستمر في النمو والظهور الأولى حتى انتهاء مرحلة المضغة في نهاية الأربعين الأولى من التلقيح ،

والملاحظ هنا - والله سبحانه وتعالى أعلم - أن مرحلة الجمع التي حددها حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - بالأربعين ليست هي المدة نفسها التي حددها حديث حذيفة - رضي الله عنه - فحديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قد أشار إلى جمع الخلق البشري في الأربعين الأولى من عمر البويضة في مراحل تشكلها منذ التهيئة والاستعداد للخروج من المبيض حتى وصولها إلى الرحم وانغرازها فيه ثم تشكل الوريقات الثلاث التي حددت خلق هذا الجنين مجتمعاً ، وخطت فيه معالم ذلك ، حتى انتقلت إلى مرحلة المضغة في اليوم الحادي والعشرين كما ذكرت كتب الطب السابقة ،

ما هو الحساب في حديث رسول الله ﷺ في الأربعين ؟

وكذلك يمكن حساب هذه الأربعين في حديث حذيفة - رضي الله عنه -

(١) انظر : د . شفيق عبد الملك ، تشريح الحوض للذكور الأنثى ص ١٤٦-١٤٨ ؛ د . محمد على البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

على النحو التالي :

$$١٥ + ٧ + ١٥ = ٣٧ \text{ يوماً}$$

١٥ هي مدة تهيئة البويضة والرحم للتخصيب

٧ هي من تلقيح البويضة حتى انغرازها في الرحم

١٥ هي مرحلة العلقه .

والحقيقة - كما تدل كتب الطب - أن ما بعد هذه المرحلة (اليوم الحادي والعشرين من عمر البويضة الملقحة) لاتعتبر مرحلة جمع لخلق الجنين ، وإنما هي مرحلة نمو للنقاط والخطوط الرئيسية التي سبقت أولاً في امتزاج النطفة في البويضة لتشكل النطفة الأمشاج وهو تخطيط علمي بل يمكن أن يسمى جمعاً علمياً لم يخرج إلى الخارج ، أو تصويراً تقديرياً^(١) .

والجمع الثاني جمع تصويري خفي يعجز الحس عن إدراكه وهذا ما قال به ، العلامة ابن القيم - رحمه الله - وقد سمى هذا الجمع تصويراً خفياً^(٢) ، وهو يوافق مرحلة تشكل الوريقات الثلاث للوح الجنين وما بعد هذه المراحل من الجمع ما هو إلا نمو للأعضاء في هذا الجنين التي تحددت معالمها في النتوءات والخطوط والأغشية والصفائح . الخ . وهو ما سماه الإمام ابن القيم - رحمه الله - التصوير الثالث وهو تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد^(٣) ، أي بداية ظهور تخلق الجنين للعين المجردة وهو ما يكون بعد الأربعين والذي أشار إليه حديث حذيفة - رضي الله عنه - .

وبالمقارنة . . يمكن أن يقال : إن حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قد حدد مدة الجمع عند الوريقات الثلاث وبداية تشكل الكتلة البدنية في الجنين أي مرحلة المضغة والتي بدأت أيضاً في نهاية ذلك الأربعين نفسه ، كما يتوافق ذلك مع نص الحديث الشريف، حيث أشار الحديث الشريف إلى أن مرحلة المضغة تكون أيضاً في ذلك الأربعين ولا يشترط أن تكون مرحلة المضغة كلها من الأربعين . بل يكفي أن تبدأ هذه المرحلة في هذه الأربعين ثم تستمر بعدها لتنفخ الروح في الجنين بعد مرحلة المضغة وتجاوزها كما دل الحديث الشريف .

(١) انظر : ابن القيم ، التبيان في أقسام القرآن ، ص ٢١٦ .

(٢)، (٣) انظر : المرجع السابق ، ثم هناك تصوير رابع كما يقول الإمام ابن القيم وهو تمام التصوير (المرجع نفسه) .

ومن القرائن التي يمكن الاعتماد عليها وتلخيص ما سبق منها لدلالة الحديث على أن الأربعين هي هذه المدة التي حددها البحث ما يلي . .

١- المعاني اللغوية كلها التي سبقت الإشارة إليها ، والملاحظ أن جميع تلك المدلولات لكلمة (جمع) تناسب هذا الاستدلال من الحديث ، ومنها مثلاً تسمية يوم الجمعة بهذا الاسم لاجتماع الناس فيه في وقت الظهر للصلاة . ومع ذلك سمي الوقت الذي قبله والذي بعده بالجمعة أيضاً .

٢- العلم التجريبي الذي حدد بالمسلمات مراحل تكون ونمو الجنين بما لا يدع مجالاً للشك .

٣- التعارض واللبس والاشتباه بين الأقوال في شرح الحديث .

٤- تعارض الحديثين المذكورين ، واللبس في الأقوال في الجمع بينهما .

٥- اعتماد العلماء - رحمهم الله - في كل شروحه وأقوالهم على أن التخلق في الجنين لا يكون إلا في الشهر الرابع وهذا يردده العلم التجريبي بل والواقع المشاهد في الأجنة الساقطة .

٦- لم يذكر حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - الأربعين الأولى والأربعين الثانية والأربعين الثالثة التي أصر العلماء - رحمهم الله - وكذلك المعاصرون منهم - حفظهم الله - على أنها هي ثلاثة أربعينات . فأين النص على هذه الثلاثة ؟!

ومن هنا فقد وجد البحث أن الأربعين المذكورة في الحديث هي واحدة لاغير ، وهي جمعت جمع خلق الإنسان ، وانتقلت خلالها البويضة إلى بويضة ناضجة ثم بويضة ملقحة ثم نطفة أمشاج ثم علقة ثم مضغة في مراحلها الأولى فقط (ذلك أن الكتلة البدنية في المضغة سرعان ما تتحول إلى مراكز تمعظم ولحم مع تشكل الكتلة الأخرى من المضغة، فالمرحلة كلها متداخلة ولا يمكن فصل واحدة منها عن الأخرى من النطفة الأمشاج حتى تكسى العظام كلها باللحم) .

فكيف يمكن إذاً . . أن يستدل على ذلك من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - ؟ وإذا عاد البحث إلى ألفاظ الحديث الشريف ، لوحظ فيها أن الكلمات التي حددت المدة الزمنية لمراحل عمر الجنين في فترتي العلقة والمضغة أتت بلفظ «في مثل ذلك» كما عند الإمام مسلم . ومن الممكن أن تدل هذه العبارة على فترة زمنية غير المدة المذكورة في جمع خلق الجنين في أربعين يوماً . ذلك أن حرف

العطف الذي تبعه «في ذلك» يدل على أن المقصود من المدة التي تكون فيها علة هي في هذا الأربعين ، وكذلك المدة التي تصير فيها من العلة إلى المضغة هي أيضاً في ذلك الأربعين وقول الرسول ﷺ (مثل ذلك) أي مثل تلك المدة التي استغرقتها الجنين في الاستحالة والتحول والتصيير . قال الحافظ ابن حجر في شرح «مثل ذلك» و «مثله» : «المراد مثل مدة الزمان المذكور في الاستحالة»^(١) والاستحالة المذكورة في الحديث ليست هي استحالة النطفة علة في أربعين يوماً ثم مضغة في أربعين يوماً والتي تستمر أربعين يوماً أخرى حتى تنفخ الروح في الجنين كما نص على ذلك العلماء ، بل هي والله عز وجل أعلم - المدة التي استغرقتها البويضة حتى صارت علة والتي يمكن حسابها على النحو التالي

من (١٢-١٥) مدة تحضير البويضة والرحم .

(٥-٧) فترة التحول من البويضة الملقحة إلى العلة . على أساس تداخل المراحل بين النطفة الأمشاج والعلة (ذلك أن النطفة الأمشاج يمكن أن يقال عنها علة كما في المعاني اللغوية للكلمة) فيكون الحساب : ١٤ + ٦ = ٢٠ هي الفترة التي ذكرها الحديث «مثل ذلك» .

ويكون معنى «في ذلك» أي في ذلك الأربعين .

وتكون «في ذلك» الثانية هي مدة العلة والتي هي أسبوعان أو تزيد أياماً

قليلة .

واسم الإشارة الأول من «مثل ذلك» يعود على ما قبله من مدة الاستحالة .

واسم الإشارة الثاني من «مثل ذلك» والذي يشير إلى زمن التحول إلى المضغة يمكن أن يرجع إلى تلك المدة كلها ، أو إلى المدة التي استغرقتها العلة حتى صارت مضغة وكلا الأمرين ممكن لغة ، وتقديراً ، وعلماً ، وتأويلاً للحديث الشريف .

وأكبر دلالة على أن المدة المذكورة في الجمع كله في المراحل الثلاثة هي هذه الأربعين نفسها المذكورة وهي واحدة ، هو حرف العطف (ثم) «ثم يكون في ذلك علة مثل ذلك» (ولم يقل بعد ذلك أي الأربعين)، فدل على أن هذه الصيرورة حاصلة في الأربعين نفسها ، ولو لم تكن هذه في الأربعين فما فائدة لفظ «في ذلك» إذن .

وإذا دخلت العلقة طور المضغة في اليوم الحادي والعشرين كملت مضغة في نهاية الأربعين يوماً من التلقيح ، ليبدأ بتخليقها وتحديدتها وكتابة أقدراها ، وهو ما نص عليه حديث حذيفة - رضي الله عنه - .

وهكذا . . يلاحظ أن جمع الخلق يكون في الأربعين وهو اليوم الحادي والعشرين من التلقيح ، وهو أيضاً يبدأ من أول يوم من آخر طمث رآته الأم . وفي هذه الفترة يكون قد جمع خلق الجنين والذي يستمر حتى نهاية فترة المضغة والتي استغرقت ما سبق من مدة إحدى الاستحالتين قبلها ، حتى إذا انتهت «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يارب أشقي أو سعيد ؟ فيكتبان . فيقول : أي رب ! أذكر أو أنثى ؟ فيكتبان . . .» الحديث . وبذلك-والله سبحانه أعلم-يكون هناك إرسال واحد للملك أو أمر واحد بالتخليق ونفخ الروح والكتابة وكلها تكون في وقت واحد بعد انتهاء مرحلة المضغة والله -سبحانه وتعالى -أعلم .

أما اختلاف الزمن بعد الأربعين فذكر «أربعين» «ثنتان وأربعون» «خمسة وأربعين ليلة» ذلك أن راوي الحديث عن حذيفة - رضي الله عنه- تفرد به عنه ولم يضبط القدر الزائد على الأربعين^(١) . وهذه الأربعون تحسب من بدء تلقيح البويضة في منتصف الدورة الشهرية يضاف إليها سبعة أيام وهي ما أشار إليها حديث مالك ابن الحويرث - رضي الله عنه - وتوافق معه قول العلم اليوم ، ويضاف إلى ذلك أسبوعان هما مدة العلقة فيصير الحساب على النحو التالي ثم أسبوعان .

$٧ + ١٥ + ١٥ = ٣٧$ ، وهو يتوافق مع نبض القلب في الجنين ، وهذا يعني أن مرحلة المضغة قد انتهت ، في هذه الفترة ، والكتل البدنية (المضغة) ما تزال تشرع تتمايز إلى قطاع عظمي وقطاع عضلي وقطاع جلدي وذلك بين الأسبوع الخامس والسابع (٣٥-٤٢)^(٢) . وبعد الأربعين كما حدد الحديث الشريف يتسور الملك للتخليق الظاهر في الجنين ، وهو ما يكون بعد انتهاء مرحلة المضغة، جاء في كتاب «خلق الإنسان» ما يلي :

«ومما قد مر معنا في فصل المضغة وفصل العظام وفصل أطوار الجنين في القرآن وعلم الأجنة عرفنا أن مرحلة تكوين الأعضاء Organogenesis هي أهم مرحلة

(١) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ص ٤٨١ .

(٢) انظر : د. محمد علي البار، خلق الإنسان ، ص ٢٥٦-٢٦٢.

في تكوين الجنين ٠٠ وتبدأ هذه الفترة من الأسبوع الرابع وتنتهي في الأسبوع الثامن، وهي الفترة الحرجة بالنسبة للجنينات لقابليتها الشديدة للتأثر بعوامل البيئة في هذه الأوقات» .

«وفي نهاية الأسبوع السادس (٤٢ يوماً) تكون النطفة قد بلغت أوج نشاطها في تكوين الأعضاء ٠٠ وهي قمة المرحلة الحرجة الممتدة من الأسبوع الرابع حتى الثامن فيكون دخول الملك في هذه الفترة تنوياً بأهميتها وإلا فللملك ملازمة ومراعاة بالنطفة الإنسانية في كافة مراحلها ٠٠ نطفة وعلقة ومضغة» .

«ثم بعد ذلك يحدد جنس الجنين ذكراً أم أنثى حسب ما يؤمر به فيحول الغدة إلى خصية أو إلى مبيض ٠٠ والدليل على ذلك ما يشاهد في السقط حيث لايمكن تمييز الغدة التناسلية قبل انتهاء الأسبوع السابع وبداية الثامن أي إنه لايمكن تمييزها قبل دخول الملك لتحديد جنس الجنين ذكر أم أنثى كما يؤمر به من خالقها»^(١).

وذلك كما في حديث حذيفة - رضي الله عنه - والذي ينص على أن الجنين تظهر فيه بداية التشكل والتخلق للأعضاء بعد الأربعين الأولى وهي الفترة التي يكون فيها الجنين قد تجاوز مرحلة المضغة استناداً إلى المعاني اللغوية للمضغة ، وكذلك حديث أنس - رضي الله عنه - ، الذي ينص على أن التخليق في الجنين يكون بعد هذه المرحلة ، دليل قوله «فإذا أراد أن يقضي خلقه قال الملك : أي رب ! ذكر أو أنثى» بعد قوله أي «رب مضغة !» .

وورد كذلك تحديد «الذكر والأنثى» في حديث حذيفة - رضي الله عنه - : «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً ، فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ويكتب الملك» وبقية الحديث أيضاً هي ما رواه أنس - رضي الله عنه - أيضاً .

ولذا فعند انتهاء مرحلة المضغة - والله عز وجل أعلم - يكون الخلق والتصوير الظاهر في الجنين من قبل الملك مع كتابة أقداره، ثم طوي الصحف فلايزاد فيها ولا ينقص ٠٠

فكيف يذكر في حديث أنس تجاوز المضغة حتى يكون التخليق في الجنين ، وهو ما فسره حديث حذيفة - رضي الله عنه - أي يكون بعد الأربعين الأولى ، وكيف يمكن أن يقال إن مرحلة المضغة تمتد أربعة أشهر حتى تنفخ الروح في الجنين كما فسر ذلك في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - .

ومن هنا ٠٠ فإن الأربعين التي عند ابن مسعود - رضي الله عنه - هي غير الأربعين التي ذكرها حديث حذيفة - رضي الله عنه - وبناء على ما سبق من الاستدلال بحديث ابن مسعود - رضي الله عنه ٠٠ يكون نفخ الروح والله عز وجل أعلم عند نهاية الأربعين الأولى وفي هذا يكون أيضاً التوفيق بين الأحاديث كلها في خلق الإنسان . يضاف إلى هذا أن القلب الكامل عند الجنين ينبض في اليوم (٣٨) . من عمر البويضة الملقحة وهي الفترة التي يكون فيها جذع الدماغ قد اكتمل عند الجنين ، وإذا لم تعتبر حياة الجنين بنبض قلبه المستمر الناتج عن تحكم جذع دماغه الذي اكتمل خلقه وبدأت معه بالظهور مراكز في المخ نفسه ، كان يجب أيضاً أن تعتبر حياة الإنسان الذي فقد دماغه إلا جذعه لا اعتبار لها ويقضى عليها بالقتل، ويعتبر من الأموات، وما دام هذا غير حاصل ولا يقبله شرع ، ولا عقل ولا رحمة، إذن ٠٠ الأولى أن يطبق هذا على الجنين في بطن الأم وتعتبر حياته الكاملة مع الأربعين يوماً الأولى من التلقيح .

لكن الذي لا بد من ذكره أيضاً أنه في اليوم العشرين بعد المائة من عمر الجنين يطرأ في الجنين حدث جديد وهو أن خلايا المخ تتشابه وتتصل في الجنين عند بلوغه هذا التوقيت، وقد اكتشف ذلك البروفسور جوليوس كورين julios koren أستاذ الأمراض العصبية في جامعة نيويورك وذكر ذلك في البحث الذي قدمه إلى مؤتمر « زرع الأعضاء : القضايا الأخلاقية والقانونية : نظرة عالمية » المنعقد في أوتوا بكندا (٢٠-٢٥ أغسطس ١٩٨٩م)، وقد أوضح البروفسور كورين في بحثه هذا أن خلايا قشرة الدماغ والمراكز العليا منه لا تبدأ بالاتصال بالمناطق التي تحتها إلا في بداية الأسبوع العشرين (تحسب من آخر حيضة حاضتها المرأة)، كما يدل على ذلك رسم الدماغ الكهربائي مشيراً إلى بداية عمل الدماغ ^(١).

عود على بدء

والملاحظ .. أن جذع الدماغ هو بداية الحياة لهذا الجنين بنفخ الروح فيه، أما ما يتلوها من مراحل فهي عباءة عن أطوار من النمو للدماغ كله والذي وجدت أساسياته في اليوم الأربعين من عمر البويضة الملقحة .

(١) انظر: د. محمد علي البار، الجنين المشوه، ص٤١٦، سياسة ووسائل منع الحمل ص ١٦٤.

ذلك أن الجنين في نهاية مرحلة المضغة في اليوم الأربعين، يتميز فيه الرأس عن الجسم، ويبدو الدماغ فيه وقد قسم إلى الدماغ المقدمي والدماغ الأوسط والدماغ المؤخري، كما يمكن تمييز العين بسهولة وكذلك حوصله السمع^(١). ومما لا شك فيه أن الرأس أساس الحياة، فإذا قطع مات صاحبه .

وينقسم أيضاً الدماغ المقدمي إلى فصين يكونان فصي المخ، ويدعيان بالدماغ البعيد، ويربط بينهما قطعة من الدماغ تعرف باسم الدماغ البيني، وبذلك فإن الأجزاء الأساسية في الدماغ تكون قد ظهرت في اليوم الأربعين من عمر الجنين^(٢). ويشعر الدماغ عند ذلك بالنمو السريع حيث يظهر المهاد في الأسبوع الخامس، والصفائر المشيمية في الأسبوع السادس .

وتظهر الخلايا المميزة لفص المخ في الأسبوع الثامن. ويمكن تمييز بعض الفصوص مثل فص الشم .. كما تظهر الأغشية التي تغطي الدماغ ويمكن تمييز الأم الجافة والأم الحنون .

وفي الأسبوع العاشر : يظهر التكوين الداخلي للنخاع الشوكي، ويأخذ شكله المميز .

وفي الأسبوع الثاني عشر : يأخذ فص المخ شكله العام المميز .

وفي الأسبوع السادس عشر : يغطي فص المخ كثيراً من الأجزاء الأخرى وتتحدد فصوص المخ . وينمو المخيخ ويبدو واضحاً ، ويكون نمو فصي المخ قد بلغ أوجه . وهكذا يستمر النمو في المخ وبقية أجزاء الدماغ إلى الولادة .

وعندما يولد الطفل يكون قد حصل على جميع الخلايا العصبية التي ستستمر معه مدى الحياة ، وذلك على عكس جميع خلايا الجسم التي تفتنى وتخلق كل في كل لحظة .

ويستمر دماغ المولود في النمو بشكل كبير جداً حتى السنتين الأوليتين من عمره خاصة » ويستمر ذلك إلى سن الخامسة عندما يبلغ نمو الدماغ ٩/١٠ حجمه لدى البالغ^(٣).

(١) انظر : د. محمد علي البار، الجنين المشوه، ص ٤٠٦، وانظر صورة الجنين هناك .

(٢) انظر : المرجع السابق .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٤١٤.

وكذلك ومما يجدر ذكره أن ثمة حدثاً آخر يطرأ على دماغ المولود عند الولادة، ذلك أن الخلايا العصبية تكون قبل الولادة غير متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً .. ومنذ لحظة الولادة تنمو الفروع والأغصان من كل خلية عصبية (فرع، غصن Rendron) وتتشابك كما تتشابك فروع الشجرة ويتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً^(١) .

فهل يعتبر هذا التشابك والاتصال فيما بين الخلايا العصبية عند الولادة هو نفخ روح قياساً على اعتبار أنه في اليوم (١٢٠) يكون هناك اتصال وتشابك لخلايا المخ أيضاً.

نفخ الروح في الجنين

إذن .. لم يبقَ إلا أن يقال إن جذع الدماغ المتكون في اليوم الأربعين هو دليل نفخ الروح، ولا أعتقد أن الروح تنفخ إلا مرة واحدة، كما أن خروجها من البدن لا يكون إلا مرة واحدة، فالروح لا تتجزأ ولا تكون على مراحل .

وبما أنه قد ثبت بالواقع الذي لا يدع مجالاً للشك، أن خروج الروح من الجسم لا يكون إلا مع توقف جذع الدماغ عن الحياة بعدم تسجيل كهربائه، وبما أن الجنين يسجل ذلك عنده في الأربعين ، فهذا دليل وبرهان على أن نفخ الروح هو في هذا التوقيت، وهو الذي يوافق نصوص الكتاب الكريم ومجموع الأحاديث الصحيحة - والله - عزوجل - أعلم -.

فالحياة عند الجنين توجد - والله سبحانه أعلم - في اليوم الأربعين، وهي حياة البدن والتي تعتمد على وجود الدماغ وتشغيله للقلب الذي يضخ بدوره الدماء في جميع أنحاء الجسم، أما ما سبق هذه الفترة فيمكن اعتباره حياة نباتية على اعتبار عدم وجود جذع الدماغ بعد في الجنين، ولكن تبقى لهذا الجنين فيما قبل الأربعين حرمة الحياة التي لا يجوز المساس بها لأنها خلق من خلق الله سبحانه وتعالى، وهي صائرة إلى الحياة الحيوانية الإنسانية، والاعتداء عليها منع لهذه الصيرورة، ورد لقدر الله سبحانه وتعالى ومشيتته عزوجل .

وتبقى حياة البدن التي تسري فيها الروح - والله سبحانه أعلم - هي ما بعد الأربعين عند تسور الملك الرحم وكتابة أقدار الجنين، ذلك أن بقية أجزاء الدماغ - غير جذعه - ليست أصلاً وأساساً في سريان الروح في البدن، بل هي روح من نوع آخر، أما النفخ المقصود في حديث رسول الله ﷺ فهو الروح التي تدخل هذا البدن فتبعث فيه الحياة، حين يكون هذا البدن صالحاً لاستقبال هذه الروح وسريانها فيه، ولذا فإنه حين يفسد هذا البدن ويموت، تقبض منه هذه الروح^(٢) .

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٨٣ .

إن هذا الجنين بعد الأربعين يوماً صار نفساً منفوسة ذلك أن الروح إذا دخلت البدن أطلق عليها مسمى النفس . فالنفس تطلق على الروح، وغالب ما يسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسميها بالروح أغلباً^(١)، وكذلك تطلق الروح على الدم^(٢)، ويقصد به الدم الذي يجري داخل البدن وتكون به الحياة، ولا يخفى أن الميت يتوقف الدم في جسمه، بل إذا جرح لا يتدفق منه الدم، فجريان الدم وجود الروح .

أما الروح التي هي نبع المعرفة، والتي تعتمد على المراكز الموجودة في فصي المخ، فليست هي الروح المقصودة في الحديث الشريف والتي تنفخ في الجنين، إن هذه الروح هي الأمانة التي حملها الإنسان والتي ميزته عن سائر المخلوقات، وهي أمانة حملها باختياريه ولم يجبر عليها ولذا فإن الإنسان فاعل مختار، أما الحيوان فلا اختيار له في أفعاله، رغم أنه هناك من الحيوانات من عنده شيء من العقل الذي يمكنه من الفعل كالنحل مثلاً، لكن أفعالها ليست اختيارية بل هي غريزية وهي بعيدة جداً عن المستوى الفكري والعقلي عند بني الإنسان .

ولكن ثمة شيئاً مشتركاً بين الحيوان والإنسان وهو الحياة التي بها حياة البدن قال الله عز وجل ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٨).

لقد كان الإنسان ميتاً وهو نطفة في الأصلاب ثم بعث الله عز وجل فيه الحياة، فأحياه ، ثم يميتة ، ثم يحييه للحساب وقال الله عز وجل عندما سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة البقرة- آية ٢٦٠) .

إن معنى الحياة والموت يشترك فيها الإنسان والحيوان كما دلت على ذلك هذه الآية الكريمة. وكما ورد ذلك أيضاً في القرآن الكريم في معجزات عيسى عليه السلام يوم ولد ويوم يموت ويبعث حياً قال الله عز وجل .. ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِدَّتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾ (سورة المائدة- آية ١١٠)

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٣٨٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق .

٠٠. روح الإنسان. روح الحيوان : الحياة

وقال الله عزوجل ..

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (سورة الأنعام- آية ٣٨).
إن تلك الآيات الكريمة السابقة تنص على أن الحياة والموت والحشر يشترك فيها الإنسان والحيوان .

ومن هنا .. فإن اعتبار نفخ الروح في الإنسان هي بوجود الملكات العليا في فصي المخ من الدماغ تعارضها هذه النصوص من القرآن الكريم .

ودليل ذلك قول الرسول ﷺ ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « من صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُفِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ »^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، (أنها اشترت نَمْرُقَةً* فيها تصاوير فقام النبي ﷺ بالباب فلم يدخل، فقلت : أتوب إلى الله مما أذنبت؟ قال : « هذه النَمْرُقَةُ ؟ » قلت لتجلس عليها وتوسدّها قال ﷺ : « إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّورِ يَعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُقَالُ لَهُمْ : أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ الصُّورُ »^(٢) .

وفي رواية عند الإمام مسلم أنه (جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما. فقال: إني رجل أصور هذه الصور. فأفتني فيها . فقال له : ادنُ مني . فدنا منه ثم قال : ادنُ مني . فدنا حتى وضع يده على رأسه. قال: أنبتك بما سمعت من رسول الله ﷺ . سمعت من رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ ، بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا ، نَفْسًا فَتَعَذَّبُ فِي جَهَنَّمَ » وقال: إن كنت لا بد فاعلاً ، فاصنع الشجر وما لا نَفْسَ لَهُ »^(٣).

إن قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لدليل قوي على أن المقصود بما لانفس له أي لاروح فيه، كالشجر، أما الحيوان فهو من ذوي الأرواح، فالحيوان نفس .

(١) البخاري، الصحيح، م، ٤، ج ٧، كتاب اللباس، باب من صور صورة كلف يوم القيامة ... ، ص ٨٨، ح (٥٩٦٣)؛ مسلم ، الصحيح، ج ٣، كتاب اللباس والزينة، تحريم تصوير صورة الحيوان، ص ١٦٧١، ح (٢١١٠) .

(*) نَمْرُقَةُ : بضم النون والراء ويكسرهما، أي وسادة (ابن الأثير ١١٨/٥، نمرق) .

(٢) البخاري، المرجع السابق، باب من كره القعود على الصور، ص ٨٦، ح (٥٩٥٧)؛ مسلم ، المرجع السابق، ص ١٦٦٩، ح (٢١٠٦) .

(٣) مسلم، الصحيح ، المرجع السابق ، ص ١٦٧١، ح (٢١١٠) .

وهذا الحديث عن عائشة رضي الله عنها يبين أن الحيوان مما نهى رسول الله ﷺ عن تصويره .. قالت عائشة رضي الله عنها : « قدم رسول الله ﷺ من سفر. وقد سترت على بابي درنوكة* فيه الخيل ذوات الأجنحة. فأمرني فنزعته »^(١).

وفي المسند عند الإمام أحمد ورد النص على بعث الحيوانات يوم القيامة للحساب ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لَتُؤَدَّنَ الحقوقُ إلى أهلها يومَ القيامةِ ، حتى يُقْتَصَّ للشاةِ الجَمَاءُ مِنَ الشاةِ القَرَنَاءِ تَنْطَحُهَا»^(٢)

والخلاصة .. إن الروح التي تنفخ هي الروح التي بها حياة البدن والتي يصير فيها الجسم يسمى نفساً وهي الروح التي تنزع من البدن عند موته . وهي الروح التي قوام وجودها في البدن هو جذع الدماغ فإذا مات ذهبت .

روح الحياة وروح المعرفة

أما ما عدا ذلك من مراحل تطور الدماغ، فليست هي التي تتوقف عليها الحياة، لأن الإنسان يكون حياً بدونها، على أنه لا بد من التفريق بين حياة الإنسان وحياة الحيوان من حيث التشريف والإكرام الذي خص الله عزوجل به الإنسان عن كل المخلوقات الأخرى بأرواح آخر غير الروح التي بها حياة البدن .

وقد نص على ذلك القرآن الكريم، وجاء في كتاب «شرح العقيدة الطحاوية» ذكر لها كالروح التي يؤيد الله عزوجل بها أوليائه، وكذلك القوى التي في البدن فإنها تسمى أرواحاً فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام ويطلق الروح على أخص من هذا كله، وهو : قوة المعرفة بالله سبحانه والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته .

ونسبة هذا الروح إلى الروح، كنسبة الروح إلى البدن، فالعلم روح، والإحسان روح، والمحبة روح، والتوكل روح، والصدق روح. والناس متفاوتون في هذا الروح، ومن الناس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً، ومنهم من يفقدونها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً^(٣) .

(١) مسلم ، الصحيح ، المرجع السابق ، ص ١٦٦٧ ، ح (٢١٠٧) .
 (*) درنوكة : الدرنوك ستر له خمل، وجمعه درانك (ابن الأثير ٥/٢ «درنك»).
 (٢) ج ١٢ ، ص ١٩٣ ، ح (٧٢٠٣) ، قال أحمد شاكر : إسناداه صحيحان .
 (٣) انظر : ص ٣٨٥ .

وبالتالي ٠٠ وبناء على ما سبق فالحياة بوجود الملكات العليا الخاصة بنمو فصي المخ لا تبدأ عندها حياة الإنسان ونفخ الروح فيه، بل هي حاصلة قبل ذلك ، ذلك أن كلاً من المغمى عليه ، ومن في غيبوبة دائمة^(١) والنائم ، والمخدر ، والمجنون ، والمولود اللادماغى ، كلهم أحياء ، ولحياتهم حرمة لاتمس بأي حال رغم أنهم فاقدو التحكم في الملكات العليا والتي مصدرها فصا المخ، فهل تعتبر الحركة ، أو الحس ، أو الشعور ، أو الفكر ، أو الإرادة ، هي حياة الإنسان من حيث حرمة قتل النفس ؟ إذاً ٠٠ الحركة ليست شرطاً لحياة الجنين ؟ وما يدرينا ما يكتشفه العلم بعد حين عن حياة الأجنة ؟ فلم يُحصر نفخ الروح ويجمع عليه في المائة والعشرين يوماً مع أن الحديث الشريف لم ينص إطلاقاً على ذلك ؟ ! .

ولا بد أيضاً من اعتبار عجب الذنب الذي يظهر مع الأربعين والذي ينبت منه الإنسان يوم القيامة .

ويبقى البحث في موضوع الروح كالبحر اللجى ، المتلاطم الأمواج ، فما يكون هدف الخائض فيها إلا أن ينجو بروحه سالماً دون أن يدركه الغرق . أسألك اللهم - لا إله إلا أنت - العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

مدة الحمل :

لم يرد في الكتاب الكريم والحديث الشريف ما ينص على أقل مدة الحمل ولا على أكثر مدة الحمل^(٢) . ولكن أجمع العلماء على أن المرأة إذا جاءت بولد لسته أشهر من يوم عقد نكاحها بأن الولد يلحق هذا الزوج^(٣) . وقد استدلوا على ذلك من قول الله عز وجل : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ (سورة الأحقاف - آية ١٥) مع قوله تعالى ﴿ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ (سورة لقمان - آية ١٤) . والإمام علي - رضي الله عنه هو أول من استنتج هذا الاستدلال في إلحاق المولود لسته أشهر بأبيه^(٤) .

(١) قال الدكتور محمد علي البار ، ولا شك أنه يحرم قتل المريض الذي فقد دماغه وبقي له جذع الدماغ فقط كما هو مشاهد في آلاف الحالات المنتشرة في العالم اليوم وقد سجلت حالة عاشت ٣٧ عاماً ، كما ذكر مؤتمر زرع الأعضاء بأوتوا بكندا (٢٥-٢٥ أغسطس ١٩٨٩م) (انظر : سياسة ووسائل تحديد النسل ، ص ١٦٦) .

(٢) انظر : الشوكاني ، محمد بن علي الشوكاني ، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأنوار ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ .

(٣) انظر : ابن المنذر ، الإجماع ، ص ٨٦ .

(٤) انظر : ابن كثير ، التفسير ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

ويتوافق رأي الطب مع، ما قاله علماء الشريعة في أقل مدة الحمل . فقد جاء في كتاب «مع الطب في القرآن» ٠٠ أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر ، وهي أقل مدة-يمكن للجنين فيها أن يبقى حياً إذا ولد بتمامها^(١) .

وقد اعتبرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية أن الجنين يكون قابلاً للحياة المستقلة في فترة الحمل الثالثة ، والتي تبدأ من الأسبوع الثالث والعشرين^(٢) .

وقد ذكر وقد جاء في كتاب «مشكلة الإجهاض» أنه قد عاش كثير من المولودين لستة أشهر (٢٤ أسبوعاً)^(٣) .

وقد ذكرت المراجع الطبية الحديثة أن أقل مدة يمكن للمولود أن يعيش فيها هي عشرون أسبوعاً ويكون وزنه ٥٠٠ جرام فما فوقها^(٤) . ولا تعارض فيما قاله العلماء وما قاله الأطباء ذلك أنه لا يوجد نص قطعي في أقل الحمل، وإنما هو استنباط واجتهاد من العلماء ، وإن كان هذا الاستنباط صواباً فلا تعارض، إذ قد يكون المقصود من ذلك إمكانية الحياة لستة أشهر الحياة الطبيعية أو القريبة منها دون حياة الحضانات والأجهزة الاصطناعية التي تقوم بإكمال عملية نمو الجنين التي افتقدتها بعد خروجه من الرحم والتي هي من لوازم بقاءه في الحياة .

أما أكثر مدة الحمل فقد تستنبط من قول الله عز وجل ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ فلا حمل أكثر من هذا الوقت مقروناً إليه زمن الرضاع، وعلى ذلك الأساس فلا تحديد في القرآن الكريم لأقصى مدة الحمل . قال الإمام ابن حزم : «فمن ادعى أن حملاً وفصلاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً فقد قال الباطل والمحال ورد كلام الله عز وجل»^(٥) .

(١) انظر : د . عبد الحميد دياب ود . أحمد قرقوز ، ص ٢٥ .

(٢) انظر : د . محمد علي البار ، مشكلة الإجهاض ، ص ١٠ نقلاً عن :

Ralph Benson : HandBook of obst . and gynec 6th Edition , 1977 , P420 .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ١١

(٤) انظر : المرجع السابق نقلاً عن :

Merk manual , 13 th Edition P. 949

(٥) المحلى ، م ٧ ، ص ٣١٦ .

وقد ذهب الفقهاء - رحمهم الله تعالى - إلى أن قالوا بأن أكثر الحمل سنتان، وبعضهم قال أربع أو ست ومنهم من قال سبع سنين^(١) وكل ذلك سماعاً فقط . لما نقل إليها - رحمهم الله - من قصص وأقاويل .

أما ماروي حول الإمام مالك* - رحمه الله - من أن أمه حملت به ثلاث سنين^(٢) ، فلا يصح رواية ، ولو كان ذلك حقيقة لرواه الإمام مالك - رحمه الله - عن نفسه^(٣) .

وقد علق الشيخ محمد أبو زهرة على ما ورد في حمل الإمام مالك - رحمه الله - فقال رحمه الله : «وإذا كان لمالك رأي فقهي ، وهو جواز الحمل في بطن أمه ثلاثاً وأن ذلك الرأي استمده من أخبار بعض الأمهات أو من أقوال نسبت إلى بعض نساء السلف الصالح فلسنا نستطيع أن نأخذ به لأن الطب يقرر أن الحمل لا يمكن أن يمكث في بطن أمه أكثر من سنة ، والاستقراء مع المراقبة الدقيقة ، يجعلنا نؤمن بأن الحمل لا يمكن أن يمكث في بطن أمه أكثر من تسعة أشهر . وإذا كان مصدر تلك الرواية التي اشتهرت واستفاضت قول مالك هذا . فإن من الحق علينا أن نرفضها ، وأن نقدر أن أمه حملت به كسائر الأمهات وليس في ذلك غض من مقامه ، ولا نقص من إمامته»^(٤) .

وينكر الدكتور محمد علي البار أيضاً مثل هذه القصص عن الحمل المديد فيقول : «ولا تزال هذه الحكايات رائجة في اليمن الشمالي والجنوبي . . وقد وجدت

(١) انظر : الشافعي ، الأم ، ج ٥ ، ص ٢٢٢ ؛ الدسوقي ، حاشية الدسوقي ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ ؛ ابن قدامة ، المغني ، ج ٩ ، ص ١١٦ .

* مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني أبو عبدالله صاحب الموطأ وإمام دار الهجرة أمه هي عالية بنت شريك الأزديّة، ولد سنة ثلاثة وتسعين، ونشأ في صون ورفاهية، وتعلم وطلب العلم، وهو ابن بضع عشرة سنة وجلس للفتيا وله إحدى وعشرون سنة، ولم يكن بالمدينة علم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة والحفظ، وتوفي سنة تسع وسبعين ومئة صبيحة الرابع عشر من ربيع الأول . (سير ٤٨/٨ ؛ تهذيب ٥/١٠) .

(٢) ابن الجوزي ، صفه الصفوة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ، ابن فرحون ، الديباج المذهب على علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمد أبو الثور، (القاهرة : دار التراث) ، ص ٨٩ .

(٣) انظر : د . طاهر محمد الدري ، تخريج الأحاديث النبوية الواردة في مدونة الإمام مالك ، الطبعة الأولى ، (مكة المكرمة : مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ) ج ١ ، ص ٧٠ .

(٤) مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٥٢م) ، ص ٢٢-٢٣ .

نساء ممن كن يترددن على عيادتي يزعمن أنهن حوامل لعدة سنوات وبالفحص تبين أنهن لم يكن حوامل ٠٠ وإنما كان ذلك الحمل الكاذب

وقد يحدث لإحدى هؤلاء الواهمات بالحمل الكاذب الذي تتصور أنه بقي في بطنها سنيًا ٠٠ قد يحدث أنها تحمل فعلاً ٠٠ فتضع طفلاً طبيعياً في فترة حملها ولكنها نتيجة وهمها وإيهامها من حولها من قبل ٠٠ تتصور أنها قد حملته ثلاث أو أربع سنوات»^(١) .

و«إن الجنين قد يموت في بطن أمه ويبقى فيها أمداً طويلاً وهذا أمر معروف عند الأطباء وقد يتكلس الجنين بعد موته ثم يقذفه الرحم بعد فترة وقد يقذفه على فترات متقطعة»^(٢) .

ويضيف إلى ذلك الدكتور نجم عبدالله عبدالواحد أسباباً أخرى للحمل المديد فقد تمتنع العادة الشهرية عن المرأة، بسبب الرضاعة أو المرض كعدم حدوث التبويض واختلال هرمونات المبايض أو فقدائها ، وقد يحدث التبويض قبل حدوث العادة الشهرية مما يجعل فرصة الحمل قائمة بدون أي علامة مسبقة وبدون وجود العادة الشهرية منذ مدة طويلة من الزمن . وفي مثل هذه الحالات قد يحدث الحمل فيظن أن أمه كان لسنوات^(٣) .

وبالتالي فإنه يستحيل استمرار نمو الجنين داخل البطن لسنوات عدة لعدم استيعاب تجويف الرحم والبطن لحجم الجنين كل هذه المدة^(٤) .

أما المدة الطبيعية للحمل فهي (٢٨٠) يوماً تحسب من آخر حيضة حاضتها المرأة ، ومدة الحمل الحقيقية هي ٢٨٠-١٤=٢٦٦ يوماً^(٥) .

«وهناك نسبة قليلة من النساء (٣%) يلدن في الأسبوع ٤٤ أي في مدة أقصاها (١٠) شهور فقط»^(٦) .

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٣ .

(٣) انظر : «مدة الحمل» مجلة المجمع الفقهي الإسلامي ، العدد الرابع ، السنة الثانية ، مكة المكرمة : رابطة العالم الإسلامي ، رابطة مكة ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م ، ص ٢٥٣ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

(٥) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٥١ .

(٦) د . نجم عبدالله عبدالواحد ، «مدة الحمل» ، مجلة المجمع الفقهي بمكة ، العدد الرابع ، ص ٣٥١ .

«وتحدث تغيرات عضوية للجنين عند تأخر الولادة بعد (٤٢) أسبوعاً وهذه التغيرات تؤدي إلى تلف المخ وبعض الأنسجة الأخرى مما يجعل استحالة الحياة السوية بعد الولادة»^(١). ومما يدفع الأطباء إلى اللجوء إلى تحريض الطلق اصطناعياً في مثل هذه الحالات .

وقد ذكر الدكتور عبدالله باسلامة عن حالة ولادة بعد (٤٧) أسبوعاً وهذه الحادثة في عرف الأطباء من المقبول والنادر المستبعد والذي احتاطوا له في توصياتهم في مناقشة هذه القضية^(٢) في ندوة الكويت ١٩٨٧م التي دارت بين الأطباء والفقهاء والتي قرر فيها الأطباء في توصيتهم ما يلي :

يستمر نماء الحمل منذ التلقيح حتى الميلاد معتمداً في غذائه على المشيمة والأصل أن مدة الحمل على وجه التقريب (٢٨٠) يوماً تبدأ من أول يوم من آخر حيضة سبقت الحمل . فإذا تأخر الحمل عن ذلك لمدة أسبوعين فإن المشيمة لا تستطيع أن تمد الجنين بالغذاء خلالها ، ثم يعاني الجنين المجاعة بعد ذلك مما يرفع نسبة وفاة الجنين في الأسبوع الثالث والأربعين والرابع والأربعين . ومن النادر أن ينجو الجنين من الموت إذا استمر الحمل خمسة وأربعين أسبوعاً . وحددت هذه المدة لتستوعب النادر والشاذ إلى ثلاثمائة وثلاثين يوماً ، ولم يُعرف أن المشيمة مدت الجنين بعناصر الحياة إلى هذه المدة .

وقد توسع القانون في الاحتياط مستنداً إلى بعض آراء الفقهاء ورأي العلم الطبي ، فجعل أقصى مدة الحمل سنة بإجماع الأطباء^(٣) .

ونوقشت هذه التوصية في الدورة الحادية عشرة لمجمع الفقه الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ١٩٨٩م ، حيث انقسم الفقهاء المشاركون إلى فريقين : مؤيد للأطباء يرى أنه الحق ولا حرج في هذه التوصية .

وفريق معارض لرأي الأطباء، نظراً لعدم وجود نص من الكتاب والسنة لأقصى مدة الحمل ، مما يجعل الباب مفتوحاً رحمة بالمسلمين ولأن الحدود تدرأ بالشبهات، وذهب بعضهم إلى التشكيك بعلم الأطباء بأنه يقوم على استقرار جزئي وليس استقرار كلياً.

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

ورد الفريق المؤيد لتوصية الأطباء والمؤلف من الفقهاء والأطباء بأن ما قاله الفقهاء القدامى - رحمهم الله - يعتمد أيضاً على الاستقراء الجزئي ووصف لحالات فردية ، لعدم تخصصهم بالطب ، ولعدم وجود العلوم الطبية الناضجة ، وما قالوه - رحمهم الله - ليس إلا نقلاً عن النساء والقريبات والجارات^(١) .

وقد أدلى الدكتور عمر سليمان الأشقر برأيه في ندوة الكويت ١٩٨٧م معزراً ومسانداً لرأي الأطباء، في أننا اليوم أقدر على معرفة حالات الحمل . ذلك أن الفقيه في الماضي كان يرجع إلى أخبار النساء وسؤالهن مع عدم نضوج العلم الطبي في ذلك الوقت^(٢) .

وقد ختم الدكتور محمد علي البار بحثه عن مدة الحمل بما يلي . «ينبغي أن ينبه من يدرسون في كتب الفقه على استحالة حدوث هذا الحمل الطويل الممتد سنيّاً . . . وأنه نتيجة لوهم الأم الراغبة في الإنجاب في أغلب الحالات . . . أو من اختراع القصص وأساطيرهم . . . والمشكل أن المرأة قد تلد بعد وفاة زوجها أو بعد طلاقها منه بعدة سنوات فيحكم لها الفقهاء بأن الولد للفراش وينسبون الولد لزوجها المتوفى عنها بعدة سنوات أو الذي طلقها قبل عدة سنوات»^(٣) كما حكم قاضي مكة المكرمة لإحداهن والتي طلقت من زوجها في ٢٩ جمادي الأخرى ١٣٦٢هـ بأن ولدها الذي أنجبته بعد أربع سنوات من طلاقها، لزوجها المطلق هذا . وكذلك حكم لأختها التي ولدت بعد مرور خمس سنوات من وفاة زوجها^(٤) .

وقد ذكر الدكتور نجم عبد الواحد استدلالاً قد يهدي لحل النزاع في هذه القضية من خلال الآيات الكريمة في قوله سبحانه وتعالى . . . ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٢٨) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣٤) ﴿وَالنِّسَاءُ يُنْسِنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ (سورة الطلاق - آية ٤) . وقال فضيلته بعد ذكر هذه النصوص الكريمة . . .

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

(٣) خلق الإنسان ، ص ٤٥٤ .

(٤) المرجع السابق ، هامش ص ٤٥٤ وقد حكمت محكمة الدمام منذ مدة لا تتجاوز العشر سنوات من الآن بما يشبه هذه الحالات «د . سيف الدين السباعي ، مكالمة هاتفية ، وقد رأى الدكتور المذكور - وهو ابن أختي - نص الوثيقة» .

«وهنا نلاحظ أن النص القرآني اشترط مدة محددة للعدة سواء للمطلقة أو للأرملة وهذا يعنى براءة الرحم إن لم تثبت المرأة وجود الحمل في خلال هذه الفترة . بل اشترط القرآن ألا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن .

فلذلك لا نستطيع أن نقبل أن مدة الحمل تصل إلى ما تصل إليه في رأي الفقهاء الأوائل بل يجب أن تقبل بهذا التصحيح بعد وجود هذا الدليل القطعي من الطب الحديث وأن نعذر أهل الفقه الأوائل فلكل مجتهد نصيب»^(١) .
والله سبحانه وتعالى أعلم ..

إنه .. إن ترك المجال على ما هو عليه بالرجوع في الحكم في مثل هذه القضية إلى آراء الفقهاء كان باباً للفساد والفتنة . وإن رجع في هذا إلى ما قرره الأطباء يخشى منه رمي المحصنات الغافلات . فلا بد من البحث الجاد لاستخلاص الحكم النقلي والعقلي في أقصى مدة الحمل .

متى يبرأ رحم ذات الحمل ؟ !

قد وقت الله عز وجل عدة الحامل حتى تضع ما في بطنها قال الله عز وجل ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق - آية ٤) .

فالله سبحانه وتعالى لم يضع حداً لأجل وضع الحمل، ولا لأقل ما يمكن أن يبرأ منه الرحم من الحمل وتنتهي به عدة المرأة الحامل .

أما الحمل الذي استبان وعلم فإن العدة تنتهي بوضعه في أي وقت كان .. فقد توفي زوج سبيعة الأسلمية - رضي الله عنها - في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته - رضي الله عنهما - فأتت رسول الله ﷺ فسألته ﷺ فأفتاها ﷺ «بأنها قد حلت بوضع الحمل وأمرها بالتزوج إن بدالها»^(٢) .
واتفق العلماء على أن ما أسقطته المرأة وقد استبان فيه خلقه أو بعض خلقه فإن العدة تنقضي بوضعه^(٣) .

(١) «مدة الحمل» ، مجلة المجمع الفقهي ، العدد الرابع ، ص ٢٥٦ .

(٢) انظر : مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الطلاق ، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل ، ص ١١٢٢ ، ح (١٤٨٤) ؛ البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب الطلاق ، باب «وأولت الأحمل أجلهن أن يضعه حملهن» ، ص ٢٢٣ ، ح (٥٣١٩) .

(٣) انظر : الشافعي ، الأم ، ج ٥ ، ص ٢٢١ ، الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ؛ الدسوقي ، الحاشية ، ج ٤ ، ص ٤٠٨ ، ابن قدامة ، المغني ، ج ٩ ، ص ١١٣ ؛ ابن حزم ، المحلى ، ج ٧ ، ص ٢٦٦ .

قال صاحب «الإجماع» : «أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أن عدة المرأة تنقضي بالسقط إذا علم أنه ولد»^(١) .

وقال الإمام الشافعي في الأم ، «إذا رؤي (الحمل) ، علم من رآه أنه لا يكون إلا خلق آدمي لا يكون دماً في بطن ولا حشوة ولا شيئاً لا يبين خلقه . فإذا وضعت ما هو هكذا حلت به من عدة الطلاق والوفاة»^(٢) .

وعند المالكية تنقضي العدة بإلقاء العلقة إذا شهدت بذلك امرأتان^(٣) .

وقال الإمام ابن حزم تنقضي العدة بأن تسقطه علقه فصاعداً ، وأما إن أسقطت نطفة دون العلقه فليس بشيء ولا تنقضي بذلك^(٤) .

وورد في المغني أنه إذا أُلقت مضغة ولم تبين فيها الخلقة فشهد ثقات من القوابل أن فيه صورة خفية بأن بها أنها خلقة آدمي، فإنه تنقضي بها العدة^(٥) .
واختلفوا فيما إذا أُلقت مضغة لا صورة فيها فشهد ثقات من القوابل أنه مبدأ خلق آدمي .

وقال الإمام أحمد - رحمه الله - «لاتنقضي به (العدة) ولكن تصير أم ولد لأنه مشكوك في كونه ولداً فلا يحكم بانقضاء العدة المتيقنة بأمر مشكوك فيه ولم يجز بيع الأمة الوالدة له مع الشك في رقتها فيثبت كونها أم ولد احتياطاً ولا تنقضي العدة احتياطاً»^(٦) وحدد الحنابلة طور المضغة بشمانين يوماً . فلا تنقضي العدة إلا بعد الثمانين^(٧) .

وبعد ٠٠ فإن المضغة تبدأ في التشكل في اليوم الحادي والعشرين^(٨) من عمر النطفة الأمشاج والعلقه .

يقول «كتاب علم الأجنة الإنساني» و«كتاب علم الأجنة الطبي» : «إن الكتل البدنية هي أبرز ما في الجنين في هذه الفترة ويمكن التعرف عليها من النظر إلى سطح الجنين الخارجي . وهذه الكتل أيضاً هي الأساس الذي يقوم عليه الجهاز

(١) انظر ابن قدامة ، المغني ، ج ٩ ، ص ١١٣ ؛ انظر: ابن المنذر ، الإجماع ، ص ٨٦ .

(٢) ج ٥ ، ص ٢٢١ .

(٣) انظر : الدسوقي ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، ج ٤ ، ص ٤٠٨ .

(٤) انظر : المحلى ، ج ٧ ، ص ٢٦٦ .

(٥) انظر : ابن قدامة ، ج ٩ ، ص ١١٤ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) انظر : المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٨) انظر : د . محمد على البار ، خلق الإنسان ، ص ٢٤٧ ؛ د . صالح بن عبد العزيز كريم ، المدخل إلى علم الأجنة الوصفي والتجريبي ، ص ١٨٣ .

الهيكل والعضلي .. ومن هذه الكتل يتكون الجهاز الهيكلي والعضلي ، ويمكن معرفة عمر الجنين بمعرفة عدد الكتل البدنية»^(١) .

جاء في كتاب «خلق الإنسان» في وصف تطور الجنين بعد تلك المرحلة :
«وهكذا نرى الأسبوع الرابع (٢١-٣٠) مخصصاً لظهور الكتل البدنية والأسبوع الخامس والسادس لتحول الكتل البدنية إلى قطاع عظمي وعضلي والأسبوع السادس والسابع لتكسي العظام بالعضلات»^(٢) .

يقول الدكتور محمد سيف الدين السباعي : «وفي ٠٠ اليوم (٤٠ - ٤٥) تحدث في الجنين تبدلات خاصة تنتقل بالجنين نقلة واسعة نحو تكونه الإنساني فالقلب الذي كان بشكل أنبوب مغلق ابتدائي يدق دقات خفيفة يصبح في اليوم ٣٨ قلباً رباعي الأجواف يضرب ضربات عادية ويتصل بالدوران المشيمي ٠٠٠٠ وكذا تتشكل العينان والأذنان والأنف والشفتان وبراعم الأسنان وبعض العضلات ، وتكون اليدان قصيرتين والساقان أقصر ، إلا أنها واضحة المعالم . وهكذا تصورت وتخلقت المضغة»^(٣) .

وقد لاحظ البحث أن في قول الله عز وجل في سورة الحج ﴿ثُمَّ مِنْ مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ما يدل على أن طور المضغة بكل مراحلها تتعلق بها أحكام الحمل للجنين وأمه ، فتنقضي العدة وتصير به أم ولد هذا في المضغة غير المخلقة أما المخلقة على اعتبار تمايز الذكر والأنثى وما رواه حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة . بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب! أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ٠٠٠»^(٤) .

وذلك لما يترتب على معرفة جنس الجنين من أحكام الإرث وقول الله عز وجل ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بعد ذكر المضغة دل على أن مرحلة المضغة تتميز عن بقية أطوار

(١) المرجع السابق ، نقلاً عن الكتاب المذكورين ، ص ١٧٨ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) د . محمد علي البار ، ص ٢٥٦ ، نقلاً عن كتاب علم الأجنة الطبي Medical Embryology ص ٦٨ ، ١٤٢ ، ١٥٧ .

(٣) الإجهاض بين الفقه والطب والقانون ، ص ٣٧ .

(٤) سبق تخريجه ص ٢٧٣ من هذا البحث .

نمو الجنين وأن لها ميزاتها التي يعتمد عليها في الحكم الشرع . ولو أن المقصود من قوله سبحانه ﴿لَنَبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي لإظهار قدرة الله عز وجل فقط في الخلق^(١) كما ذكرت التفاسير - لما كان لترتيبه وسياقه بعد المضغة فائدة وقدرته عز وجل شاملة لكل ما خلق. وفي هذه الآية الكريمة في كل مراحل خلق الإنسان ، والمضغة غير المخلقة تبدأ في اليوم الحادي والعشرين من تكون النطفة الأمشاج . وليس الأمر كما حدد الفقهاء - رحمهم الله - في أن المضغة تكون بدايتها في الثمانين يوماً ، ذلك الوقت الذي يكون فيه الجنين قد تم واكتمل خلقه^(٢) . فكيف يكون مضغة؟! .

أمر آخر لابد من ذكره . . فالتطبيب بوسائله اليوم وطرقه ، يمكنه أن يبين الحمل ويحدده في فترة مبكرة جداً ، أو ليس من المنطق أن يكون هو الحكم فيما لانص فيه من كتاب ولا سنة ، إذا تسلم زمام الأمر الثقات من الطبيبات مع الاستفادة من خبرة الأطباء الأخصائيين في ذلك .

النفاس :

النفاس : هو الدم الخارج بعد الولد^(٣) . «ودم النفاس يحرم ما يحرم الحيض، ويسقط ما يسقطه الحيض ، لأنه حيض مجتمع احتبس لأجل الحيض ، فكان حكمه حكم الحيض»^(٤) فيحرم الوطء في النفاس ويحرم على النفساء الصلاة والصوم ، والطواف ، بالبيت ، والمكث في المسجد ، ومس المصحف حتى تظهر من الدم . ذلك أن الرسول ﷺ سمى الحيض نفاساً من قوله ﷺ : «أنفست»^(٥) .

أما حد النفاس في أقله وأكثره فلا حد له . قال الإمام ابن حزم : لا حد لأقل النفاس . ولم يأت نص من قرآن ولا سنة في أكثر مدة النفاس^(٦) .

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان ، م ١٠ ، ص ١١٨ .

(٢) انظر : د . مأمون شقفة ، القرار المكين ، ص ١٢٥ .

(٣) انظر : النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف ، المجموع شرح المذهب ، (بيروت : دار الفكر) ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥١٨ .

(٥) البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ١ ، كتاب الحيض ، باب النوم مع الحائض وهي في ثيابها ، ص ٩٥ ، ح (٣٢٢) .

(٦) انظر : المحلى ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : «النفاس لاحد لأقله ولا لأكثره فلو قدر أن امرأة رأت الدم أربعين يوماً أو ستين يوماً أو سبعين وانقطع فهو نفاس ، لكن إن اتصل فهو دم فساد وحينئذ فالحمد أربعون ، فإن منتهى الغالب جاء به الآثار»^(١) .

وقد اختلف الفقهاء في أكثر النفاس فعند الحنفية^(٢) والحنابلة^(٣) أربعون يوماً ، وعند الشافعية^(٤) والمالكية^(٥) ستون يوماً . وليس لأقل النفاس حد فقد تلد المرأة ولا ترى الدم^(٦) .

أما ما ورد من أحاديث في أكثر النفاس فهي ضعيفة ولا يصح الاحتجاج بها^(٧) قال المؤلف في كتاب «العلل المتناهية» بعد ذكر أحاديث النفاس «ليس في هذه الأحاديث ما يصح»^(٨) فالأمر في أكثر النفاس متروك لغالب عادة النساء كما قال شيخ الإسلام . لذا كان لابد من ذكر مايقول الطب عن النفاس ، حيث يعرف النفاس في الطب بأنه «الدم والإفرازات التي تخرج من الرحم بعد الولادة وتستمر لمدة ثلاثة إلى أربعة أسابيع . وقد تطول إلى ستة أسابيع (أربعين يوماً)»^(٩) .

ومعدل المدة لدى أغلب النساء هي أربع وعشرون يوماً وتزيد المدة إذا لم ترضع الأم وليدها .

وقد تتوقف الإفرازات الدموية لفترة ثم يعود الدم إلى الظهور ويعتبر ذلك نتيجة لوجود بقايا ولو بسيطة من المشيمة في الرحم أو أن الرحم انقلب إلى الخلف

-
- (١) الفتاوى ، ج ١٩ ، ص ١٣٩ - ٢٤٠ .
 - (٢) انظر : الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج ١ ، ص ٤٢ .
 - (٣) ابن قدامة ، المغني ، ج ١ ، ص ٣٥٨ .
 - (٤) انظر : النووي ، المجموع ، ج ١ ، ص ٥٢٢ .
 - (٥) انظر : الدسوقي ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، ج ١ ، ص ١٧٥ .
 - (٦) انظر : النووي ، المجموع ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ؛ ابن قدامة ، المغني ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .
 - (٧) ابن الجوزي ، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، ج ١ ، ص ٣٨٨ .
 - (٨) انظر : الزيلعي ، نصب الراية ، ج ١ ، ص ٢٠٤-٢٠٦ ؛ ابن حجر ، التلخيص الحبير ، ج ١ ، ص ١٧١ .
 - (٩) د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ، ص ٤٦٢ نقلاً عن كتاب (الولادة العملي) :

بدلاً من وضعه الطبيعي إلى الأمام^(١) .

ومدة الدم وافرازاته وهو ما يسمى Lochia أي دم النفاس فمدته لا تزيد عند الأطباء عن ستة أسابيع^(٢) .

وعودة الرحم عند الأطباء إلى وضعه الطبيعي يكون أكثره في ثمانية أسابيع أي ستين يوماً^(٣) .

وقد يعقب النفاس قبل الأربعين أو بعده وقبل مرور (خمسة عشر يوماً طهراً كما حدده الفقهاء)^(٤) حيضٌ معتاد . وقد لا ينقطع الدم بينهما إلا أياماً قليلاً أولاً ينقطع البتة^(٥). فهل يكون حيضاً أم نفاساً أم استحاضة ؟ ! وعلى ذلك فما هي مدة الطهر اللازم لحدوث الحيض ، وهل يمكن الحيض رغم عدم انقطاع دم النفاس ؟

وبعد فلا شك أن مثل هذه الأمور من الحيض والنفاس فيما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة ، أن الأولى فيها الرجوع إلى الطب والعلم ورأي الأطباء الثقات مع استقراء عادة غالب النساء ، والنساء القريبات نسباً فيما بينهن ، ولا يترك الأمر للاجتهاد في وقت غدا النظر فيه إلى تجويف الرحم ورؤيته ، والكشف عن حالات الصحة والمرض ممكناً . فهل يقبل بأن يكون النفاس ستين يوماً وغالب النساء ينتهي النفاس عندهن في ثلاثة أو أربعة أسابيع فإن زاد فهو حالة مرضية وأقصى ما يمكن الانتظار هو أربعون يوماً مما يستدعي السؤال عن السبب بعد ذلك ؟ !^(٦) وكثيراً ما يجاوز الدم الستين يوماً ! فهل يرد على أنه نفاس أيضاً ، وهو في الغالب مرض .

(١) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

(٢)، (٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

(٤) انظر النووي ، المجموع ، ج ١ ، ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٥) انظر : ابن قدامة ، المغني ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ، وجعله العلامة ابن قدامة حيضاً إن صادف عادة الحيض ، إن زاد الدم على أربعين يوماً .

(٦) انظر : د . محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

الرضاع :

لقد نص القرآن الكريم والحديث الشريف على أمومة الرضاع وحرمتها ، وحرمة ما ينتشر بسببها من جهة الراضع والمرضع . كما تنتشر حرمة النسب .

قال الله عز وجل ٠٠ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ٠٠٠٠٠ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ ٠٠﴾ (سورة النساء - آية ٢٣) .

وقال رسول الله ﷺ : «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ»^(١) .

وقال رسول الله ﷺ : «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الرَّحْمِ»^(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : «وَإِنَّهُ يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»^(٣) .

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : «قيلَ لرسولِ الله ﷺ أين أنت يا رسولَ الله عن ابنة حمزة ؟ أو قيل : ألا تخطبُ بنتَ حمزة بن عبد المطلب ؟ قال : «إن حمزة أخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ»^(٤) . وفي رواية أخرى عند الإمام مسلم قال ﷺ «إنها لا تحلُّ لي إنها ابنةُ أخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ»^(٥) .

وعن أم حبيبة - رضي الله عنها - أنها قالت لرسول الله ﷺ : (فإني أُخْبِرْتُ أَنَّكَ تَخْطُبُ دُرَّةَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ ، قال «بنت أم سلمة ؟» قلت : نعم . قال ﷺ : «لو أنها لم تكن ربيتي في حجري ، ما حلت لي . إنها ابنةُ أخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ . أرضعتني وأباها ثويبة»^(٦) .

وعن عمرة بنت عبد الرحمن* - رحمها الله - أن عائشة زوج النبي ﷺ

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة ، ص ١٠٦٨ ، ح (١٤٤٤) .

(٢) مسلم ، المرجع السابق ، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة ، ص ١٠٧١ .

(٣) مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٧٢ .

(٤) مسلم ، المرجع السابق ، (١٤٤٨) ؛ البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب «وأُمَّهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ» ص ١٥٢ ، ح (٥١٠٠) .

(٥) مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٧١ ، ح ١٤٤٦ .

(٦) مسلم ، المرجع السابق ، ١٠٧٢ ، ح (١٤٤٩) ؛ البخاري ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، (٥١٠١) .

* عمرة بنت عبد الرحمن بن زرارة الأنصارية المدنية ، كانت في حجر عائشة - رضي الله عنها - قال ابن المديني عمرة أحد الثقات العلماء بعائشة الأثبات فيها ، وقال ابن المديني عن سفيان أثبت حديث عائشة عمرة والقاسم وعروة ، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله - ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة ، قال ابن سعد كانت عالمة ، وكتب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إلى ابن حزم أن يكتب له أحاديث عمرة ، ماتت سنة ثمان وتسعين وهي بنت سبع وسبعين سنة (تهذيب ١٢/٤٣٨) .

أخبرتها أن رسول الله ﷺ كان عندها، وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، قالت، فقلت : يارسول الله، هذا رجل يستأذن في بيتك، فقال النبي ﷺ : «أراه فلاناً ، لَعَمَّ حَفْصَةُ مِنَ الرِّضَاعَةِ» . قالت عائشة : لو كان فلان حياً لعمها من الرضاعة دخل علي ؟ فقال ﷺ : «الرَضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ»^(١) .

إن النصوص السابقة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، لتدل دلالة قاطعة على ثبوت التحريم بالرضاع بين المرضع والراضع ، وتنشطر تلك الحرمة من جهة المرضعة إلى أصولها ، وفروعها ، وأخواتها ، وأعمامها وعماتها ، وأخوالها وخالاتها ، وزوجها .

أما من جهة الراضع فالحرمة تنحصر فيه وفي فروعه وزوجه فقط ، دون أن تتعدى إلى غيرهم .

وإذا در اللبن للمرأة غير ذات الزوج أو البنت البكر ، فأرضعت به صار الراضع ابناً لها^(٢) ويحرم بهذا الرضاع ما يحرم من الولادة .

قدر الرضاع :

لقد ورد ذكر الحرمة الرضاع في القرآن الكريم عاماً ، دون تحديد القدر المحرم من حليب المرضع قال سبحانه وتعالى ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ وورد كذلك هذا العام في الحديث الشريف . فعن عقبة بن الحارث* -رضي الله عنه- قال . . . : (تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً فَجَاءَتْنا امْرَأَةٌ سُودَاءُ فَقَالَتْ : أَرْضَعْتُكُمَا ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : تَزَوَّجْتُ فَلَانَةَ بِنْتَ فَلَانٍ فَجَاءَتْنا امْرَأَةٌ سُودَاءُ ، فَقَالَتْ لِي : إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُكُمَا ، وَهِيَ كَاذِبَةٌ . فَأَعْرَضَ عَنْهُ (عن عقبة) ، فَأَتَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ وَجْهِهِ قُلْتُ : إِنَّهَا كَاذِبَةٌ . قَالَ ﷺ : «كَيْفَ بِهَا وَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّهَا قَدْ زَعَمْتَ أَنَّهَا قَدْ أَرْضَعْتُكُمَا، دَعَّهَا عَنْكَ»^(٣) . ففارقها عقبة -رضي الله عنه- ونكحت زوجاً غيره^(٤)

(١) البخاري ، المرجع السابق ، ح (٥٠٩٩) ؛ مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٦٨ ، ح (١٤٤٤) .

(٢) انظر : ابن المنذر الاجماع ، ص ٧٧ ؛ الشوكاني ، السيل الجرار ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ ، ٤٦٩ .

* عقبة بن الحارث بن عامر بن عبد مناف القرشي أبو سُرُوعَة . في قول أهل الحديث . وقيل أبو سُرُوعَة أخوه ، أسلم عقبة وأخوه يوم الفتح . قال ابن عبد البر له حديث واحد في شهادة امرأة على الرضاع لأحفظ له غيره ، مات عقبة في خلافة ابن الزبير (الإصابة ٤٨٨/٢ ؛ الاستيعاب ١٠٧/٣) .

(٣) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب شهادة المرضعة ، ص ١٥٣ ، ح (٥١٠٤) .

(٤) انظر : البخاري ، الصحيح ، م ١ ، ج ١ ، كتاب العلم ، باب الرحلة في المسألة النازلة ، ص ٣٥ ، ح (٨٨) .

ورغم موقف عقبة رضي الله عنه وما قاله عن هذه المرأة فإن رسول الله ﷺ لم يسأل عن مقدار هذا الرضاع وكيفيته بل ترك ﷺ الأمر على إطلاقه . وكذلك فإن الأحاديث السابق ذكرها في حرمة الرضاع لم يحدد فيها رسول الله ﷺ القدر المحرم من الرضاع ، ولم يسأل ويتحرر ﷺ عن مقدار هذا الرضاع الذي أوجب الحرمة ، ولا عن عدد تلك الرضعات ، ولا عن كيفيتها .

لكنه قد وردت عدة روايات عند الإمام مسلم تقييد مقدار الرضاع المحرم وعدمه .

فعن أم الفضل - رضي الله عنها - قالت : (سأل رجلُ النبي ﷺ : أَتُحَرَّمُ المِصَّةُ ؟ فقال ﷺ «لا»^(١) .

وعنها - رضي الله عنها - قالت . قال رسول الله ﷺ : «لَا تُحَرَّمُ الإِمْلاجَةُ* والإِمْلاجتَانِ»^(٢) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت . قال رسول الله ﷺ : «لَا تُحَرَّمُ المِصَّةُ والمِصَّتَانِ»^(٣) .

وعن أم الفضل - رضي الله عنها - قالت : (دخل أعرابي على نبي الله ﷺ وهو في بيتي ، فقال : يا نبي الله ! إني كنت لي امرأة فتزوجت عليها أخرى ، فزعمت امرأتي الأولى أنها أرضعت امرأتي الحُدثى رُضْعَةً أو رَضْعَتَيْنِ . فقال نبي الله ﷺ «لَا تُحَرَّمُ الإِمْلاجَةُ والإِمْلاجتَانِ»^(٤) .

وعنها - رضي الله عنها - أنها قالت . قال رسول الله ﷺ : «لَا تُحَرَّمُ الرِّضْعَةُ أو الرِّضْعَتَانِ ، أو المِصَّةُ أو المِصَّتَانِ»^(٥) .

وعن أم الفضل - رضي الله عنها - أيضاً (أن رجلاً من بني عامر بن صعصعة قال : يا نبي الله ! هل تحرم الرِّضْعَةُ الواحدة ؟ قال «لا» .

وورد تحديد الرضعات بخمس معلومات كما في الحديث الموقوف عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : «كان فيما أنزل من القرآن : عشر رَضَعَاتٍ

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب في المِصَّة والمِصَّتَانِ ، ص ١٠٧٥ ، ح (١٤٥١) .

* الإِمْلاجَةُ : المرة الواحدة في الرضاع (انظر : ابن الأثير ، ج ٤ ، (ملج ، ص ٣٥٣) .

(٢) مسلم ، المرجع السابق .

(٣) مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٧٤ ، ح (١٤٥٠) .

(٤) مسلم ، المرجع السابق ،

(٥) مسلم ، المرجع السابق .

معلوماتٍ يُحَرِّمْنَ . ثم نُسَخِّنَ بخمسين معلوماتٍ . فتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يُقرأ من القرآن»^(١) .

فما هي الرضعة ؟ ! وما قدر المحرم من الرضاع ؟ !

عرف الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - الرضاع فقال : «الرضاع اسم جامع يقع على المصة وأكثر منها إلى كمال رضاع الحولين ، ويقع على كل رضاع وإن كان بعد الحولين»^(٢) ثم قال رحمه الله : «فلما كان هكذا وجب على أهل العلم طلب الدلالة هل يحرم الرضاع بأقل ما يقع عليه اسم الرضاع ، أو معنى من الرضاع دون غيره» ؟^(٣) .

أما الرضعة الواحدة فهي كما عرفها العلماء :

أن يلتقم الرضيع الثدي فيمص اللبن ثم يترك الثدي باختياره لغير عارض ، فيكون ذلك رضعة^(٤) .

والرضعة والمصة والإملاجة كلها بمعنى واحد ، وهي تعني الرضعة .

والمصّة : أخذ اليسير من اللبن^(٥) .

والإملاجة : من مَلَجَ : مَصَّ . وَمَلَجَ الصَّبِيَّ أُمَّهُ يَمْلُجُهَا مَلَجًا إِذَا رَضَعَهَا وَالْمَلْجَةُ : الْمَرَّةُ . وَالْإِمْلَاجَةُ : الْمَرَّةُ أَيْضًا ، من أَمْلَجَتْهُ أُمُّهُ : أي أَرْضَعَتْهُ^(٦) .

إذاً .. فالرضعة والمصة والإملاجة هي بمعنى واحد وهي من مصدر اسم المرة ، أي كلها تدل على المرة الواحدة من الرضاع ، والتي تسمى بذلك رضعة .

وقد اختلفت اجتهادات العلماء - رحمهم الله - في قدر الرضاع المحرم ،

(١) مسلم ، المرجع السابق ، باب التحريم بخمس رضعات ، ص ١٠٧٥ ، ح (١٤٥٢) .

(٢) الأم ، ج ٥ ، ص ٢٦ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ابن قدامة ، المغني ، ج ٩ ، ص ١٩٤ ؛ ص ٢٧ ؛ ابن تيمية ، الفتاوى ، م ٣٤ ، كتاب الظهار ، ص ٥٩ ؛ ابن القيم ، زاد المعاد ، ج ٥ ، ص ٥٧٥ ؛ الشوكاني ، نيل الأوطار ، ج ٦ ، ص ٤٣٨ .

(٥) انظر : ابن الأثير ، النهاية ، ج ٤ ، مادة (مصص) ، ص ٣٣٦ ؛ الشوكاني ، المرجع السابق .

(٦) انظر ابن الأثير ، المرجع السابق ، مادة (ملج) ، ص ٣٥٣ ؛ الشوكاني ، المرجع السابق .

فذهب الإمام أبو حنيفة^(١) والإمام مالك^(٢) ، رحمهما الله إلى أن قليل الرضاع وكثيره يحرم^(٣) إذا وصل جوف الرضيع ، ولم يقيدوا ذلك بعدد الرضعات . بل متى وصل اللبن إلى جوف الصغير كان رضاعاً محرماً ، معتمدين في ذلك على النصوص من الكتاب والسنة التي أطلقت الرضاع ، ولم تحدده .

واعتمد الإمام الشافعي^(٤) والإمام أحمد^(٥) على ما روته عائشة - رضي الله عنها - في أن الرضاع المحرم لا يكون إلا بخمس رضعات معلومات ، فجعلوا الخمس حداً في التحريم بالرضاع ، فلا رضاع أقل منها . وللإمام أحمد - رحمه الله - رواية أخرى أنه يحرم قليل الرضاع وكثيره^(٦) .

وكذلك فقد اختلفت صورة الرضاع وكيفيته عند الإمامين الشافعي^(٧) وأحمد^(٨) - رحمهما الله - وإن اتفقا - رحمهما الله - على عدد الرضعات المحرمات بخمس . وكذلك قال بالخمس الإمام ابن حزم^(٩) - رحمه الله - .

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن مازاد على الرضعتين فيحرم أما دونها فلا . فلا يحرم إلا ثلاث رضعات فأكثر^(١٠) . عملاً بحديث أم الفضل - رضي الله عنها - « لا تحرم المصة أو المصتان » .

وقد ورد أيضاً عن رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن عائشة - رضي الله عنها قالت : (دخل علي رسول الله ﷺ وعندي رجل قاعد^م . فاشتد ذلك عليه ورأيت الغضب في وجهه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ! إنه أخي من الرضاعة .

(١) انظر : الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج ٤ ، ص ٧ .

(٢) انظر الدسوقي ، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ، ج ٢ ، ص ٥٠٢ .

(٣) انظر : ابن عبد البر ، التمهيد ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ .

(٤) انظر : الأم ، ج ٦ ، ح ٦ ، ص ٢٧ .

(٥) انظر : ابن قدامة ، المغني ، ج ٩ ، ص ١٩٢ .

(٦) انظر : المرجع السابق .

(٧) انظر : الشافعي ، الأم ، ج ٦ ، ص ٢٧ .

(٨) انظر : ابن قدامة ، المغني ، ج ٦ ، ص ٢٧ .

(٩) انظر : المحلى ، ج ٧ ، ص ٩ .

(١٠) انظر : ابن عبد البر ، التمهيد ، ج ٨ ، ص ٢٦٧ .

قالت: فقال ﷺ « انظرن إخوانكن من الرضاعة . فإنما الرضاعة من المجاعة »^(١)

فإذا كان الصبي جائعاً والتقم الثدي فوضع لعدة دقائق متواصلة حتى امتلأت معدته وشبع ، فترك الثدي هل يمكن أن تعتبر هذه رضعة واحدة فقط ؟ ! على اعتبار أن الرضعة هي المصة والإملاجة .

فالحديث الشريف المذكور «إنما الرضاعة من المجاعة» ينص على أن ماسد الجوع كان رضاعاً محرماً تثبت به الأمومة والبنوة .

يعضد ذلك الحديث الذي رواه عبدالله بن الزبير - رضي الله - عنهما ، أن الرسول الله ﷺ قال «لا رضاع إلا ما فتق الأمعاء»^(٢) .

ففي هذين الحديثين الشريفين دلالة على أن الرضاعة التي تسد الجوع والتي تشق الأمعاء أو تملؤها وتؤدي إلى انتفاخها^(٣) ، هي رضعة محرمة وما كان أقل من ذلك لا يكون رضاعاً .

وإذا رضع الصبي خمس رضعات متفرقات ، لكنها لم تشبعه على الإطلاق ولو وصل اللبن جوفه هل تعتبر رضاعاً ، على التعريف السابق للرضعة ، بأنها المصة والإملاجة ؟ ؟

• زمن الرضاع المحرم ؟!

لا يوجد نص قطعي الدلالة والشبوت في تحديد الزمن الذي يصير فيه الرضاع محرماً .

وما ورد من أحاديث في ذلك لاتنھض للاحتجاج بها، فهي شديدة الضعف، والصحيح منها موقوف^(٤) ولا يثبت في ذلك إلا حديث «لارضاع إلا ما

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب «إنما الرضاعة من المجاعة» ، ص ١٠٧٨ ، ح (١٤٥٥) ؛ البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، باب من قال لا رضاع بعد حولين ، ص ١٥٣ ، ح (٥١٠٢) .

(٢) ابن ماجه ، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، السنن ، ج ١ ، كتاب النكاح ، باب لا رضاع بعد فصال ، ص ٣٥٨ ، ح (١٩٥٤) والحديث حسن ، انظر : الألباني ، إرواء الغليل ، ج ٧ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٣) انظر: معنى فتق، ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، مادة (فتق)، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٤) انظر : الزيلعي ، نصب الراية ، ج ٣ ، ص ٢١٨-٢١٩ ؛ ابن حجر ، التلخيص الحبير ، ج ٤ ، ص ٤ ؛ الشوكاني ، نيل الأوطار ، ج ٦ ، ص ٣٥٤-٣٥٥ ؛ الألباني ، إرواء الغليل ، ج ٧ ، ص ٢٢١ - ٢٢٤ .

فَتَقَّ (الامعاء) والحديث ليس نصاً في حصر الرضاع بزمن محدد وإنما دلالته على أن الرضاع المحرم هو ما دفع الجوع ، وفتح الأمعاء ، وكذلك حديث «إنما الرضاعة من المجاعة واعتبره العلماء -رحمهم الله- نصاً في التحريم في الصغر مع أن دلالته أيضاً أن الرضاع المحرم هو ما أشبع الراضع ودفع عنه شيئاً من الجوع»^(١) .

قال الإمام الحافظ ابن عبد البر - رحمه الله - بعد حديثه عن زمن الرضاع المحرم ، وأنه لا يكون إلا في الصغر ، وقد استشهد - رحمه الله - بحديث «إنما الرضاعة من المجاعة» - قال : «ولا أعلم في هذا الباب مسنداً غير هذا الحديث وليس له غير هذا الإسناد . وهو خلاف رواية أهل المدينة . عن عائشة رضي الله عنها ولكن العمل بالأمصار على هذا وبالله التوفيق»^(٢) .

وقد استدلل العلماء رحمهم الله على أنه لا رضاع إلا في الحولين وذلك من الآية الكريمة ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (سورة البقرة آية ٢٣٣) ومن قوله تعالى ﴿وَفِضْلُهُ﴾ (سورة لقمان - آية ١٤) .

وهذه النصوص من القرآن الكريم ليست نصاً خاصاً في تحديد أمد الرضاع المحرم ، إنما جاءت هذه الآيات الكريمات في ذكر الرضاع اللازم لتغذية الصغير والذي لا يصلح له غيره على هذه الصورة من الفائدة . ولأنه ورد عن رسول الله ﷺ أنه رخص لسهولة* - رضي الله عنها - بإرضاع سالم* - رضي الله عنه - وكان

(١) لاحظ البحث دلالة أخرى ستذكر آخر هذا البحث .

(٢) التمهيد ، ج ٨ ، ص ٢٦١ .

* سهلة بنت سهيل القرشية العامرية ، أمها فاطمة بنت عبد العزى بن أبي قيس ، أسلمت قديماً وهاجرت مع زوجها أبي حذيفة بن عتبة إلى الحبشة فولدت له هناك محمداً ، فلما مات أبو حذيفة تزوجت من عبد الرحمن بن عوف فولدت له سالماً .
(الإصابة ٣٣٦/٤ ؛ الاستيعاب ٣٢٥/٤) .

* سالم بن معقل مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أحد السابقين الأولين وكان مولى امرأة من الأنصار يقال لها فاطمة بنت يعار ، فأعتقته سائبة فوالى أباحذيفة ^{الصح} وكان - رضي الله عنه - يوم المهاجرين الأولين في مسجد قباء وفيهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان حسن الصوت بالقرآن وقد زوجه أبو حذيفة ابنة أخية بنت الوليد بن عتبة وتوفي في معركة اليمامة مع مولاه أبي حذيفة سنة اثنتي عشرة للهجرة .
(الإصابة ٦/٢ ؛ الاستيعاب ٧٠/٢ سير ١٦٧/١ ؛ ط ابن سعد ٨٥/٣ ؛ أسد الغابة ٣٠٧/٢) .

قد شهد بديراً . كما روى الإمام مسلم - رحمه الله - عن عائشة - رضي الله عنها - : (أن سالماً مولى أبي حذيفة* كان مع أبي حذيفة وأهله في بيتهم . فأتت (تعني ابنة سهيل) النبي ﷺ . فقالت : إن سالماً قد بلغ ما يبلغ الرجال . وعقل ما عقلوا - وإنه يدخل علينا . وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً . فقال لها النبي ﷺ «أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ ، وَيَذْهَبِ الَّذِي فِي نَفْسِ أَبِي حَذِيفَةَ» - فَرَجَعَتْ فَقَالَتْ : إني قد أَرْضَعْتُهُ ، فَذْهَبَ الَّذِي فِي نَفْسِ أَبِي حَذِيفَةَ»^(١) .

وعن زينب بنت أبي سلمة - رضي الله عنهما - قالت : سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول لعائشة : والله ! ما تطيب نفسي أن يراني الغلام قد استغنى عن الرضاعة . فقالت : لم ؟ قد جاءت سهلة بنت سهيل إلى رسول الله ﷺ . فقالت: يا رسول الله ! والله ! إني لأرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم . قالت : فقال رسول الله ﷺ «أَرْضِعِيهِ» فقالت : إنه ذو لَحِيَةٍ فقال «أَرْضِعِيهِ يَذْهَبُ مَا فِي وَجْهِ أَبِي حَذِيفَةَ»^(٢) .

وعند الإمام مالك - رحمه الله - في الموطأ قال لها رسول الله ﷺ : «أَرْضِعِيهِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ»^(٣) .

وعن زينب بنت أبي سلمة - رضي الله عنها - أن (أمها أم سلمة زوج النبي ﷺ) كانت تقول : أبى سائر أزواج النبي ﷺ أن يُدْخِلْنَ عليهن أحداً بتلك الرضاعة . وقلن لعائشة والله ! ما نرى هذا إلا رخصةً أَرْخَصَهَا رسولُ الله ﷺ لسالم خاصة . فما هو بداخلِ علينا أحدٌ بهذه الرضاعة . ولا رَائِيْنَا^(٤) .

* أبو حذيفة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي العبشمي وأسمه مهشم كان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين، وكان إسلامه قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وزوجته هي سهلة بنت سهيل بن عمرو، وقد ولدت له محمداً في أرض الحبشة، وتوفي رضي الله عنه يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة وله من العمر ثلاث وخمسون سنة (الإصابة ٤٢/٤ ؛ الاستيعاب ٣٩/٤ ؛ سير ١٦٣/١ أسد الغابة ٧٠/٦ ؛ ط ابن سعد ٨٤/٣) .

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب رضاع الكبير ، ص ١٠٧٦ ، ح (١٤٥٣) .

(٢) مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٧٧ - ١٠٧٨ .

(٣) موطأ الإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي، الطبعة الثامنة، (بيروت : دار النفائس) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ؛ ص ٤١٦ ؛ ابن عبد البر ، التمهيد ، ج ٨ ، ص ٢٥٠ .

(٤) مسلم ، المرجع السابق ، ص ١٠٧٨ .

قال الإمام النووي - رحمه الله - : «اختلف العلماء في هذه المسألة فقالت عائشة رضي الله عنها (وأهل الظاهر) ، تثبت حرمة الرضاع برضاع البالغ كما ثبت برضاع الطفل لهذا الحديث وقال سائر العلماء من الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار إلى الآن لا يثبت إلا من له دون سنتين إلا أبا حنيفة فقال سنتين ونصف وعن مالك رواية سنتين وأيام واحتج الجمهور بقوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وبالحديث الذي ذكره مسلم بعد هذا «إنما الرضاعة من المجاعة» وبأحاديث مشهورة وحملوا حديث سهلة على أنه مختص بها وبسالم»^(١) كما قالت سائر أزواج النبي ﷺ .

وقد ذهب الحافظ ابن حجر إلى أن الحديث يحمل على الخصوصية ، لا الرخصة لأن اعتباره ترخيصاً لسهولة لرفع ما حصل لها من المشقة - وقد تبناوا سالمًا في الجاهلية مما أدى إلى اختلاط سالم بسهولة - يقتضي إلحاق من يساوي سهولة في المشقة والاحتجاج بها فتنتفي الخصوصية ويثبت مذهب المخالف^(٢) .

وذهب فئة من العلماء إلى اعتبار قصة سالم من الحكم المنسوخ وقد ضعف الحافظ ابن حجر هذا القول ، ذلك أن سياق القصة يشعر بسبق حكم رضاع الصغير في الحولين^(٣) .

قال الإمام ابن جرير الطبري في الحكم المنسوخ في جامع البيان : «قد بينا في غير هذا الموضع من كتابنا ، وفي كتابنا «كتاب اللطيف من البيان» أن كل آيتين أو خبرين كان أحدهما نافياً حكم الآخر في فطرة العقل ، فغير جائز أن يقضى على أحدهما بأنه ناسخ حكم الآخر إلا بحجة من خبر قاطع للعذر مجيئه»^(٤) .

ثم ذهب الحافظ - رحمه الله - في هذه المسألة إلى اعتبارها واقعه عين يطرؤها احتمال الخصوصية ، ولذا يجب الوقوف عن الاحتجاج بها^(٥) .

وقد ذكر الإمام الشوكاني - رحمه الله - الرد على الجمهور في قولهم بأن «قصة سالم» خاصة به، كما وقع من أمهات المؤمنين لما قالت عائشة لهن ذلك محتجة

(١) شرح صحيح مسلم ، م ٥ ، ج ١٠ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) انظر : فتح الباري ، ج ٩ ، ص ١٤٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق .

(٤) م ٢ ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ .

(٥) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٩ ، ص ١٤٩ .

به . وأجيب بأن دعوى الاختصاص تحتاج إلى دليل وقد اعترفن بصحة الحجة التي جاءت بها عائشة ، ولا حجة في إيائهن لها كما أنه لا حجة في أقوالهن ، ولهذا سكنت أم سلمة لما قالت لها عائشة «أمالك في رسول الله ﷺ وآله وسلم أسوة حسنة ؟» ولو كانت هذه السنة مختصة بسالم لبينها رسول الله ﷺ كما بين اختصاص أبي بردة بالجذع* من المعز ، واختصاص خزيمة* بأن شهادته كشهادة رجلين»^(١) . وقد استنكر البعض إرضاع الكبير لأنه يبيح للأجنبي رؤية بدن المرأة وقد رأى الإمام ابن عبد البر ، أن إرضاع الكبير يكون بأن يحلب له اللبن ويسقاه ، دون أن تلقمه المرأة الثدي لأن ذلك لا يحل عند جماعة العلماء^(٢) .

وقال القاضي عياض : «لعلها حلبته ثم شربه من غير أن يمس ثديها ولا التقت بشرتهما»^(٣) . قال الإمام النووي «وهذا الذي قاله القاضي حسن ويحتمل أنه عفي عن مسه للحاجة كما خص بالرضاعة مع الكبر والله أعلم»^(٤) .

وهذا التحريم بالرضاع يثبت بشرب الغلام اللبن دون أن يلتقم الثدي . قال الحافظ ابن عبد البر : «وقد أجمع فقهاء الأمصار على التحريم بما يشربه الرضيع من لبن المرأة . وإن لم يَمصَّهُ من ثديها»^(٥) .

أما رضاع الكبير فقد جاء في التمهيد موقف علماء الأمة من حديث عائشة - رضي الله عنه - في قصة سهلة . قال الإمام ابن عبد البر : «٠٠ إنه حديث

* جذع : أصل الجذع من أسنان الدواب ، وهو ما كان منها شاباً فتياً ، وهو من المعز ما دخل في السنة الثانية ، (ابن الأثير ، ج ١ ، (جذع) ، ص ٢٥٠) .

* خزيمة بن ثابت بن الفاكه بالفاء وكسر الكاف بن ثعلبة الأنصاري ، أبو عمارة المدني ، من السابقين الأولين إلى الإسلام ، شهد بدرأ وما بعدها ، جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين فسمي ذا الشهادتين . وبقي - رضي الله عنه - بصفين كافاً سلاحاً حتى قتل عمار - رضي الله عنه - قتلته الفئة الباغية - فقاتل عندئذ حتى قتل مع علي - رضي الله عنهما - بصفين سنة سبع وثلاثين للهجرة . (الإصابة ٤٢٥/١ ؛ الاستيعاب ٤١٧/١) .

(١) نيل الأوطار ، ج ٦ ، ص ٣٥٢ .

(٢) التمهيد ، ج ٨ ، ص ٢٥٧ .

(٣) النووي ، شرح صحيح مسلم ، ج ٥ ، ص ٩ ، ص ٣١ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) التمهيد ، ج ٨ ، ص ٢٥٧ .

ترك قديماً ولم يعمل به . ولم يَتَلَقَّه الجمهور بالقبول على عمومه . بل تلقوه على أنه خصوص . والله أعلم» .

«وممن قال رضاع الكبير ليس بشيء (ممن رويناك لك عنه وصح لدينا) عمر ابن الخطاب . وعلي بن أبي طالب . وعبد الله بن مسعود . وابن عمر . وأبو هريرة . وابن عباس . وسائر أمهات المؤمنين غير عائشة - رضي الله عنهم - وجمهور التابعين . وجماعة فقهاء الأمصار . منهم الثوري . ومالك . وأصحابه . والأوزاعي وأبو حنيفة وأصحابه . والشافعي وأصحابه . وأحمد والطبري - رحمهم الله - ومن حجتهم قوله ﷺ : «إنما الرّضاة من المجاعة» .
ولا رضاع إلا ما أنبت اللحم والدم»^(١)»^(٢) .

والمعهود أن الصحابي قد لا يبلغه الحكم فيقضي بخلافه أما وقد ثبت الحديث، فالتلقي له يكون على الرخصة . وهو أولى من رد حديث رسول الله ﷺ بالكلية . ذلك أن المعتاد والغالب والمتعارف عليه بين الناس أن الرضيع إنما يكون صغيراً ، لأنه لا يستغني عن اللبن . فهو قوام حياته ، أما الكبير فليس محتاجاً للرضاع . فإذا عرض مثل هذا الحال من المشقة والحرّج ، كما كان من سهولة - رضي الله عنها - ، فالأسلم الأخذ برخصة رسول الله ﷺ لسهولة رضي الله عنها .

ورضاع الكبير مذهب عائشة - رضي الله عنها - ، وقد قال الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - أمد الرضاع المحرم ثلاثون شهراً ، وكذلك قال أحد تلامذته^(٣)

وقال كثير من أصحاب الإمام مالك رحمه الله بأن الزيادة في أمر الرضاع بشهر أو شهرين^(٤) أو ثلاثة بعد الحولين هي من الحولين ، أي تثبت فيها الحرمة بالرضاع^(٥) .

وقال جماعة من أهل الكوفة : مدة الرضاع المحرم ثلاث سنين ، فمأزاد عليها لم يحرم^(٦) .

(١) هذا حديث لا يصح ، انظر ص ٣٤٠ من هذا البحث .

(٢) التمهيد ج ٨ ، ص ٢٦٠ .

(٣) انظر : الكاساني ، بدائع الصنائع ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٤) انظر : الدسوقي ، حاشية الدسوقي ، ج ٢ ، ص ٥٠٢ .

(٥) انظر : ابن القيم ، زاد المعاد ، ج ٥ ، ص ٥٧٨ .

(٦) انظر : المرجع السابق .

وقال الخليفة عمر بن العزيز - رضي الله عنه - : مدة الرضاع إلى سبع سنين ، وروي عنه خلاف ذلك ، وحكى عنه ربيعة - رحمه الله - أن مدته حولان وإثنا عشر يوماً^(١).

وذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن طائفة من السلف والخلف بأنه يحرم رضاع الكبير ، ولو أنه شيخ^(٢).

وممن قال بالرخصة في رضاع الكبير . . الإمام ابن حزم في المحلى فقال - رحمه الله - «ورضاع الكبير محرم ولو أنه شيخ يحرم كما يحرم رضاع الصغير»^(٣)

وقد أجاب الإمام ابن حزم عما رآه جمهور العلماء في الأدلة التي احتجوا بها رحمهم الله على عدم حصول الحرمة برضاع الكبير فقال - رحمه الله - بعد أن ذكر حديث سهلة - رضي الله عنها - : «فهذه الأخبار ترفع الإشكال وتبين مراد الله عز وجل في الآيات المذكورات أن الرضاعة التي تتم بتمام الحولين أو بتراضي الأبوين قبل الحولين إذا رأيا في ذلك صلاحاً للرضيع أنها هي الموجبة للنفقة على المرضعة والتي يجبر عليها الأبوان أحبا أم كرهما ، ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (الآية) وليس في هذا تحريم الرضاعة بعد ذلك ولا أن التحريم ينقطع بتمام الحولين ، وكان قول الله تعالى : ﴿وَأُمَّهُتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوْتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾ ولم يقل تعالى في حولين ولا في وقت دون وقت زائد على الآيات الأخرى . وعموماً لا يجوز تخصيصه إلا بنص يبين أنه مخصص له لا بظن ولا بمحتمل لا ببيان فيه ، وكانت هذه الآثار قد جاءت مجيء التواتر رواها نساء رسول الله ﷺ » .

«فهو نقل كافة لا يختلف مؤلف ولا مخالف في صحته فلم يبق من الاعتراض إلا أن يقول قائل : هو خاص لسالم كما قال بعض أزواج رسول الله ﷺ فليعلم من تعلق بهذا أنه ظن ممن ظن ذلك منهم - رضي الله عنهم - ، وهكذا جاء في الحديث أنهم قلن : (ما نرى هذا إلا خاصاً لسالم وما ندري لعله رخصة لسالم) فإنه هو ظن بلا شك فإن الظن لا يعارض بالسنن قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ

(١) انظر : المرجع السابق .

(٢) انظر : المرجع السابق .

(٣) ج ٧ ، ص ١٧ .

لا يُغْنِي من الحق شيئاً» (سورة النجم - آية ٢٨) وشتان بين احتجاج أم سلمة - رضي الله عنها - باختيارها وبين احتجاج عائشة - رضي الله عنها - بالسنة الثابتة وقولها لها : (أمالك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ؟ وسكوت أم سلمة - رضي الله عنها - ينبئ برجوعها إلى الحق عن احتياطها) .

« لا يحل لأحد أن يقول في نص ثابت هذا منسوخ إلا بنص ثابت مبين غير محتمل فكيف وقول سهلة - رضي الله عنها - لرسول الله ﷺ : (كيف أرضعه وهو رجل كبير) ؟ بيان جلي لأنه بعد نزول الآيات المذكورات وباليقين ندري أنه لو كان خاصة لسالم أو في التبني الذي نسخ لبينه عليه الصلاة والسلام كما بين لأبي بردة في الجذعة» .

«قال أبو محمد (ابن حزم) وقول رسول الله ﷺ «إنما الرضاعة من المجاعة» حجة لنا بينة لأن للكبير من الرضاعة في طرد المجاعة نحو ما للصغير فهو عموم لكل رضاع إذا بلغ خمس رضعات كما أمر رسول الله ﷺ . قال علي (ابن حزم) فصح أن عائشة - رضي الله عنها - كان يدخل عليها الكبير إذا أرضعته في حال كبره أخت من أخواتها الرضاع المحرم ونحن نشهد بشهادة الله عز وجل ونقطع بأنه تعالى لم يكن ليبيح سر رسول ﷺ ينتهكه من لا يحل له من قوله تعالى ﴿والله يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة المائدة - آية ٦٧) فنحن نوقن ونبت بأن رضاع الكبير يقع به التحريم وليس في امتناع سائرهن - رضي الله عنهن - من أن يدخل عليهن بهذه الرضاعة شيء ينكر لأن مباحاً لهن أن لا يدخل عليهن من يحل له الدخول عليهن وبالله التوفيق»^(١) .

وقد يكون فيما قاله الإمام ابن حزم - رحمه الله - الصواب والله سبحانه أعلم .

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إلى القول برخصة رضاع الكبير عند الداعي إلى ذلك كما كان من سهلة - رضي الله عنها - ، فقد جاء في الفتاوى ما يلي : «وهذا الحديث (في رضاع الكبير) أخذت به عائشة وأبى غيرها من أزواج النبي ﷺ أن يأخذن به ؛ مع أن عائشة روت عنه قال ﷺ «الرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ» . لكنها رأت الفرق بين أن يقصد رضاعة أو تغذية . فمتى كان المقصود الثاني لم يحرم إلا ما كان قبل الفطام . وهذا هو إرضاع عامة الناس . وأما الأول

(١) مقتطفات من كتاب المحلى ، ج ٧ ، ص ٢٢-٢٤ .

فيجوز إن احتيج إلى جعله ذا محرم وقد يجوز للحاجة ما لا يجوز لغيرها . وهذا قول متوجه»^(١) .

وقد أخذ بقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - العلامة ابن القيم فقال - رحمه الله - «حديث سهلة ليس بمنسوخ ، ولا مخصوص ولا عام في حق كل أحد ، وإنما هو رخصة للحاجة لمن لا يستغنى عن دخوله على المرأة ، ويشق احتجابها منه ، كحال سالم مع امرأة أبي حذيفة ، فمثل هذا الكبير إذا أرضعته للحاجة أثر رضاعه ، وأما من عداه ، فلا يؤثر إلا رضاع الصغير ، وهذا مسلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - ، والأحاديث النافية للرضاع في الكبير إما مطلقة فتقيد بحديث سهلة ، أو عامة في الأحوال فتخصيص هذه الحال من عمومها ، وهذا أولى من النسخ ودعوى التخصيص بشخص بعينه ، وأقرب إلى العمل بجميع الأحاديث من الجانبين ، وقواعد الشرع تشهد له ، والله الموفق»^(٢) .

فمسلك شيخ الإسلام - رحمه الله - وما أخذه عنه تلميذه ابن القيم - رحمه الله - أن النية هنا لها أثرها فإذا رضع الكبير لغير حاجة الحرمة بالرضاع فلا يؤثر رضاعه . حتى لو كان رضاعه لدفع المجاعة ، والرضاع من الجوع لا يؤثر إلا في الصغير ، فقد قسم شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله تعالى - الرضاع المحرم إلى نوعين بحسب الدافع إلى ذلك :

- ١- في الصغير لدفع الجوع (محرم) ، والرضاعة للحرمة (محرم) .
- ٢- في الكبير لحصول الأمومة والبنوة بالرضاع (محرم) ، دون حصولها بالرضاع لدفع الجوع في الكبير .

وما رآه الإمام ابن القيم - رحمه الله - تكملة لمسلك شيخ الإسلام رحمه الله في أن الحديث ليس بمنسوخ ولا مخصوص بشخص سهلة وسالم - رضي الله عنهما - بعينهما ، ولا هو عام في حق كل أحد . بل هو مخصص للعام من أدلة الرضاع ، ومقيد للمطلق من تلك الأدلة . وبذلك تنتفي دعوى الخصوصية لقصة سهلة ، في أنها لها وحدها - رضي الله عنها - .

(١) ج ٣٤ ، كتاب الظهار ، ص ٦٠ .

(٢) زاد المعاد ، ج ٥ ، ص ٥٩٣ .

وقد علق الإمام الشوكاني - رحمه الله - على ما رآه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله فقال : «وهذا هو الراجح عندي ، وبه يحصل الجمع بين الأحاديث ، بأن نجعل قصة سالم - رضي الله عنه - المذكورة مخصصة لعموم «إنما الرضاعة من المجاعة» (١)» .

وقال الإمام الشوكاني في السيل الجرار «وهذا الحديث حديث رضاع الكبير قدرواه أمهات المؤمنين وغيرهن من الصحابة ورواه الجمع الجم من التابعين» (٢) .
وهكذا من بعدهم حتى قال بعض الأئمة : إن هذه السنة بلغت رواتها نصاب التواتر .

والحاصل أنه خاص يوقف على من عرضت له تلك الحاجة واحتاج أن يدخل على امرأته من لا يستغني عن دخوله بيته وتردده في حاجاته ومصالحه . ومن رده بلا برهان فقد انتصب للرد على رسول الله ﷺ وآله وسلم وعلى الشريعة المطهرة .
ومن قصره على سالم فقط فقد جاء بما لا يعقل ولا يوافق القواعد المقررة في الأصول» (٣) .

وبعد هذا العرض لأقوال العلماء - رحمهم الله - ومذاهبيهم في رضاع الكبير، من خلال توجيههم - رحمهم الله - لحديث رسول الله ﷺ وجد البحث في أدلة الرضاع عدة ملاحظات :

- ١- إن حديث رضاع الكبير يكاد أن يبلغ رواته نصاب التواتر .
- ٢- إن رضاع الكبير رخصة للأمة عند الدواعي والحاجة كحال سهولة - رضي الله عنها - .
- ٣- لا تنطبق على الحديث وفق قواعد الأصول دعوى النسخ أو دعوى الخصوصية لسهولة - رضي الله عنها - فقط .
- ٤- ما ورد في تحديد الرضاع بالحولين غير مسند عن رسول الله ﷺ وهو من الموقوف ، والموقوف لا يحتج به ، لاسيما إذا عورض بالمسند القوي .

(١) نيل الأوطار ، ج ٦ ، ص ٣٥٣ .

(٢) ينظر : عددهم وأسمائهم رحمهم الله في المحلى لابن حزم ج ٧ ، ص ٢٢-٢٣ ؛ وفي نيل الأوطار للشوكاني ، ج ٦ ، ص ٣٥٢ .

(٣) ج ٢ ، ص ٤٦٩ .

٥- قد دلت آية الرضاع في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيَّعْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣٣) على الاسترضاع بعد الحولين وفق قواعد علم الصرف في لغة العرب . وذلك من تشبيه من تجاوز الحولين بالرضيع من باب (استفعل)^(١) .

٦- إن حكم رضاع الكبير جاء متأخراً^(٢) بدليل قول عائشة - رضي الله عنها - : «فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن» .

٧- لقد أحدث رضاع سهولة لسالم - رضي الله عنهما - أثراً في الحرمة ، ودليله أن رسول الله ﷺ قال لسهولة - رضي الله عنها ، «أرضعيه تحرمي عليه ، ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة» فرجعت رضي الله عنها فقالت : (إني قد أرضعته ، فذهب الذي في نفس أبي حذيفة) وفي رواية أخرى قالت رضي الله عنها (والله ما عرفته فوجه أبي حذيفة . والمعلوم أن مثل هذه السمات التي تظهر على الوجه لا يملكها الإنسان ، وتغير انطباع وجه أبي حذيفة - رضي الله عنه - من الغضب والكراهية إلى نقيضه من الانبساط ، بحيث إنها - رضي الله عنها - لم تعد ترى ذلك في وجهه - رضي الله عنهما - لدلالة كبرى على أثر التحريم برضاع الكبير .

٨- عمل عائشة - رضي الله عنها ، وعمل أهل المدينة بهذا الحديث في قصة سهولة وسالم - رضي الله عنهما - يدل على أنه لاجرأ بالأخذ بهذه الرخصة عند الحاجة . فقد روى الإمام مالك في الموطأ عن عروة بن الزبير - رضي الله عنه - في حديث سهولة حين أتت تسأل رسول الله ﷺ فقال لها ﷺ : «أرضعيه خمس رضعات فيحرم بلبنها . وكانت تراه ابناً من الرضاعة فأخذت بذلك عائشة أم

(١) الحملاري ، شذا العرف في فن الصرف ، ص ٤٤ ؛ وانظر : الجصاص ، أبا بكر أحمد ابن علي الرازي ، أحكام القرآن (دار الفكر) ، ج ١ ، ص ٤٠٩

(٢) انظر : الشوكاني ، نيل الأوطار ، ج ٦ ، ص ٣٤٩ .

المؤمنين . فيمن كانت تحب أن يدخل عليها من الرجال ، فكانت تأمر أختها أم كلثوم* بنت أبي بكر بن الصديق ، وبنات أخيها ، أن يرضعن من أحببت أن يدخل عليها من الرجال»^(١) .

٩- إن عائشة - رضي الله عنها - هي راوية حديث «إنما الرضاعة من المجاعة» قد عملت بحديث قصة سهلة - رضي الله عنها - ، في حين رأى فيه العلماء -رحمهم الله- أنه يتعارض مع رضاع الكبير ، ولو أن الحديث نسخ بذلك لما عملت به عائشة - رضي الله عنها - وهي - رضي الله عنها - أولى الناس بذلك ورعاً وعلماً .

وقد لاحظ البحث أنه مما يرشد إليه قول رسول الله ﷺ «إنما الرضاعة من المجاعة» هو ضرورة وواجب الاحتياط في الرضاعة فلا تكون مبنية على الفوضى والعشوائية وبلا حاجة ماسة للصغير ، كأن يتعذر رضاعه من الوالدة ففي قوله ﷺ «انظرن إخوتكن من الرضاعة ، فإنما الرضاعة من المجاعة» دلالات عدة :

أ- إن الرضاعة لا تكون محرمة إلا إذا شبع الصغير من هذا اللبن وامتلات معدته وطرده جوعه . ولو كان برضعة واحدة . على أن تكون مشبعة .

ب- إن الرضاعة لا تكون إلا إذا قام الداعي إلى ذلك حيث يتعذر إرضاعه وتغذيته من الأم الوالدة ، وذلك حفظاً للأنساب وعدم اختلاطها .

ج- إن الكبير إذا رضع ينبغي أن يدفع هذا الرضاع عنه الشعور بالجوع ويشعر بالشبع منه حتى تحصل به الحرمة، وذلك كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - «خمس رضعاتٍ معلومات» مشبعات : يعلم بذلك أن اللبن قد سرى في جسمه

واختلط في تكوين خلاياه .

* أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق التيمية . . تابعة مات أبوها وهي حمل فولدت بعد وفاة أبيها وقصتها بذلك صحيحة - في الموطأ وغيره أرسلت حديثها وأمها حبيبة بنت خارجة . (الإصابة ٤/٤٩٣) .

(١) ابن عبد البر ، التمهيد ، ج ٨ ، ص ٢٥٠ .

ولا شك أن كل ما يدخل جوف الإنسان يسد جوعه ولو كان ماءً . ويشعر من خلاله بفتق أمعائه (معدته)؛ على أنه ووقوفاً عند قوله ﷺ: «أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ» لابد من النية في رضاع الكبير ، كأمر تعبدي لا يتحقق وقوعه إلا بالنية .
فرضاع الكبير يكون بنية التحريم لا بنية دفع الجوع .

الحرمة بالرضاع أو بشرب لبن المرضع

وأخيراً . . فإن أمر أمومة الرضاع يبقى سراً من الأسرار الإلهية التي لم يقف الإنسان عند مبادئ علمها حتى الآن . لاشك أن لبن الأم المرضع يؤثر في الجسم الإنساني فيحدث في النفس أثراً روحياً وعاطفياً ، ورابطة تشبه رابطة النسب التي لا يستطيع الإنسان مهما بلغ من القسوة والعناد والجحود إلا أن يخفض جناحه لها، ويكسر جبروته واستعلاءه فيعترف بهذه القرابة من النسب في وقت ما ، ولا سيما للأبوين، أو الأخوة بل وحتى الأبعد منهم نسباً؛ وهي أشد ما تكون بين الأم وولدها .

ولذا كان الواجب أن يقال : إن الرضاع لا يتعلق بالتقام ثدي الأم ورضاع اللبن منه ، بل إن الرضاع راجع إلى ما يحدثه هذا اللبن الذي دخل الجوف لهذا الابن من الرضاع وسواء كان ذلك بمص اللبن من الثدي أو بشربه من الفم أو وصوله إلى الجوف عن طريق الفم أو غيره . ودليل ذلك حديث الرسول ﷺ «إنما الرضاعة من المجاعة» فحصر الرسول ﷺ أمر الرضاع بما يسد الجوع عن هذا الذي تناول الحليب ولا شك أن الرضيع قد يلتقم الثدي - مدة من الوقت لا بأس بها - ومع ذلك قد لا يتجاوز ما دخل فمه بضع قطرات من اللبن ، وما دام لم يسد جوعه، فلم تحدث الحرمة - والله سبحانه أعلم - ولذا فإن ما أذهب عنه الجوع من لبن المرضع هو الذي سبب حرمة الرضاع وبالتالي يحدث هذا الشبع بلا مص من الثدي .

وهنا لابد من القول إن فكرة إنشاء بنوك اللبن من حليب النساء لحفظه عند الحاجة ولا سيما للأطفال الخداج ، دعوة تناهض الدين والأخلاق والصحة العامة في المجتمع . ذلك أنه من الصعب جداً حصر هذا الحليب بكل واحدة منهن . مما يؤدي إلى اختلاط الأنساب وقد قال ﷺ «يحرّم من الرضاعة ما يحرم من النسب»^(١) . فكيف ! وهذه البنوك تقوم على اختلاط لبن هؤلاء الأمهات وإعداده ليقدم لهؤلاء الصغار الخداج . ولذا فقد رأى المجمع الفقهي في هذه القضية

(١) مسلم ، الصحيح ، ج ٢ ، كتاب الرضاع ، باب تحريم الرضاعة من . . . ، ص ١٠٧٠ ، ح (١٤٤٥) .

ما يلي : «بعد أن عرض على المجمع الفقهي دراسة فقهية ودراسة طبية حول بنوك الحليب . وبعد التأمل فيما جاء في الدراستين ومناقشة كل منها مناقشة مستفيضة شملت مختلف جوانب الموضوع تبين :

- ١- أن بنوك الحليب تجربة قامت بها الأمم الغربية ثم ظهرت مع التجربة بعض السلبيات الفنية والعلمية فيها فانكمشت وقل الاهتمام بها .
- ٢- إن الإسلام يعتبر الرضاع لحمة كلحمة النسب يحرم ما يحرم به من النسب بإجماع المسلمين ، ومن مقاصد الشريعة الكلية المحافظة على النسب وبنوك الحليب مؤدية إلى الاختلاط أو الريبة .
- ٣- إن العلاقات الاجتماعية في العالم الإسلامي توفر للمولود الخداج أو ناقص الوزن أو المحتاج إلى اللبن البشري في الحالات الخاصة ما يحتاج إليه من الاسترضاع الطبيعي ، الأمر الذي يغني عن بنوك الحليب .

وبناء على ذلك قرر :

- أولاً : منع إنشاء بنوك حليب الأمهات في العالم الإسلامي .
- ثانياً : حرمة الرضاع منها»^(١) .

من أسرار حكمة أمومة الرضاع

وهناك أمر لابد من الإشارة إليه . . وهو أن البروتين (بروتين الحليب) يدخل في تركيب خلايا الجسم .

ذكر الدكتور محمد عبد المنعم عبد العال أستاذ الامراض الجلدية والتناسلية في كلية الطب في جامعة الأزهر أن : «بروتين اللبن وهو الجزء الهام في نمو الطفل - يدخل في تركيب الخلايا»^(٢) ، ولما كان لبن الأم هو المورد الأول والأساسي الذي يأخذ منه الطفل البروتين ، فإن أخوات الرضاعة يصبحون متشابهين إلى حد كبير في التركيب الخلوي وبالتالي في نمو الجهاز العصبي ، وترتيب الجينات على

(١) قرارات وتوصيات مجمع الفقه الإسلامي بجدة ربيع الثاني ١٤٠٦هـ - ديسمبر ١٩٨٥م كتاب قرارات وتوصيات ١٤٠٦هـ - ١٤٠٩ ، (جدة : مجمع الفقه الإسلامي) ، ص ١٥٠ .

(٢) انظر : د . خالص جليبي ، الطب محراب الإيمان ، فصل بعنوان بعض أسرار الخلية، ص ٣٥-٤٨ ؛ د . محمد علي البار ، خلق الإنسان ص ١٣٠ .

الصبغيات^(١) ، مما يجعلهم متشابهين في الصفات الوراثية .

ومعروف أن الزواج في هذه الحالة يؤدي إلى ظهور صفات ضعيفة وآثار سيئة في هذا النسل ، مما يؤثر بدوره على الأفراد والمجتمع^(٢) .

ذلك أن الحامض النووي هو المكون الأساسي للمادة الوراثية^(٣) وهو ينتج عن المواد البروتينية .

وقد جاء في البحث الذي قدمه الدكتور محمد أيمن صافي والدكتور محمد علي البار إلى مؤتمر القاهرة أن اللبن البشري يكون مصدراً لمولدات المضادات القوي والخلايا القابلة للحياة ، وقد تسبب الاضطرابات في مناعة الجسم الحي في حالة الزواج بالأنسباء بالرضاعة . حيث إن لبن الأم يعتبراً مصدراً إظهارياً لتكوين العظم الغشائي والكرات الليمفاوية القابلة للنمو .

وهذا البحث المقدم إلى مؤتمر القاهرة يفتح آفاقاً جديدة للبحث في موضوع الرضاع^(٤) عسى أن يأتي الحق والبيان فيما يطرحه موضوع الرضاع من الأسئلة والقرآن الكريم والحديث الشريف المعجزة الخالدة التي ستستمر تأويلاتها حتى قيام الساعة .

والأجدر بالمسلمين أن يتسلموا زمام الأمر في هذه المسائل لأنهم هم وحدهم الذين يملكون كنز هذه العلوم .

قال الله عز وجل :

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (سورة النحل - آية ٦٦) .

(١) انظر : د . خالص جلبي ، المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ د . محمد علي البار ، المرجع السابق .

(٢) نظرات إسلامية على الأمراض الجلدية والتناسلية ، الطبعة الأولى (دار السلام ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) ، ص ٧١ .

(٣) انظر : آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة .

(٤) من ملخص البحث الذي قدم إلى مؤتمر القاهرة ، ملخص البحث في ورقة مطبوعة الدكتور محمد أيمن صافي .

إن الله سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً وعبرة في الأنعام التي نأخذ منها اللبن الطيب المذاق والسائغ شرابه ، الذي يحضر ويصنع من بين فرث ودم . فما هو الفرث ؟ !

جاء في لسان العرب في معنى هذه الكلمة مايلي :

الْفَرْثُ : السَّرْجِينُ مادام في الكَرَشِ ، والجمعُ فَرْوُثٌ ، ويقال السَّرْقِينُ ، والْفَرْثُ والفَرَاثَةُ سَرْقِينُ الكَرَشِ .

ويقال فَرَّثَهَا : فَتَّهَا ، وفَرَّثْتُ كَبِدَهُ : أَفَرَّثُهَا فَرَثًا ، وفَرَّثْتُهَا تَفَرِّثًا إذا ضَرَّيْتَهُ حتى تَنْفَرَّتْ كَبِدُهُ ؛ وفي الصحاح : إذا ضَرَّيْتَهُ وهو حَيٌّ ، فأنْفَرَّتْ كَبِدُهُ أي انْتَشَرَتْ . وفَرَّثَ الْجِلَّةَ ، يَفَرِّثُهَا وَيَفَرِّثُهَا فَرَثًا إذا شَقَّهَا ثم تَشَرَ جميع ما فيها ؛ وقيل كل ما نثرته في وعاءٍ فَرَثٌ ^(١) .

والملاحظ حول معنى الآية الكريمة ﴿مَنْ بَيْنَ فَرَثٍ وَدَمٍ﴾ واستناداً إلى المعنى اللغوي لـ «فرث» . أن ما يحضر منه الحليب لا يقصد به المواد الغذائية الموجودة في المعدة (الكرش) ، والدم الذي يحمل هذه المواد الغذائية إلى الجنين فقط ، بل إن هذه المواد الغذائية المحمولة في الدم والواصلة إلى الثدي تمر بمرحلة تصنيع أخرى هذه المرحلة هي تحويل تلك المواد إلى الحليب السائغ للشرب ، ومدلول الآية الكريمة يوحي بذلك «من بين فرثٍ ودم» فمن خلال هذا الفرث والدم يخرج اللبن الذي يغذي الناس ، أو اللبن الأم الذي يغذي الصغير .

إن الثدي مصنع هياه الله عز وجل لإعداد الحليب ، وذلك بما يقدمه من مواد بروتينية التي هي الأساس في تكوين اللبن وتساهم المواد الغذائية المحمولة عبر الدم بقسط ضئيل منها .

وجد البحث والله عز وجل أعلم أنه لا يستبعد أن تقوم هذه الخلايا الموجودة في الثدي في جزء منها بعملية تفتيت للمواد البروتينية والتي تتحول إلى اللبن مع ما يحمله الدم ، وقد تحمل هذه البروتينات المفتتة من الخلايا الخصائص الوراثية التي توجد في بروتين كل خلية ^(٢) من خلايا جسم الأم . والمسألة هذه محتاجة إلى

(١) ابن منظور ، ج ١٠ ، مادة (فرث) ، ص ٢٠٨ .

(٢) د . آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة ، الفصل الثاني ، الأساس الكيميائي للوراثة ص ٣٧-٢٥ ؛ يراجع كتاب «الطب محراب الإيمان» د . خالص جلبي ، مبحث : تكوين البروتين الخلوي .

دراسة من المختصين ذلك أنه كما جاء في كتاب «الرضاعة من لبن الأم» يحدث في غدد الثديين - خلال الحمل - تغييرات جذرية من حيث البنية التشريحية والوظيفة الفيزيولوجية . فتتكاثر الخلايا الحويصلية في الثدي ، وتتشكل قنوات جديدة ، وفي نهاية الحمل يصل وزن كل ثدي حوالي ٤٠٠ غرام ، لزيادة حجم ووزن الثديين ، بسبب تضخم في الأوعية الدموية في الثدي ، وتكاثر في الخلايا والأنسجة ، وتوضع الشحوم ، وحبس للماء والشوارد فيهما ، ويزداد جريان الدم إلى حوالي الضعف في ثدي الحامل عنه في غير الحامل^(١) .

وتقوم الخلايا الحويصلية المفترزة في الثدي بتركيب بروتينات ودسم الحليب اعتباراً من منتصف الحمل^(٢) ويصنع بروتين الحليب من الأحماض الأمينية* ، في خلايا هذه الحويصلات ، وقليل منه ينقل من البروتين الموجود في البلازما^(٣) وبذلك يمكن تعريف عملية تصنيع الحليب بمايلي : «هي عملية حيوية تتم في خلايا الثدي ، وتحتاج إلى قدر من الطاقة حتى تتحول المواد البسيطة المنقولة بواسطة الأوعية المركبة الموجودة في الحليب^(٤) .

يضاف إلى ذلك أهمية السكر في تشكيل الحليب ، وتكونه^(٥) ، ذلك أن البروتين لايتكون بدون السكر ، فالسكر ضروري وأساسي في تكونه ، ولذا فإن الحليب في الثدي لايتشكل حتى يتشكل السكر المخصص لهذا البروتين ، وهو اللاكتوز ، وإن الهرمونات التناسلية تقوم أثناء الحمل بكبح نشاط هذا الأنزيم فلا يتركب اللاكتوز ولايتشكل الحليب^(٦) .

(١) انظر : د . حسان شمسي باشا ، ص ٥٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(*) الأحماض الأمينية : الحمض الأميني هو عبارة عن ذرة من اجتماع حمض وأمين كما هو اسمه ، والحمض معروف والأمين هو الذي يوجد في تركيبه ذرة آزوت مع ذرتين من الهيدروجين وتكون صفاته معاكسة للحمض أي تميل للقلوية (د . خالص جلبي ، الطب محراب الإيمان ، ص ٥٣) .

(٣) انظر : د . خالد علي المدني ، و د . رفيدة خاشقجي ، الرضاعة الطبيعية من لبن الأم ، الطبعة الأولى ، (جدة : دار المدني ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) ، ص ١٤٢-١٤٣ .

(٤) انظر : المرجع السابق .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٦) انظر : د . حسان شمسي باشا ، الرضاعة من لبن الأم ، ص ٥٨ ، وينظر هناك كيفية تشكل الحليب بمساعدة السكر .

يضاف إلى تلك الملاحظات في حرمة الرضاع أن حليب الأم يحتوي أكثر من ١٠٠.٠٠٠ مئة ألف كرية دم في ميليلتر ومعظم هذه الكريات هي من الكريات البيض ؛ ومعظمها من نوع وحيدات النوى أو البالعات التي تلتهم الجراثيم ، وتبلغ نسبة هذه الكريات في اللبأ مستوى أعلى بكثير عما بعده^(١) .

وإذا علم أن الصبغيات في الإنسان أكثر ماتظهر في خلايا الكريات البيضاء -لذا كانت الكريات البيض تحتل الدرجة الأولى في الأنسجة الشائعة لدراسة صبغيات الإنسان -^(٢) كان من الممكن وضع هذه المسألة في الحسبان في التحريم الحاصل بالرضاع .

وأخيراً ٠٠ إن ثمة أسئلة يطرحها مبحث الرضاع .

- ١- ما هو الرضاع المحرم ؟ صفة قدرأ ؟ ومنأ ؟ .
- ٢- هل يمكن لحكم أن يكون حلالاً وحراماً في آن واحد ؟
- ٣- أليس من الأولى أن يؤخذ برخصة رسول الله ﷺ لسهولة - رضي الله عنها - في رضاع الكبير ، لاسيما والمسلمون مطالبون بإيواء الملايين من اليتامى ممن فقدوا الآباء والأمهات والأهل والأرض ، في كل أنحاء العالم الإسلامي ، فإذا كفل المسلم الصغير بعد مضي الحولين من عمره ، فما المانع من أن يرضع هذا الطفل الذي تجاوز العامين فأكثر ؟ أم أن كفالة اليتيم غدا مفهومها اليوم العون المادي فقط ؟! إن الكفالة تعني التربية والرعاية والحماية والتوجيه والقيام بكل ما يصلح حال هذا الصغير حتى يستغني . ولا شك أن نشأته في الأسرة ستولد الحاجة إلى الاختلاط بأفرادها بعد سن التمييز ، فلو حصل الرضاع ، وصار واحداً من هذه الأسرة لكان في ذلك الخير الحاصل بالأخذ برخصة رسول الله ﷺ .

٤- ما هي أسرار الحكمة الإلهية في أمومة الرضاع ؟ وفي وحرمتها ؟

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٤) انظر : د . آلان إمري ، أساسيات علم الوراثة ، ص ٧٧ .

إن هذه يبدو أن هذه الكريات تختلف عن تلك التي في تركيب الدم بدليل أن حليب الأم في دم توافق الزمر الدموية ، كما يحدث في حالات نقل الدم غير المتفق في الزمرة والصيغة .

الفصل الثامن عشر رعاية الجنين خلال الحمل وحمايته

من أضرار التدخين والمخدرات والمهلكات المختلفة

إن الله سبحانه وتعالى - قد هيا للجنين في بطن أمه كل أسباب الحماية والرعاية ، وأحاطه عزوجل بقدرته وعنايته في جميع مراحل نموه .

قال الله عزوجل : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون آية ١٢-١٤).

وقال تعالى : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقُدْرُونَ﴾ (سورة المرسلات آية ٢٠-٢٣).

فقد جهز الله سبحانه وتعالى الأم بوعاء منيع قوي حصين هو الرحم ، الرحم الذي سماه القرآن الكريم بالقرار المكين .

ولا أبلغ من دلالة القرآن الكريم على حماية الجنين ورعايته في بطن أمه من هذه التسمية للمكان الذي ينمو فيه ﴿في قرارٍ مَكِينٍ﴾

وهو مكين فعلاً وقد بين العلم الحديث ذلك ذلك ووضحه غاية التوضيح ومن ذلك أن الرحم محمي بقدرته الله سبحانه داخل هيكل عظمي متين يمنعه من كل عدوان خارجي، تثبته أربطة وصفاقات (أغشية) مختلفة تحفظه عضلات الحوض من السقوط ، ولذا يكاد يستحيل الوصول إلى الرحم بأي نوع من الأذى .

والرحم نفسه مكون من ثلاث طبقات ، تقوم مجتمعة وحارسة على حفظ الجنين ، وحماية الأم من النزف ، بما فيها من عضلات عاصرة تقفل الفوهات الدموية بعد الولادة .

ثم إن من أسباب استقرار الرحم افراز هرمون الحمل (البروجسترون)* ، الذي يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومنتدة ، مما يسم الرحم بطابع السكينة والوقار ، فإن بداخله درة مكنونة ينبغي المحافظة عليها وعدم قذفها إلى الخارج^(١).

(*) البروجسترون : هرمون يهيء الرحم لقبول البويضة الملقحة (المورد ، ص ٧٢٨) .

(١) انظر : د. محمد علي البار ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ٥٥-٦٧؛ ويراجع كتاب القرار المكين ، د. مأمون شقفة ، فصل بعنوان «القيام بوظيفة القرار المكين»، ص ٤٢-٧٢ ، لمعرفة تفاصيل وعجائب حماية الرحم للجنين وجميل صنع الله عز وجل وقدرته سبحانه .

ومن جهة أخرى ، فإن الله سبحانه وتعالى ، قد هيا هذه الأم ، لحماية الجنين ورعايته ، والتضحية في سبيله ، فتقوم الهرمونات مجتمعة على التأثير في هذه الأم- ، لتوقظ فيها مشاعر الأمومة ، فتباشر عملها حارسة أمينة لهذا المخلوق الضعيف الذي استودع عندها .

فتعطف عليه ، ويقوم جسمها بحفظه وتأمين كل ما يحتاج إليه ، بل ويستعد لافراز اللبن عند ولادته^(١) .

وهكذا تعمل الأمومة عملها في المرأة ، لتحولها إلى أم لهذا الصغير فترعاه جينياً في بطنها ثم طفلاً ، ويبقى الولد في عطف أمه عليه طفلاً مهما بلغ من العمر ، إنها الأمومة التي خلقها الله سبحانه وتعالى في قلب هذه الأم ، ويصف الإمام ابن القيم رحمه الله حال الأم مع وليدها ، منبهاً إلى عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى .

«فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون في أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وأثرتك على نفسها على عدد الأنفاس منقادة اليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل مايؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء وأن حياتها تتراد في حياتك فمن الذى وضع ذلك في قلبها؟»^(٢) .

وكل أم تلمس هذا في نفسها ، تحس بقدرة الله العظيم القادر، التي تقهرها ، وترغمها على الاستجابة لهذا المخلوق الضعيف ، ومع ذلك فهي تشعر بغاية السعادة والمتعة وهي تقوم برعاية ولدها ، مهما عانت من تعب أو ألم أو مشقة ، إنها قدرة الله سبحانه وتعالى في الفطرة السوية التي تستجيب ، وتدعن لأمر بارئها ، ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (سورة الذاريات آية-٢١).

ولذا فالأم تحاول أن تحمي جينيتها ما وسعها ذلك ، لاسيما وهو في بطنها، ولأنه في هذه المرحلة يؤسس لمستقبله كله ،فأي تأثير فيه ، لا بد وأن يظهر بعد خروجه من ظلمات البطن ، وغالباً مايستمر معه طيلة حياته .

ولذا كان واجب الأم كبيراً ومسؤوليتها عظيمة ، في رعاية جينيتها ، وحمايته

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٧٣-٧٤.

(٢) مفتاح دار السعادة ، (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة) ، ج ١ ، ص ٢٥٦-٢٥٧.

وحفظه من كل ما قد يضر به ، مستجيبة لنداء فطرتها التي جبلت عليها ، إلا أن يعرض لهذه الفطرة شيء فيحيد بها عن رعاية هذا الجنين الضعيف .

لكن الأمر يبقى أمانة في عنقها فهي المستودع الذي يعيش فيه هذا المخلوق ليخرج إلى الحياة ، وأي تفريط في هذه الوديعة سوف تتحمل الأم مسؤوليته عاجلاً أو آجلاً .

ولا أشد على الأم من الندم والحسرة ، إن فرطت في هذه الأمانة وحفظها ، ثم رأت في مولودها نقصاً أو عيباً ، سببه هذا الاستهتار بجنينها ، وعدم المبالاة به .
قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (سورة الزمر آية - ٦).

إن خلق الإنسان وتشكله يتم في بطن أمه فإذا خرج إلى الدنيا ، خرج كاملاً ولا يبقى له إلا النمو ليكبر ويغدو راشداً ، قوياً ، يسعى في الحياة .

فتكوين الجنين داخل رحم الأم هو أهم وأخطر مرحلة في عمره كله من الناحية العلمية أو الفسيولوجية .

فما هي هذه المراحل باختصار على ضوء المؤثرات فيها :

عندما يتم التلقيح ، وتبدأ مرحلة النطفة الأمشاج ، يبدأ معها تكوين الجنين ، لتتحول إلى علقة ، خلال هذه المرحلة ، ويمكن لأي تأثير عدواني على هذه العلقة أن يسبب نقصاً وتشوهاً في الجنين وإن كان غالباً ما يتم سقوطه ، إذا حدث له وتعرض لشيء من المواد المسخية (المخرية والمشوّهة) ، أما التشوه الذي يكون على أشده ، وهو ما يسمى بالمرحلة الحرجة فإنه يكون من الأسبوع الثاني إلى الأسبوع الثامن .

وتسمى هذه الفترة في علم الأجنة المرحلة الجنينية ، للتفريق بينها وبين المرحلة التي تليها ، وهي من الأسبوع التاسع إلى الولادة ، والتي تعرف بمرحلة الحمل .

وفي الفترة الجنينية (الأسبوع الثاني إلى الأسبوع الثامن) يكون نمو الخلايا على أشده ، وفي الفترة بين الأسبوع الرابع حتى الثامن يبدأ تخليق الأعضاء ، وهي أشد فترات النمو حرجة ، ولهذا فإن تأثير المواد المسخية ، من عقاقير ومواد كيميائية وأشعة ومكروبات ، تكون على أشدها في هذه الفترة .

وتكون التشوهات الخلقية التي تحدث في هذه الفترة خطيرة وكبيرة ومتعددة . وعلى سبيل المثال ، فإن أي إصابة للجهاز العصبي للجنين في هذه الفترة تؤدي إلى عيوب خطيرة ، وقد تؤدي إلى وفاة الجنين بعد ولادته مباشرة ، إن ولد بدون دماغ ، لأن الفتحة الرأسية تقفل في اليوم الخامس والعشرين في الأنبوب العصبي ، والتي تشكل الجهاز العصبي في الجنين (أي قبل اليوم الثامن والعشرين من بدء التلقيح) أو قد تكون الإصابة في الفقرات السفلية من الأنبوب العصبي ، التي قد يعيش معها الجنين ، ويكون مشلول الأطراف السفلية على الأغلب .

ومعظم - إن لم تكن كل- التشوهات الخلقية التي تحدث في هذه الفترة المبكرة تؤدي إلى عاهات خطيرة جداً سواء كانت في الجهاز العصبي أو في الجهاز الدوري ، والقلب ، أو في الجهاز الهضمي ، أو الجهاز التنفسي .

أما التشوهات التي تحدث بعد الأسبوع الثامن فإن أغلبها يكون محدد الأثر ، وإن كان بعضها خطيراً ، وهي الفترة التي تسمى بمرحلة الحميل وتبدأ من الأسبوع التاسع منذ لحظة التلقيح وتمتد إلى نهاية الحمل وتؤثر المواد المسخية على الجنين وخاصة على الجهاز العصبي الذي يشاهد فترة نمو كبيرة منذ الأسبوع التاسع .

كما تؤثر على الجهاز التناسلي الذي يتكون في هذه الفترة ، (الأسبوع الثامن حتى الثاني عشر) ولهذا فإن الخلل في تكوين الأعضاء التناسلية الظاهرة يكون على أشده في هذه الفترة .

كما أن تكون الأسنان وسقف الحنك يظهر في فترة الحميل ، ولذا فإن المواد المسخية التي تؤثر على هذه المناطق تكون على أشدها في هذه الفترة .

وعلى سبيل المثال ، فإن تأثير التتراسيكلين* على الأسنان يكون على أشده في فترة تكون الأسنان أي بعد ١٢٠ يوماً من التلقيح .

وقد يكون التأثير خفياً ولا يظهر على الجنين ولا على المولود ويبقى سنياً طوياً حتى يظهر الأثر في سن الشباب^(١) .

إن هذه المرحلة الجنينية من يوم التلقيح إلى الولادة ، ومدتها شهور تمثل

(١) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه والأمراض الوراثية الأسباب والعلاجات والأحكام ، الطبعة الأولى ، (جدة : دار المنارة ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م) ، والحديث عن مراحل تكوين الجنين مأخوذ من ص ٦٣-٦٨ بتصرف ، وانظر: فصل «تكوين الجنين المشوه» ص ٤٩-٦٨ منه .

(*) التتراسيكلين: هو أحد المضادات الحيوية .

أهمية خاصة ، لأنها هي مرحلة لتأسيس الحيوي للنمو الجسمي والعقلي والنفسي ، والتغيرات التي تحدث فيها في بضعة أشهر ، تكون حاسمة ومؤثرة في حياة الفرد كلها ، وتعتبر هذه المرحلة في النمو هامة جداً ، فمثلاً يزداد وزن الجنين في هذه المرحلة من بدايتها حتى الميلاد ما يفوق على ثلاثة آلاف مليون مرة عما كان عليه عندما كان يرقد في الخلية الأولى^(١) .

إن أهم فترة في حياة الإنسان هي المرحلة الجنينية الأولى وذلك لأن الدماغ يتشكل في هذه الفترة ، وأي خلل يصيبه فيها ، فليس ثمة مجال لإصلاحه على الإطلاق .

و حين يولد الطفل يكون قد حصل على جميع الخلايا العصبية التي ستستمر معه مدى الحياة ، وذلك على عكس خلايا الجسم التي تبنى وتخلق من جديد في كل لحظة وفي كل آن^(٢) .

فما هي أسباب هذه التشوهات التي تحدث في الأجنة ؟

وهي تقسم إلى أربعة أنواع أساسية :

- ١- أسباب بيئية .
 - ٢- أسباب وراثية .
 - ٣- أسباب بيئية وراثية .
 - ٤- أسباب ميكانيكية آلية^(٣) .
- ويمكن أن تقسم الأسباب كالتالي :
- أ- أسباب راجعة إلى الأم .
 - ب- أسباب راجعة إلى الجنين .
 - ج- أسباب راجعة إلى المشيمة^(٤) .

(١) انظر : د - خالص جلبي ، الطب محراب الإيمان ، ص ٧٤ .

(٢) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٤١٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٤) المرجع السابق .

والذي يعني البحث هنا الأسباب التي ترجع إلى الأم والتي يمكنها تفاديها وتجنبها ما استطاعت ، أما الأسباب الوراثية الناتجة عن الأم فهي غير مسؤولة عنها إلا ما يمكن تفاديه وذلك بإخبار الطبيب المختص بحالتها وتاريخ أسرتها المرضي .
ولعل أقوى وأهم الأسباب التي يمكن للأم تجنبها وحماية نفسها وجنينها منها ما استطاعت هي :

- ١- الأشعة .
- ٢- الالتهابات والأمراض المعدية .
- ٣- العقاقير والمواد الكيماوية ، والخمر وملحقاته .
- ٤- العوامل الميكانيكية .

١- الأشعة

قد تتعرض الحامل للأشعة السينية أو غيرها أو المواد المشعة ، من أجل تشخيص بعض الأمراض (وقد تكون في العمل الذي يتطلب منها ذلك).
وقد لا يعلم الطبيب بحمل المرأة ، وخاصة في المراحل المبكرة من الحمل .
ويؤدي التعرض للإشعاعات إلى طفرات في المورثات، وإلى زيغ بالصبغيات، وإلى نقصان النمو داخل الرحم وخارجه، وإلى تشوهات خلقية تؤدي أحياناً إلى موت الجنين، أو إجهاضه، أو إلى ولادته بتشوهات خلقية . مثل صغر الدماغ ، والحنك المشقوق ، وتشوهات بالعظام والأعضاء الداخلية (الأحشاء) . والتخلف العقلي ، وكذلك التعرض للأشعة في وسط الحمل ونهايته تعرض الجنين للإصابة بسرطان الدم في سن الطفولة .

ويجب على الحامل أن تتجنب التعرض للأشعة ما استطاعت ، خاصة في الأشهر الأولى من الحمل .

بل إن الأطباء ينصحون بعدم إجراء الأشعة للنساء في فترة الخصوبة (من البلوغ إلى اليأس) إلا في الأيام العشرة الأولى من بداية كل حيضة ، والأفضل ألا تحمل المرأة في الدورة التي تجرى لها فيها أشعة على البطن ، في أي وقت كانت الأشعة من الشهر^(١) .

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٧ .

٢- الأمراض المعدية

إن الله سبحانه وتعالى قد حمى الجنين في بطن أمه من غزو الجراثيم ، وذلك بحاجز المشيمة الذي ينظف الدم الواصل إلى الجنين من كل أذى وبجسم الأم الذي يستقبل هذه الميكروبات ويقاومها ويمنعها من الوصول إلى الجنين .

ولكن بعض الفيروسات والبكتيريا والطفيليات- بقدر من الله سبحانه وتعالى- قد تصل إلى الجنين فتصيبه بالتشوهات ، أو تسبب إجهاضه هذه نبذة عنها ..

الفيروسات

فهناك عدة فيروسات تدخل إلى جسم الأم وتنتقل عبر دمائها إلى المشيمة ومن المشيمة إلى الجنين لتصيبه في كثير من الأحيان إصابات بالغة وتسبب له تشوهات خلقية مميتة في الحال ، أو عقب الولادة بفترة من الزمن حتى يحين الأجل المحتوم . وإن هذه الفيروسات قد لا تسبب في الغالب - للأم مرضاً ، وإنما تمر بها عابرة إلى الجنين لتصيبه بالضربة القاضية ، إلا في حالات (فيروس الإيدز والهريس) حيث يظهر المرض فيها على الأم .

وأهم هذه الفيروسات هي :

- ١- فيروس الحصبة الألمانية .
- ٢- فيروس الهريس البسيط .
- ٣- فيروس تضخم الخلايا .
- ٤- فيروس مرض الإيدز Hiv^(١) .

١- فيروس الحصبة الألمانية :

إن الأم التي تصيبها الحصبة الألمانية قبل الحمل تكون لديها مقاومة لهذا الفيروس وتقتله فور دخوله جسمها ، وبذلك تحمي جنينها منه .

لذا قام العلماء بتحضير لقاح من هذا الفيروس ، يعطى للفتيات قبل الزواج ، وبذلك أمكن حماية مئات الآلاف بل ملايين النساء من الإصابة به .

وقد وجد أن الفيروس إذا أصاب الحامل التي لم يتكون لديها مناعة بإصابتها السابقة أو باللقاح فإنها تنقله إلى جنينها مما يؤدي إلى العديد من التشوهات ،

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٨١- ٨٢

كصغر الدماغ ، والتخلف العقلي ، تخلف النمو عموماً ، صغر العينين ، الساد (المية البيضاء) في العينين ، عتامة القرنية التهاب مشيمة وشبكية العين ، عيوب خلقية في تكوين القلب ، الصمم ، تضخم الطحال والكبد ، عيوب خلقية في العظام .

وقد وجد أن أعلى ما تكون نسبة الإصابة بهذه العيوب في الشهر الأول من الحمل ٧٠% ، وتنخفض الإصابة إلى أقل من ٥٠% في الشهر الثاني ، أما في الشهر الثالث من الحمل فلا تزيد الإصابة عن ١٠ إلى ١٥ بالمئة .

٢- فيروس تضخم الخلايا

ويتسبب بكثير من التشوهات السابقة التي تحدثها الإصابة بحمى الحصبة الألمانية .

٣- فيروس الهريس.

وسببه العلاقات الجنسية المحرمة .

إن فيروس الهريس البسيط التناسلي ، وعادة ما يكون مسؤولاً عن إصابة الجنين إصابة بالغة ، قد انتشر انتشاراً ذريعاً في الغرب نتيجة موجة الإباحية ، وقد بلغت حالات الهريس الجنسي في الولايات المتحدة نصف مليون حالة جديدة كل عام وبلغ مجموع الحالات الموجودة حالياً أكثر من عشرين مليون حالة هريس جنسي وذلك في الولايات المتحدة الأمريكية فقط ،

وهذا الداء يصيب الأم بسرطان عنق الرحم ، ويصيب الجنين بالتشوهات من خلل عقلي ، صغر دماغ ، صغر العين ، خلل في نسيج الشبكية ، تكلسات في المخ ، استسقاء الدماغ ، التهاب مشيمة العين .

٤- فيروس مرض الإيدز ، وسببه العلاقات الجنسية غير الشرعية والمحرمة .

إن هذا المرض الخطير قد يؤدي إلى ولادة طفل مصاب بنفس المرض وهو مرض فقدان المناعة المكتسب ، حيث يصبح الجسم عرضه لجميع المكروبات .

فكيف يصل الفيروس إلى الجنين ؟

هناك عدة نظريات في كيفية وصول الفيروس إلى الأجنة وهي كالتالي :

١- يحمل المنى الفيروس وبالتالي فإن الحيوان المنوي الذي يلحق البويضة يسبب إصابة النطفة والأمشاج . وهذا يؤدي إلى إصابة الأجنة في مرحلة مبكرة ويعزى حدوث

بعض حالات الإجهاض الى هذا السبب .

٢- ينتقل الفيروس من دم الأم إلى دم الجنين عبر المشيمة ومنه الى الحبل السري فالجنين .

٣- يصاب الطفل أثناء عملية الولادة ونزوله من الرحم والمهبل المصاب .

٤- تحدث الإصابة بعد الولادة نتيجة الالتصاق والصلة الحميمة بينه وبين الأم أو الأب المصاب ، قبل ظهور الأعراض غالباً، وربما يكون انتقال الفيروس عبر الثدي أثناء الرضاعة .

ولقد تأكد وجود الفيروس في لبن الأم ، وذلك يؤكد احتمال الإصابة عن طريق الرضاعة من الأم .

٥- احتمال حدوث ذلك أثناء التلقيح الصناعي وأطفال الأنابيب^(١) .

وبما أن هذا المرض خطير جداً فإنه يقضي على المصاب به ، خلال عامين على الأكثر من بدء ظهور الأعراض .

وهكذا فإن إصابة الأجنة تعتبر كارثة^(٢) تحدث بالأمّة كلها ، ففي فرنسا وجد في وقت واحد أكثر من ٤٠ ألف سيدة حامل ، مصابة بالايذز^(٣) .

وهناك الكثير من الفيروسات التي تتسبب في تشويه الأجنة ، كحمى النكاف، فيروس الجدري ، التهاب الكبد الفيروسي ، الأنفلونزا ، وغير ذلك^(٤) .

البكتيريا

وهي تختلف عن الفيروسات في أنها أكبر حجماً ، وأهم أنواع البكتيريا على الإطلاق هو لولبيات مرض الزهري (داء الفرنجي) وهو مرض جنسي ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي (الزنا ، اللواط) ثم يمكن أن ينتقل إلى الزوجة ومنها إلى الأجنة ، وقد يجهض الجنين المصاب بالزهري ، أو أنه يعيش ولكنه يولد مصاباً بإصابات بالغة في جهازه العصبي وفي أحشائه ، وفي عظامه ، وفي أسنانه .

(١) انظر : د. محمد علي البار ، د. محمد أيمن صافي ، الإيدز وباء العصر ، الطبعة الأولى جدة : دار المنارة ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ص ٧٣ .

(٢) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٩١ .

(٣) مجلة الصحة ، العدد ٤٧ ، ص ٨٢ .

(٤) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٩٢ .

وتظل المرأة المصابة بالزهري معدية لأي جنين يتكون في رحمها طوال حياتها ما لم تتعالج^(١) وهذا جزاء من يعرض عن أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ سورة الإسراء - آية ٣٢).

٣- العقاقير والمواد الكيماوية والخطر :

إن من الأدوية ما يؤثر على الأجنة بشكل أو بآخر ، وهي كثيرة جداً ، لذا ينبغي على الحامل أن تتجنب ذلك إلا بأمر من طبيب يوثق به .

ومن هذه العقاقير والأدوية ، مجموعة العقاقير المضادة للحساسية ، ومجموعة العقاقير المضادة للكآبة ، وأدوية معالجة السكر ، ومجموعة الكورتيزون ، والهرمونات المنمية ، والبروجسترون ، والعقاقير المضادة للسرطان والأورام ، وأشهر هذه المواد الكيماوية عقار الثاليدوميد .

وهو عقار مهدىء وقد سبب كارثة مرعبة لآلاف الأطفال حيث ولدوا بأطراف مبتورة أو بدون أطراف .

بالإضافة إلى تشوهات خلقية في القلب وفي الجهاز الهضمي وتشوه خلقي في الأذن^(٢) .

وهناك الكثير من العقاقير المشوهة ، ينبغي أن تلم بها كل زوجة بل كل امرأة^(٣) ومن المواد المتسببة في التشوهات للأجنة :

الكحول :

تعتبر الكحول أكثر المواد المسببة للتشوه انتشاراً في العالم^(٤) .

قال الله عزوجل في كتابه الكريم : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة المائدة آية ٩٠).

فالكحول يسبب أضراراً للأم وللجنين ، وقد تؤثر الكحول في الجنين ، قبل أن تحمل الأم به، إذا كانت تتعاطى الكحول سابقاً ، حتى لو امتنعت عنها أثناء حملها.

(١) انظر: المرجع السابق ، ص ٩٨ - ١٠٠

(٢) انظر : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٣) حرصاً على الفائدة ، وتأدية للأمانة ، ينظر المرجع السابق ص ١١٨ - ١٤٢ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ١٢١ .

فقد يضطرب الطمث عند المرأة او يتوقف ، وقد يؤدي إلى حدوث الإجهاض وولادة أجنة ناقصة الوزن والحجم ... وولادة أجنة مشوهة تعرف باسم «متلازمة الكحول للأجنة» والتي تجعل المولود مصاباً بالإصابات العديدة منها التخلف العقلي وصغر نمو الدماغ ، وعيوب خلقية بعظام الوجه والفك ، وعيوب خلقية في القلب وقد تكون الأجنة مشوهة تشويها شديداً أو بسيطاً ، وذلك يعتمد في الغالب على درجة تناول المرأة الكحول أثناء الحمل ، فإذا كان التعاطي خفيفاً كانت الإصابات في الغالب خفيفة وإذا كان التعاطي شديداً كانت الإصابات شديدة ، وكذلك فإن تدخين السجائر مع تناول الكحول يزيد المخاطر التي تصاب بها المرأة المدمنة أو الرجل المدمن، ولكن الأمر بالنسبة للمرأة أخطر لشدة حساسية جسمها لهذه السموم وعدم مقاومتها لها .

أما بالنسبة للأجنة فإن الطامة تكون أعظم وأخطر عند اجتماع الكحول مع التبغ^(١) .

وقد أثبت الباحثون أن للكحول فعلاً مشوهاً للأجنة إذ تحدث اختلالات عقلية وجسدية في المولودين من أمهات يشربن الخمر ، كما إنه يؤدي إلى تشوه في الصبغيات ، وقد تتسبب في الإصابة بالسرطان^(٢) .

وقد قام أحد الأطباء في أوروبا بجمع إحصائيات للنطف التي تنعقد في ليلة رأس السنة المسيحية ، فوجد أن ٨٠% من الأطفال المتولدين من تلك النطف ناقصو الخلقة^(٣) .

هذا عدا عما يسببه تعاطي المخدرات للأبوين من إصابة الطفل بالإدمان عليها في مستقبل عمره وشبابه .

والأب والأم مسؤولان كلاهما عن اتجاه الولد نحو تعاطي المسكر ، فالذي ثبت أن أولاد مدمن الخمر يكونون في الغالب مدمنين وتكثر فيهم نزعة الإجرام ، بالإضافة إلى الخلل العقلي والعتة والجنون .

(١) انظر : د. محمد علي البار ، الأضرار الصحية للمسكرات والمخدرات والمنبهات ، الطبعة الأولى (جدة : الدار السعودية ، ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م) ص ٢١٣ .

(٢) انظر : دحسان شمسي باشا، قبسات من الطب النبوي ، ص ٢٣٨ .

(٣) «لاتزوجوه فتندموا» مجلة عفاف العدد ٣٣ ، ذو الحجة ، ١٤١٠هـ ، ص ٣٢ .

ولم يعرف ما إذا كان ذلك ناتجاً عن البيئة أو عن غيرها ، يقول العلماء في ذلك :

إننا لم نكتشف (جيناً) ناسلاً خاصاً في الحيوان المنوي أو البويضة يحمل خاصية الإدمان ، ولكننا نعلم أن نسبة المدمنين عالية جداً بين الذين لهم تاريخ عائلي بالإدمان ٦٢% بينما تكون النسبة لدى شارب الكحول العاديين (Social Drinkers) منخفضة وهي ١٦% . كما أجريت تجارب أخرى فنقل أولاد المدمنين من أسرهم وهم أطفال ، وأنشئوا نشأة عادية في بيئة بعيدة عن الإدمان ، فوجد أن نسبة كبيرة منهم انقلبت إلى الإدمان عندما تعرضت لشرب الخمر ، وهذا يدل على أن هناك استعداداً وراثياً على الأقل للإدمان بين المدمنين ، إن بذرة الإدمان تنمو بسرعة في تربة الإدمان العائلي فتتضافر عوامل الوراثة مع عوامل البيئة، في إيجاد ذرية تميل إلى الإدمان^(١) .

وكل نوع من أنواع المسكرات أو المخدرات له أثره وضرره الكبير على الجنين ومن ذلك : الهرويين، فإن المدخنة له إذا حملت «أدى ذلك إلى حدوث إجهاض أو ولادة أولاد مشوهين أو ينزل الطفل ميتاً ، وما هو أشد وأعتى أن الطفل قد ينزل وهو مدمن للهرويين أو المورفين ، فلا يسكت من الصراخ حتى يعطى جرعة من هذه المادة المخدرة»^(٢) .

والكلام نفسه يقال عن الشمة* والتدخين .

فالشمة يمتص الجسم ما فيها من نيكوتين ومواد مضرّة ، ويذهب من الأم إلى الجنين عن طريق المشيمة ، مما يؤثر في المشيمة نفسها ثم في الجنين نفسه، من عيوب خلقية، وضعف في النمو ، أو قد تسبب إجهاض الجنين^(٣) .

(١) انظر : د. محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، الطبعة الأولى ، (جدة : الدار السعودية ، ١٤٠٩-١٩٨٨م) ص ١١٨ .

(٢) د. محمد علي البار ، الأضرار الصحية للمسكرات ، ص ١٣٠ .

(*) الشمة : مكونة من التبغ (التنباك) وتستخدم في كثير من المناطق ، وخاصة في تهامة بالحجاز ، واليمن وحضرموت ، وفي السودان وثبت ضررها وتسببها لسرطان الفم ، واللسان وغير ذلك عدا عن أذياتها الأخرى ، (انظر : د. محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، ص ٣٢٦-٣٣٢) .

(٣) انظر : د. محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، ٣٣٠ .

أما التدخين ، فهو الطامة الكبرى على الأجنة نظراً لكثرة انتشاره ، فإن أثر التبغ يصل إلى أرحام الأمهات ، سواء كانت الأم ممن يدخن ، أو أنها تعيش مع من يتعاطى التدخين ولا سيما الزوج ، وتتخلص آثار التدخين في الأجنة في أرحام الأمهات بما يلي :

- ١- زيادة في حالات الإجهاض .
- ٢- نقص في وزن المواليد ، بمعدل ثمانية إلى تسعة غرامات عن كل سيجارة تدخن يومياً ، نظراً لنقص التروية بالأكسجين ، وقلة الشهية للأم المدخنة .
- ٣- زيادة ولادة الأطفال الموتى ، ووفيات الأطفال بعد الولادة .
- وتبلغ الزيادة في الوفيات ١٣٣ بالمائة بالمقارنة مع أطفال غير المدخنات .
- ٤- زيادة كبيرة في الأمراض الخلقية ، وخاصة عيوب القلب .
- ٥- بقاء نمو الأطفال بعد خروجهم من الأرحام ، وهم أضعف بنية ، وأقل ذكاء من غيرهم .
- ٦- زيادة ضربات قلب الجنين في أمهات المدخنات ، وهذه دلالة على نقص الأوكسجين .

ويستمر أثر التدخين على الرضيع ، وعلى الإنسان في كل مراحل حياته^(١).

يضاف إلى ذلك أن التدخين يؤثر على المرأة المدخنة ، فقد أثبت الباحثون أن مدخنات السجائر يحدث لديهن سن اليأس الطبيعي في عمر أكثر تبكيراً عما يحدث في غير المدخنات وفي مجموعة من النساء تمت مقابلتهن واستجوابهن بالمستشفيات في تسع مناطق حضرية في بلدان متقدمة ، كان هناك فرق قدره ٨ سنوات في العمر عند حلول سن اليأس بين النساء اللاتي لم يدخن إطلاقاً . العمر المتوسط (٤٩ر٤) سنوات وأولئك اللاتي كن يدخن ١٥ سيجارة يومياً على الأقل ، العمر الأوسط (٤٧ر٦) سنوات^(٢) .

ويزداد الأمر سوءاً إذا استعملت المرأة حبوب منع الحمل مع التدخين ، لأنها

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٣٣٧ - ٣٣٩ .

(٢) منظمة الصحة العالمية ، سلسلة التقارير الفنية ، رقم ٦٧٠ ، (جنيف ، ١٩٨٣م) ص ٢٣ .

عند ذلك تواجه أخطاراً مضاعفة^(١) عدا عما يسببه التدخين من مضار على الصحة العامة ، مما ينعكس أثره على الأم الحامل وجنينها .

٤- العوامل الميكانيكية

إن الأسباب الميكانيكية محدودة الأثر في إحداث التشوه أو الإجهاض ، ما عدا حالات الضرب على البطن ، أو الضغط على البطن بقوة ، أو إيصال شيء من الأدوات المؤذية إلى عنق الرحم ، أو الوسائل الطبية ، مما يؤثر على السائل الأمنيوسي الذي يحمي الجنين ، ويفقد هذا السائل أو جزء منه يصاب نمو الجنين بالخلل فيسقط ، أو ينمو مشوهاً^(٢) .

وأخيراً قد تتسبب الأم في التشوه، فتؤخر الحمل حتى تبلغ الأربعين ، أو يتسبب الأهل في تأخير زواج البنت ، مما يؤدي في بعض الأحيان إلى ولادة أطفال مشوهين ، كمرض داون (حالات المغولية) وسميت بذلك لأن وجه الطفل يشبه المغول، لكنه مصاب بالتخلف العقلي والعتة ، وسببه خلل في الصبغيات .

وتختلف نسبة ولادة هؤلاء الأطفال المشوهين حسب سن الحامل ، فإذا كان الحمل قبل سن ٢٥ فإن الاحتمال لايزيد عن واحد من كل ألفي ولادة ، أما إذا كانت سن الحامل قد وصلت الأربعين أو جاوزتها ، فإن الاحتمال يزداد إلى واحد من كل مائة ولادة^(٣) .

وأخيراً ..

فإن كل تلك الأسباب المؤدية إلى تشوهات الجنين ، قد نهى عنها الإسلام ، وحذر منها واعتبرها من الكبائر ، والقاعدة الأصلية في الإسلام أنه لا ضرر ، فإذا تخطى الإنسان هذه القاعدة ، فقد وقع في الإثم وعرض حياته وحياته لخطر ، كيف وقد خالف قول رسول الله ﷺ : (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ)^(٤) فالأم التي لا تتجنب عدوى الأمراض كما أمر رسول الله ﷺ تضر بطفلها وبنفسها ، وتتعرض لخطر الإصابة بالمرض هي وجنينها .

(١) انظر : د. محمد علي البار ، هل هناك طب نبوي ، ص ٩٥ .

(٢) انظر : د. محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ١٤٥-١٤٦ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(٤) ابن ماجه ، السنن ج ٢ ، كتاب الأحكام ، باب بني في حقه ما يضر بجاره ، ص ٧٨٤ ، ح (٢٣٤) . نقل الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة أقوال العلماء في هذا الحديث بأن مجموع طرقه يقوي الحديث ويحسنه (ج ١ ، ص ٤٤٣ ، ح ٢٥٠) ، ويستند الحديث إلى أصول من الوحي .

فالأم مسؤولة عن حماية نفسها وجنينها ، وعدم تعرضها لما يمكن أن يتسبب لها في نقل العدوى حتى من الزوج ، ولا سيما الأمراض التناسلية ، التي تؤدي إلى كوارث في الأمة كلها .

ومن هنا فقد راعى الإسلام اختيار الزوج الصالح ، والزوجه الصالحة ، تجنباً وحماية للذرية المقبلة . ولا سيما الحماية من الخمر والتدخين والمخدرات .

إنها أويئة خطيرة تكاد تفتك بالأمم ، والأم في كل ذلك مسؤولة عن تلك الأمانة المستودعة في بطنها .

وهي مسؤولة مسؤولية مباشرة عن عدم تعرضها لكل ما يمكن أن يضر بجنينها ، قبل الطبيب ، وقبل الزوج .

فليس لها أن تكتم ما في بطنها ، أمام الطبيب المعالج ، قال الله تعالى ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (سورة البقرة آية ٢٢٨) .

وهي بالتالي مسؤولة قبل الزوج عن تجنب الجنين كل ما يضر به .

ولا يقتصر الأمر على العوامل المادية فحسب ، بل إن الجنين يتأثر بالأسباب المعنوية ، من حزن وكآبة وخوف وغير ذلك ، ولا سيما وأن القدرات أو الملكات العليا في المخ ، توجد في الجنين في بداية الشهر الخامس ، مما يؤهله للحياة الإنسانية .

ذلك أن العلاقة بين الأم والطفل تقوم على ثلاث قواعد رئيسة هي :

١- قاعدة بيولوجية غريزية .

٢- قاعدة سيكولوجية نفسية .

٣- قاعدة اجتماعية تستند إلى المحيط الذي توجد فيه الأم وابنها^(١) .

ولكي ينشأ الطفل سليماً ويصبح إنساناً قوياً ، لابد وأن تقوم هذه القواعد على أسس صحيحة سليمة منذ تكونه جنيناً في بطن أمه .

(١) انظر : د. فايز قنطار ، الأمومة نمو العلاقة بين الأم والطفل ، ص ٤١-٤٢ .

الحماية النفسية والعصبية ..

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حين أمر أم موسى عليه السلام بعدم الخوف وطمأنها إلى مصير ابنها ومستقبله ، لتهدأ وتطمئن وتشعر بالأمان ، قال الله عزوجل ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص آية ٧).

وكذلك كان الاطمئنان لمريم عليها السلام - في حملها بعيسى عليه السلام - حين أتاه الملك مطمئناً ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (سورة مريم آية ١٩).

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (سورة مريم آية-٢١).

فماذا كان جواب مريم عليها السلام

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (سورة مريم آية ٢٢).

لقد قبلت هذا الحمل ، ورضيت به مرحلة بأمر الله سبحانه وتعالى ، وعاشت مع هذا الجنين تلك الفترة من حملها ، تعايشه ، مستبشرة ، مطمئنة ، هادئة ، مرتاحة البال ، ساكنة إلى جنب الله عزوجل .

إنها عليها السلام ، قبلت جنينها تقبلًا نفسيًا بطمأنينة وهدوء ، وهي ترى براهين ربها سبحانه في تبرئة ساحتها من كل ريبة .

إن مما توصل العلم إليه اليوم أنه بين الجنين وبين أمه تبادل مستمر وكثيف من العواطف، أو القلق ، أو الطمأنينة ، وصدر كتاب بعنوان (الرباط أو الحياة الحميمية والخفية للطفل قبل الولادة)، كان هذا الكتاب نتيجة لتجارب وأبحاث طويلة أجريت من قبل بعض الأطباء ، وقد أصدره (توماس فيرني)، بالاشتراك مع (جون كيللي)، وفي الكتاب أمثلة مذهلة للعلاقة التي تحدث داخل الرحم ، والتي تستمر ذكرياتها اللاشعورية أحياناً حتى ذلك الوقت الذي يصبح فيه المولود طفلاً كبيراً^(١).

إن على الأم «أن تهتم اهتماماً عظيماً بالاتصالات أو البلاغات التي ترسلها وتبعث بها إلى ولدها ، كما تهتم بالبلاغات التي يرسلها إليها طفلها»^(٢) .

وإن الأم مسؤولة عن تكوين رباط قوي ومتين بينها وبين طفلها ، نسيجه

(١) انظر : عدنان السبيعي ، سيكولوجية الأمومة ، ج ١ ، ص ١٥٧.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٤.

مجموعة من العواطف والانفعالات المتبادلة بينهما ، تماماً كرباط الحبل السري ، الذي يغذي جسمه ، وهي بهذا الرباط الروحي ، مسؤولة عن تغذية نفس الجنين . يقول الأستاذ عدنان السبيعي في هذا : (إن الحالة الجسمية والانفعالية للطفل حين الولادة وخلال السنوات الأولى تعطينا فكرة صحيحة تماماً عن نموذج التبليغ الذي يتلقاه داخل الرحم ، وعن مدى الدقة التي يتلقى بها هذا التبليغ) .

«إن الولد قبل الولادة هو كائن حباه الله الكفاية من المقاومة والمرونة ، بحيث يستطيع أن يجمع ويحتفظ بانفعالات الأم أطول مدة ممكنة ، غير أنه لا يستطيع القيام بالرباط وحده ومن جانب واحد».

«ليس تكوين الرباط داخل الرحم من الأمور التلقائية بل لابد من الوقت والمحبة والعطف حتى يوجد هذا الرباط ويعمل بشكل مرضٍ ومقبول» .

«فاذا حجزت الأم هذا الرباط العاطفي ، أضاع الولد توازنه، وفقد رشده، ووقع في حيرة ، ولذا فإن الأمراض الذهانية الخطيرة كالقصاص، تمنع إجمالاً تكوين الرباط بين الأم والطفل»^(١).

ولا عجب أن يتنزل القرآن الكريم يتلى حتى قيام الساعة بتصوير حالة أم موسى وأم مريم عليهن السلام ، في أثناء الحمل ، وكيفية تلقي كل واحدة منهن عليهن السلام ، لحملها ، وكيف كانت البركة والصلاح فيمن ولدن ، نتيجة الإيمان والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى الذي كانت تعيشه كل واحدة منهن .

وأم مريم عليهما السلام أعطت نموذجاً عظيماً للصورة التي ينبغي أن تكون عليها الأم الحامل قالت ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة آل عمران آية ٣٥).

ويستجيب الله سبحانه وتعالى نداءها ، وتعيش مريم عليها السلام - عابدة ناسكة لتكون من المصطفين ﴿يُمَرِّمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفَكَ عَلَى نَسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران آية ٤٢) .

وتنجب مريم عيسى عليهما السلام ، النبي الكريم الذي زعزع طغيان المادة ،

وملأ الأرض بالحب والسلام والإيمان بدعوته إلى العبادة والزهد والرحمة والمحبة .
وباختصار . .

فإن الحالة النفسية التي تعيشها الحامل تؤثر في مستقبل الولد ، بل وتحدده ،
فإن الدراسات (أثبتت بما لا يدع المجال للشك في أن حياة الأم النفسية هي المنبع
الأول، لكل ذلك الشراء النفسي الذي سوف تحتويه نفسية المولود من مشاعر وتعلقات
عاطفية ، وميول واتجاهات .

لقد ثبت أن شخصية الجنين تتكون اتجاهاتها وملامحها بدءاً من الشهر
السادس من ساعات تخلقه ، وفي هذا الشهر تبدأ سمات المحبة أو الكراهية
والاستعداد للكآبة والخوف أو الهلع يتكون ويتفتح^(١) .

وهكذا فالأم مسؤولة عن حفظ جنينها وتكوينه النفسي ، بل عن اتجاهاته
وميوله وأنماط سلوكه في مستقبل حياته ، وذلك بحسب الزاد الروحي والمعنوي الذي
تطبعه فيه .

فهي مسؤولة عن تكوين الجنين مسؤولية مباشرة ، وأولية ، سواء في ذلك
تكوينه الجسمي ، أو النفسي أو الروحي ، وهي مطالبة بتجنب جميع الأسباب التي
تؤدي إلى أدنى خلل في هذا الجنين .

وفي الختام فهذا حديث المصطفى ﷺ ، ينبه الأمة إلى ضرورة حماية الأجنة .
قال ﷺ : «اقْتُلُوا الْحَيَّاتِ ، وَاقْتُلُوا ذَا الطُّفَيْتَيْنِ * وَالْأَبْتَرُ * ، فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ الْبَصَرَ ،
وَيَسْتَسْقِطَانِ الْحَبْلَ^(٢)» .

(١) المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٢) البخاري م ٢ ، ج ٤ ، كتاب بدء الخلق ، باب «ويث فيها من كل دابة» ص ١١٥ ، ح
(٣٢٩٧) واللفظ له .

مسلم ج ٤ ، كتاب السلام باب قتل الحيات وغيرها ، ص ١٧٥٢ ، ح (٢٢٣٣) ، بنحوه .

(*) ذَا الطُّفَيْتَيْنِ : جنس من الحيات يكون على ظهره خطان أبيضان . (التمهيد ، ٢٣/١٦) .

(*) الْأَبْتَرُ : من الحيات يقال له الشيطان ، قصير الذنب ، لا يراه أحد إلا فر منه ، ولا تبصره
حامل إلا أسقطت . (اللسان ، ٣٠٩/١ «بتر»)

ينظر : صحيح مسلم ، ٢٢٣٦/١٧٥٧/٤ ؛ ابن حجر فتح الباري ٣٤٨/٦ ، والحديث
محتاج للتمعن والنظر .

الفصل التاسع عشر الأم بين المسؤولية والحقوق

المسؤولية . .

قال الله عز وجل . . ﴿ فَوَزِّبْكَ لِنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الحجر آية ٩٢-٩٣)

وقال سبحانه وتعالى في سورة الصافات . . ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مَنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (آية ٢٢-٢٤)

وقال عز وجل في سورة النحل ﴿ وَلْتَسْأَلْنِ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (آية ٩٢)
وقال سبحانه وتعالى ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (سورة الزلزلة - آية ٧-٨) .

والمسؤولية تعني أن كل إنسان سوف يسأل عن تفاصيل ما ابتلي به في قاعة الدنيا ، وفي ضوء نجاحه أو فشله في هذه المسؤولية سوف يتقرر جزاؤه ومستقره ، فإما النعيم الدائم في الجنة أو الشقاء الدائم في النار^(١) .

فالحياة الدنيا ما هي إلا قاعة امتحان واختبار وابتلاء فإذا طويت قاعة الأرض ، حل محلها عالم الآخرة ، حيث المستقر النهائي الأبدي بعد رحلة الإنسان خلال أطوار حياته المختلفة^(٢) .

وللمسؤولية أهميتها الكبرى في حياة الإنسان ، ويتمثل ذلك في مظهرين اثنين: أولهما أن الإنسان لا يقف متوازناً وحده . ولذا لابد للإنسان من قوة تملك أمره كله نشأته وحياته ومصيره ، وتراقب باطنه وظاهره ، وتطلع على ممارساته السرية والعلنية، وهذا يعني أن يرجع الإنسان في أمره كله إلى مراقبة الله عز وجل له ، وإطلاعه سبحانه على سره وعلنه ، ومن هنا كان ينبغي أن تربط المسؤولية مع علاقة العبودية لله سبحانه وتعالى ، وإذا فقدت الصلة بين المسؤولية والعبودية لله سبحانه وتعالى ، تحولت الأولى إلى تسلط ، أو ضياع كما يشاهد في الأبوة والأمومة في الأسرة حين تفقد المسؤولية توازنها وخضوعها لرب العالمين وشعورها بمراقبته وسلطانه عز وجل^(٣)

(١) انظر تعريف المسؤولية من كتاب د . ماجد عرسان الكيلاني ، فلسفة التربية الإسلامية ، ص ١٩٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

وحين تكون فطرة الإنسان سليمة ، والمسؤولية مرجعها ومآلها العبودية لله سبحانه ، فإن الإنسان يسعد بأداء هذه المسؤوليات ، والقيام بها على أحسن وجه يرضي الله سبحانه وتعالى .

والمظهر الثاني للمسؤولية .. وهو أنها عميقة الجذور في النفس الإنسانية .
والأم المقصودة في هذا البحث .. فالله عز وجل خلق هذه الأم وجبلها سبحانه وتعالى على حب ورعاية الطفولة والتفاني في سبيلها ، ذلك الحب الأمومي الذي يتحول في نفس الأم وسلوكها إلى مسؤولية كبرى تجاه أولادها تقوم على العطاء الكبير الذي لا يقابل بالأخذ أبداً .

وقد توصل عالم النفس الشهير إيرك فروم EricH Fromm إلى أن المسؤولية راسخة الأصول في نفس الإنسان وأنها تتجلى بظاهرة - الحب - الذي هو عطاء وليس أخذاً .. وأن أهم مظاهر العطاء ليست في الأشياء المادية وإنما في الجوانب المعنوية حيث يعطي الفرد وجوده وحياته ليشيع الحياة في وجود الآخرين وإن هذا العطاء يتكون من أربعة عناصر رئيسية هي : الرعاية، والمسؤولية ، والاحترام، والمعرفة .

وأكثر ما يتجلى عنصر الرعاية في حب الأم لطفلها ، والرعاية تنبع من المسؤولية التي هي حاجة نفسية واستعداد نفسي لتلبية حاجات الآخرين ، والمسؤولية تنبع من العنصر الثالث وهو - الاحترام - والاحترام هو القدرة على رؤية الإنسان على حقيقته والتعرف على وجوده المتميز ، وهو أيضاً الاهتمام بتوفير الفرص للغير لينمو ويتزدهر وينضج لصالح نفسه دون انتظار استغلاله أو توقع خدمة منه .
أما العنصر الرابع لحصيلة الحب فهو المعرفة وهي الدافع للرعاية والمسؤولية والاحترام .

ويضيف Fromm أن معاني هذه العناصر الأربعة التي تكون الحب قد تعرضت للتشويه في وقتنا الحاضر بسبب الأفهام الخاطئة التي صورت المسؤولية واجباً مفروضاً على الإنسان من خارج نفسه ، وصورت الاحترام على أنه المهابة والخوف وانتهت بالمسؤولية لتصبح تسلطاً وهيمنة^(١) .

(١) انظر المرجع السابق ، ص ١٩٧-١٩٨ نقلاً عن :

Erich fromm , " the Natur of Love" in, the contemporary scene . edited By paul B. Weisz (Newyork : mc Graw - Hill , 1970) PP :158- 159

الأم والمسؤولية ..

والأم .. مطالبة بأن تضع عناصر الحب هذه الأربعة نصب أعينها في مسؤوليتها نحو أولادها ، ذلك أن مسؤوليتها تجاه هؤلاء الأبناء هي أعظم معاني العبادة بعد أداء الفرائض الواجبة عليها في عبوديتها لله عز وجل .

والأم مسئولة مسؤولية مباشرة عن رعيته كما نص على ذلك حديث رسول الله ﷺ « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم ألا فكلُّكم راعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » (١) . وقال ﷺ محذراً من تضييع الرعية : « ما من عبدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » (٢) .

إن المسؤولية هي الأمانة التي حملها الإنسان في امتحان الحياة الدنيا ، ولا شك أن مسؤولية الذرية هي أولى مسؤوليات الأمومة ، وحين ألزم الإسلام الإنسان بالمسؤولية يعني أنه اعترف بكرامته وبوجوده وبجدارته وأهليته لهذا التكليف .

وجدير .. بالمرأة .. وجدير بالأم أن تعي دورها ومسؤوليتها في هذا الوجود ، وهي مسئولة عن إعداد نفسها وروحها وعقلها لأداء الأمانة على خير وجه ، ولذا فهي مطالبة بأن تسعى إلى كل ما يرفع من مستوى أداء الواجب لديها .

ذلك أن الإسلام كما جاء في كتاب «شبهات حول الإسلام» هو «أول نظام في التاريخ نظر إلى المرأة على أنها كائن بشري ، لا يستكمل مقومات بشريته حتى يتعلم ، شأنها شأن الرجل سواء بسواء ، فجعل العلم فريضة عليها كما هو فريضة على الرجل ، ودعاها أن ترتفع بعقلها كما ترتفع بجسدها وروحها عن مستوى الحيوان ، بينما ظلت أوربا تنكر هذا الحق إلى عهد قريب ، ولم تستجب إليه إلا خضوعاً للضرورات» (٣) .

إن الله عز وجل جعل مسؤولية الرجل والمرأة سواء في الإيمان والتكاليف ، والولاية ، والجزاء ، فالرجل والمرأة كل منهما يحمل أمانة الدين ، وكل منهما مسؤول مسؤولية عامة عن حوله ، ومسؤولية خاصة عن نفسه في عقيدته وعبادته وخلقه وعمله . قال الله عز وجل ..

(١) مسلم الصحيح ، ج ٣ ، كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل ، ص ١٤٥٩ ، ح (١٨٢٩) .

(٢) مسلم ، المرجع السابق ، ح (١٤٢) .

(٣) محمد قطب ، الطبعة السادسة عشرة ، (بيروت : دار الشروق ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٩ م) .

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة - آية ٧١) .

ومن هنا كان على المرأة المسلمة - وبالأخص الأم - أن تعي دورها وواجبها
نحو نفسها ، وأسرتها ، ومجتمعها ، بل والإنسانية ، من خلال قاعدة العطاء والبذل
الذي ينتج ثمرة المودة والرحمة التي تؤتي أكلها من الأمن والاستقرار لكل من يحيط بها .

يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله . . . «إن التاريخ لا يبدأ من مرحلة
الحقوق بل من مرحلة الواجبات المتواضعة - في أبسط معنى الكلمة - والواجبات
الخاصة بكل يوم ، بكل ساعة ، بكل دقيقة ، وليس في معناها المعقد كما يعقده
عن قصد أولئك الذي يعطلون بها التاريخ ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة
والمعجزات الكبيرة»^(١) .

الأم والحقوق : المسؤولية . .

والأشد من ذلك أن الفلسفات التربوية الحديثة تعمل - جميعها - على توجيه
المتعلم للبحث عن حقوقه والمطالبة بها ، أي أنها توجهه للأخذ بدل العطاء . ذلك
لأنها تصدر عن الرغبات والميول ، مخالفة بذلك طبيعة الإنسان التي عرضها - إيرك
فروم - والتي سبق الحديث عنها^(٢) .

أما التربية الإسلامية فهي لاتوجه أفرادها للبحث عن الحقوق التي لهم وإنما
توجههم للمسؤوليات التي عليهم .

وإذا ورد لفظ «الحقوق» في المصادر الإسلامية فإنما يرد ليوجه الأذهان إلى
المسؤولية ، كأن يوجه المسلم أو المسلمة «للحق الذي عليه أو عليها» لا «للحق الذي
له أولها»^(٣) كما ورد ذلك في أحاديث رسول الله ﷺ .

فالتربية الإسلامية توجه الإنسان للقيام بمسؤولياته نحو الفرد والأسرة والمجتمع
والإنسانية على أساس من علاقة العطاء والبذل لينتج عن ذلك المحبة والأخوة
والتواصل . في حين تقوم العلاقات في الفلسفات التربوية الوضعية على الأخذ ، حتى
يصبح هذا الأخذ نهياً ونهماً وتنافساً وتصارعاً ، مثال ذلك ما انتهت إليه العلاقات
بين النساء والرجال، إلى ذلك التيار المتطرف الذي بدأ بمطالبة النساء بحقوقهن ثم

(١) في مهب المعركة ، الطبعة الأولى ، (القاهرة : مكتبة دار العروبة ٢١٦٦١) ، ص ١٠١ .

(٢) انظر : د . ماجد عرسان الكيلاني ، فلسفة التربية الإسلامية ، ص ٢٠٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

انتهى إلى ثورة كلية ضد الرجل ، وقد ساهم كثير من الكتاب المعاصرين في ترسيخ نظرية المطالبة بالحقوق ، مما كان له أثره في الهزات الاجتماعية والصراع بين الجنسين المشاهد في أنحاء العالم اليوم^(١) .

ولذا فالأم في منظور التربية مطالبة بأداء ما عليها من الحقوق نحو أسرتها وأطفالها ، قبل اهتمامها بذاتها وفرديتها .

وأشد ماتكون مسؤوليتها في المرحلة المبكرة من عمر الطفل ، قال الله عز وجل ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (سورة لقمان - آية ١٤) ، ذلك أن صحة الإنسان النفسية والاجتماعية والجسمية والعقلية تعتمد إلى حد كبير على قوة العلاقة الحميمة بينه وبين أمه^(٢) .

حيث إنه في المرحلة المبكرة من عمر الطفل - وبالتحديد في السنتين الأولى- ينمو دماغ الطفل بسرعة قصوى^(٣) ، عدا عن أن خلايا الجهاز العصبي لا تتغير ولا تتبدل وتوافق الإنسان طيلة عمره ، وإذا أصيبت هذه الخلايا فماتت فإنها لا تستبدل بخلايا عصبية^(٤) .

فالأم . . مسؤولة في هذه الفترة عن ملازمة طفلها والقرب منه وعدم تركه ليد غير يد (الأم) . ذلك أن أي خلل في تربيته هذه الفترة سوف يعايشه طول العمر ولن يتخلص منه حتى الموت .

ولذا فقد نهى الإسلام وحرّم التفريق بين الوالدة وولدها قبل سن البلوغ ، حتى في السبي حيث كان يعطى أهل البيت الواحد إلى البيت الواحد ، إذ اعتبر الإسلام التفريق بين الوالدة وولدها من أكبر المعاصي في قطيعة الرحم .

كما ورد في كتاب «الإجماع» : «وأجمعوا على ما ثبت به الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : «من فرق بين الوالدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» إذا كان الولد طفلاً لم يبلغ سبع سنين»^(٥) .

وقد أثبت الواقع إبان الحرب العالمية الثانية أن الأطفال الذين اضطروا للانفصال عن أمهاتهم ، قد أصيبوا بأمراض عصبية مما أثر على نموهم الجسدي والعقلي والعاطفي ، وإصابتهم بالهبوط العصبي^(٦) .

(١) انظر : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٢) انظر : د . فائز قنطار ، الأمومة ، ص ٧٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) ينظر : مراحل نمو الدماغ عند الإنسان مقارنة مع الحيوان ، ص ٢٨١ من هذا البحث .

(٤) انظر : د . محمد علي البار ، الجنين المشوه ، ص ٤١٤ .

(٥) ابن المنذر ، ص ٩٢ ، وانظر تخريج الحديث ص ٢٣٢ من هذا البحث .

(٦) انظر : د . فائز قنطار ، الأمومة ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

النسبة المئوية من حجم دماغ البالغ (١)		العمر
الشمبانزي (من القردة العليا)	الانسان	
%٦٥	%٢٥	عند الولادة
%٧٠	%٣٥	٣ شهور
%٧٠	%٤٥	٦ شهور
%٧٠	%٥٠	٩ شهور
%٧٠	%٦٠	سنة
%٧٥	%٧٠	سنتان
%٨٥	%٨٠	٤ سنوات
%١٠٠	%٩٥	٨-٩ سنوات
-	%١٠٠	(سن البلوغ بالنسبة للشمبانزي) ١٤-٢١

(١) رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريتي ، (البيئة ومشكلاتها) ، عالم المعرفة ص ١٨ نقلًا

عن

Editors of Time - Life Books

The First men, Time-life Books- N. Y. ١٩٧٣, Pages ١٢٨-١٢٩

إن الأم التي تبتعد عن طفلها للعمل أو لسبب اجتماعي -تستطيع دفعة- هي أم جانية على هذا الطفل ، وعلى مستقبله .

وقد نص القرآن الكريم على ضرورة وأهمية ارتباط الطفل بأمه في السنوات الأولى من عمره قال الله عز وجل ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة - آية ٢٣٣) .

إن الآية الكريمة هنا أتت خلال الحديث عن أحكام الطلاق وفي ذلك دلالة كبرى على أن مسؤولية الأم عن طفلها لا تنتهي بانقطاع عقد الزوجية بينها وبين الأب .

فهي أم ومسؤولة عن رضاع هذا الصغير وعن حضائته فلا يسلم إلى يد امرأة أجنبية عنه أو إلى غير هذه الأم من قريباته إلا إذا تعذر ذلك على الأم .
وعلى الأب أيضاً ألا يفرط بحق هذا المولود في ارتباطه بأمه - خاصة خلال السنوات الأولى من العمر - فلا يضر بهذا الطفل ولا يؤذي هذه الأم فيضارها بنزع ابنها منها .

وقد أشارت الآية الكريمة إلى امتداد^(١) سن الرضاع بعد الحولين من قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

فعلى الأب أن يدفع المال الواجب للطفل لهذه الأم لرعاية الصغير وليكن ذلك بالمعروف، وعلى هذه الأم أن تنفق هذا المال بالمعروف، وقد ألحق هنا الصغير بعد سن الرضاع بالرضيع تشبيهاً به من لغة «إن البغاث بأرضنا يستنسر»^(٢)، وقد كان يمتد زمن الاسترضاع إلى ما بعد الحولين كما في سيرة رسول الله ﷺ أنه ﷺ كان مسترضعاً

(١) انظر : الجصاص ، أحكام القرآن ج ١، ص ٤٠٩ .

(٢) انظر : الحملاوي ، شذا العرف في فن الصرف ، ص ٤٤ .

في بني سعد حين أتاه جبريل عليه السلام فشق صدره ﷺ وكان ذلك في السنة الخامسة من عمره ﷺ (١) .

وعلى الأم والأب والأولياء تقع مسؤولية حفظ الناشئة في مرحلة الحضانة الأولى (الست سنوات) وتُخص سنتا الرضاع بأهمية أكبر ، لما يسهم ذلك في النمو السليم للطفل من جميع النواحي البدنية والعقلية والنفسية والروحية .

وقد دل القرآن الكريم على حاجة الطفل إلى رعاية أمه وعطفها وحنانها في الطفولة المبكرة في قصة موسى عليه السلام، حين امتن الله عز وجل عليه فأعاده إلى أمه لكي ترضعه وتغمره بحنانها قال الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ (سورة طه- آية ٣٧، ٤٠) .

إن في عودة موسى عليه السلام إلى أمه منة كبرى من الله عز وجل لموسى عليه السلام ، وكذلك فيها فرحة ووقرار لعين تلك الأم الشكلى .

إن الطفل الذي يحرم من حنان صدر أمه وينزع من ثديها يمكن أن يطور عنفاً إجرامياً ، ذلك لأنه يتصور أن الناس يمكن أن يصدر عنهم الخير والشر ، وهذه حقيقة مرعبة للطفل في هذه المرحلة المبكرة من العمر (٢) .

فالدين الإسلامي يعظم من شأن هذه العلاقة بين الأم وطفلها فلا يعرضها لأي سلطان أو مؤثر يحول بين الأم وبين طفلها ، حتى في الصلاة فقد كان الرحيم ﷺ يتجوز ويخفف من وجد أمه عليه .

الأم والحضانة : الحق : الواجب : المسؤولية .

ولذا فقد جعل الإسلام الحضانة إلى الأم عند التنازع فيها في حال الطلاق .
ولاشك أن الحضانة تكون لها عند فقد الأب من طريق أولى .

وحين عدمت الأم أعطى الرسول ﷺ الصغير للخاله التي هي أخت الأم لأنها في منزلة الأم رحماً كما في حكمه ﷺ في ابنة حمزة* رضي الله عنهما حين

(١) انظر : الاستيعاب ، ج ١ ، ص : مسلم الصحيح ، ج ١ ، ص ١٤٧ ، ح (١٦٢) .
(٢) د . ماجد عرسان الكيلاني ، اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية ، (جامعة أم القرى : معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م) ، ص ٩٤ نقلاً عن William Kay , Moral Education , (London : Routledge & Kegan Paul , 1969). P . 45 - 46 .

(*) ابنة حمزة: هي أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب الهاشمية أمها سلمى بنت عميس، زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلمة بن أم سلمة وقال حين زوجها منه هل جزييت سلمة وذلك أن سلمة هو الذي كان زوج أم سلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(الإصابة ٢٣٤/٤) .

«اختَصم فيها علي وزيد وجعفر . قال علي: أنا أخذتها وهي بنتُ عمي، وقال جعفر: هي ابنةُ عمي وخالتُها تحتي وقال زيد : ابنةُ أخي . فقضى بها النبي ﷺ لخالتِها وقال : «الخالة بمنزلة الأم»^(١) .

والملاحظ من هذا الحديث الشريف أن الخالة التي جعلها رسول الله ﷺ بمنزلة الأم لهذه الصغيرة كانت مزوجة . ورسول الله ﷺ قد نص على أن حضانة أمانة رضي الله عنها لخالتها لأنها بمقام أمها ، ولم يشر ﷺ إلى قرابتها من جعفر رضي الله عنه .

وإنما أراد ﷺ أن يحكم في هذه القضية فجردها ﷺ من كل داع وسبب إلا قرابة الرحم الأولى هذه، وهي الخالة التي هي بمثابة الوالدة رحماً .
الحضانة للأم إذا رضي زوجها ..

ويستنتج من ذلك أن الحضانة لاتسقط بزواج الحاضن - فكيف إذا كانت الحاضن هي الأم؟! وهل ثمة يوجد من هي أشد رحمة وشفقة من الأم؟! أم هل يفرغ عدد من النساء من الزواج لحضانة الصغار في هذا الزمن الذي كثر فيه الطلاق وأرامل الحروب والكوارث ، أم أن الأمهات الحاضنات عليهن أن يقضين عمرهن بلازواج ..؟! وحديث رسول الله ﷺ نصٌ قاطعٌ في أن الحضانة لاتسقط بالزواج ، ولم يشر أو ينص ﷺ على قرابة الزوج على الإطلاق .

يضاف إلى ذلك دلالة القرآن الكريم في الحضانة قال الله عز وجل ..
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة النساء - آية ٢٣) .

فالبتت بدلالة هذه الآية تكون في حضانة أمها حتى لو كانت مزوجة وأيا كانت قرابة الزوج .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله معلقاً بعد بسطه لاختلاف العلماء -رحمهم الله- في قضية الحضانة في سبع وخمسين صفحة من كتاب زاد المعاد - .. ما نصه «وفي الحديث^(٢) مسلك خامس، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بها لخالتها

(١) البخاري ، الصحيح ، م ٣ ، ج ٥ ، كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء، ص ١٠٠ ، ح (٤٢٥١) .

(٢) الحديث المقصود : «أنت أحق به مالم تنكحي» (سنن أبي داود ح (٢٢٧٦) ، وحسنه العلماء ، (الألباني ، صحيح سنن أبي داود ، قال فيه الألباني : حسن ، (٢/٤٣٠/١٩٩١م))

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : احتاج الناس في هذا الحديث إلى عمرو بن شعيب ، ولم==

يجدوا بدأ من الاحتجاج هنا به ، ومدار الحديث عليه ، وليس عن النبي ﷺ حديث في سقوط الحضانة بالتزويج غير هذا ، وقد ذهب إليه الأئمة الأربعة وغيرهم ، وقد صرح بأن الجد هو عبدالله بن عمرو (انظر : زاد المعاد ٥/٤٣٤) .

قال الحافظ في التقریب : (عمرو بن شعيب صدوق . ص ٤٢١ ، (٥٠٥٠) .

وذكر الحافظ ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل عن عمرو بن شعيب مايلي : «قال أيوب لثيب عليك بطاوس ومجاهد . ودعني من جواليك عمرو بن شعيب وفلان .

وعن أيوب قال كنت أتى عمرو بن شعيب فأغطي رأسي حياء من الناس . وقال سفيان ابن عيينة : كان عمرو بن شعيب إنما يحدث عن أبيه عن جده وكان حديثه عند الناس فيه شيء . وقال ابن سعيد القطان عمرو بن شعيب عندنا واه وسئل الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب فقال أنا أكتب حديثه وربما احتججنا به وربما وجس في القلب منه .

وسئل أبو زرعة عن عمرو بن شعيب فقال مكي كأنه ثقة في نفسه إنما تكلم فيه بسبب كتاب عنده (٢٣٨/٦ ؛ ١٣٢٣) .

وجاء في التهذيب عن عمرو بن شعيب مايلي : « قال أبو عمرو بن العلاء كان يعاب على قتادة وعمرو بن شعيب أنهما كانا لا يسمعان شيئاً إلا حدثابه . وقال الميموني: سمعت أحمد بن حنبل يقول له أشياء مناكير وإنما يكتب حديثه يعتبر به فأما أن يكون حجة فلا . وقال أبو داود عن أحمد بن حنبل أصحاب الحديث إذا شأوا احتجوا بحديث عمرو بن شعيب وقال يحيى بن معين إذا حدث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فهو كتاب ومن هنا جاء ضعفه . وقال أبو حاتم سألت ابن معين فقال ما أقول روى عنه الأئمة . وقال أبو زرعة روى عنه الثقات وإنما أنكروا عليه كثرة روايته عن أبيه عن جده ، وقال إنما سمع أحاديث يسيرة وأخذ صحيفة كانت عنده فرواها وعامة المناكير تروى عنه إنما هي عن المثني بن الصباح وابن لهيعة والضعفاء ، وهو ثقة في نفسه ، وإنما تكلم فيه بسبب كتاب عنده وما أقل ما نصيب عنه مما روى عن غير أبيه عن جده من المنكر . وقال الأجرى قلت لأبي داود: عمرو بن شعيب عندك حجة قال لا ولا نصف حجة . وقال جرير كان مغيرة لا يعبأ بصحيفة عبدالله بن عمرو . قال ابن عدي روى عنه أئمة الناس وثقاتهم وجماعة من الضعفاء إلا أن أحاديثه عن أبيه عن جده مع احتمالهم إياه لم يدخلوها في صحاح ما خرجوا وقال هي صحيفة .

قلت (الحافظ) عمرو بن شعيب ضعفه ناس مطلقاً ووثقه الجمهور وضعف بعضهم روايته عن أبيه عن جده حسب، ومن ضعفه مطلقاً فمحمول على روايته عن أبيه عن جده . فريمدلس ما في الصحيفة (٠٠٠) (٤٨/٨-٥١)؛ (يحيى بن معين ، التاريخ ٢/٤٤٦) .

(وقال البخاري رأيت أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وإسحاق بن راهويه وأبا عبيدة ، وعامة أصحابنا يحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ما تركه أحد من المسلمين قال البخاري من الناس بعدهم) (تهذيب ٨/٤٩) . وينظر توثيق العلماء لعمرو بن شعيب في المرجع السابق المذكور (التهذيب) .

قال الشيخ الدكتور / محمد سعيد البخاري عند تخريجه لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : «والم أخرج من أول الكتاب إلى هذا الموضع حديثاً لعمرو بن شعيب ، وقد ذكرت في أول كتاب الدعاء مذهب الإمام ابن مهدي في المسامحة في أسانيد فضائل الأعمال» (الدعاء ٢/٩٤٩) .

قال الحافظ في الفتح : (إن عبدالله (بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما) كان قد ظفر في الشام بحمل من كتب أهل الكتاب فكان ينظر فيها ويحدث منها فتجنب الأخذ عنه لذلك كثير من أئمة التابعين (٢٠٧/١) .

وأخيراً . فإن حديث عمرو بن شعيب - رحمهما الله - لا يقوى على تخصيص أصول وردت في الشريعة الإسلامية من تركها حقت عليها النار كقطيعة الرحم ، لاسيما بين الأم ولولدها .

إلا أن يصبح هذا الحديث المعمول به في أحكام الحضانة فتنة للنساء . والشريعة لاتأتي بهذه المتناقضات على الإطلاق .

وعلى فرض صحة الحديث ، فإن المقصود منه تيسير سبيل الزواج على النساء لاعضلهن ==

وإن كانت ذات زوج ، لأن البنت تحرم على الزوج تحريم الجمع بين المرأة وخالتها ، وقد نبه النبي ﷺ على هذا بعينه «وأنت يا جعفر أولى بها : تحتك خالتها ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها» ، وليس عن النبي ﷺ نص يقتضي أن يكون الحاضن ذا رحم تحرم عليه البنت على التأييد حتى يعترض على هذا المسلك ، بل هذا مما لا تأباه قواعد الفقه وأصول الشريعة ، فإن الخالة مادامت في عصمة الحاضن فبنت أختها محرمة عليه ، فإذا فارقها ، فهي مع خالتها ، فلا محذور في ذلك أصلاً ، ولاريب أن القول بهذا أخير وأصلح للبنت من رفعها إلى الحاكم يدفعها إلى أجنبي تكون عنده ، إذ الحاكم غير متصد للحضانة بنفسه ، فهل يشك أحد أن ما حكم به النبي ﷺ في هذه الواقعة هو عين المصلحة والحكمة العدل، وغاية الاحتياط للبنت والنظر لها ، وأن كل حكم خالفه لا ينفك عن جور أو فساد لا تأتي به الشريعة، فلا إشكال في حكمه ﷺ والإشكال كل الإشكال فيما خالفه ، والله المستعان ، وعليه التكلان»^(١) .

ولاشك أن حرمة ابنة الزوجة على التأييد، وما أشار إليه القرآن الكريم من كون الريبة في حجر زوج الأم ، فدلالته أن هذه البنت هي بمثابة ابنته التي يربّيها ويرعاها ويعطف عليها .

فإذا رضي الزوج بذلك لم تسقط حضانة الأم بزواجها قال الإمام ابن القيم رحمه الله : «إن الزوج إذا رضي بالحضانة ، وآثركونَ الطفل عنده في حجره ، لم تسقط حضانتها ، هذا هو الصحيح ، وهو مبني على أصل ، وهو أن سقوط الحضانة بالنكاح هو مراعاة لحق الزوج ، فإذا آثر الزوج وطلبه ، وحرص عليه ، زالت المفسدة ، التي لأجلها سقطت الحضانة ، والمقتضي قائم ، فيترتب عليه أثره ،

== يضاف إلى ذلك أن سيرة الصحابييات كلها لا تعطي مثل هذه المفاهيم التي تسود مجتمعاتنا الإسلامية الآن ، والتي هي أقرب إلى النصرانية والعصبية القبلية . . . على أن البحث قد استقرأ غالب حالات الحضانة - إن لم يكن كلها - فلم يعثر على حالة واحدة انتزع فيها الصغير من حضانة أمه لزواجها .

لأن مفهوم الزواج في الإسلام ، هو نظام بناء للإنسانية ، والرجل والمرأة فيه يساهمان في هذا البناء ، فلا يجعل - كما في كتب الفقه - من الزواج عقد استمتاع -والله سبحانه وتعالى أعلم- . «ومن اجتهد فأخطأ فله أجر» .

تم تدوينه ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك ١٤١٥ هـ - ليلة الجمعة ، بعد أن استخرت الله عز وجل في ذلك .

ويوضحه أن سقوط الحضانة بالنكاح ليست حقاً لله ، وإنما هي حق للزوج وللطفل وأقاربه ، فإذا رضي من له الحق جاز ، فزال الإشكال على كل تقدير ، وظهر أن هذا الحكم من رسول الله ﷺ من أحسن الأحكام وأوضحها وأشدّها موافقة للمصلحة ، والحكمة ، والرحمة ، والعدل وبالله التوفيق»^(١) .

إن الدين الإسلامي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وأي اصطدام مع هذه الفطرة السليمة ليس من أصل هذا الدين .

والسنة للرجل والمرأة النكاح ، «فمن رغب عن سنتي فليس مني» .

وكذلك فالأصل في الإسلام صلة الرحم وعدم قطيعتها .

والملاحظ أنه في أحكام الحضانة تجاوز القضاء هذين الأصلين في الدين .

بل والأكثر من هذا أن تعطل آيات الرضاع في القرآن الكريم ليعمل في الحديث الذي اختلف فيه وفي روايه اختلافاً شديداً . ذلك أن الحديث عن الرضاع أتى في موضعين من آيات الكتاب وفي سورتين هما سورة البقرة مع آيات الطلاق فيها ، وسورة الطلاق ، واسم السورة أكبر دلالة على أهمية هذا الأمر وخطورته .

وعلى ذلك فالحال المعمول فيه في المحاكم وآيات الرضاع في الحديث عن الطلاق

يصير على أمرين :

١- يشترط إذاً ألا تتزوج المرأة حتى ترضع على أقل احتمال . وهذا لم يرد في شريعة الإسلام وسيرة نساء خير القرون على العكس تماماً من هذا .

٢- أو تتزوج وتسقط حضانتها - كما غدا هذا المصطلح وكأنه تنزيل العزيز الحكيم - وبذلك تعطل آيات الرضاع فلا فائدة منها بسقوط الحضانة بالزواج كما يقال .

على أن القرآن الكريم قد حض الأم وأمرها عند الاستطاعة أن ترضع هذا الصغير وتحضنه ، ومتى كان في وسعها هذا ، لا يحق لأحد حتى الأب أن يؤذيها ويؤذي الصغير بانتزاعه من حجرها ، بل والقرآن الكريم تحدى هذه الأم التي لا ترضع بامرأة أخرى «فسترضعُ لهُ أخرى» عند التعاسر الشديد بينها وبين الأب «وإن تعاسرتم» (وهذا الشرط يكفي عن التطويل) ، فهل يا ترى يشترط أن تكون هذه الأخرى غير مزوجة حتى تستحق أمومة الرضاع ، وهل إذا تزوجت ينزع الصغير منها ، أم أنه مشروط برضا الزوج ؟ لاشك أنه إذا رضي زال الإشكال بلا خلاف بين

العلماء . فلم لاتكون هذه الموضع المستأجرة هي الأم؟ أليس هذا هو الأولى وهو الذي دعت بل وأمرت به الآيات الكريمة في الرضاع . فلم يهجر كتاب الله سبحانه؟! مع العلم بأن نصوص الشريعة في الكتاب والسنة تضافرت على تيسير سبل الزواج للأيامى من النساء والرجال وخصت النساء بعد انقضاء العدة بذلك والآيات الكريمة كثيرة في هذا .

وما روى من الحديث في الترغيب للمرأة الحاضن بعدم الزواج لا يصح^(١) . أما قول الرسول ﷺ «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنُ الْإِبِلَ صَالِحُو نِسَاءٍ قَرِيشَ : أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ»^(٢)، فقد أشار فيه رسول الله على أصحابه ترغيباً في الزواج من المرأة التي هكذا صفاتها، كما بوب له الإمام البخاري في صحيحه : «إلى من ينكح، وأي النساء خير ؟ وما يستحب أن يتخير لنطفة من غير إيجاب»^(٣) .

والأمر المسلم به . . أن حضانة الصغير تقوم بها النساء والأب الذي يحتضن ابنه عند التنازع كما هو مشاهد اليوم، يسلمه إلى زوجه وهي امرأة أجنبية عن الصغير أو إلى إحدى قريباته كأمه أو أخته وهؤلاء النسوة لا يمكن أن يكن بحنان الأم وعطفها نحو ابنها ، ولا يمكن استبدال رحم الأم ، ليكون مع إحدى هؤلاء، ولا يمكن لهذا الأب الذي يدعي حضانة الصغير أن يحمل في جوفه رحماً في يوم ما يشعر بحنان الأمومة، ولهفتها، وعطفها، ووجدها على صغيرها ، هذا إذا لم يسلم هذا الصغير إلى يدي الخادمة المستقدمة ، وهو العام ، الشائع في البلاد اليوم على الغالب فأين عدالة القضاة؟! وإذا أفلحت الأم واستطاعت حضانة الصغير فإنها ستواجه تقدير النفقة التي تقضي بها المحاكم اليوم ، مع أن الواجب فيها أن ينفق ولي الصغير بالمعروف حسب حاله : سعة، أو مما آتاه الله سبحانه .

إن قانون الحضانة اليوم . . . قانون بلا رحمة والقوانين -إلا حدود الله سبحانه- لاتكون عادلة إلا إذا استظلت في سياج الرحمة ، وعاشت تحت سلطانها ، وأي قانون أو حكم جرد من الرحمة كانت عاقبته الهلاك والفناء .

(١) كحديث « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاسن يوم القيامة وأوما بيده يزيد بن زريع الوسطى والسبابة ، امرأة أمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا » ، (أبو داود (٥١٤٩) قال محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة : قلت هذا إسناد ضعيف علته النهاس وقال الحافظ ضعيف، (السلسلة الضعيفة ٣٠/٢٥١/١١٢٢)؛ مسند الإمام أحمد (٢٩/٦) وفيه النهاس وله شاهد بإسناد ضعيف عند أبي يعلى (٦٦٢١/١٢٥/٦) وطرفه (أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أنه تأتي امرأة ١٠٠) فيه عبد السلام بن عجلان، ينظر : (الجرح والتعديل ٤٦/٦ ؛ مجمع ١٦٢/٨/٤ ؛ ميزان ٦١٨/٢ ؛ لسان ١٦/٤) .

(٢) سبق تخريجه ص ٤ من هذا البحث .

(٣) م ٣ ، ج ٦ ، كتاب النكاح ، ص ١٤٧ .

وهذه القصيدة للشاعر محمد راجح الأبرش بعنوان «بروالدين» تقدم ملخصاً لما سبق عن «حرمة الأمومة في الإسلام وتكريمها» ..

لَكَ الْفَضْلُ يَا أُمِّي لَكَ الْحُبُّ وَالثَنَّا * فَأَنْتِ الْعَطَاءُ الْخَصْبُ فِي هَذِهِ الدُّنَا
وَأَنْتِ مَحَلُّ الْبِرِّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * وَمَنْ ذَا الَّذِي يُوْفِي حَقَّكَ بَيْنَنَا
حَنَانُكَ يُعْطِي النَّفْسَ بَشَرًا وَرَحْمَةً * وَيُضْفِي عَلَيْهَا بِسْمَةً تَبْعُ السَّنَا
فَمَا أَنْتِ إِلَّا جَنَّةٌ وَمَبَاهِجُ * تَرَأَتْ بِهَا الْخَيْرَاتُ وَالْحَسَنُ وَالْهَنَا
لَقَدْ صَاغَكَ الرَّحْمَنُ لِلْخَلْقِ آيَةً * وَنَبَعَ حَنَانٍ بِالْجَمَالِ تَزِينًا
شَمَائِلُكَ الْغُرَاءُ فِيهَا حَيَاتُنَا * وَأَيُّ حَيَاةٍ حِينَ نَفْقَدُ ذَاتَنَا
هِيَ الْأُمُّ رَوْضَاتٌ تَدْفَقُ جُودَهَا * وَفَاحَ شَذَاهَا فَاسْتَطَابَتْ بِهَا الدُّنَا
لَكَ الْفَضْلُ يَا أُمِّي لَكَ الْمَجْدُ وَالْعُلَى * وَطُوبَى لِمَنْ أَمْسَى بِبِرِّكَ مُؤْمِنًا
يَسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ يَرْجُو مَبْرَةً * لَوَالِدَةٍ ضَحَّتْ وَكَابَدَتْ الْعَنَا
فَكَمْ لَيْلَةٍ بَاتَتْ تَعْلُلُ طِفْلَهَا * وَتُمْضِي الدِّيَاجِي لَيْسَ تَغْمُضُ أَعْيُنَا
تُلَاقِي تُعَانِي فِي نَمُو وَلِيدَهَا * وَتَرْضَعُهُ عَامِينَ تَنْشِئُهُ لَنَا
إِذَا نَابَهُ سُوءُ تَبِيْتٍ عَلَى أَسَى * وَتَذْرِفُ دَمْعًا فِي الْمَحَبَّةِ بَيْنَنَا
تَقُولُ إِلَهِي أَدْرِكِ الْقَلْبَ بِالشِّفَا * تَعْطِفُ عَلَيْنَا بِالسَّلَامِ تَأْذِنَا
(وَرَبِّكَ) .. إِنْ الْخَيْرُ فِيهَا سَجِيَّةٌ * فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى الْحَنَانَ الْمَهِيْمَا
يَقُولُونَ إِنَّ الْأُمَّ أَقْبَلَ عَيْدَهَا * وَنَحْنُ بِهَذَا الْيَوْمِ نَكْرُمُ أُمَّنَا
فَقُلْتُ لَهُمْ لِلْأُمِّ عَمْرِي كُلُّهُ * وَجَلَّتْ عَطَايَاهَا عَنِ الْمَدْحِ وَالْثَنَا

عطاؤك مشهودٌ وفضلك ظاهرٌ * أراه أمامي ماثلاً متمكناً
 سأذكرُ منك البذل في كلِّ حالةٍ * وهيهات أنسى من فعالك موطننا
 سأذكرُ منك العطفَ والجودَ والندى * وأطلب منك العفو والصفحَ مُدعنا
 فإنَّ فازَ قلبي بالرضا زدت بهجةً * رضاك من الرحمن يا غايةَ المُنَى
 وللأب فضلٌ لستُ عنه بغافلٍ * أرى البرَّ للأبناء أحسنَ مُقتنى
 فبادر ببرِّ الوالدينِ كليهما * فإنَّ الليالي ترصدُ الناسَ بالفنا
 وأحسنَ لهم واذكر حياتك ناشئاً * فيا رب ارحمِ والديَّ ومن بنى^(١)



٥٧٢